فيكتور هيجو

البؤساء

نقلها الى العربية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين

Les Misérables

par

Victor Hugo

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة السابعة عشرة

آب / أغسطس ٢٠٠٣

كلمة اولى

ما دام ثمة ، بسبب من القانون والعرف ، هلاك اجتماعي يخلق صناعيا ، وعلى مرأى من الحضارة ومسمع ، ضروبا من الجحيم على الارض ، ويعقد في قضاء بشري محتوم مصيرا هو الهي، ما دامت مشكلات العصر الثلاث ـ الحط من قدر الرجل بالفقر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل ـ لما تحل بعد ، ما دام الاختناق الاجتماعي ممكنا ما يزال ، في بعض البقاع ، وبكلمة اخرى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضا ، ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، فان كتبا مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .

هوتفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيجو

القسم الأول

فانتين

رجل مستقيم

١

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بيينفينو ميريل هو اسقف مدينة ديني . كان رجلا في الخامسة والسبعين ، وكان قد شغل اسقفية تلك المدينة منذ عام ١٨٠٦ .

وحين وفد مسيو ميريل على مدينة ديني ، كانت تصحبه عانس تدعى الانسة باتيستين . وكانت هذه العانس هي اخته ، وكانت اصغر منه بعشر سنوات .

وكانت خادمتهما الوحيدة امراة في مثل سن الانسة باتيستين تدعى السيدة ماغلوار . وكانت الانسة باتيستين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجه ، مهزولة الجسم ، رقيقة الحاشية . اما السيدة ماغلوار فكانت امرأة عجوزا ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ، بدينة ، نشيطة ، مشغولة على نحو مطرد . كانت دائما مبهورة منقطعة النفس ، بسبب من نشاطها الموصول ، اولا ، وبسبب من داء الربو الذي تشكو منه ثانيا .

وكان مسيو ميريل ، لدن وصوله الى المدينة ، قد انزل في قصره الاسقفي ، محوطاً بايات الاجلال المنصوص عليها في المراسيم الامبراطورية التي تجعل الاسقف في رتبة تلي رتبة قائد الجيش مباشرة . حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف الى العمل .

وكان قصر الاسقف هذا محاذيا للمستشفى ، وكانت سيما الابهة تغلب على كل شيء فيه : حجرات الاسقف ، والابهاء ، والغرف وقاعة الشرف الرحبة والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة .

اما المستشفى فكان بناء منخفضا ضيقا ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة .

وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا تمت الزيارة دعا المدير الى ان يفد عليه في قصره .

وقال لمدير المستشفى : « كم مريضا عندك ، يا سيدي ؟ »

ـ « ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . ان اجنحة المستشفى تغص بالسرر التي حشرت فيها حشرا . »

ـ « لقد لاحظت ذلك . »

وصمت الاسقف بضع لحظات . ثم التفت فجأة الى مدير المستشفى وقال : « كم سريرا تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم يا سيدي ؟ »

فصاح المدير مشدوها : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »

واجال الاسقف عينيه في القاعة ، وبدا وكانه يقيس طولها وعرضها ويحسب .

وقال مخاطبا نفسه : «انها تتسع لعشرين سريرا .» ثم رفع صوته وقال: « اسمع ، يا سيدي المدير . ان ههنا خطأ من غير شك.انتم ستة وعشرون شخصا تشغلون خمس غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ، ومع ذلك فنحن نحتل مكانا يتسع لستين . انتم تحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . اعيدوا بيتي الي . وانزلوا هنا في هذا المكان ، فهو لكم . »

وفي اليوم التالي نقل المرضى البائسون الستة والعشرون الى قصر الاسقف وانتقل الاسقف الى المستشفى .

٢

ولم يكن صاحب السيادة ميرييل يملك ثروة ما ، بعد ان دمرت الثورة اسرته . كان لاخته ملك ، ولكن هذا الملك ما كاد يعود عليها ــ قبل ان يغدو اخوها اسقفا ــ باكثر من خمسمئة فرنك تسد نفقاتها الشخصية . حتى اذا رفع مسيو ميرييل الى مقام الاسقفية تقاضى من الحكومة راتبا مقداره خمسة عشر الف فرنك . ويوم انتقل الى بيته الجديد في بناية المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ على الاغراض الخيرية المختلفة .

وتقبلت الانسة باتيستين هذا التدبير في اذعان مطلق . فقد كان مسيو ميرييل هو اخاها واسقفها في آن معا ، وكانت تحبه وتحترمه في غير تكلف . فاذا ما تكلم ، انصتت ، واذا ما عمل منحته تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتها ، فكانت تتذمر بعض الشيء .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة ايما كاهن من

كهان القرى يفد على « ديني » . وانما يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الانسة باتيستين .

اما دخل الاسقفية من اجازات الزواج ، وغيرها فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كان يوزعه بهما على الفقراء .

وما هي الا برهة حتى تدفقت التقدمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء يقرعون باب الاسقف ، كان بعضهم يقبل ليقدم الصدقات ، وكان بعضهم الاخر يقبل ليفوز بها .

واذ كان العرف يقضي بأن يتوج جميع الاساقفة اوامرهم ورسائلهم الرعائية باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف ذلك الاسم الذي كان اقوى عندهم دلالة ، فهم ينادونه دائماً مونسينيور بيينفينو ولسوف نقتفي اثرهم ونسميه هكذا منذ الان .

كانت حياة مسيو ميرييل الخاصة حافلة بمثل الافكار التي تملأ حياته العامة . والواقع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف « ديني » خليق به ان يكون مشهدا خطيرا بقدر ما هو فاتن ، في نظر من استطاع ان يرى اليه عن كثب .

والاساقفة رجال مشغولون جدا . ان على الواحد منهم ان يستقبل كل يوم امين الابرشية ، وان يستقبل وكلاءه الكبار كل يوم تقريبا . ان ثمة اخويات يتعين عليه ان يديرها ، واجازات يجب ان يمنحها ، وكتبا اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع ، وكهانا وعمدا يتعين عليه ان يصلح ما بينهم .

فاذا ما تركت له هذه المسائل كلها وقداساته الاحتفالية فراغا ما ، قدمه قبل كل شيء الى المعوزين ، والمرضى ، والمكروبين .

فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقية من ذلك الفراغ انفقه في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احيانا ، وكان يقرأ ويكتب احيانا .

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيتمشى في الحقول ، او في المدينة ، طارقاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحقيرة . كان الناس كثيرا ما يرونه يمشي وحده متثاقلا، مستغرقا في افكاره، متوكئا على عصاه مرتديا برده الشتوي البنفسجي ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل .

كانت الفرحة تحل حيثما برز . وفي ميسور المرء ان يقول انه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . كان يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يرشدون الى بيته . وبين الفينة والفينة ، كان يقف

ويتحدث الى الصبية والصبايا ، ويبتسم لامهاتهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه ملأى بالمال . اما حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

حتى اذا عاد ، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء .

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخته ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفهما، في انتظار القيام بأيما خدمة يسألانها اياها . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر تقشفا من هذا العشاء وامعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعوا الى تناول العشاء على مائدته فعندئذ كان من داب السيدة ماغلوار ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعد للمونسينيور بعض سمكات البحيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف .

وكان المنزل الذي احتله يتالف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثان : ثلاث غرف في الطابق الارضي، وثلاث في الدور الثاني ، وعليّة فوقها . ووراء المنزل انبسطت حديقة مساحتها نحو من ربع اكر . وكانت المراتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يحيا في الطابق الارضي.

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير يحاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد حولت الى مطبخ وبيت للمؤونة .

وفي مصلاه كان كرسيان قشيان من كراسي التعبد ، على حين كان في مهجعه كرسي ذو ذراعين مصنوع من القش ايضا . فاذا اتفق ان ضم منزله سبعة زوار او ثمانية زوار في آن معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية او بعض التلاميذ من المعهد الاكليركي الصغير ، اضطر الاسقف الى ان يمضي الى الاسطبل التماسا لكراسي الصالون الشتوي ، والى المصلي التماسا لكرسي التعبد ، والى المهجع التماسا للكرسي ذي الذراعين . وهكذا كان في ميسوره ان يجمع احد عشر مقعدا لزائريه . وعند كل زيارة جديدة كانت احدى الغرف تجرد من اثاثها .

ومع ذلك فينبغي ان نعترف بأنه ظل يحتفظ مما كان يملكه من قبل بستة اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألقت فوق غطاء المائدة الكتاني الابيض الخشن واذ كنا نصور ههنا اسقف « ديني » كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة : « من العسير علي ان اقلع عن تناول الطعام بآنية الفضة » .

وينبغي ان يضاف الى هذه الانية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اخت لجده . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكانا ينهضان عادة فوق مستوقد الاسقف . فاذا اتفق ان تناول طعام الغداء مع

الاسقف ضيف ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكانت في غرفة الاسقف ، عند راس سريره ، خزانة جدارية صغيرة تعودت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكن يتعين علينا ان نقول ان المفتاح لم ينزع من تلك الخزانة قط .

ولم يكن لايما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المنفتح ، كما اسلفنا ، على اراضي الكاتدرائية كان من قبل مثقلا بالمغالق والمزالج مثل ابواب السجون . فاصدر الاسقف امره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء الا بسقاطة . وكان في ميسور عابر السبيل ، في ايما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحه بمجرد دفعه دفعا رقيقا . وفي بادىء الامر عصف القلق بالمراتين بسبب من هذا الباب الذي لا يقفل ابدا . ولكن اسقف « ديني » قال لهما : « ضعا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنهما انتهتا الى ان تشاركاه ثقته ، اخر الامر ، او الى ان تسلكا وكأنهما تشاركانه هذه الثقة، على الاقل . بيد ان السيدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات ذعر طارئة . اما فيما يتصل بالاسقف ، ففي ميسورنا ان نجد فكرته مشروحة ، او مشارا اليها على الاقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظل المعنى : أن باب الطبيب يجب ان لا يغلق ابدا . وان باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحا ابدا . »

السّـــقوط

١

قبل المغيب بساعة تقريبا ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨١٥ ، دخل رجل مترحل على قدميه مدينة « ديني » الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم او على عتبات ابوابها الا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من القلق . فقد كان من العسير ان تقع العين على عابر سبيـــل ذي مظهر اشد بؤسا . كان ربعة في الطول ، بدينا ، جلدا على الصعاب ، وفي عنفوان العمر ، ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانـت قلنسوة « جلدية » ممالة الى جانب تخفي ، نصف اخفاء ، وجهه الذيجعلته الشمس والريح بلون البرونز ، وسال منه العرق . وكان صدره الاشعـث باديا من خلال القميص الاصفر الخشن المشدود حول الرقبة بمشبث فضـي صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالحبل ، وبنطلونا كتانيا ازرق خشنا، متهرئا باليا ، ابيضت احدى ركبتيه وتناثرت الثقوب في ركبته الاخـرى ، وصدرة رمادية عتيقة رثة رقعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قنب . وعلى ظهره كان كيس من اكياس العساكر ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عقد : كانت قدماه غير المجوربتين تنتعلان حذاء رصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوزا ، وكانت لحيته طويلة .

ان احدا لم يعرفه . كان واضحا انه عابر سبيل ليس غير . ولا بد ان يكون قد سلخ سحابة يومه وهو يسعى على قدميه ، فقد بدا شديد الاعيـاء . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقبوه رأوه يقف ليشرب من الفوارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواشوفير انعطف يسرة ، ومضى الى مكتب العمدة . ودخل المكتب ، ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالسا قرب الباب فرفع الرجل قلنسوته وحيا الدركي في ذلة . ومن غير ان يرد التحية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، واتبعه عينيه فترة ما ثم دخل دار البلدية .

وولى ابن السبيل وجهه نحو فندق « لاكروا دو كولبا » الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل لتوه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجاقاته موقدة ، وكانت نار عظيمة تضطرم وشيقة في الموقد . وكان صاحب النزل ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية منهمكا في اعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضحكون ضحكا مدويا ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة .

وقال صاحب النزل ، وقد سمع الباب يفتح ، ويدخل قادم جديد ، ولكن من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات : ـ « ما الذي يريده السيد ؟ »

ـ « اريد ان آكل وانام . »

فقال صاحب النزل : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقى نظرة على المسافر اضاف : «لقاء اجرة .»

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جلديا كبيرا واجاب : «عندي مال.»

فقال صاحب النزل : « اذن ، انا في خدمتك . »

واعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد انزل الكيس العسكري عن ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، ممسكا عصاه بيده . ذلك بان بلدة ديني جبلية ، وليالي تشرين الاول قارسة فيها .

وايا ما كان فقد ابقى صاحب النزل في غدوه ورواحه عينا حذرة على المسافر .

وفيما الوافد الجديد يتدفأ ، مديرا ظهره ، اخرج صاحب النزل قلما من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الابيض خط سطرا او سطرين ، وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته مساعد طاه وخادما في آن معا . وهمس صاحب الفندق بكلمة في اذن الغلام ، فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم ير المسافر شيئا من ذلك . وتساءل : « هل الطعام جاهز ؟ »

فاجاب صاحب النزل : « سيكون جاهزا في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملا قصاصة الورق . ونشرها صاحب النزل على عجل ،

فعل من يتوقع جوابا . وبدا وكأنه يقرأ في انتباه ، ثم فكر لحظة طارحا رأسه الى جانب . واخيرا تقدم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقا في تفكير مشوش كدر . وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونهض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

ــ « لماذا ؟ اتخاف ان لا ادفع اليك الثمن ، ام انك تريدني ان ادفعه مقدما ؟ ان عندي مالا ، اقول لك . »

ــ « ليس هذا هو السبب . »

ــ « ما السبب اذن ؟ »

ــ « ليس عندي غرفة . »

فاجابه الرجل في هدوء : « ضعني في الاسطبل . »

ــ « لا استطيع . »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لان الخيل تحتل المكان كله . »

فسارع الرجل الى القول : « حسن . زاوية في العلية . حزمة من القش . سوف ننظر في هذه المسألة بعد العشاء . »

ــ « انا لا استطيع ان اقدم اليك العشاء . »

وبدا هذا الكلام خطيرا في نظر الرجل الغريب . فنهض .

ــ « آه ياه ! ولكني اموت من الجوع . لقد مشيت منذ مطلع الشمس ، لقد قطعت اثني عشر فرسخا . سوف ادفع . اريد ان آكل ! »

قال هذا وعاود الجلوس واضاف من غير ان يرفع صوته :

ــ « انا في الفندق . انني جائع ، ولسوف ابقى . »

فانحنى صاحب النزل فوق اذنه وقال في صوت جعله يرتجف : «كفى. حذار ان تقول كلاما كهذا بعد الان ! أتريد ان اقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان فالجان . اتريد ان اقول لك من انت ؟ فمنذ رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فاتصلت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاءني . هل تعرف القراءة ؟ »

واذ قال ذلك ، قدم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقت من النزل الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزل . والقى الرجل نظرة عليها وطأطأ رأسه ، ورفع كيسه عن الارض ، ومضى لسبيله .

واتخذ الطريق الرئيسية ، هائما على وجهه ، محاذيا البيوت مثل رجل محزون مهين . وواصل سيره على هذه الشاكلة فترة ما ، هابطا من غير ما قصد شوارع يجهلها ، ناسيا التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائما . وفجأة

استشعر عضة الجوع . كان الليل على وشك ان يهبط فاجال طرفه في ما حوله باحثا عن مأوى .

لقد اوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه . فليلتمس الان حانة متواضعة ، او قبوا حقيرا . . . وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند اقصى الشارع. لقد راى غصن صنوبر معلقا بسناد حديدي ناتيء ، تحت سماء الغسق البيضاء. فمضى الى هناك .

وفي الحق ، انها كانت حانة . الحانة القائمة في شارع دو شوفو .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعة الحانة الخفيضة ، المضاءة بمصباح رفع على احدى الطاولات ، وبنار عظيمة تضطرم في الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الخمر ، وكان صاحب الحانة يتدفأ .

وقال رب الحانة : « من هناك ؟ »

ـ « رجل يلتمس عشاء ومبيتا . »

ـ « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ، فلم يبق احد من الشرب الا التفت نحوه . واضاء المصباح جانبا من وجهه ، واضاءت النار الجانب الاخر . وتأمله القوم فيما كان يحط كيسه عن ظهره .

وجلس قرب المستوقد ، ونشر رجليه نحو النار ، وقد كاد الاعياء يميته.

بيد ان رجلا ممن انتظمتهم المائدة كان صيادا اجتمع به الرجل الغريب صباح ذلك اليوم . فما كان منه الا ان اومأ الى صاحب الحانة ، خلسة ، ان يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجل الغريب ، وقال في فظاظة : « ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة : « آه ! هل تعرف ؟ . . . »

ـ « نعم . »

ـ « لقد طردوني من ذلك الفندق . »

ـ « ونحن نطردك من هذا . »

ـ « والى اين تريد ان اذهب ؟ »

ـ « الى مكان اخر . »

وتناول الرجل عصاه وكيسه ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة . فالتفت اليهم مغضبا ، وتهددهم بعصاه ، فانفضوا من حوله مثل سرب من الطير .

وانتهى الى السجن. كانت سلسلة حديدية تتدلى من الباب مشدودة الى جرس . فأمسك بها وقرع . وفتحت نافذة الباب . وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراما : « سيدي السجان ، هل لك ان تفتح الباب وتسمح لي بالمبيت هنا هذه الليلة ؟ » .

فأجابه صوت : ــ « السجن ليس فندقا . افعل ما يحمل الشرطة على اعتقالك ، عندئذ نفتح لك ! »

وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الالب القارسة . وعلى ضوء النهار المحتضر لمح الرجل الغريب ــ في احدى الجنائن المواجهة للشارع ــ شبه كوخ مبني من اللبن . وفي عزم، اجتاز بسياج خشبي ، فالفى نفسه في الحديقة. ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو اشبه شيء بتلك الاكواخ التي يقيمها معبدو الطرق لاغراضهم المؤقتة . ولقد ظن الرجل الغريب ، انه كان في الواقع مأوى معبد طرق . وكان يقاسي الم البرد والجوع جميعا . ولقد اذعن للجوع واحتمله،ولكن ههنا وقاية من البرد والجوع جميعا . وقد جرت العادة بان يكون هذا الضرب من الاكواخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجو دافئا هناك، ولقد وجد ثمة فراشا جيدا من قش . واستراح على هذا الفراش لحظة ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما اصابه من الاعياء . واذ ازعجه كيسه المشدود الى ظهره ، واذ كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيس وسادة فقد شرع يفك سيوره . وفي تلك اللحظة طرق سمعه نباح ضار ، فرفع عينيه فاذا به يرى عند وصيد الكوخ كلبا ضخم الرأس والعنق .

كان ذلك المكان وجار كلب !

وكان هو نفسه شديد البأس راعبا . فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه مجنا ، وغادر الوجار على خير ما كان في وسعه ان يفعل،وقد اتسعت خروق ثيابه وتعاظمت . وهكذا الفى نفسه وحيدا ، كرة اخرى ، على قارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ،ومن غير مأوى ، بل الفى نفسه طريدا حتى من الفراش القشي الذي وقع عليه في ذلك الوجار الحقير . ثم انه طرح نفسه على حجر ، وبدا وكان عابرا مر به سمعه يصيح : « انا لست حتى كلبا ! »

ثم نهض ، وانشأ يتسكع من جديد ، متجها نحو ظاهر البلدة ، رجاة ان يجد شجرة او ركاما ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء تقريبا . واذ لم يكن يعرف الشوارع، فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد اكليركي . حتى اذا مر بساحة الكاتدرائية هز جمع كفه في وجه الكنيسة .

وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . واذ كان الاعياء قد انهكه ، فقد استلقى على مقعد حجري تجاه تلك المطبعة . وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيسة امراة عجوز . فرات هذا الرجل مستلقيا في الظلام فقالت : «ماذا تفعل هنا ، ايها الصديق ؟ » فاجابها في فظاظة والغضب يمازج صوته : « انت ترين ، ايتها المراة الصالحة ، اني ازمع ان انام . »

فقالت المراة : « على هذا المقعد ؟ »

فقال الرجل : « لقد سلخت تسع عشرة سنة وانا انام على فراش خشبي اما الليلة فسانام على فراش حجري . »

— « اكنت جنديا ؟ »

— « نعم يا سيدتي الصالحة ، جنديا . »

— « لم لا تذهب الى الفندق ؟ »

— « لانه لا مال عندي ، ولقد طرقت كل باب . »

— « حسن ، ثم ماذا ؟ »

— « لقد طردني كل انسان ! »

ومست العجوز ذراع الرجل ودلته الى بيت صغير منخفض قائم في الناحية الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف وقالت : « هل طرقت الباب الذي هناك ؟ »

— « لا . »

— « اطرقه اذن ! »

تلك الليلة ، مكث اسقف ديني في غرفته حتى ساعة متاخرة . كان منصرفا الى العمل في مؤلفه عن «الواجبات» ، هذا المؤلف الذي لم يتم مع الاسف. وكان لا يزال منصرفا الى عمله ، في الساعة الثامنة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتابا ضخما مفتوحا ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، لتأخذ آنية الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسرير. وبعد لحظة اغلق الاسقف كتابه ومضى الى حجرة الطعام

ولحظة دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الانسة باتيستين في موضوع مألوف ، اعتاد الاسقف السماع اليه. كان حديثا يدور حول وسائل ايصاد الباب الخارجي.

لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغذية الضرورية للعشاء ، سمعت انباء تروى في مواطن شتى . كان القوم يتحدثون عن متسكع خبيث المنبت ، عن متشرد مشبوه وفد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى الان من غير شك الى مكان ما منها . وان بعض الاحداث الكريهة

قد تصيب اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متاخرة من تلك الليلة . وانه يتعين على كل امرىء ان يصطنع الحذر فيقفل بيتــه ويوصده بالمزلاج ويقضبه بالحديــد .

واطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخيرة ، ولكن الاسقف اقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النار ، وانشأ يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء اخر . انه لم يسمع كلمة من الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فاعادته كرة اخرى . وعندئذ غامرت الانسة باتيستين فقالت باستحياء : « اخي ، هل سمعت ما قالتــه السيــدة ماغلوار ؟ »

فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »

فقالت السيدة ماغلوار : « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمنا علــى الاطلاق . واذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ امضي الى بولين موزبوا ، القفال ، وادعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزالج القديمة . »

وفي تلك اللحظة قرع الباب في عنف ، فقال الاسقف : « ادخل ! »

وفتح الباب . ودخــل رجل .

انه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رايناه منذ حين هائما على وجهه يلتمس مكانا يبيت فيه .

ولم تجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصياح . لقد وقفت مرتعدة الاوصال ، فاغرة الفم . واستدارت الانسة باتيستين ، فرات الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة . ثم انها ارتدت ، في بطء ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، فغدا وجهها ساكنا جدا ، رائقا جدا .

ونظر الاسقف الى الرجل بعين مطمئنة . وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد اي شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه وقال في صوت عال : « اسمع ! انا ادعى جان فالجان . انا رجل حكم عليــه بالاشغال الشاقة . لقد سلخت تسعة عشر عاما في سجن المحكومين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام اطلق سراحي ، فمضيت لسبيلي في اتجاه بونتارلييه ، التي اقصد اليها . وها قد انقضى على مسيري من طولون اربعة ايام، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخا . وحين وصلت الليلة الى هــذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب من جوازي الاصفر الذي ابرزته في مكتب العمدة. لقد كان ابرازي الجواز فرضا واجبا . وشخصت الى فندق اخر فقالوا لي : « اخرج من هنا ! » ولقد قصدت الى السجن ، فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني وكأنه رجل، لكأنما كان هو

ايضا يعرف من انا . ثم مضيت الى الحقول كي انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبت ان المطر سوف يهطل ، ولم يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهماره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثا عن سقف يؤويني . وهناك في الساحة العامة انطرحت على حجر ، فدلتني امراة صالحة على بيتك . ما هذا المكان ؟ اهو فندق ، ان لدي مالا ، انه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » كسبتها في السجن لقاء عملي طوال تسعة عشر عاما . سوف ادفع . ماذا يهمني ؟ انا متعب جدا وجائع جدا . هل استطيع ان ابقى ؟ »

فقال الاسقف : « ايتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقا اخر . »

والتفت الاسقف الى الرجل وقال : « ايها السيد ، اجلس وتدفأ . سوف تتناول طعام العشاء بعد لحظة . ولسوف يهيأ فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيرا فهم الرجل جيدا . وطفت على وجهه انطباعة من الذهول ، والشك ، والابتهاج ، وغدا غريبا حقا . لقد انشأ يتمتم مثل رجل معتوه : « صحيح ؟ ماذا ؟ سوف تبقيني عندك ؟ انت لن تطردني ؟ محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ انت تناديني « ايها السيد » ! انت لا تخاطبني بضمير المفرد ، ولا تقول لي « اخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائما . لقد حسبت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من انا . اوه ! شكرا لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت تسع عشرة سنة لم انم خلالها في سرير ! اترغب حقا في ان ابقى هنا ؟ التمس عفوك ، يا سيدي الفندقي ، ما اسمك ؟ سوف ادفع كل ما تطلبه مني . انت رجل طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ؟ »

فقال الاسقف : « انا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! اوه ، كاهن نبيل ! واذن فانت لن تتقضاني شيئا من المال ! ما اشد بلاهتي ! انا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح كلا من كيسه وعصاه في احدى الزوايا ، ثم اعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنت اليه الانسة باتيستين في ابتهاج . وتابع كلامه : « انت شفوق ، يا سيدي القس . انت لا تحتقرني . ان الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فانت لا تريد مني ان ادفع اليك اجرا . »

وفيما هو يتكلم اغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعا على مداه .

وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعته على المائدة .

وقال الاسقف : « ايتها السيدة ماغلوار . ضعي هذا الطبق اقرب ما تستطيعين الى النار » ثم التفت الى ضيفه واضاف : « ان رياح الليل قاسية في الالب . لا بد انك تشكو البرد ، يا سيدي . »

كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف « سيدي » . ان لفظة « سيدي » تقال لرجل خارج من سجن الاشغال الشاقة اشبه بكوب ماء يقدم الى رجل يموت ظمأ في عرض البحر . ان الخزي ليتعطش الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يرسل غير ضوء واهن جدا . »

وفهمت السيدة ماغلوار . فمضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتهما على المائدة بعد أن اضاءت الشمعتين .

وفي رفق ، مس الكاهن يده وقال : « كان في امكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . انه بيت يسوع المسيح . ان هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا الم . انت تتعذب . انت جائع عطشان . اهلا بك . ولا تشكرني . ان هذا البيت هو بيتك اكثر منه بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان اعرف اسمك ؟ والى هذا ، فقد عرفت اسمك قبل ان تعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش : « حقا ؟ اكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فاجاب الاسقف : « اجل ، انت تدعى اخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القس . لقد كان الجوع يعضني حين دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما بي . لقد زايلني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال : ــ « هل تعذبت كثيرا ؟ »

ــ « أوه ، القميص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح الخشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبرد ، والشغل ، وجماعة السجناء المحكومين بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصي ! السلسلة المزدوجة من اجل لا شيء . والحبس في حجيرة مظلمة عقابا على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض . . . »

فقال الاسقف : « اجل ، لقد فارقت موطن بلاء وعذاب . ولكن اسمع . أن السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة برد ابيض يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الاليم وكراهية الناس والحقد عليهم يفعمان قلبك فانت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة واللطف والسلام تعمر فؤادك فعندئذ تكون خيرا من اي امريء منا » .

وكانت السيدة ماغلوار قد هيأت في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان

يتألف من حساء اعد بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير، وقطعة من لحم الضأن ، وشيء من التين ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .

وانتقلوا الى المائدة واجلس الرجل الى يمينه ، كعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدته ضيف ما . واتخذت الانسة باتيستين مكانها ، هادئة جدا ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وشرع الرجل يأكل في نهم . وفجأة قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئا ما ، يعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع على المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جدا . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضا بريئا فوق المائدة ، كلما شارك الاسقف عشاءه ضيف ما .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ، وغادرت الحجرة من غير ان تقول كلمة . وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بها الاسقف تومض على غطاء المائدة .

٣

وبعد العشاء تمنى مونسينيور بيينفينو لاخته ليلة سعيدة ، ورفع احد الشمعدانين الفضيين عن المائدة ، وقدم الاخر الى ضيفه قائلا : « ساقودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها حجرة نوم الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تضع الانية الفضية في الخزانة الجدارية القائمة عند راس السرير . وكان ذلك اخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تؤوي الى فراشها .

وغادر الاسقف ضيفه في المخدع ، امام فراش ابيض نظيف . ووضع الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة . وقال الاسقف : « ارجو ان تنعم بليلة هانئة. وغدا صباحا، سوف تشرب، قبل ان تنطلق، كوبا من لبن بقرتنا الحار.»

فقال الرجل : « شكرا ، يا سيدي الراهب. » ثم اضاف في ضحكة كان فيها شيء راعب : « هل فكرت في ذلك ؟ ما يدريك اني لست سفاكا ؟ »

فاجابه الاسقف : « الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرك شفتيه كمن يصلي ، ورفع اثنتين من اصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع ومضى الى حجرته .

اما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يفد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد اطفأ الشمعة باحد منخريه ، على طريقة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بثيابه التي يرتديها ، وغرق لتوه في نوم عميق.

وحوالي منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

لقد ولد جان فالجان من اسرة ريفية فقيرة في « بري » . وفي طفولته لم يعلم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشذب اغصان في فافيرول . لقد فقد والديه وهو بعد طفل . ولم يبق له بعد ذلك نسيب غير اخت اكبر سنه سنا ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات . واحتضنت هذه الاخت جان فالجان وآوت اخاها الاصغر واطعمته ما بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبه ، وعمر ابنه الاكبر ثماني سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان فالجان قد بلغ انذاك سنه الخامسة والعشرين ، فحل محل الاب ، واعال بدوره تلك الاخت التي ربته .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر « سو » كل يوم . ثم انه اشتغل بعد ذلك حاصدا ، ومعاون بناء ، وخادما في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملا كادحا . كان يقوم بايما عمل يوفق اليه . واشتغلت اخته ايضا ، ولكن انى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ واقبل شتاء قاس . ولم يقع جان على عمل . ولم يكن عند الاسرة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة أولاد .

وفي مساء يوم من ايام الاحد ، كان موبير ايزابو ، وهو خباز في ساحة الكنيسة في فافيرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبكة بالحديد . وهرع في الحال فاذا به يرى ذراعا مخترقة الثغرة التي نشأت عن ضرب الشبكة والزجاج بجمع الكف . وقبضت الذراع على رغيف ، واخرجته . وانطلق ايزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق به ايزابو وقبض عليه . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وانما حدث ذلك عام ١٨٩٥ . ومثل جان فالجان أمام قضاة ذلك العصر بتهمة « السطو ليلا على بيت آهل ، والكسر تسهيلا للسرقة » واعتبر جان فالجان مجرما وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .

واقتيد الى طولون على متن عربة ، فبلغها اثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوما . وفي طولون البس قميصا احمر . وهناك امحت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . انه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ .

ما الذي حل بالاخت ؟ ما الذي حل بالاطفال السبعة ؟ من الذي ازعج نفسه بذلك ؟ ما الذي يحل بحفنة الاوراق الخضراء حين تقطع الشجرة من جذعها؟

وبعد بضع سنوات من مقامه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه. لقد امسى وفي قلبه ندبة حيث كان من قبل جرح. هذا كل ما هنالك • وفي اثناء مقامه بطولون لم يسمع عن اخته الا مرة واحدة. وكان ذلك في اواخر السنة الرابعة من سجنه . لقد راى اخته رجل ممن كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سولبيس ، هو شارع جيندو . ولم يكن معها غير طفل واحد طري العود ، كان هو اصغر الاخوة سنا . اين كان الستة الاخرون ؟ لعلها هي نفسها لم تكن تدري .

وحوالى ختام هذه السنة الرابعة سنحت لجان فالجان فرصة الهرب. لقد ساعده رفاقه كما يقع دائما في ذلك الموطن الكئيب ، ففر . لقد هام على وجهه حرا طليقا ، في الحقول ، يومين اثنين . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . ومدد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة فغدت ثمانية اعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الهرب كرة اخرى . ولكنه اخفق من جديد . وكانت احكام القانون الخاص تعاقب على هذين باضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منهما يصفد خلالهما السجين بالقيد الحديدي المزدوج . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة اخرى لم يوفق فيها الى خير مما وفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافية فغدا المجموع ست عشرة سنة . واخيرا جرب مرة نهائية وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، فاعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحكم عليه بثلاث سنين اضافية من اجل هذه الساعات الاربع . وهكذا امسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، اطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لانه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وفي السجن استعرض جان فالجان قصته من اولها الى اخرها فاصدر حكمه على المجتمع الظالم ، واعتبره مسؤولا عن المصير الذي تحمله ، ولعله ان يكون قال في ذات نفسه انه لن يتردد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بينه وبين نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي انزله هو ، وبين الاذى الذي انزل به . وخلص اخيرا الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظلما ، ولكنها كانت من غير ريب جورا وائما .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثر ـ ذبلت في بطء ولكن بقضاء محتوم . وبالاضافة الى هذا القلب الذاوي كانت له عين جامدة . فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد سلخ تسعة عشر عاما لم يذرف خلالها دمعة واحدة .

٤

اجل ، فيما كانت ساعة الكاتدرائية تدق الثانية بعد منتصف الليل استيقظ جان فالجان الراقد في فراشه الوثير ببيت الاسقف . وفتح عينيه ، وحدق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم اغمضهما ليستسلم للنوم كرة اخرى.

وحين تكون احاسيس كثيرة متباينة قد اقلقت نهارنا ، وحين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرة، ثم نعجز عن ان نعاود النوم من جديد . وذلك ما وقع لجان فالجان : انه لم يستطع ان ينام كرة ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان ثمة ضرب غامض من المد والجزر في دماغه . لقد طفت ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق . وراودته افكار كثيرة ، ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها . كان قد لاحظ الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .

لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على مدى بضع خطوات في خزانة جدارية صغيرة قائمة فوق راس السرير .

وغلى دماغه ساعة كاملة ، ساعة طويلة حفلت بالارتجاجات الممتزجة بشيء من الصراع. واعلنت الساعة الثالثة . وفجأة وجد نفسه جالسا على سريره.

ثم انه انتصب واقفا ودفع باب غرفة الاسقف بمثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع حركات هرة تريد ان تدخل . فما كان من مفصل الباب الصدىء الا ان ارسل في تلك الظلمة ، صريرا ابح متطاولا .

وارتعد جان فالجان . ووقف مرتعدا مرتبكا ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقبيه . واحس بشراينه تنبض عند صدغيه مثل مطرقتي حداد.

وخطا خطوة ووقف فجاة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه باسرع مما كان يحتسب .

ووقف جان فالجان في الظل ، ومنقبه الحديدي في يده ، منتصب القامة ، جامدا ، مروع الفؤاد امام هذا الوجه المشع . انه لم ير من قبل نظيرا لذلك البتة .

وفجاة اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعا من غير ان ينظر

الى الاسقف ، متجها مباشرة نحو الخزانة الجدارية الصغيرة ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الانية الفضية ، فتناولها ، واجتاز الغرفة في خطى واسعة ، وانتهى الى الباب ، ودخل المصلى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالعتبة ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطرح السلة ، وركض عبر الجنينة ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراراً .

٥

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بيينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصف بها الاضطراب . وصاحت : « مونسينيور ! هل تعرف عظمتك اين سلة الانية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك اسم الرب ! انا لم ادر ما الذي حل بها . »

فقدمها الى السيدة ماغلوار قائلا : « ها هي ذي . »

كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوق احدى مساكب الزهور.

فقالت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ اين الانية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « آه . اذن . فالانية الفضية هي التي تشغل بالك ؟ انا لا ادري اين هي . »

ـ «يا الهي! لقد سرقت! لقد سرقها هذا الرجل الذي وفد علينا امس.»

وفي طرفة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امراة في مثل سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، ومضت الى المخدع ، ثم انقلبت الى الاسقف صائحة :

ـ « مونسينيور ، لقد هرب الرجل ! لقد سرقت الانية الفضية ! »

واعتصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة ماغلوار في رقة : « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الانية الفضية لنا . »

ولم تجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :

ـ « ايتها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظت بهذه الانية الفضية ، بغير حق ، دهرا طويلا . انها ملك للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلا فقيرا من غير شك . »

فقالت السيدة ماغلوار : « واسفاه ! واسفاه ! انا لست ثائرة من اجلي شخصيا او من اجل الانسة . سيان عندي بقاء الانية الفضية وذهابها. ولكني

ثائرة من اجلك يا صاحب السيادة . باي شيء سوف تتناول طعامك منذ اليوم ؟ »

فنظر الاسقف اليها دهشا: «وكيف ذلك؟ اليس عندنا اطباق من صفيح؟»

ــ « للصفيح رائحة . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل اطباقا خشبية . »

وفيما الاخ والاخت يتحدثان قرع الباب . وقال الاسقف : «ادخل.»

وفتح الباب . وبرز على العتبة جمع غريب ضار . كان ثلاثة رجال يمسكون بخناق رجل رابع . أما الثلاثة فكانوا من الدرك ، واما الرابع فكان جان فالجان .

كان احد ضباط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو . وتقدم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية . وقال : « مونسينيور .. »

واقترب مونسينيور بيينفينو باسرع ما تمكنه شيخوخته من الاقتراب وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، ها انت ذا ! انا سعيد بان اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضا ، وهما فضيان مثل غيرهما ، وفي امكانك ان تبيعهما بمئتي فرنك . لماذا لم تأخذهما مع اطباقك ؟ »

وفتح فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا يقدر ايما لسان بشري على وصفها . وقال الضابط : « مونسينيور ، اذن فقد كان ما قاله هذا الرجل صحيحا ؟ لقد التقينا به . كان منطلقا مثل رجل هارب ، فالقينا القبض عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الانية الفضية . »

فقاطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم ان كاهنا عجوزا طيبا بات الليلة البارحة عنده منحه اياها . لقد فهمت . وقد ارجعتموه الى هنا ؟ هذه اهانة . »

عندئذ اطلق رجال الدرك سراح جان فالجان . فنكص على عقبيه. فقال الاسقف : «على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان اللذان قدمتهما اليك . خذهما قبل ان تذهب » . ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيين ، وحملهما الى جان فالجان .

كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو آلي ، وقد غلب على محياه الذهول . وقال الاسقف : « والان ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا رجعت كرة ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمر من خلال الجنينة . أن في استطاعتك دائما ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . انه لا يغلق الا بسقاطة ، ليلا ونهارا . »

كان جان فالجان اشبه برجل على وشك الاغماء . وتقدم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض : « لا تنس ، لا تنس ابدا انك وعدتني بان تصطنع هذه الانية الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلا صالحا . »

ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر انه وعد الاسقف بذلك قط ، وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيرا من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال : « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعد ملكا للشر ، ولكن ملكا للخير . واني انما اشتري نفسك . انا انتزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، واقدمها الى الله!»

٦

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفر منها . لقد اندفع يسعى في اقصى السرعة ، عبر الحقول ، سالكا اولى الازقة والطرق الفرعية التي تبدت له ، غير مدرك انه كان يرتد في كل لحظة على آثاره . وظل تائها على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاما ، ولم يحس بجوع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضربا من الغضب ، ولكنه لم يدر على من كان غاضبا . كان لا يدري اثيرت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدري واهين ؟ وكانت تعروه في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قسوة سنواته العشرين الماضيات . واتعبه هذا الوضع . لقد راى في ابتئاس الى ذلك الضرب من الهدوء المروع الذي منحه اياه الظلم المنزل بمراى اليه يتقلقل في ذات نفسه . وساءل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتمنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ، فقد كان ذلك خليقا به ان يورثه اهتياجا اقل . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقد كانت ما تزال هنا وهنالك ، في اسيجة العليق ، بعض الزهرات المتخلفة التي فاح عبيرها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشيا على قدميه ، فاعاد الى مخيلته ذكريات طفولته. وكانت هذه الذكريات لا تحتمل بعد ان غابت عن ذاكرته دهرا طويلا.

وفيما الشمس تجنح نحو الافق ، مطيلة فوق الارض ظل اصغر الحصى كان جان فالجان جالسا خلف دغل في سهل واسع اصهب يكاد يكون صحراء حقيقية .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بان يضاعف اثر اسماله الراعب في نفس ايما امريء يقدر له ان يراه ، طرق سمعه صوت مرح بهيج . وادار راسه فراى غلاما صغيرا يتقدم في ذلك المجاز ــ غلاما من غلمان سافوا لا يزيد

عمره على عشر سنوات ، يتغنى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الخاص بالسمك على ظهره ... كان واحدا من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين يتنقلون من مكان الى مكان وقد بدت ركبهم من ثقوب بنطلوناتهم .

ومن غير أن يكف الغلام عن الغناء ، كان يقف بين الفينة والفينة ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس بمستبعد ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة الاربعين « سو » .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ، وقذف ما بيده من القطع النقدية الصغيرة في الهواء فتلقاها جميعا ، حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة . ولكن قطعة الاربعين « سو » ولت منه ، هذه المرة ، وكرت نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان ... ووطئها جان فالجان بقدمه ... ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدم نحو الرجل مباشرة .

كان المكان منعزلا انعزالا كاملا . وعلى مدى البصر لم يكن احد في السهل او في المجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يسمع غير صيحات جماعة من الطيور القواطع كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم . وادار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره اشبه باسلاك الذهب ، وخضبت بوهج دام وجه جان فالجان الوحشي .

وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبيانية التي قوامها الجهل والبراءة: « قطعتي النقدية ، ايها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

ـ « جيرفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فالح الغلام : « يا سيدي ، اعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان راسه ، ولم يجد . واردف الغلام : « قطعتي النقدية يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسمرة على الارض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعتي النقدية الفضية ! »

لقد بدا وكان جان فالجان لم يفهم شيئا . وامسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزه . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزحزحة الحذاء الضخم ،

المثقل نعله بالحديد ، الجاثم على كنزه .

وبكى الغلام . ورفع جان فالجان راسه . كا نلا يزال قاعدا ، وكانت نظرته قلقة . لقد حدق الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع : « من هناك ؟ »

فاجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيرفيه الصغير ! انا ! انا ! اعطني قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

وفجاة انتصب جان فالجان واقفا ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضية واضاف : ــ « من الخير لك ان تنجو بجلدك ! »

ونظر الغلام اليه في ذعر ، ثم شرع يرتعد من قمة راسه الى اخمص قدميه . وبعد بضع ثوان من الانشداه اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات او الصياح .

بيد انه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد انفاسه . ومن خلال تفكيره الحالم سمعه جان فالجان يشهق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن العيان .

كانت الشمس قد غربت . وكانت الظلمة تتكاثف حول جان فالجان . انه لم يذق طوال النهار طعاما ما . ومن الجائز ان تكون الحمى قد اصابته . وكان قد ظل واقفا لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فرارا . كان صدره يعلو ويهبط فى فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثنتي عشرة خطوة امامه ، وكانتا تبدوان وكانهما تدرسان فى انتباه بالغ شكل كسرة من الخزف المطلي العتيق منطرحة على العشب .

وفجاة ارتعدت اوصاله . لقد بدا يستشعر برد المساء .

وخفض قلنسوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزرره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى امام لكي يتناول عصاه عن الارض . وفى تلك اللحظة بصر بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمعت بين الحصى . واصيب بمثل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » وارتد خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزا عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظة السابقة ، وكان الشيء الملتمع هناك ، وسط الظلمة ، كان عينا مفتوحة مسمرة عليه .

وما هي الا بضع ثوان حتى وثب فى تشنج نحو القطعة المالية ، وامسك بها ، ثم استقام ، وسرح طرفه بعيدا فوق السهل ، محدقا فى وقت معا الى

نقاط الافق جميعا ، واقفا مرتعدا مثل ظبي مروع يلتمس مفزعا .

ولم ير شيئا . كان الليل قد هبط ، وكان السهل باردا خاليا ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع فى الفسق الواهن النور . وقال : «آه !» وشرع يمشي مسرعا في الاتجاه الذي اتخذه الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحوا من ثلاثين خطوة ، وقف ، واجال البصر فى ما حوله ، ولم ير شيئا .

ثم نادى باقصى ما يستطيع من قوة : «جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير!»

ثم اصاخ ... ولم يكن ثمة جواب ما .

وعاود السير من جديد ، ثم اغذ الخطى حتى صار سيره عدوا . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الخلاء بصوت ليس افظع منه ولا احفل بالحزن : « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام اذن لالقى في فؤاده الرعب، واذن لاحجم عن الظهور امامه ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جدا .

ولقي كاهنا على صهوة جواد . فسأله : « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاما مر من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . انا لم أر احدا . »

واخرج من كيس نقوده قطعتين نقديتين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدمهما الى الكاهن وقال : « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لفقرائك . سيدي الكاهن ، انه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقا للسمك فيما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هذا الاتجاه . انه واحد من صبية سافوا ، افهمت ؟ »

— « انا لم اره . »

— « جيرفيه الصغير ؟ اليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيع ان تعلمني ؟ »

— « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير غريبا عن هذه الديار . انهم يطوفون في هذه المنطقة وليس ثمة من يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقديتين اخريين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدمهما الى الكاهن .

وقال : « من اجل فقرائك . »

ثم اضاف في هذيان : « سيدي الكاهن . الق القبض علي . انا سارق . »

ونخس الكاهن جواده بالمهمازين فى شدة ، وولى وقد عصف به خوف عظيم . واستأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذه اول الامر .

وبكى جان فالجان طويلا . لقد سفح دموعا حارة ، لقد بكى فى مرارة ،

بكى في ضعف اشد من ضعف المراة ، وفي ذعر اقوى من ذعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ، كان نورا غير عادي، نورا فاتنا وفظيعا في آن معا . ان حياته الماضية، وخطيئته الاولى، وتفكيرهالطويل وظاهره الوحشي ، وباطنه الذي قسته الايام ، واطلاق سراحه المبهج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تم له في منزل الاسقف ، واخر عمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقدية ذات الاربعين « سو » ، وهي جريمة يزيدها خساسة وفحشا وقوعها اثر مغفرة الاسقف ــ كل هذا عاد وتبدى له ، في وضوح ، ولكن على ضوء لم يره قط من قبل . لقد راى حياته ، فبدت له فظيعة ، وراى روحه ، فبدت مروعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان على ضوء الجنة .

كم ساعة ظل يبكي على هذه الشاكلة ؟ اي شيء فعله بعد البكاء ؟ الى اين ذهب ؟ ان احدا لم يعرف ذلك قط . كل ما عرف من امره ان الحوذي الذي كان منطلقا بعربته ؛ آنذاك ، على طريق غرينوبل ، والذي بلغ بلدة ديني في نحو الساعة الثالثة صباحا ، راى فيما هو يجتاز بشارع الاسقف رجلا متخذا وضع المصلي ، فهو راكع في الظلام ، على حصباء الطريق ، امام باب مونسينيور بيينفينو .

في عام ١٨١٧

١

في السنة ١٨١٧ ، مثل اربعة من الشبان الباريسيين « مهزلة حلوة».
كان احد هؤلاء الباريسيين من تولوز والثاني من ليموج ، والثالث من كاهور ، والرابع من مونتاوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين نقول « تلميذ » فكأننا قلنا « باريسي » فلأن يدرس المرء في باريس يعني انه ولد في باريس.
وكان هؤلاء الشبان تافهين ، ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء الاشخاص . وان اول اربعة منهم لينهضون نماذج لهم جميعاً . انهم ليسوا صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين وليسوا مغفلين ، انهم شباب اغر في نيسان الحياة الفاتن ذاك الذي ندعوه سن العشرين .
كان اول هؤلاء « الشبان » يدعى فيلكس تولومييس ، من تولوز وكان ثانيهم ليستولييه ، من كاهور ، وكان ثالثهم فامول من ليموج ، وكان اخرهم بلاشوفيل من مونتاوبان . وكان لكل منهم حبيبته طبعا . اما بلاشوفيل فقد احب فافوريت ، وقد دعيت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكلترا . واما ليستولييه فاحب داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسمـا مستعارا لها . واما فامول فكان يعبد زيفين ، مصغر جوزفين . واما تولومييس فكانت صاحبته هي فانتين ، المسماة بالشقراء ، بسبب من شعرها الجميل الذي يشبه لونه لون الشمس .
كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربـع فتيات فاتنـات ، متألقات منضوحات بالعطر ، ما تزال تبدو عليهن سيما العاملات لانهن لـم يهجرن شغل الابرة نهائيا ، قد اثارتهن شؤون الحب ولكنهن احتفظن علـى وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تبقى عنـد

النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات الاربع تدعى الطفلة ، لانها كانت صغراهن ، وكانت واحدة اخرى تدعى العجوز . وكانت العجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الاوليات كن اكثر اختبارا ، واشد لا مبالاة ، واعظم انغماسا في ضجيج الحياة من فانتين ــ الشقراء ــ التي كانت ما تزال في احلامها الاولى .

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربع صديقات . ان مثل هذا الضرب من الحب ليكون مردفا دائما بمثل هذه الصداقة .

ان الحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت، وريفين ، وداهليا كن ، بعد ابداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الاسر الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد يتساءل متسائل : حكيمة ؟ وتولومييس ؟ ولو قد وجه السؤال الى سليمان اذن لاجاب قائلا ان الحب جزء من الحكمة . اما نحن فنكتفي بالقول ان حب فانتين كان حبا اول ، حبا وحيدا ، حبا مخلصا . وكانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربع ، التي لم يدللها قط غير رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من اولئك المخلوقات المنتزعة من قلب الشعب . واذ قد انبثقت من اعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يسبر غورها ، فقد حملت على جبينها آية الغفل والمجهول . لقد رأت النور في « مونتروي سور مير » . من كان ابواها ؟ من يدري ؟ انها لم تعرف قط لا اباها ولا امها . لقد سميت فانتين ــ لماذا ؟ لانها لم تعرف قط باي اسم اخر . لم يكن لها اسم اسرة ، اذ ما كانت لها اسرة ما . ولم يكن لها اسم معمودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سميت وفقاً لمشيئة اول عابر سبيل عثر عليها ، وهي بعد صغيرة جدا ، هائمة في الشوارع . لقد تلقت اسمها كما تلقت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينها عندما هطل المطر . لقد دعيت فانتين . ان احدا لم يعرف عنها ايما شيء اخر . وفي العاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت تعمل في حدمة زراع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شخصت الى باريس . كانت فانتين جميلة ، ولقد احتفظت بطهرها ما وجدت الى ذلك سبيلا . كانت شقراء مليحة ذات اسنان جميلة . كان عندها مهر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤها كان في ثغرها.

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضا . لان للقلب جوعه كذلك .

لقد احبت تولومييس . وكان ذلك ، عنده ، عشقا عابرا ، ولكنه كان عندها هياما .

وكان تولومييس تلميذا عتيقا من الطراز القديم . كان غنيا ، يملك دخلا مقداره اربعة الاف فرنك . وكان تولومييس في الثلاثين من عمره ، منغمسا في الملذات . كان متغضن البشرة ، مهشم الاسنان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرح قائلاً : « الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين . »

وذات يوم انتحى تولومييس برفاقه الثلاثة ، وقال لهم في ايماءة وقور :

ـ « منذ سنة تقريبا وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفافوريت يلتمسن منا ان نقدم اليهن مفاجأة . ولقد وعدناهن بذلك وعدا جازما . وهن ما برحن يذكرننا بالوعد ، ويذكرنني انا به بخاصة . وفي الوقت نفسه فأن آباءنا يكتبون الينا . فلنصب عصفورين بحجر واحد . لقد آن الاوان فيما يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »

وهنا خفض تولومييس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ماجن الى درجة أطاقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معا ، قهقهة حماسية متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل يصيح : « يا لها من فكرة ! »

وتبدت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها . . .

وكانت ثمرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الاحد التالي ، عندما دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربع .

٢

من العسير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة . فلم تبق لباريس ضواحيها السابقة عينها ، ولقد تغير وجه ما يمكن أن ندعوه « الحياة حول باريس » تغيرا كاملا خلال نصف قرن . فبدلا من العربة ذات الجواد الواحد اصبح عندنا الان عربة السكة الحديدية ، وبدلا من المركب الصغير اصبحنا نشاهد السفينة البخاريـــة . . .

واستمتع الازواج الاربعة، في دقة بالغة، بجميع ضروب الطيش والحماقة التي كانت ميسورة آنذاك . كانوا في مستهل العطلة ، وكان اليوم يوما حارا صافيا من ايام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت ــ وهي وحدها التي تعرف الكتابة من بين الرفيقات الاربع ــ قد كتبت الى تولومييس رسالة قالت فيها باسم صواحبها جميعا : « من حسن الطالع ان ننطلق باكرا . » من اجل ذلك نهضوا فى الساعة الخامسة صباحاً ثم امتطوا العربة الى سأن كلو ،

وراوا الى الشلال الجاف وصاحوا : « لا بد ان يكون هذا جميلا حين يحفل بالماء ! » وتناولوا الفطور في « الراس الاسود » ، ومتعوا النفس بلعبة الخواتم في مربع الحوض الكبير ، وصعدوا الى مصباح ديوجين، وجعلوا يكرون الحلوى ذات الاقراص المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقات الزهر فـي بوتو ، واشتروا صفارات القصب فى نوبي، وأكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا على غاية السعادة .

وهذرت الفتيات وثرثرت كالطير المغردة اطلقت من اقفاصها . كن نشاوى بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كن يداعبن رفاقهن الشبان بضربة صغـيرة بالكف . ثمل الحياة في فجرها ! سنوات خليق بها ان تعبد !

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفتن العقول. وكانت فافوريت صاحبة بلاشوفيل، «العجوز» ذات الثلاثة والعشرين ربيعا ، تعدو امامهم تحت الاغصان الخضر العريضة ، وتثب في جنون فوق شجرات العليق ، حاملة لواء المرح بمثل حميا آله شاب من آلهة الاحراج . اما زيفين وداهليا اللتان حبتهما المصادفة بضرب من الجمال كان يسمو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احداهما الاخرى بدافع من غريزة الفنج والدلال اكثر مما فعلتا ذلك بدافع من الصداقة ...
وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه، يوم الاحد، شال فافوريت الشبيه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولومييس ، مهيمنا ، مسيطرا على الزمرة . كان مبتهجا جدا،ولكن كان فى ميسور المرء ان يستشعر فيه السلطان. كان ثمة ديكتاتورية فى جذله. وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نسيج قطني اصفر مع سير يربـط تحت النعل ذي جديلة بلون النحاس . كانت فى يده عصا ضخمة من اسل الهند قيمتها مئتا فرنك . واذ لم يحرم نفسه شيئا ، فقد كان فى فمه شيء غريب يدعونه سيجارا . واذ لم يكن ثمة شيء مقدس عنده ، فقد انشأ يدخن .
وقال الآخرون فى اجلال:«ان تولومييس هذا لمدهش. اي بنطلون! اية قوة!»
اما فانتين فكانت المرح عينه . كان واضحا ان الله قد عهد الى اسنانهـا الرائعة فى مهمة واحدة ، هي الضحك . كانت تحمل فى يدها ، اكثر مما تحمل على راسها ، قبعتها الصغيرة من القش المخيط ، ذات الاشرطة الطويلة البيضاء. وكانت شفتاها الزهراوان تثرثران فى سحر . ولكن اجفانها الطويلة الظليلة انخفضت فى رزانة نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنما تريد ان تكبح من نزعاتها المرحة وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة. كانت ترتدي ثوبا رقيقا خبازي اللون، وحذاء ذا نعل عال تصالب شريطاه فوق جوربيها الرائعين الابيضين المثقوبين.
اما الفتيات الثلاث الاخريات ، وكن اقل خجلا كما ذكرنا ، فارتدين ملابس

تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون فى الصيف ، وتحت القبعات المغطاة بالرياحين ، ناضحا بالملاحة والدلال .

كان ذلك اليوم مشرقا باشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابقة بالعبير . وفى رفق ، موجت نسائم السين اوراق الاشجار. كانت الاغصان تتحدث مكثرة من الاشارات فى وجه الريح . وشنت النحل غاراتها على الياسمين . وكانت جمهرة من الفراشات قد حطت رحالها على زهرات القنديل ، والبرسيم ، والشوفان البري .

وتألق الازواج المبتهجون الاربعة ، متناغمين مع اشعةالشمس ، والازهار والحقول ، والاشجار . . . وبعد الفطور ، مضوا ليروا ، فى ما كان يدعى آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيء بها من الهند حديثا ، كانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى سان كلو . كانت شجيرة غريبة فاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا حصر لها دقيقة كالخيوط ، شعثاء ، غير مورقة ، مثقلة بملايين الزهيرات البيضاء . . . حتى اذا سعدوا بمشاهدتها استأجروا حميرا فركبوها وعبروا نهر السين فى زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام، من باسي الى «حاجز الايتوال». لقد سعوا على ارجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحا . ولكن فافوريت قالت : « ليس فى ايام الاحد تعب . ان التعب لا يشتغل يوم الاحد!» وحوالي الساعة الثالثة ، كان الازواج يسرعون فى الهبوط ، وقد دلهتهم السعادة ،نحو الجبال الروسية وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان فى استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافعواني الممتد فوق شجرات الـ « شان زيليزيه » .

وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح:«والمفاجأة؟ انا اريدالمفاجأة!» فيجيبها تولومييس : « اعتصمي بالصبر »

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكروا فيالغداء. وجنحالسعداء الثمانية وقد اصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا .

كانت قاعة رحبة ، ولكنها بشعة ، فى ادناها مخدع وسرير . وكانت ثمة نافذتان كان فى استطاعة المرء ان يرى منهما ، خلال شجرات الدردار ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة من شمس آب تمس النافذتين مسا رفيقا . وكانت هنالك طاولتان ، احداهما مثقلة بباقات من الزهر المختلطة بقبعات الرجال والنساء ، والاخرى ، وهي التي تحلق حولها الازواج الاربعة ، مثقلة بركام من الصحاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز الجعة وقناني الخمر. كان ثمة قليل من النظامفوق الطاولة، وقليل من الفوضىتحتها.

الى ههنا كانت النزهة الريفية التي انطلقت فى الخامسة صباحا قدانتهت باصحابها عند الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس تجنح للغروب . وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت . وفى هذه اللحظة صالبت فافوريت ذراعيها ، وادارت راسها الى الوراء ، وحدقت الى تولوميس قائلة : « آه ! والمفاجأة ؟ »

فاجابها تولوميس : « تماما . لقد ازفت اللحظة . ايها السادة ، لقد آن لنا ان نقدم المفاجأة الى هاته السيدات . ايتها السيدات، انتظرننا لحظة . »

فقال بلاشونيل : « انها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس : « على الجبين » .

وفى رصانة طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبته ، ومن ثم تقدم الشباب الاربعة نحو الباب ، واحدا اثر واحد ، وقد وضع كل منهم اصبعه فى فمه .

وصفقت فافوريت فيما كانوا يخرجون . وقالت :«انها ممتعة منذالان. »

واسندت الفتيات مرافقهن ، اثنتين اثنتين ، — وقد غودرن وحدهن — على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثرن ، حانيات رؤوسهن ، ويتكلمن من نافذة الى اخرى .

لقد راين الشبان يغادرون بومباردا متشابكي الاذرع ، ثم يلتفتون الى وراء ويومئون اليهن ضاحكين ، ليختفوا بعد ذلك وسط حشود يوم الاحد المغبرة التي تغزو الـ « شان زيليزيه » مرة كل اسبوع .

وصاحت فانتين : « لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « اي شيء سيحملونه الينا ؟ »

فقالت داهليا : « سيكون شيئا جميلا من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول : « ارجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطيءالماء — تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي الهتهن الهاء شديدا . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات المسافرين . ولقد مرت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب — مرت كلها تقريبا ، آنذاك بـ « الشان زيليزيه » . واتخذ القسم الاعظم منها سبيل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوهة بصناديق الامتعة . والاغطية الجلدية ، والحقائب ، الملأى بالرؤوس التي كانت تختفي على نحو موصول ، المفتتة الجزء المقوس من الطريق المحولة حصباء الشارع الى زناد للقدح — فى كل دقيقة كانت احدى هذه

العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حل الغبار محل الدخان ، وبدت عليها سيما الحدة والغضب . وسرت الفتيات بهـذه الجلبة . وصاحت فافوريت : « يا لها من ضوضاء ! يخيل الى المرء ان اكواما من السلاسل تولي فرارا . »

وشاءت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان فى ميسورهن رؤيتها فى عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة علـى جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين .

وقالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف ابدا . »

وتقضى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجأة اجفلت فافوريت اجفال نائم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن . . . اين المفاجأة ؟ »

فقالت داهليا : « اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين : « لقد تأخروا كثيرا جدا ! »

ولم تكد فانتين تتم تنهدتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة. كان يحمل فى يده شيئا بدا وكأنه رسالة .

وتساءلت فافوريت : « ما هذا ؟ »

فاجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »

ـ « ولماذا لم تحملها الينا فى الحال ؟ »

فاجاب الغلام :« لان اولئك السادة امروني ان لا اقدمها الى هـؤلاء السيدات الا بعد ساعة من تسلمي اياها . »

وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقا .

وقالت : « عجيب ليس ثمة عنوان . ولكن انظرن ما كتب فيها :

هـذه هي المفاجـأة

وفى مثل لمح البصر ، فضت الرسالة ، وفتحتها وقرأت (كانت تعـرف القراءة) :

« اوه ، يا احبتنا !

« اعلمن ان لنا اهلا . انكن لا تكدن تعرفن معنى هذه الكلمة .انهم اولئك الذين ندعوهم فى القانون المدني آباء وامهات . انهم بسطاء ولكنهم فاضلون . انهم يحنون الينا . ان هؤلاء العجائز يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطيبات يدعوننا « الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا، ويعدون

بان يذبحوا العجول لنا . ولما كنا متعلقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم وهكذا ستنطلق حالما تقرأن هذه الورقة ، خمسة جياد قوية عائدة بنا الى ابائنا وامهاتنا . اننا ذاهبون ، لقد ذهبنا . ان عربة تولوز العمومية تنتشلنا من الهوة وما هذه الهوة الا انتن ، يا صغيراتنا الجميلات ! نحن عائدون الى المجتمع ، فى سرعة عظيمة بمعدل ثلاثة فراسخ فى الساعة . انه لما يهم الوطن ان نصبح مثل سائر الناس ولاة ، وارباب اسر ، ونواطير ، ومستشاري دولة . احترمننا ووقرننا ! نحن نضحي بانفسنا . انتحبن علينا فى الحال ، سارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه الرسالة افئدتكن ، فمزقنها بدوركن . وداعا . لقد ادخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريبا . فلا تحقدن علينا من اجل هـذا .

« التواقيع : بلاشوفيل ــ فامول ــ ليستولييه ــ فيلكس تولومييس . »

« حاشية : ــ نفقات الغداء قد دفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربع النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « انها مهزلة حلوة حقا . »

وقالت زيفين : « انها مضحكة جدا . »

واردفت فافوريت : « لا شك فى ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني احبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقالت داهليا : « لا . انها فكرة تولومييس . هذا شيء واضح . »

فعادت فافوريت الى القول :

ــ « اذا كان ذلك ، فليسقط بلاشوفيل ، وليحي تولومييس ! »

وهتفت داهليا وزيفين : « فليحي تولومييس ! »

وانفجرن ضاحكات .

وضحكت فانتين مثل غيرها .

وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، سفحت الدمع . كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى تولومييس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أم ولد .

الإبداع يعني التخلي أحيانا

١

كان في الربيع الاول من هذا القرن، في مونفيرماي قرب باريس شبه مطعم حقير لم يعد قائما اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى تيناردييه وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجيه . وفوق الباب كان المرء يرى لوحة مسمرة على الجدار تماما . وكان مرسوما على هذه اللوحة شيء يشبه رجلا على ظهره رجل اخر يحمل كتافتين ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملهما الجنرالات وقد زانتهما نجوم كبيرة مفضضة. وكانت ثمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخانا ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كان مكتوبا **سرجان واترلو** .

وليس شيء اكثر شيوعا من عربة او عجلة ذات دولابين امام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعترضت الشارع امام مطعم «سرجان واترلو» ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨، كانت خليقة من غير شك بأن تلفت بضخامتها انتباه ايما رسام يمر بها .

كانت عربة امامية من تلك العربات الضخام، التي تصنع في الديار المحاطة بالغابات لنقل الواح الخشب الغليظة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخم ذي قطب شد اليه محور ثقيل، وتنهض على عجلتين هائلتين. وعلى الجملة، فقد كانت ضخمة قصيرة، ساحقة مشوهة.

لم كانت هذه العربة الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولا ، لكي تعترض السبيل ، وثانيا لكي تستكمل صداها . ان في النظام الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي نجدها هكذا معترضة سبيلنا ، والتي ليس لوجودها اي مبرر اخر .

كانت تتدلى تحت محور العربة سلسلة ضخمة ، وكان وسط السلسلة يتدلى فوق الارض ، وعلى منحناها ، جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتاتان صغيرتان ، وكأنهما فوق حبل ارجوحة من الاراجيح. كانت صغراهما تبلغ من العمر سنتين ونصف السنة تقريبا . وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كانت الطفلتان مزينتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق مشرقتي الوجه ، فكأنهما وردتان غرستا في الحديد الصدىء . كانت اعينهما تومض ايماضة الظفر وكانت وجناتهما النضرة تضحك . كانت احداهما كستنائية اللون ، وكانت الاخرى سمراء . وكان وجهاهما الساذجان عجيبين فاتنين . وكان العبير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنورة غير بعيد منهما يبدو وكأنه انفاسهما .

وكانت امهما ـ وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثرة في هذه اللحظة ـ جالسة على عتبة الفندق، تؤرجح الطفلتين بحبل طويل، حاضنة اياهما بعينيها خشية ان يصيبهما حادث ما، وقد طفت على محياها تلك الانطباعة الحيوانية السماوية التي تميز الامومة . وكانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ، ولم يكن ثمة شيء اكثر فتنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل العمالقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفجأة سمعت الام صوتا يقول : «ان لك طفلتين جميلتين، يا سيدتي.»

ولم تجب الام بشيء . كانت امرأة واقفة على بضع خطى منها . وكان لها هي ايضا طفلة تحملها بين ذراعيها ، وكانت تحمل ايضا خرجا ضخما من أخراج السفر .

وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاء والوهية . كانت فتاة يراوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلتين الصغيرتين الاخريين في مسابقة في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على كتفيها عصائب، وعلى قبعتها وشي . كانت وردية ناضحة بالصحة الى حد فاتن . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تغري المرء بأن يعض تفاح خديها .

اما الام فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تطفو عليها انطباعة عاملة من العاملات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود ـ وجميلة ؟ جائز . ولكن الجمال لا يمكن ان يتبدى في تلك الكسوة . وكان شعرها ، الذي تدلت منه خصلة شقراء ، يبدو اثيثا جدا ، ولكنه كان محجوبا في قسوة تحت قلنسوة من قلانس الراهبات بشعة ، محكمة الربط ، ضيقة ، معقودة

تحت ذقنها . ولقد بدت عيناها وكأنهما سلختا دهرا طويلا تسفحان العبرات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سيما الاعياء والمرض . كانت ترتدي رداء فضفاضا بنيا من صوف غليظ ، وفستانا من خام ، وتنتعل حذاء ضخما ثقيلا . كانت فانتين .

اجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك فما ان يمعن النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجمالها . كان خط كئيب كذلك الذي يتشكل عند مطلع التهكم ، يطبع خدها الايمن . اما زينتها ــ تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصلي ومن عصائب ، والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحماقة ، والموسيقى ، والتي حفلت بالبهارج، وتعطرت بالزنابق ــ فكانت قد ذابت كما يذوب الجليد المتألق الجميل الذي نحسبه تحت اشعة الشمس ماسا متوهجا .

كانت عشرة اشهر قد تقضت على « المهزلة الحلوة » .

وكررت فانتين قولها : « ان لك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي » .

رفعت الام راسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة السبيل ان تجلس على درجة السلم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب . وتجاذبت المرأتان اطراف الحديث .

فقالت ام الفتاتين الصغيرتين : « اسمي مدام تيناردييه .. نحن ندير هذا الفندق » .

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا ونتوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحي به من الرعب . ومن عجب انه كانت تطفو على محياها انطباعة استرخاء اكتسبتها من قراءة الروايات . كانت مغناجا مترجلة وكانت لا تزال شابة لما تتجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المراة ، الجالسة القرفصاء ، واقفة منتصبة القامة ، اذن لكان من الجائز لقامتها الشامخة وكتفيها العريضتين المشبهتين كتفي تمثال عظيم متحرك ان تجفل عابرة السبيل ، وتعكر صفو اطمئنانها وتحول دون وقوع الاحداث التي سنرويها . شخص جالس بدلا من ان يكون واقفا : ان القدر ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .

وقصت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ، واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتمسه في مكان اخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ، وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعيا على قدميها ، وان حملها طفلتها قد اورثها اعياء شديدا ، وانها التقت عربة فليموبل فركبتها ، وانها انطلقت من

فليموبل الى مونفير ماي سيرا على القدمين ، وان الطفلة الصغيرة مشت قليلا، ولكن ليس كثيرا فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ، وانها اضطرت الى ان تحملها ، وان الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبعت على جبين ابنتها قبلة حنونا ايقظتها من نومها . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبحت جماحها، فقد انزلقت الى الارض بمثل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفر . وفجأة رات الطفلتين الاخريين على ارجوحتهما ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلت السيدة تيناردييه وثاق طفلتيها وانزلتهما عن الارجوحة ، قائلة : « العبن كلكن معا . »

كانت هذه الوافدة الجديدة مرحة جدا : ان طيبة الام لمسطورة فيبهجة الطفلة . كانت قد تناولت شظية من خشب واتخذت منها مجرفة ، وراحت تشق في نشاط حفرة تلائم ذبابة . ان عمل حفار القبور ليصبح سائغا جميلا حين يقوم به طفل .

واستأنفت المراتان حديثهما .

— « ما اسم طفلتك الصغيرة ؟ »

— « كوزيت » .

— « ما عمرها ؟ »

— « انها تخطو نحو الثالثة » .

— « هي اذن في عمر ابنتي الكبرى » .

واضافت السيدة تيناردييه : « ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! انظري اليهن ! ان المرء ليقسم انهن ثلاث اخوات » .

واغلب الظن ان تلك الكلمات كانت الشرارة التي انتظرتها الام الاخرى . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحدقت اليها قائلة : « هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

— « ينبغي ان افكر » .

— « سوف اقدم اليك ستة فرنكات في الشهر » .

وهنا سمع صوت رجل من داخل المطعم الحقير : « لا نرضى باقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر مدفوعة مقدما » .

فقالت السيدة تينادرييه : « ستة في سبعة يساوي أثنين واربعين » .

فقالت الام : « سوف اعطيكما ذلك » .

فاضاف صوت الرجل: «وخمسة عشر فرنكا اضافيةمقابل النفقات الاولى» .

فقالت الام : « سوف ادفعها اليكما . ان عندي ثمانين فرنكا . وهذا سوف يترك لي ما يكفيني للذهاب الى الريف اذا مشيت على قدمي . ولسوف اكسب شيئا من المال هناك ، وحالما يجتمع لدي مبلغ قليل ارجع الى هنا لاخذ حبيبتي الصغيرة » .

واستأنف صوت الرجل الكلام : « هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي » .

ـ « طبعا ، ان عند حبيبتي المسكينة ملابس . لقد ادركت جيدا انه زوجك . وملابس جميلة ايضا ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من كل شيء دزينات . وفساتين حريرية كفساتين السيدات . انها هناك في جراب سفري » .

فاسرع صوت الرجل الى القول : « يجب ان تعطينا هذا كله » .

فقالت الام : « طبعا ، سوف اعطيكما اياه . وهل يعقل ان اترك ابنتي عارية » .

وبرز وجه صاحب الفندق وقال : « هذا حسن » .

وختمت المساومة . وامضت الام ليلتها في الفندق ، ودفعت ما طلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عقد جرابها الذي تقلص بعد ان جرد من ملابس الطفلة وغدا خفيفا ، ومضت لسبيلها في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكا .

وحين مضت والدة كوزيت قال الرجل لزوجته : « ان في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند المالي البالغة قيمته مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق اداؤه غدا . كنت في حاجة الى خمسين فرنكا . اتدرين ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يفد علي ، وان وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان تحرر بحقي ؟ لقد مثلت انت وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران تمثيلا جيدا» .

فقالت المراة : « من غير ان نعرف ذلك » .

٢

كانت الفارة التي القي القبض عليها ضعيفة البنية جدا ، ولكن القطة ابتهجت لاصطيادها مجرد فارة مهزولة .

ما كان تيناردييه هذا وزوجته ؟

كانا ينتسبان الى تلك الطبقة النغلة المؤلفة من اناس اجلاف ارتفعت بهم الايام ومن اناس اذكياء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض خطيئات الثانية ، الى

رذائل الاولى كلها تقريبا ، من غير ان تملك حوافز العامل الكريمة ، وسجايا البورجوازية الباعثة على الاحترام .

كانا من تلك الطبائع القزمة التي اذا اتفق ان مستها نار كالحة امست ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المراة ، في اعماقها ، بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في اعماقه ، وغدا محتالا . وكان كلاهما ، في اعلى الدرجات ، قادرا على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن تحقيقه في اتجاه الشر .

وكان تيناردييه هذا ، اذا شئنا ان نصدقه ، جندياً ، برتبة رقيب (سرجان) كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قد ابلى بلاء حسنا في ما يبدو . ولسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه هذا . والواقع ان اللافتة التي تعلو باب فندقه ترمز الى احدى مآثره الحربية . لقد رسمها بريشته ، اذ كان يعرف شيئا من كل شيء ، ويعرفه على نحو رديء .

والحق ان كون المرء شريرا لا يكفل له الرخاء ، وآية ذلك ان المطعم الحقير لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعه والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين السبعة والخمسين . وفي الشهر التالي كانا في حاجة الى المال ، فحملت المراة ملابس كوزيت الى باريس حيث رهنتها في مون دو بييتيه مقابل ستين فرنكا . حتى اذا نفد هذا المبلغ شرع تيناردييه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتهما الى طفلة يؤويانها صدقة واحساناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها اي ملابس ، فقد البساها قمصان طفلتيهما القديمة وتنانيرهما العتيقة ، يعني انهما البساها اسمالا بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد اطعماها فضلاتهما وفضلات بنتيهما — اطعماها على نحو احسن قليلا من الكلب ، واسوأ قليلا من الهرة .

كانت امها ، التي استقرت كما سوف نرى بعد في مونتري سور مير ، تكتب اليهما ، او على الاصح تكلف احدا بالكتابة اليهما ، مرة كل شهر ، مستطلعة انباء ابنتها . وكان تيناردييه وزوجته يجيبانها جوابا لا يتغير : « كوزيت في حال ممتازة جدا » .

وتقضت الاشهر الستة الاولى . وارسلت الام سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هذا المبلغ على نحو نظامي شهرا اثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تيناردييه : « ان هذا الثمن رائع حقا ! اي شيء تنتظر منا ان نفعله مقابل فرنكاتها السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالبا باثني عشر فرنكا . ووافقت الام وارسلت اليهما الفرنكات الاثني عشر .

ان ثمة بعض الطبائع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غير ان تكره من ناحية اخرى . كانت تيناردييه الام هذه تحب طفلتيها الصغيرتين حبا جما، ولقد حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

لقد اساءت المراة الى كوزيت وخاشنتها . وكذلك فعلت بنتاها ايبونين وآزيلما ايضا . فليس الاطفال في هذه السن الا نسخا طبق الاصل عن الام. ان القطع اصغر ، ليس غير .

وقال الناس في القرية : « ما اطيب تيناردييه وزوجته ! انهما ليسا غنيين ، ومع ذلك فهما ينشئان فتاة مسكينة تركت عندهما ! »

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفي ان الطفلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان أمها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكا في الشهر قائلا ان « المخلوقة » كانت تنمو وانها «تسرف في الاكل » ، مهددا بطردها .

ودفعت الام خمسة عشر فرنكا .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضا .

كانت كوزيت اول الامر « تيس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب الفتاتين الاخريين ولكن ما ان اخذت تنمو قليلا ، يعني قبل ان تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وكلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكنس الغرف ، والفناء ، والشارع وغسل الاطباق ، بل وبحمل الاثقال . واستشعر تيناردييه وزوجته ان حقهما في معاملتها على هذا النحو يتعاظم بعد ان بدات الام ، المقيمة ابدا في مونتروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد استحقت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الام الى مونفير مآي ، عند نهاية هذه السنوات ، اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاحة ممعنة في النضارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الان مهزولة شديدة الشحوب .

كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها قبيحة .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبرة . ان الناس ليحبون الاسماء المجازية ، ومن هنا سرهم ان يخلعوا هذا الاسم على تلك المخلوقة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتعدة ، المروعة ، المرتجفة ، المستيقظة كل صباح قبل اهل المنزل جميعا واهل القرية جميعا ، العاملة ابدا في الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبرة المسكينة لم تنطلق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .

الانحدار

١

ما الذي حل ، في غضون ذلك ، بهذه الام التي بدت ـ وفقا لما ذهب اليه ابناء مونفير ماي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ اين كانت ؟ ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عنـــد تيناردييـه وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور-مير .

وانما كان ذلك ، كما ذكر ، في عام ١٨١٨ .

كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثنتي عشرة سنة تقريبا ، وكانت معالم مونتروي سورمير قد تغيرت . ففيما كانت فانتين تنحدر في بطء من شقاء الى شقاء كان مسقط راسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار .

فمنذ سنتين تقريبا تم في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة .

فمن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سور مير الخاصة تقليـد الزجاج الانكليزي الملون والخرز الالماني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو ازمة موصولة بسبب من غلاء المواد الاولية على نحو كان له اثــره في اليـد العاملـة . حتى اذا رجعت فانتين الى منتروي سور مير كان تغير كامل قد طرأ على انتاج هذه « البضائع السوداء » . ذلك بأن رجلا مجهولا كان قد استقر في تلك البلدة ، أواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان يحل صمغ نبات اللك ، في تلك الصناعة ، محل صمغ الصنوبر . اما في عمل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد فتل احد طرفي المعدن على الاخر بدلا من لحمهما باللحام .

واحدث هذا التغير البالغ الضآلة ثورة في الصناعة . لقد خفض نفقات المواد الاولية تخفيضا هائلا ، وهذا ما جعل من الممكن رفع اجرة اليد العاملة

وتحسين الانتاج وبيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة أضعاف الربح القديم .

وفي اقل من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنيا ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنيا ، وهذا احسن . كان غريبا عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن أصله شيئا، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل.

وتحدث الناس بانه وفد على المدينة وليس معه غير دراهم معدودات - بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مير على هذا النحو الغامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصا شوكية ، اندلعت نار هائلة في دار البلدية . فاقتحم هذا الرجل النار ، وانقذ طفلين ظهر انهما ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احد قط ان يسأله ابراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

لقد كان رجلا في نحو الخمسين ، تبدو عليه سيما المستغرق في العمل، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في مستطاع المرء ان يقوله عنه .

وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تم لهذه الصناعة من تقدم سريع اسبغ هو عليه حياة رائعة جدا ، مركزا تجاريا ذا خطر . لقد اخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتد الرغبة في الخرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هذا الميدان ، كلا من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية السنة الثانية ، من ان ينشيء مصنعا ضخما يحتوي على معملين واسعين ؛ احدهما للرجال والاخر للنساء . كان في ميسور ايما جائع ان يطرق ابواب هذا المصنع ؛ وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملا وخبزا . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة، ويتطلب فيهم جميعا الامانة والاخلاص. لقد قسم المصنع لكي يفصل ما بين الجنسين ، ولكي يحتفظ النسوة والفتيات باحتشامهن وفي هذه المسألة ، كان صلبا لا يلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط .

وشغل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير : « كن رجلا امينا ! » ، « كوني امراة امينة ! »

وفي غمرة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه ومحوره ، جمع الاب مادلين ثروته . ولكن ذلك لم يبد همه الرئيسي ، وهي ظاهرة غريبة جدا بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الاخرين كثيرا ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلا . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفا

انه يملك ستمئة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكن قبل ان يدخر هذه الستمئة والثلاثين الف فرنك كان قد انفق أكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء .

كانت اوقاف المستشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سرر اضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احداهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلمين من جيبه هو ضعف راتبهما الحكومي الهزيل . وشيد على نفقته الخاصة ملجأ للعاجزين ، وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حي جديد نما نموا سريعا ، وانتظم كثيرا من الاسر الفقيرة . وهناك اسس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين راوه يغني البلاد قبل ان يغني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم « هذا الرجل طموح . »

واخيرا ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من ايام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديرا للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة فقد اصدر الملك امرا بتعيينه عمدة لبلدة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الوافد الجديد بانه « رجل طموح » الا ان اغتنموا هذه الفرصة — التي يتمناها كل انسان — ليصيحوا في حماسة بالغة : « ارايتم ! الم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبأ . وما كان النبأ كاذبا . فبعد بضعة ايام نشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها — ١٨١٩ — وجدت نتائج الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكانا لها في المعرض الصناعي . وبناء على تقرير المحكمين منح الملك مخترعها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! واذن فقد كان يطمع في وسام جوقة الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . والقى الطيبون من الناس سلاحهم قائلين : « وعلى اية حال ، فهو لا يعدو ان يكون مغامرا ! »

وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم « المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ اهل المدينة يدعونه «مسيو مادلين»

وطفقت الدعوات تنهال عليه كالمطر بعد ان اتخـذ سبيلـه في مراقي العـز والشهرة . وادعاه «المجتمع الراقي» . وفتحت صالونات مونتروي سور مير الصغيرة ابوابها على مصاريعها للمليونير . لقد قدم اليه الف عرض وعرض ، ولكنـه رفضها كلهـا .

وهذه المرة ايضا لم يكف اصحاب النفوس الطيبة عن لغوهم . «انه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . ان احدا لا يعرف من اين اقبل . انه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعـات الراقيـة . وليس من الثابت بحال من الاحوال انه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبذر ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والاوسمة قالوا : « انـه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : «انه بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتري سور مير كانت خدماته التي قدمها الى المنطقة ساطعة جدا ، وكانت رغبـة السكان كلهم اجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة للمدينة . ورفض كرة اخرى . ولكن المحافظ لم يقبل رفضه ذاك ، ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرع اليه الناس في الشوارع ، وكان الالحاح شديدا الى درجة حملته اخر الامر على الاذعان .

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين ، وها قد غدا مسيو مادلين السيد العمدة .

وايا ما كان ، فقد ظل بسيطا شأنه في ايامه الاولى . كان ذا شعر اشيب، وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، ومحيا مفكر كمحيا الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتمر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي سترة طويلة من قماش خشن ، مزررة حتى الذقن . لقد ادى واجباته بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشا منعزلا . كان يتحدث مع نفر قليل من الناس ، وكان ينفر من المجاملات ، فهو يمس قبعته تلك ويمضي لسبيله في غير اناة . كان يبتسم اجتنابا للكلام ، وكان يعطي ، اجتنابا للابتسام .

كان يتناول طعامه وحده دائما ، وامامه كتاب مفتوح يطالع فيه . كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، فالكتاب صديق بارد ، ولكنه موثوق .

وعلى الرغم من انه لم يعد شابا فقد قيل انه كان على قوة اسطورية . كان يمد يد العون الى كل من يحتاج اليها فيقيل عثرة جواد كبا ، ويدفع عجلة ساخت في الطين ، او يمسـك بقرني ثور هارب . وكانت جيوبـه مملوءة

بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيوبه فارغة من النقود كلما رجع .

كان انيسا ومحزونا • وكان الناس يقولون : « هو ذا رجل غني لا يشمخ بأنفه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه امارات الرضا . »

وزعم بعضهم انه شبخصية غامضة ، واعلنوا ان احدا لم يدخل قط غرفته التي زعموا انها كانت مؤثثة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبجماجم الموتى .

وتهامس القوم ايضا بأنه اودع مصرف لافيت مقادير «هائلة» من المال على شرط خاص يجعلها دائما تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مادلين ــ كذلك اضافت هذه الهمسات ــ ان يشخص صباحا الى مصرف لافيت ، فيوقع ايصالا ويحمل مليونيه الاثنين او ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق ان « هذين المليونين الاثنين » او « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكمشت ، كما سبق منا القول ، الى ستمئة وثلاثين الف فرنك ، او ستمئة واربعين الف فرنك .

٢

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميريل ، اسقف بلدة ديني «الملقب بمونسينيور بيينفينو» ، الذي توفي عابق الصيت بعبير القداسة في الثانية والثمانين من العمر . ورددت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح اليوم التالي برز مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوق قبعته بعصابة حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحدثوا عنه في كل مكان . لقد بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم انه كان على صلة ما بالاسقف الجليل .

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة بادىء الامر أقوال خبيثة وافتراءات ضد مسيو مادلين . وما هي الا فترة قصيرة حتى تضاءلت هذه الافتراءات والاقوال الخبيثة فغدت هجاء ، ثم انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائيا . لقد أمسى الاحترام كاملا ، اجماعيا ، ودينا .

وفي مدى ست سنوات انتشرت عدوى من الاجلال في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلا واحدا ليس غير ، في المدينة وما حولها ، اجتنب هذه العدوى اجتنابا كاملا . كان يعتصم باللامبالاة ، وكأن يلتزم اليقظة والحذر • وفي كثير

من الاحيان فيما يكون مسيو مادلين مجتازا بأحد الشوارع ، هادئا ، محوطا ببركات الجميع كان يتفق ان يلتفت فجاة رجل طويل القامة مرتد قبعة مسطحة وسترة رمادية ومسلح بخيزرانة ضخمة ، فيتبعه نظره حتى يتوارى عن البصر ، ويصالب ذراعيه هازا راسه بعض الشيء ، رافعا شفته السفلى حتى تحاذي انفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تترجم على هذا النحو : « ولكن من هو هذا الرجل ؟ انا واثق من اني رأيته في مكان ما . وعلى اية حال ، فلست انا مغفلا يخدع به . »

كان اسمه جافير ، وكان رجلا من رجال البوليس .

كان يقوم في مونتروي سور مير بمهمة مفتش الشرطة البغيضة ، ولكن النافعة . انه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مديناً بمنصبه لحماية مسيو شابوييه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغليز ، وكان انذاك مديرا للشرطة في باريس . وحين اقبل جافير على مونتروي سور مير كان الصناعي الكبير قد مكن لنفسه في المدينة ، وكان الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

كان جافير اشبه بعين مسددة ابدا الى مسيو مادلين . عين مفعمةبالشك والظنون . ولاحظ مسيو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يأبه به . انه لم يوجه ايما سؤال الى جافير ، انه لم يلتمسه ولم يجتنبه . لقد تحمل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الوطأة ، من غير ان يبدو منتبها لها . لقد عامل جافير كما عامل اي امرىء اخر ، في طمأنينة وكرم نفس .

ومع هذا فقد بدا أن مسلكه العجيب ترك انطباعة ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادث .

كان مسيو مادلين يتمشى ذات صباح في احد ازقة مونتروي سور مير غير المعبدة . فسمع صراخا ، ورأى حشدا على مسافة قصيرة . فمضى الى هناك . كان رجل يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خر فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحدا من النفر القلائل الذين ظلوا اعداء لمسيو مادلين في ذلك الحين . فعندما وفد مادلين الى تلك المقاطعة ، كانت لفوشلوفان هذا ، وهو كاتب عدل وفلاح يكاد يكون اميا ، صناعة آخذة في البوار . لقد راى هذا العامل البسيط يصبح غنيا ، على حين كان هو — الخبير العالم — يخطو نحو الافلاس . وملأه ذلك حسدا ، فبذل غاية جهده ، في جميع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ، واذ لم يبق للرجل العجوز

غير عربة وفرس ، واذ لم تكن له اسرة واولاد ، فقد اضطر الى أن يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد كسرت فخذا الفرس ، فليس في ميسوره أن يتحرك . وعلق الرجل العجوز بين العجلات . وكانت سقطته على نحو جعل الثقل كله منصبا على صدره . كانت العربة مثقلة بالاحمال ، وكان الاب فوشلوفان يطلق حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا سحبه ، ولكن على غير طائل . وكان من المتعذر انقاذه الا برفع العربة من ادنى . وكان جافير ، الذي اقبل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الاثقال .

ووصل مسيو مادلين . وارتد الحشد في احترام .

وصاح فوشلوفان العجوز : « النجدة ! النجدة ! »

والتفت مسيو مادلين الى حشود النظارة : « هل عند احد منكم رافعة؟ »

فاجاب احد الفلاحين : « لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

ــ « ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

ــ « لقد طلبناها من اقرب مكان ، من « فلاشو » حيث يوجد حداد ، ولكن لن تصل قبل ربع ساعة او اكثر ، على كل حال . »

ــ « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربع ساعة . »

ــ « يتعين علينا أن نفعل . »

ــ « ولكن الاوان يكون قد فات ! ألا ترون ان العربة تسيخ اكثر فأكثر ؟ »

ــ « لا حيلة لنا في ذلك . »

فقال مادلين : « أليس فيكم رجل يستطيع ان يرفعها بظهره ؟ »

والتفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد رآه حين اقبل .

وهنا قال جافير : « ينبغي ان يكون المرء رجلا فظيعا حتى يتمكن من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه . »

ثم انه سدد نظراته الى مسيو مادلين ، واضاف مؤكدا كل كلمة من كلماته : « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قط غير رجل واحد قادر على ان يفعل ما تدعو اليه . »

وارتعد مادلين .

واردف جافير ، في انطباعة لا مبالية ، ولكن من غير ان يرفع عينيه عن مادلين : « كان واحدا من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »

فقال مادلين : « آه ! »

ــ « في السجن الخاص بهؤلاء ، في طولون . »

وغدا وجه مادلين شاحبا .

وفى غضون ذلك كانت العربة تسيخ شيئا فشيئاً . وهدر الاب فوشلوفان وصاح : « اني اختنق ! ان اضلاعي تتحطم ! ايتوني برافعة اثقال ! »

وفجأة شوهد مادلين ، منبطحا على بطنه تقريبا تحت هذا الثقل المخيف ، يحاول مرتين ان يجمع مرفقيه وركبتيه ، ولكن على غير طائل . وصاح القوم : « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »

وقال فوشلوفان العجوز نفسه : « مسيو مادلين ! اذهب من هنا . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »

ولكن مادلين لم يجب .

واخيرا اجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة ببطء ، وشرعت العجلات تخرج من مغاورها . وسمع صوت مختنق يصيح: «عجلوا ! ساعدوا!»

كان صوت مادلين الذي بذل فى تلك اللحظة جهدا نهائيا .

واندفعوا كلهم الى العمل . وتعاونت عشرون ذراعا على رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ثم عينه مسيو مادلين بستانيا فى دير للراهبات فى حي سان انطون بباريس .

وكان للازدهار الذي خلقه الاب مادلين فى مونتروي سور مير — بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرنا اليها — مظهر اخر غير منظور ، ولكنه ليس اقل شأنا وخطرا . فحين يكون العمل موفورا ، وحين يكون البلد غنيا سعيدا فعندئذ تدفع الضرائب فى يسر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالا كثيرا فى جبايتها. وهكذا خفضت خلال سبع سنوات نفقات جباية الضرائب فى اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، مما جعل مسيو دي فيليل وزير المال انذاك يكثر من الاشارة الى ذلك الاقليم والاستشهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احدا لم يتذكرها ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان اشبه بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخصت الى هناك ، فالحقت بالمصنع الخاص بالنساء . كان العمل جديدا عليها ، تماما ، فلم يكن فى ميسورها ان تبرع فيه براعة كبيرة ، ومن هنا لم توفق الى ان تفوز باكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد حلت المشكلة ، فهي تكسب رزقها .

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفت لحظة من الابتهاج . اي نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعاودتها الرغبة فى العمل حقا . لقد اشترت مرآة ، وابهجت نفسها بمشهد شبابها ، وشعرها الجميل

واسنانها الرائعة ، ونسيت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بامكانيات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريبا .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردييه وزوجته بالمبلغ المتفق عليه تماما . واذ كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحدا من الكتاب العموميين . وكانت تبعث اليهما بالرسائل بين الفينة والفينة ، ذلك ما لاحظه الناس . وشرعت العاملات في قسم النساء يتهامسن بان فانتين « تكتب رسائل » وان « لها مسالك غريبة » .

وهكذا اخضعت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فان غير واحدة كانت تحسدها لشعرها الاشقر واسنانها البيضاء .

لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الاقل ، وتوجه الرسالة الى العنوان نفسه دائما ، وانها كانت تدفع اجرة البريد سلفاً . ووفقت النسوة الى معرفة العنوان : « مسيو ، مسيو تيناردييه ، صاحب فندق ، في مونفيرماي . » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل عجوز ساذج ما كان قادرا على ان يملأ معدته بالنبيذ من غير ان يفرغ جيبه من الاسرار ، قد اغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الخمر . وبالاختصار ، فقد عرف ان لفانتين ولدا . « ينبغي ان تكون من ذلك النوع من النساء » .

وكانت فانتين قد سلخت ما يزيد على عام في المصنع عندما تقدمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكا ، قائلة لها ان المصنع لم يعد في حاجة اليها ، داعية اياها – باسم العمدة ايضا – الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تيناردييه وزوجته بخمسة عشر فرنكا بدلا من اثني عشر ، بعد ان سبق لهما ان فازا باثني عشر فرنكا بدلا من سبعة فرنكات .

وصعقت فانتين . لم يكن في مستطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من اجر الغرفة وثمن الاثاث، وما كانت الخمسون فرنكا لتغطي ذلك الدين . وتهدج صوتها ببضع كلمات متوسلة ، فافهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . فما كان منها الا ان غادرت المصنع يغمرها الخجل اكثر مما يغمرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد اصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع .

ولم تؤانس في نفسها القدرة على ان تنطق بكلمة . ولقد اشير عليها بأن

تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد اعطاها العمدة خمسين فرنكا ، لانه كان خيرا ، وطردها من المصنع لانه كان مستقيما . لقد اذعنت لذلك القرار .

٣

ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وتلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا فى النادر النادر .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة فى بيوت المنطقة . لقد طرقت ابواب المنازل بابا اثر باب . ولكن احدا لم يكن راغبا فيها .

وبدأت تصنع قمصانا خشنة لجنود الحامية ، كاسبة بذلك اثني عشر « سو » يوميا . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفى هذه الفترة بالذات شرعت تقصر فى اداء ما عليها الى تيناردييه وزوجته فى ميقاته المحدد .

وفى محنتها تلك كان خليقا بابنتها لو كانت الى جانبها ، ان تدخل على فؤادها سعادة عجيبة . وفكرت فى ان تبعث فى طلبها . ولكن ماذا ؟ اتريد ان تقاسمها حرمانها ؟ والى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبيل الى ان تفيهما دينهما ؟ والسفر . كيف السبيل الى أن تدفع نفقاته .

وفى بادىء الامر ، كانت فانتين تستشعر الخجل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها . وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل أن الناس يتلفتون خلفها ويومئون اليها . لقد نظر اليها كل انسان ، ولكن احداً لم يلق عليها السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحاد البارد الى جسدها وروحها وكأنه ريح شمالية .

والحق انه تعين عليها ان تتعود الاحتقار كما تعودت الفقر . وشيئا بعد شيء حفظت دورها . وبعد شهرين او ثلاثة ، نفضت عنها العار وعاودت الخروج من غرفتها وكأن لم يكن شيء . لقد قالت فى ذات نفسها : « لست ابالي بعد اليوم » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة راسها مبتسمة ابتسامة مريرة ، شاعرة بان ماء الحياة عندها قد بدأ يجف .

وارهق العمل الموصول صحة فانتين، واصبحت تسعل سعالا جافاقويا.

كانت فانتين تكسب اقل مما ينبغي . وكانت ديونها قد تضخمت . وامطرها تيناردييه وزوجته ــ بعد ان قصرت عن دفع المال اليهما ــ برسائل متلاحقة فطرت محتوياتها فؤادها، واستنفدت نفقاتها البريدية اخر دريهماتها. وذات يوم ، كتبا اليها ان صغيرتها كوزيت ليس عندها شيء من الملابس

تستعين به على برد الشتاء ، وانها فى حاجة الى تنورة من الصوف ، وان على امها ان تبعث اليهما بعشرة فرنكات على الاقل فى هذه السبيل . لقد تلقت الرسالة وراحت تسحقها بيديها طوال النهار . حتى اذا هبط الليل شخصت الى دكان حلاق عند زاوية الشارع ، ونزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشقر الرائع حتى خصرهـا .

وصاح الحلاق : « يا له من شعر جميل ! »

فقالت : « كم تدفع فيه ؟ »

ــ « عشرة فرنكات . »

ــ « قصـــه . »

واشترت تنورة مزرودة وبعثت بها الى تيناردييه وزوجته .

واثارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المال هو طلبهما . وقدما التنورة الى ايبونين . وظلت القبرة المسكينة ترتجف .

وقالت فانتين فى ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البرد . لقد البستها من شعري ثوبا . واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطت راسها المجزوز . وبرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة . »

واعتملت فى فؤاد فانتين لواعج مظلمة .

واتخذت لها خليلا . كان هو الوافد الاول . انها لم تحبه ولكنها عاشرته بدافع من التبجح والمباهاة الفارغة ، وقد عصف الحنق بفؤادها . كان رجلا شقيا ــ شبه موسيقي متسول ــ رجلا كسولا ذا اطمار بالية ، اوسعها ضربا ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته فى اشمئزاز .

كانت تعبـد ابنتهـا .

وكلما امعنت فى الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها اظلاما ، تعـاظم اشراق هذا الملاك الصغير العذب فى فؤادها . ولكن السعال لم يفارقها ، وكان جسدها يتصبب فى الليل عرقـا .

وذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت مصابة بمرض من الامراض الوبائية . انها الحمى العسكرية ، كما يدعونها والادوية الضرورية غالية جدا . وما لم تبعثي الينا باربعين فرنكا فى خلال اسبوع فان الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وهبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضة واثبة .

وفيما هي تجوز بالساحات رات جمهرة من الناس محتشدة حول عربة ذات شكل غريب وقد وقف فى اعلاها خطيب يرتدي ملابس حمراء . كـان مشعوذا يلهي الناس باعمال الرشاقة وطبيب اسنان متجولا ، وكان يعـرض

على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ، والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القوم على هذا الخطاب الذي اختلطت فيه العامية الموجهة الى الرعاع ، بالرطانة الموجهة الى اصحاب الوجاهة . ورأى قالع الاسنان هذه الفتاة الجميلة الضاحكة ، وصاح فجأة : « ان لك اسنانا رائعة ايتها الفتاة الضاحكة ، هناك ! اذا بعتني سنيك القاطعتين اعطيك ليرة ذهبية مقابل كل منهما . »

فسألته فانتين : « ما هذا ؟ ما هما سناي القاطعتان . »

فاستطرد استاذ طب الاسنان قائلا : « السنان القاطعتان هما السنان الاماميتان ، السنان الاماميتان من الفك الاعلى . »

فصاحت فانتين : « يا للفظاعة . »

ولكنها ما لبثت ان وافقت . فقلع الطبيب سنيها واعطاها ليرتين ذهبيتين .

وارسلت الاربعين فرنكا الى مونفيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تيناردييه وزوجته . ان كوزيت لم تكن مريضة .

وتعاقبت عليها طلبات تيناردييه وزوجته . وهدداها بطرد ابنتها اذا لم ترسل اليهما مئة فرنك فى الحال .

فقالت : « حسن ، سوف ابيع ما بقي لي . »

وامست المخلوقة البائسة بنتا من بنات الهوى .

وحكم عليها بالسجن ستة اشهر بتهمة الاعتداء على شاب غني حاول ان يسخر منها ويضع الثلج فى صدرها . وكان الذي القى القبض عليها هو جافير .

وقبل ذلك ببضع دقائق كان رجل قد دخل مخفر الشرطة من غير ان يلحظه احد . كان قد اغلق الباب ووقف موليا اياه ظهره وكان قد سمع توسلات فانتين اليائسة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي ابت ان تنهض ، تقدم خطوة الى الامام ، خارجا من الظلمة ، وقال : « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين فى ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه الا ان نزع قبعته ، وانحنى فى ضرب من الارتباك المغضب : « عفوك ، يا سيدي العمدة .... »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب فى نفس فانتين .

فوثبت على قدميها فى الحال ، وكانها شبح ينبثق من باطن الارض ، وردت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعا مباشرا الى مسيو مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحدقت اليه على نحو موصول ، بنظرة ضارية وصاحت: « آه ، فانت اذن السيد العمدة ! »

ثم انها انفجرت بالضحك ، وبصقت فى وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال : « ايها المفتش جافير ، اطلق سراح هذه المراة . »

ونشأت مشادة بين الرجلين اضطر جافير اثرها الى ان يطلق سراح فانتين .

وقال لها مسيو مادلين فى تؤدة : « لقد سمعت كلامك . لم اكن اعرف شيئا مما قلته . ولقد كنت اجهل انك تركت العمل فى مصنعي . لماذا لم تراجعيني فى ذلك ؟ ولكن اسمعي . سوف ادفع ديونك ، سوف آتيك بابنتك، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، أو فى باريس ، او فى اي مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية بك وبطفلتك . انك لن تشتغلي بعد اليوم، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . ولسوف تصبحين امراة فاضلة كرة اخرى بان تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فاني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلا : اذا كان كل شيء كما وصفت ولست اشك فى هذا ، فانك ما زلت فاضلة طاهرة امام الله . اوه ايتها المراة الشقية ! »

جافير

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم فى منزله نفسه . لقد عهد الى الراهبتين فى امر العناية بها ، فوضعتاها فى السرير . وحوالي الظهيرة من اليوم التالي استيقظت فانتين . لقد سمعت تنفسا قرب سريرها ، فازاحت الستارة ، فرات مسيو مادلين واقفا يحدق الى شيء فوق رأسه . كانت نظرته مفعمة بالالم النفسي الشفوق المتوسل . وتابعت اتجاه نظرته هذه فوجدت انها كانت مسددة الى تمثال المصلوب المسمر على الجدار .

ومن تلك اللحظة خلق مسيو مادلين خلقاً اخر فى عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسوا بالضياء . كان مستغرقا فى ضرب من الصلاة . وحدقت اليه فترة طويلة من غير ان تجرؤ على مقاطعته . واخيرا قالت فى خوف :

ـ « ما الذي تفعله ؟ »

ـ « كيف حالك ؟ »

فقالت : « حسنة جدا . لقد نمت . اظن اني اتحسن . لن يكون هذا شيئا . »

ثم انه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه فى البدء ، وكأنما سمعه اللحظة : « انا اصلي للشهيد الذي فى الاعالي . »

ثم اضاف بينه وبين نفسه : « للشهيدة التي فى هذا العالم . »

وقضى مسيو مادلين الليل والصباح مستطلعا . لقد غدا عارفا كل شيء ، لقد غدا عارفا قصة فانتين بكامل تفاصيلها الموجعة .

وتابع كلامه : « لقد كابدت كثيرا ، ايتها الام المسكينة . اوه ، لا تنتحبي. لقد فزت الان بنصيب المختارين من الناس . وانما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . انها ليست خطيئتهم على الاطلاق . انهم لا يعرفون كيف

يبداون على نحو اخر . ان هذا الجحيم الذي خرجت منه هو الخطوة الاولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدا من هنا . »

واطلق زفرة عميقة . اما هي فابتسمت تلك الابتسامة الرفيعة التي تعوزها سنان .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة له بمئة وعشرين فرنكا . ولقد ارسل اليه ثلاثمئة فرنك طالبا منه ان يقتطع ديونه منها ، وينقل الطفلة فى الحال الى مونتروي سور مير لان امها المريضة تريد ان تراها .

واوقعت هذه الرسالة الدهش فى نفس تيناردييه .

وقال لزوجته : « يا للشيطان ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . ان الفتاة المهزولة سوف تصبح بقرة حلوبا . واحسب أن رجلا احمق قد فتن بالام . »

واجاب بأن ارسل فاتورة بخمسمئة وبضعة فرنكات كتبت كتابة حسنة. وقد ظهر فى هذه الفاتورة بيانان لا ريب فى صحتهما بما يزيد على ثلاثمئة فرنك ، احدهما من طبيب والاخر من صيدلي عالجا ايبونين وآزيلما وقدما الادوية اليهما خلال مرضين طويلي الاجل . ذلك بان كوزيت لم تكن مريضة كما راينا . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف فى الاسماء . وكتب تيناردييه في ادنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثمئة فرنك على الحساب . »

وفى الحال ارسل مسيو مادلين ثلاثمئة فرنك اخرى وكتب قائلا :«عجل باعادة كوزيت . »

فقال تيناردييه : « يا للمسيح ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . »

ولم تشف فانتين فى غضون ذلك . كانت لا تزال فى المستشفى .

ووفد مسيو مادلين لرؤيتها مرتين يوميا ، وكل مرة كانت تسأله : « هل سأرى كوزيت قريبا ؟ »

فيجيبها : « ربما ترينها غدا . انا اتوقع مجيئها كل لحظة . »

وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .

وتقول : « آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا ان صحتها اخذت تتقهقر اسبوعا بعد اسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سببت انقطاع العرق على نحو فجائي فاذا بالداء الذي كان كامنا فيها منذ عدة سنوات يهاجمها اخر الامر فى عنف . وفحص الطبيب رئتيها وهز راسه .

وسأله مسيو مادلين : « وبعد ؟ »

فقال الطبيب : « اليس لها طفلة ترغب فى أن تراها ؟ »

ـ « نعـم . »

ـ « حسـن . اذن عجلوا فى الاتيان بها . »

وقال مسيو مادلين : « سوف ارسل شخصا يجيئني بكوزيت . واذا اقتضى الامر فسوف اذهب انا نفسي . »

واملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« مسيو تيناردييه

سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالـة .

انه سوف يدفع اليك جميـع الديون الصغيرة .

لي الشرف ان احييك فى احترام . »

« فانتين »

وفي غضون ذلك اعترضت مسألة خطيرة . فمهما نعمل على اجادةنحت الكتلة التي تتألف منها حياتنا فان عرق القضاء الاسود يبرز فيها دائما .

فذات صباح كان مسيو مادلين فى مكتبه يسوي مقدما شؤون وظيفته الملحة مخافة ان يضطر للسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما ابلغ ان جافير ، مفتش الشرطة يريد ان يتحدث اليه . حتى أذا سمع مسيو مادلين هـذا الاسم لم يستطع ان يكبت انطباعة كريهة . فمنذ حادثـة مكتب الشرطـة وجافير يجتنبه اكثر من ذي قبل ، فلم يره مسيو مادلين قط .

وقال : « دعه يدخل . » ودخل جافير .

ـ « حسـن ... ماذا تريد ؟ ما المسألة يا جافير ؟ »

وظل جافير صامتا ، لحظة ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوتـه في خشوع حزين لم تعوزه البساطة ، برغم ذلك : « لقـد اقترف عمـل اجرامي ، يا سيدي العمدة . »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « لقد اظهر احد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، علـى نحـو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقـد جئت ، يحدوني واجبي ، لـكي احيطـك بذلك علمـا » .

فسأله مسيو مادلين : « ومن هو ذلك العامل ؟ »

فقال جافـير : « انـا . »

ـ « انـت ؟ »

ـ « انـا . »

ـ « ومن هو الحاكم الذي ينبغي ان يشكو هذا العامل ؟ »

– « انت ، يا سيدي العمدة » .

وتصدر مسيو مادلين في كرسيه. وتابع جافير كلامه في انطباعة صارمة، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض : « سيدي العمدة . لقد جئت لكي ارجوك ان تتلطف غاية التلطف وتغري السلطة بصرفي من الخدمة » .

– « آه هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا الهراء كله ؟ ما معنى هذا ؟ واي عمل اجرامي ارتكبته ضدي ؟ ما الذي عملته لي ؟ كيف اذنبت في حقي ؟ انت تتهم نفسك . اتريد ان نسند منصبك الى رجل اخر ؟ »

فقال جافير : « اريد ان اسرح من الخدمة . »

– « فلتسرح ، اذن . هذا غريب جدا . انا لا افهم . »

– « سوف تفهم ، يا سيدي العمدة . »

وزفر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن وبرود : « ياسيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادة حول تلك الفتاة استبد بي الغضب فشكوتك . »

– « شكوتني ! »

– « الى مديرية الشرطة في باريس . »

– « بوصفي عمدة أعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »

– « بوصفك رجلا حكم عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . »

وغدا وجه العمدة ازرق ضاربا الى السواد .

وتابع جافير قائلا : « لقد اعتقدت ذلك . فمنذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعتها في فافيرول ، وقوتك الهائلة ، ومسألة فوشلوفان العجوز وبراعتك في الرماية ، ورجلك المتثاقلة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحماقات الاخرى . ولكني حسبتك في اخر الامر ، رجلا يدعى جان فالجان . »

– « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »

– « جان فالجان . كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة رايته منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكوم عليهم بتلك الاشغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا السجن سرق فيما يبدو قصر احد الاساقفة ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عام، وكان المسروق غلاما من غلمان سافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متوار ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . – وبالاختصار ، قمت بهذا العمل . وانما حملني الغضب على ان اقرر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة » .

– « وبماذا اجابوك ؟ »

ـ « بانني معتــوه . »
ـ « ثــم مــاذا ؟ »
« انهم على صواب . »
ـ « من حسن الحظ ان تعتقد ذلك ! »
ـ « يجب ان اعتقد . لان جان فالجان الحقيقي قد وجد . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممسكا بها ، من يده . ورفع راسه ونظر الى جــافير على نحو موصول ، وقــال في نبرة لا سبيــل الى وصفها : « آه ! »

وتابع جافير حديثه : « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يــا سيــدي العمدة . يبدو انه كان ثمة في المنطقة ، قرب « آي ـ لو ـ هو ـ كلوشيه » رجل بسيط يدعونه الاب شانماتيو كان فقيرا جدا . ولم يكن احــد يلتفت اليه . ان المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيرا ، في هــذا الخريف ، اعتقل الاب شانماتيو لسرقته شيئا من التفاح الذي تصنع منــه الخمر ، في . . . ، ولكن هذا لا يهم . لقد وقعت سرقة ، وتسور شخص ما جدارا ، وكسر اغصانا . واعتقل صاحبنا شانماتيو . كان يحمل حتى في ذلك الحين غصنا من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل الحقير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن العناية الالهيــة مــا لبثت ان تدخلت . ذلك بان السجن كان في حالة سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن المديرية . وفي ذلك السجــن كــان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعى بروفيه ادخل السجن لذنب طفيف لا ادريه ثم جعل لحسن سلوكه سجانا . ولم يكد المقام يستقر بشانماتيو حتى صاح بروفيه : « ها : ها ! انا اعرف هذا الرجل . انه واحد ممن قدر لهم ان يدخلوا سجن الاشغال الشاقة . انظر جيدا ، ايها الرجل الطيب . انت جان فالجان ! » فقال له الرجل « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان هذا؟» وتظاهر شانماتيو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل . أنــت جــان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولون . كان ذلك منذ عشرين عاما . وكنا هناك معا . » وانكر شانماتيو . يا الهي ؟ وتعمقوا المسألــــة . وبحثوا ونقبوا ، فاكتشفوا ما يلي : لقد كان شانماتيو هذا قبل ثلاثين عاما ، مشذب اغصان في اماكن متعددة ، وخاصة في فافيرول . وهناك نفتقد اثره . وبعد فترة طويلة نجده في اوفيرني ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع عربات ، وانه كانت له بنت عملت غسالة ، ولكن ذلــك شيء لم يقــم عليــه دليل ، واخيرا وجدناه في هذه المنطقة . والان قبل ان يساق الى سجــن

المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة. ماذاكان جان فالجان؟ مشذب اغصان . اين ؟ في فافيرول . وشيء اخر . كان اسم المعمودية عند فالجان هو جان ، وكان اسم اسرة امه ماتيو . وطبيعي جدا ان يكون عند خروجه من السجن قد إتخذ اسم امه اخفاء لهويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفا بـ « جان ماتيو » . ويذهب الى اوفيرني وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، اليس كذلك ؟ ثم اجريت مباحث في فافيرول . ان اسرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الاسر على هذا النحو كثيرا ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فحين لا يكون هؤلاء القوم وحلا يكونون غبارا . واذا كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فافيرول الان من يعرف جان فالجان ولكن تحقيقات قد اجريت في طولون . فباستثناء بروفيه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . انهما من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشباي » و « شونيلديو » . وجيء بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالا ، كما قال بروفيه، انه جان فالجان . فالعمر واحد – اربع وخمسون سنة – والطول واحد ، والشكل واحد،والاثنان في الواقع رجل واحد. انه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس. وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق ، فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليمثل امامي . »

فقاطعه مسيو مادلين : « ماذا ؟ »

فاجابه جافير ، بوجه عفيف محزون : « سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جدا ، ولكن ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفته انا ايضا . »

فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جدا : « اواثق انت من ذلك ؟ »

وبدا جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايمان العميق : « انا واثق » .

ــ « ومتى ستنظر المحكمة في هذه المسالة ؟ »
ــ « غــدا ، وان علي ان اسافر الى آراس هذه الليلة » .
واتى مسيو مادلين بحركة لا تكاد تلحظ .
ــ « وكم ستستغرق هذه المسالة ؟ »
ــ « يوما واحدا على الاكثر . ولسوف يلفظ الحكم غدا مساء عــلى الابعد . ولكني لن انتظر صدور الحكم فهو راهن لا شك فيه . فما ان ادلي بشهادتي حتى ارجع الى هنا . »
فقال مسيو مادلين : « حسن . »
واذن له بالانصراف بحركة من يده .

قضيّة شانماتيو (١)

١

ما ان سمع مسيو مادلين بقصة شانماتيو حتى استشعر ان من واجبه انقاذه ، ان من واجبه ان يقول للقضاة ان شانماتيو هذا ليس جان فالجان ، وان جان فالجان ليس الا مسيو مادلين نفسه ، كما قد حزر القارىء من غير شك .

وشخص الى غرفته فتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى فى النار رزمة من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صغار التجار. وكتب رسالة ، وختمها ، وكان في ميسور المرء أن يقرأ على ظاهر ظرفها — لو كان فى الغرفة أحد انذاك : الى مسيو لافيت، مصرفي ، شارع آراتوا، باريس.

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق المالية وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسه للاشتراك في الانتخابات .

ولو ان امرءا رآه فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمثل ذلك التأمل الوقور اذن لما ارتاب في ما كان يعتمل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكان يرفع رأسه في بعض الاحيان ويسمر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأنما وجد هناك بالضبط شيئا يريد ان يجلوه او يستنطقه .

واتم الرسالة الى مسيو لافيت، فوضعها هي والمحفظة في جيبه، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغير . كان لا يزال يرى واجبه مكتوبا على نحو واضح باحرف ساطعة ، كانت تتوهج امام عينيه ، وتتحرك مع نظرته : « اذهب ! اعترف باسمك ! اتهم نفسك ! »

كان مفعما بالذعر ، ولكن بدا ان التفكير الخير في سبيله الى الانتصار.
لقد استبشعر انه بلغ حركة ضميره وقدره الثانية الحاسمة . وان الاسقف كان قد طبع الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شانماتيو هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي المحنة الكبرى .
وفي غضون ذلك عصفت به حمى شديدة ، والتمع فيذهنه الفخاطر، ونكنها لم تزد عزمه الا رسوخا .
وكان قد قال لحظة : لعلي انظر الى القضية ، بأكثر مما تستحق من الحماسة وان شانماتيو لم يكن على اية حال جديرا بالاهتمام ، وانه قد سرق فعلا .
واجاب نفسه بقوله : اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلا،بضع تفاحات فمعنى ذلك انه سوف يسجن شهرا . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن من يدري ؟ هل سرق؟هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان يثقل كاهله . ويبدو كأنه في غير حاجة الى الدلائل والبينات . اليس من عادة النواب العامين أن يتصرفوا على هذا النحو ؟ انهم يحسبونه لصا ، لانهم يعرفون انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .
وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز انتشفعبه بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنواتوالخدمات التي اداها الى المنطقة ، فيعفى عنه .
ولكن هذا الفرض ما لبث ان تلاشى . وابتسم فيمرارة حين فكر ان سرقة الاربعين « سو » من جيرفيه الصغير قد جعلته ذا سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه سوف يحكم عليه ، وفقا لنصوص القانون الحرفية ، بالاشغال الشاقة مدى الحياة .
واشاح بوجهه عن الاوهام كلها ، فاصلا نفسه اكثر فاكثر عن هذه الارض ، ملتمسا العزاء والقوة في مكان اخر . لقد قال لنفسه ان عليه ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد قيامه بواجبه منه بعد التهرب من القيام بهذا الواجب ، وانه اذا ترك المسألة وشأنها ، اذا ظل في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ، وشهرته الحميدة ، واعماله الخيرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ، واحسانه الى الفقراء ، وثروته ، وشعبيته ، وفضيلته ــ كل هذه سوف تلوث بجريمة . واي متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة حين توثق بذلك الشيء البشع! على حين انه اذا اقدم علىالتضحية المطلوبةمنه فعندئذ تمازجهفكرة سماوية

برغم وجوده في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، وغله، وقلنسوته الخضراء ، وعمله الذي لا يعرف الانقطاع وعاره الذي لا يعـرف الرحمـــة !

واخيرا قال لنفسه ان تلك ضرورة ، وان قدره قد صيغ عـلى هـذا الشكل ، وانه لا يستطيع ان ينقض تدبير الله ، وان عليه ان يختار ، مهمـا تكن الاحوال ، احدى خطتين : اما الفضيلة الظاهرية والخباثة الباطنية ، واما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .

ولم تضعف شجاعته فيما هو يدير فى ذهنه هذه الفكرات القاتمة كلها ، ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في اشياء قليلة الغنـاء .

واندفع الدم عنيفا الى صدغيه . وذرع الغرفة جيئة وذهوبا على نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصاف الليل،اولا ، ثم اعلنته بعدها ساعـة دار البلدية .

وسرى البرد في اوصاله . واوقد نارا .ولم يخطر بباله ان يـوصد النافـــذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهوله ، كرة اخرى . ولم يكن الجهـد الذي احتاج اليه لكي يذكر اي شيء كان يفكر فيه قبل ان تدق الساعتان ، جهـدا يسيرا . ووفق الى ذلك ، اخر الامر .

وقال : « آه ! اجل . لقد اتخذت قرارا يقضي بأن اتهم نفسي . »

ثم انه فكر ، فجاة ، بفانتين .

وقال : « قف ! وهذه المراة المسكينة » .

ونشأت ههنا ازمة جديدة .

كانت فانتين ، وقد برزت فجأة في هواجسه ، اشبه شيء بشعاع من ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغير مظهره . وصاح : « آه ! نعم،حقا، انا لم افكر حتى الان الا بنفسي ، انا لم انظر الا الى ما يوافقني ، لقد درست ما اذا كان يتعين علي ان اعتصم بالصمت ام اشكـو نفسي الى السلطة ، ان اواري جسدي ام انقذ روحي ، ان اكون حاكما حقيرا ومحترما ام ان اكون سجينا مرذولا وموقرا . وكلها اسئلةتدور حول نفسي. نفسي دائما . ونفسي ليس غير . ولكن ، يا الهي ، هذا كلـه انانيـــة ، اشكال مختلفة من الانانية ، ولكنها انانية على كل حال ، هلا فكرت قليلا في غيري ؟ فلننظر ، فلندرس ! لنفرض اني وليت ، اني نسيت ، فما الذي ينشأ عـن ذلك كله ؟ ــ اذا اتهمت نفسي واستسلمت للقضاء؟انهم سوف يعتقلونني

انهم سوف يطلقون سراح شانماتيو هذا ، انهم سوف يعيدونني الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . حسن جدا. ثم ماذا؟ ما الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، حيث توجد منطقة ومدينة ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء، واجداد عجائز ، واطفال ، واناس مساكين ! لقد خلقت هذا كله . فحيثما ينطلق الدخان من مدخنة كنت انا الذي وضع الحطب في النار ، واللحم في القدر . لقد احدثت الرخاء والنشاط ، والثقة . قبلي لم يكن شيء . لقد رفعت ، واعمرت ، وانعشت ، واخصبت ، وانهضت ، واغنيت البلاد كلها . اذا ذهبت انا فقدت روح البلاد . واذا زلت انا مات كل شيء . وهذه المراة التي قاست كثيرا ، الفاضلة في سقوطها، والتي سببت على غير وعي مني بلاءها كله ، وتلك الطفلة التي كنت ذاهبا اليها ، والتي وعدت الام باعادتها اليها ! الست مدينا ايضا لهذه المراة بشيء ، تعويضا عن الاذى الذي انزلته بها؟ فاذا تواريت عن مسرح الاحداث ، فما الذي يحدث ؟ ان الام سوف تموت . وان الطفلة سوف تصبح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا ما شكوت نفسي الى القضاء . واذا لم اشك نفسي ؟ فلادرس هذا الوضع — اذا لم اشك نفسي ؟

وتمهل بعد طرح هذا السؤال . لقد تردد لحظة وارتجف . ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد اجاب في هدوء : « حسن ، آن هذا الرجل سوف يساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . هذا صحيح. ولكن اي بأس في ذلك ؟ لقد سرق ! ومن العبث الذي لا طائل تحته ان ازعم انه لم يسرق، لقد سرق ! اما انا فابقى هنا ، سوف اتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى اوفق الى ان اكسب عشرة ملايين . ولسوف انثر هذه الملايين في البلاد . انا لن ابقي شيئا لنفسي ، ان رفاهية الجميع سوف تزداد تعاظما ، وان الصناعات سوف تنهض وتتسابق ، وان المصانع والمعامل سوف تتضاعف ، وان الاسر ، مئات الاسر ، الاف الاسر ، سوف تسعد . ان المنطقة ستصبح آهلة بالسكان ، وان القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد شيء . ان الفقر سيزول ، وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبغاء ، والسرقة ، والقتل ، ستزول جميع الرذائل ، ولسوف يكون في ميسور هذه المراة المسكينة ان تربي طفلتها ، وتصبح المنطقة كلها غنية وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي ! ما هذا الكلام الذي كنت اقوله حول اتهام نفسي ؟ يجب ان اصطنع الروية وان لا اتهور . »

ونهض واستانف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع .

وفكر : اجل ، تلك هي ، اني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدت

الحل . يجب ان انتهي بالتشبث بشيء . لقد اخترت سبيلي . دع المسالة وشأنها . كفى ترددا . كفى تراجعا ، هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصلحتي الشخصية . انا مادلين ، ولسوف ابقى مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحدا . انا لا اعرف هذا الرجل ، انا لم اعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصا ما هو جان فالجان في هـذه الساعة فليدبر امره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . انه اسم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على راس رجل ما فلأم ذلك الرجل الهبل !

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة وقال : « هيا ، يجب ان لا اتردد امام اي من نتائج القرار الذي اتخذته . انه لا تزال ثمة بعض الخيوط التي تشدني الى جان فالجان هذا . هذه الخيوط يجب ان تقطع . ان ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تتهمني ، اشيـاء خرساء يمكن ان تشهد علي . لقد سويت هذه المسألة ، وينبغي أن تختفي تلك الاشياء كلها . »

وبحث في جيبه، وسحب كيس نقوده ففتحه، واخرج منه مفتاحا صغيرا.

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، وفتح بابا سريا ، فاذا خلفه ضرب من الخزانة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار وبرقع المدخنة . ولم يكن في ذلك المخبأ غير بعض الخرق البالية : قميص من نسيج ازرق خشن ، وبنطلون عتيق ، وجراب قديم ، وعصا زعرورية ضخمة طوق طرفاها بالحديد . ان اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة ديني في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقا بهم ان يتبينوا ، في يسر ، بقايا هذا الزي البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشمعدانين الفضيين ، لتذكره دائما بنقطة انطلاقه . ولكنه اخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقة ، واظهـر الشمعدانين اللذين حملهما من لدن الاسقف .

والقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان ينفتح برغم الحديد الذي يوصده . وبحركة نشيطة مفاجئة طوق هذه البقايا كلها بذراعيه، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها — وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معرضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات — وقذف بهـا جميعا ، الاسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

واغلق الخزانة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي امست منذ ذلـك الحين غير ذات غناء بعد ان افرغها من محتوياتها ، وخبأ الباب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، اضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قوي احمر

مرتعش . كان كل شيء يشتعل . وفرقعت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الخرق الراعبة فقد خلف شيئا عاريا التمع في الرماد . ولو قد انحنى احد فوق ذلك الشيء اذن لتبين ، في يسر ، قطعة فضية . كانت هي غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سلبت من الفلام السافوائي الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرع الغرفة جيئة وذهابا ، محافظا دائما على السرعة نفسها .

وفجأة وقعت عيناه على الشمعدانين الفضيين اللذين التمعا ، على نحو باهت فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليهما .

وفكر : « قف ! ان جان فالجان لا يزال ضمن هذين ايضا . ينبغي ان يتلفا مثل غيرهما . »

وتناول الشمعدانين . كان ثمة نار كافية لاذابتهما الى ضرب من السبيكة لا تعرف الا بشق النفس . وانحنى فوق النار ، وتدفأ لحظة . واستشعر الهناءة حقا ...

وقال : « يا للدفء العذب ! »

واثار الجمرات باحد الشمعدانين .

وما هي الا دقيقة حتى يكونا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا انه سمع صوتا يصيح في داخله : « جان فالجان! جان فالجان ! »

وقف شعر راسه . كان اشبه برجل يسمع شيئا فظيعا .

وقال الصوت : « اجل . هكذا . اتم ، اكمل ما انت فاعله ! اتلف هذين الشمعدانين ! امح هذا التذكار ! انس الاسقف ! انس كل شيء ! اقض على شانماتيو هذا . حسن جدا . صفق لنفسك ، وهكذا سوي الامر ، واتخذ فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدري ما الذي يتهمونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئا ، هوذا بريء انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وانقض اسمك ظهره مثل جريمة من الجرائم ، هوذا بريء سوف يؤخذ بدلا منك ، سوف يدان ، سوف يقضي ايامه في الذل والذعر ! حسن جدا . كن انت رجلا مبجلا . ابق السيد العمدة ، ابق شريفا ومشرفا ، اغن المدينة ، اطعم الفقراء ، نشيء الايتام ، عش سعيدا ، فاضلا محوطا بايات الاعجاب . وطوال هذه الفترة التي ستنعم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل يرتدي قميصك الاحمر ، ويحمل اسمك في

الخزي والعار ، ويجر اغلالك في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . اجل ! لقد سويت المسألة تسوية حسنة . آه ... مسكين ! »

وتحدر العرق من جبينه . ونظر الى الشمعدانين بعين شاردة . ولم يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :

« جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة تحدث ضجة كبيرة ، وتتكلم بنبرة عالية جدا ، وتباركك ، وصوت واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ، ايها الرجل المرذول ! ان هذه البركات كلها سوف تسقط قبل ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي ستصعد حتى تنتهي الى الله . »

واعلنت الساعة الثالثة . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ومن غير انقطاع تقريبا ، عندما انطرح على كرسيه . واستسلم للرقاد ، وانشأ يحلم .

واستيقظ فجأة . كان مثلوجا . وكانت ريح باردة كريح الصباح قد جعلت اطر النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزاتها . كانت النار قد خمدت وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ اخر انفاسها . وكان الليل لا يزال حالكا .

ونهض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم . ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطل على فناء البيت وعلى الشارع. وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلجلة تؤذي الاذن ، فخفض بصره .

لقد رأى تحته كوكبين احمرين كانت اشعتهما تتراقص جيئة وذهوبا ، على نحو عجيب ، في الظلام .

كان عقله ما يزال نصف مغيب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه : « اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . انها على الارض الان . »

بيد ان هذا الاختلاط ما لبث ان تبدد . وايقظته ضجة اخرى شبيهة بالاولى ايقاظا كاملا . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وفي الحال تذكر مسيو مادلين انه كان قد كلف احد سائقي العربات بان يوافيه في الساعة الخامسة صباحا بعربة مكشوقة تحمله الى آراس .

واسرعت اليه بوابته العجوز تسأله : « سيدي العمدة ، لقد اقبلت الان عربة ، يقول صاحبها انك طلبت اليه ان توافيه بها الى هنا. فماذا اقول له ؟ »

فتردد العمدة لحظة ثم اسرع الى القول : « قولي ان ذلك حسن ، وانني اهبط السلم . »

وامتطى العمدة متن تلك العربة وانطلق بها كالبرق نحو آراس .

وعند الفجر بلغ الارض الفضاء . كانت مدينة مونتروي سور مير قد خلفت وراءه على مسافة بعيدة .

وبسبب من شدة السرعة اصيبت العربة بأذى بالغ ، فاضطر مسيو مادلين الى التوقف قليلا واستئجار عربة غيرها .

والهب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خبب خاطف .

كان قد اضاع كثيرا من الوقت ، وكان يريد ان يعوض ما اضاعه ، ولكن الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد هطل ، وكانت الطرق رديئة . وفوق هذا فلم يعد هو على متن عربته الاولى . كانت العربة الجديدة تمضي في عسر ، وكانت ثقيلة جدا . والى هذا فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

وهكذا اضطر الى ان يستأجر عربة ثالثة !

٢

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جذل .

كانت قد قضت ليلة سيئة جدا . سعال مروع ، وحمى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين اقبل الطبيب، كانت تهذي . كان قلقا ، وكان قد طلب ان يحاط علما بمجيء مسيو مادلين حالما يتم ذلك .

وكلما سألتها الراهبة المرضة عن حالها كانت تجيبها جوابا لا يتغير :

ــ « بخير . اريد ان ارى مسيو مادلين » .

وعند الظهيرة ، اقبل الطبيب كرة اخرى ، وترك بعض الوصفات ، وسأل عن العمدة هل وفد على المستشفى ام لا ، وهز رأسه .

كان من عادة مسيو مادلين ان يفد في الساعة الثالثة ليرى المرأة المريضة. واذ كانت الدقة من الرفق ، فقد كان دقيقا في المواعيد .

وحوالي الساعة الثانية والنصف نبأ الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين دقيقة سألت الراهبة اكثر من عشر مرات : «كم الساعة ، ايتها الاخت ؟ »

واعلنت الساعة الثالثة . ولم تكد تستكمل دقاتها حتى انتصبت فانتين في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها الا في عسر وشابكت يديها العجفاوين الصفراوين في ضمة تشنجية ، وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو وكأنها ترفع ثقلا ثقيلا . ثم ان فانتين التفتت ونظرت الى الباب .

ان أحدا لم يدخل . ان الباب لم ينفتح قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسمرة عينيها على الباب ، غير مبدية

حراكا وكأنما كانت تحبس انفاسها . ولم تجرؤ الراهبة على الكلام . واعلنت ساعة الكنيسة الثالثة والربع . وانطرحت فانتين على وسادتها .

ولم تقل شيئا ، وشرعت تثني غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكن احدا لم يأت . وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح على فراشها كرة اخرى .

واعلنت الساعة السادسة . وبدت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت وكأنها لا تعي اي شيء حولها .

ووجهت الراهبة فتاة لتسأل بوابة المصنع هل عاد مسيو مادلين ، وما اذا كان يعتزم المجيء الى المستشفى وشيكا ، ام لا ؟ ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

وفي همس ، روت الفتاة للاخت سيمبليس ان العمدة ارتحل ذلك الصباح نفسه ، على الرغم من شدة البرد ، وانه ارتحل وحده من غير ان يصطحب حتى سائقا ، وان احدا لم يعرف الطريق التي سلكها ، وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذا طريق آراس ، وان اخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ، وانه حين ارتحل بدا ، كعادته ، لطيفا جدا ، وانه اكتفى بان قال للبوابة ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفيما المرأتان تتهامسان ، صاحت فانتين : « انتما تتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمان بصوت منخفض جدا ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟ »

فقالت الراهبة : « ان السيد العمدة قد ذهب . »

ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتمعت عيناها . لقد اشرق فوق ذلك الوجه الموجع ابتهاج خارق .

وصاحت : « ذهب ! لقد ذهب ليأتيني بكوزيت . »

ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا محياها كله ممتنعا على الوصف . وتحركت شفتاها . كانت تصلي في صوت خفيض . حتى اذا انتهت صلاتها اردفت : « غدا ! غدا ! سوف ارى كوزيت غدا ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، انا لم اعد مريضة . انا مرحة . واني جديرة بأن ارقص اذا سألني امرؤ ان افعل . »

وما كان في ميسور من قدر له ان يراها قبل ربع ساعة أن يفهم هذا . كان لونها ورديا الان ، وكانت تتكلم في نبرة طبيعية تمور بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسمة . وبين الفينة والفينة كانت تضحك فيما هي تخاطب نفسها

في صوت خفيض . ان ابتهاج الام يكاد يكون مثل ابتهاج الطفل . وفجأة سكتت ولم تنطق بكلمة اضافية .

وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذ لم يسمع صوتا ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب من سريرها على رؤوس اصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء القنديل الباهت رأى عيني فانتين الواسعتين الهادئتين تنظران اليه .

وقال الطبيب : « اعطيني يدك . »

وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكة : « آه ! رويدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، انك لا تدري . ولكني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غدا . »

ودهش الطبيب . كانت في حال خير من ذي قبل . كان عسر التنفس قد خف وكان نبضها قد قوي . ان ضربا من الحياة الجديدة قد دب فجأة في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهوكة القوى .

وتابعت : « ايها الطبيب ، هل اخبرتك الراهبة ان مسيو مادلين ذهب ليجيء بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطبيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال اليم . ووصف لها نقيع الكينا الخالصة ، ناصحا ، اذا عاودتها الحمى ليلا ، بان تسقى دواء مسكنا .

٣

كانت الساعة الثامنة مساء ، تقريبا عندما بلغ مسيو مادلين فناء دار البريد في آراس . وترجل من العربة ورد على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهول واعاد الجواد الاضافي ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ، ثم دفع باب غرفة البليارد القائمة في الدور الاول ، وجلس على كرسي ، واسند مرفقيه الى الطاولة . كان قد انفق اربع عشرة ساعة في هذه الرحلة التي توقع ان يقوم بها بست ساعات ليس غير . واقر نفسه على ان الغلطة ليست غلطته ، اما في أعماقه ، فلم يكن غاضبا لذلك .

وبعد ان حجز لنفسه مكانا في مركبة البريد التي ستعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير راح يتمشى في المدينة .

وسأل احد عابري السبيل : « سيدي ، اين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فاجابه المواطن ، وكان رجلا عجوزا : « انت لست من ابناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، اتبعني . انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ؛

يعني الى دار البلدية ، ذلك لانهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالمحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتا . »

فسأله : « وهل تنعقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

— « من غير شك يا سيدي . »

وما هي الا فترة حتى وجد مسيو مادلين نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير وتناثرت جماعات من المحامين في اروابهم يتهامسون ههنا وههناك .

وكان احد الحجاب واقفا قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة ، فسأله مسيو مادلين : « سيدي ، هل سيفتح الباب قريبا ؟ »

فقال الحاجب : « الباب لن يفتح . »

— « كيف ! الن يفتح عند استئناف الجلسة ؟ الم ترفع الجلسة للاستراحة . »

فاجاب الحاجب : « لقد استؤنفت المحاكمة ولكن الباب لن يفتح كرة اخرى . »

— « ولم لا ؟ »

— « لان القاعة ملأى . »

— « ماذا ؟ الم يبق ثمة مقعد ؟ »

— « لم يبق مقعد واحد . والباب مقفل . وليس في استطاعة احد ان يدخل . »

وبعد صمت ، اضاف الحاجب : « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيد رئيس المحكمة ، ولكن السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة ان يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاه ظهره .

وفجأة فتح مسيو مادلين سترته واخرج محفظته ، وتناول قلما ونزع ورقة ، وكتب عليها في عجل هذا السطر : « **مسيو مادلين ، عمدة مونتروي سور مير** » ثم ارتقى السلم من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجموع ، وتقدم نحو الحاجب مباشرة ، وقال له في نبرة سلطان : « احمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »

وتناول الحاجب الورقة ، والقى نظرة عليها ، وامتثل الامر .

ومن غير ان يحتسب هو ذلك ، كان لعمدة مونتروي سور مير ضرب من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبقت شهرة فضيلته الافاق . فما ان فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك الباب الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، وانحنى خلف كرسي الرئيس مقدما اليه الورقة التي خط عليها السطر الذي

قراناه اللحظة مضيفا : « **هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة** » حتى اتى بحركة عجلى تنضح بالاحترام وتناول قلما ، وخط بضع كلمات في ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلا :

ـ « دعه يدخل . »

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفردا في شبه ردهة مطوقة بالخشب ، ذات مظهر صارم ، مضاءة بشمعتين اثنتين وضعتا على طاولة مغطاة بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه لا تزال ترن في اذنه : سيدي ، انت الان في غرفة المذاكرة وليس عليك الا ان تدير ممسك هذا الباب النحاسي لتجد نفسك في قاعة المحكمة خلف كرسي الرئيس .

وكان الحاجب قد تركه وحيدا ، وكانت اللحظة الحاسمة قد ازفت . وحاول ان يستجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك الساعات ، بخاصة ، حين نكون في امس الحاجة الى ان نلم بحقائق الحياة الموجعة تتقطع خيوط الفكر في الدماغ .

وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب الباب ، وامسك بالمقبض في تشنج ، وفتح الباب .

كان في قاعة المحكمة .

وخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفا متأملا ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضاءة اضاءة باهتة جدا ، يغمرها الضجيج حينا ويرين عليها الصمت حينا ، حيث كانت آلية الدعوى الجنائية كلها معروضة ، وبرزانتها الحقيرة الحدادية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون اروابا متهرئة يقضمون اظافرهم ، او يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جمهرة في اسمال بالية ، ومحامون في مختلف الاوضاع ، وجنود اولو وجوه محتشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوثة تطوق الجدران ، وسقف قذر ، وطاولات مغطاة بنسيج صوفي غليظ هو الى الصفرة اقرب منه الى الخضرة ، ابواب مسودة من اثر الايدي ، ومصابيح حانات ترسل الدخان اكثر مما ترسل النور معلقة الى مسامير دقت في خشب الجدران ، وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ، وظلمة وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعثت انطباعة كالحة جليلة . ذلك ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الاعين كلها مصوبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبي مسند الى باب صغير في محاذاة الجدار القائم الى يسار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي اضاءته عدة شموع ، كان رجل يحيط به اثنان من رجال الدرك .

كان ذلك الرجل هو المتهم .

انه لم يبحث عنه ، لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعي وكأنما كانتا تعلمان سلفا اين هو .

وخيل اليه انه يرى نفسه ، وقد تقدمت به السن ، وعلى شيء من التباين فى المحيا من غير شك ، ولكن فى شبه كامل من حيث الهيئة والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدقتين الصهباوين المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذاك الذي كان يرتديه يوم دخل مدينة ديني يملأه الحقد ، حاجبا في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة من الافكار المروعة التي سلخ تسعة عشر عاما فى جمعها فوق ارض السجن .

ـ « يا الهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟ »

لقد بدا هذا المخلوق فى الستين من عمره ، على الاقل . كان ثمة في مظهره شيء جاف ، مروع على نحو لا سبيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له فى مجال الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . واذ افترض ان الداخل هو عمدة مونتروي سور مير فقد حنى راسه تحية له . وكان النائب العام قد راى مسيو مادلين فى مونتروي سور حيث استدعي غير مرة بحكم وظيفته ، فعرفه وحنى رأسه تحية له ايضا . اما هو فكاد ان لا يلحظهما . كان فريسة لضرب من الهلوسة . وتأمل فى ما حوله .

واستبد به الذعر ، واغمض عينيه ، وصاح من اعماق روحه : «أبدا!»

وبلعبة فاجعة من لعب القدر التي كانت تثير افكاره كلها وتكاد ان تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ، لقد كان القوم كلهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود محجوبا عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا كانت قاعة المحكمة مضاءة اضاءة جد باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعته . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستثارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ، وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلا ـ كائنا

مجهولا ، مخلوقا بائسا ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود — يرزح شيئا بعد شيء تحت ثقل احتمال رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشردا عثر عليه في احد الحقول حاملا غصنا مثقلا بالتفاح الناضج ، كان قد انتزعه من شجرة في مزرعة مسيجة تدعى مزرعة بيرون . من كان هذا الرجل ؟ لقد اجري تحقيق ، وسمع الى شهود ، ولقد اجمعوا كلهم على رأي واحد ، وانبثقت اضواء من المناقشة كلها . وقال النائب العام في مطالعته : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من سراق الغلات قبل ان تحصد . ان بين ايدينا هنا قاطع طريق ، مجرما ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي فرضت عليه الاقامة فيه بعد خروجه من السجن ، نزيلا قديما من نزلاء سجن الاشغال الشاقة ، فاتكا من اخطر الفتاك ، شريرا يدعى جان فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل وكان قد ارتكب لثماني سنوات خلت ، لدن خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طولون ، سرقة في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضد غلام من سافوا يدعى جيرفيه الصغير ، وهي الجريمة المنصوص عليها في المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة بانزال اقصى العقوبة عندما تثبت الهوية قضائيا . لقد ارتكب الان سرقة جديدة . انها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . احكموا عليه لسرقته الجديدة . اما جريمته السابقة فسوف يقاضى من اجلها في ما بعد . »

ونهض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة «السيد النائب العام» على «مطالعته الرائعة» ثم رد عليه على قدر ما استطاع ، ولكن في نبرة ضعيفة. كان واضحا ان الارض مادت تحت قدميه .

وازفت لحظة اختتام المحاكمة . فاصدر الرئيس امره الى المتهم بان ينهض ، ووجه اليه السؤال المألوف :

« هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونهض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة رهيبة كانت معه . وبدا وكأنه لم يسمع .

وكرر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدا انه فهم . لقد اجفل مثل امريء يفيق من الرقاد، واجال عينيه في ما حوله، ونظر الى الجمهور، والى الدرك ، والى محاميه ، والى المحلفين ، والى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمين على الحاجز القائم امامه . ونظر كرة اخرى . وفجأة سمر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم منكرا كل هذه التهم معلنا براءته منها .

وقال النائب العام فى صوت فظ :

ـ « ايها المتهم، انتبه. انت لا تجيب عن شيء مما سئلت ان تجيب عنه. ان اضطرابك يدينك . من الواضح ان اسمك ليس شانماتيو ، وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المتستر بادىء الامر تحت اسم جان ماتيو ، الذي كان اسم امه ، وانك عشت فى اوفيرني ، وانك ولدت فى فافيرول، حيث كنت مشذب اغصان . ومن الواضح انك سرقت تفاحا ناضجا من مزرعة بيرون بالاضافة الى تسورك الجدار . ان السادة المحلفين سوف ينظرون فـي هـذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس اخر الامر . ولكنه ما لبث ان نهض فجأة ، حين اتم النائب العام كلامه ، وصاح :

ـ « انت رجل رديء جدا ، انت ! ذلك ما كنت اريد ان اقوله . انا لم اعثر على هذه الكلمة بادىء الامر . واني لم اسرق شيئا قط . اني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنت قادما من آيي ، وكنت امشي اثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ، حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنت لا ارى غير طلائع الاعشاب منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدت على الارض غصنا يحمل بعض التفاح ، فالتقطت الغصن من غير ان ادري انه سوف يورثني الما . فمنذ ثلاثة اشهر وانا طريح السجن ، انقل من مكان الى مكان . انا لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون لي « اجب ! » وان الدركي ، الذي هو رجل طيب ، يدفع مرفقي ويهمس : « اجب الان! » انا لا احسن التعبير عن نفسي . انا لم اتلق العلم قط، انا رجل فقير . انكم جميعا مخطئون لعدم رؤيتكم ذلك . انا لم اسرق ، لقد رفعت عن الارض اشياء كانت موجودة هناك . انت تتحدث عن جان فالجان، جان ماتيو ! انا لا اعرف هذين الشخصين . لا ريب انهما رجلان قرويان . لقد اشتغلت عند مسيو بالو فى « جادة المستشفى » . انا ادعـى شانماتيو . ينبغي ان تكون ذكيا حتى تخبرني اين ولدت . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحا باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وامي كانا يهيمان على وجهيهما في الشوارع ، ولكني لست واثقا . حين كنت طفلا كانوا يدعونني « الصغير » اما الان فانا ادعى « العجوز » هذان هما اسما معموديتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنت فى اوفيرني ، وكنت فى فافيرول . عجبا ! الا يستطيع الانسان ان يكون فى اوفيرني وفافيرول من غير أن يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم اسرق ، واني الاب شانماتيو . كنت اعمل

عند مسيو بالو ، لقد عشت في منزله . لقد تعبت من هرائك الذي لا نهاية له : لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب المسعورة ؟ »

وامر رئيس المحكمة بادخال الشهود فشهدوا جميعا بان المتهم هو جان فالجان وانه كان سجينا معهم فى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وفى هذه اللحظة اتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة . وسمع صوت يصيح :

ـ « ايها الشهود انظروا الى هذه الجهة ! »

كان ذلك الصوت فاجعا وفظيعا الى حد جعل جميع الذين سمعوه يحسون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصوبت الاعين كلها نحو النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من اولئك الذين احتلوا مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ووقف في وسط القاعة . وعرفه الرئيس ، والنائب العام ، وعشرون اخرون ، صاحوا فى آن واحد معا : « مسيو مادلين ! »

كان هو فى الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان يمسك قبعته بيده . ولم يكن ثمة اي اضطراب في ملابسه ، فقد كانت سترته الطويلة المشقوقة الذيل مزررة فى عناية . كان شاحبا جدا ، وكان يرتعد ارتعادا طفيفا . اما شعره الذي كان اشيب عند وصوله الى آراس فقد امسى الان ابيض تماما . كان قد ابيض خلال الساعة التي قضاها هناك .

وقبل ان يستطيع الرئيس والنائب العام ان يقولا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك والحجاب ان يأتوا بايماءة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهم حتى تلك اللحظة مسيو مادلين قد تقدم نحو الشهود وقال : « الا تعرفونني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة من الراس الى انهم لم يعرفوه . وادى احدهم ، وقد استبد به الرعب ، التحية العسكرية . واستدار مسيو مادلين نحو المحلفين وهيئة المحكمة ، وقال فى صوت رخيم :

« ايها السادة المحلفون ، اطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ، اصدر امرك باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنه . انا ذلك الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس ايما فم . كان صمت اشبه بصمت القبور قد عقب الانشداه الاول . كان فى ميسور المرء ان يستشعر فى القاعة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حين ينجز عمل عظيم .

ومع ذلك فقد كان الرئيس موسوما بالحزن والمشاركة الوجدانية .

لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهموسة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل فى نبرة فهمها الجميع :

ـ « هل يوجد طبيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول : « سادتي المحلفين ، ان الحادثة الغريبة غير المرتقبة التي تقلق النظارة لتوقع فى نفوسنا ، كما توقع فى نفوسكم شعورا لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فانتم جميعا تعرفون ، من طريق الشهرة على الاقل ، مسيو مادلين المبجل ، عمدة مونتروي سور مير . فاذا كان بين النظارة طبيب فنحن نضم صوتنا الى صوت السيد الرئيس فنرجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى مسيو مادلين ، ويقوده الى مقره . »

ولم يدع مسيو مادلين النائب العام يتم كلامه ، بل اعترضه فى جرس مفعم بالوداعة والسلطان وقال : « اشكرك يا سيدي النائب العام ، ولكنني لست مجنونا . سوف ترى . لقد كنت على وشك ان ترتكب غلطة كبيرة . اطلق سراح هذا الرجل . اني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التعس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح فى هذا المكان ، واني لاقول لك الحقيقة . ان ما اعمله فى هذه اللحظة يراه الله الذي فى الاعالي، وهذا يكفي. فى استطاعتك ان تلقي القبض علي ، ما دمت موجودا هنا . ومع ذلك ، فقد بذلت غاية جهدي . لقد استترت تحت اسم اخر ، لقد غدوت غنيا ، لقد غدوت عمدة ، لقد اردت ان اعاود الدخول الى دنيا الرجال الفاضلين ولكن يبدو ان هذا غير ممكن . »

وليس فى ميسور شيء ان يعبر عن الكآبة الرفيقة الكالحة التي انطوت عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الرجل التعس الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه ابتسامة لا تزال ذكراها تمزق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة النصر ، وكانت كذلك ابتسامة اليأس .

وقال : « انتم ترون جيدا اني جان فالجان . »

ولم يبق فى تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال درك ، لم يبق فيها غير عيون مسددة ، وقلوب خافقة . كان واضحا ان جان فالجان ماثل امام اعينهم . لقد اطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافيا لكي يعمر بالضياء تلك القضية التي كان الغموض يكتنفها من اقطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهم الحشد فى الحال ومن اللمحة الاولى ، وكأنما كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يحكم على

رجل اخر مكانه . اما التفاصيل ، اما ضروب التردد ، اما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

وتابع جان فالجان : « انا لا اريد ان اعطل الجلسة اكثر مما فعلت . انا ذاهب ما دمت لم اعتقل . ان عندي اشياء كثيرة يجب ان اقوم بها . والسيد النائب العام يعرف من انا ، ويعرف الى اين ساذهب ، ولسوف يصدر امره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجي . ان صوتا ما ، لم يرتفع . وان ذراعا ما ، لم تمتد لتمنعه . لقد تنحوا كلهم عن سبيله . كان يعمر نفسه في تلك اللحظة شيء الهي لا يوصف يجعل الحشود تنكص على اعقابها وتخلي الطريق لرجل ما . واتخذ سبيله من خلال الجميع في خطى وئيدة . ولم يعرف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت انه كان مفتوحا حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

ـ « سيدي النائب العام ، انا دائما تحت تصرفك . »

وخرج . واغلق الباب كما فتح من قبل ، لان اولئك الذين يقومون باعمال عظيمة سامية هم ابدا على ثقة من ان شخصا ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقل من ساعة صدر حكم المحلفين مبرئا المدعو شانماتيو من اي تهمة . واطلق سراح شانماتيو في الحال فاتخذ سبيله مشدوها ، معتقدا ان الناس جميعا قد اصيبوا بالجنون ، غير فاهم شيئا من هذه الرؤيا .

ضربة معاكسة

١

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد قضت فانتين ليلة محمومة ، ارقة ، مليئة — مع ذلك — بالرؤى السعيدة . ومع الفجر استسلمت للرقاد . واغتنمت الراهبة التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب وتعد مقدارا جديداً من سائل الكينا . ولم تكد الراهبة الطيبة تمضي بضع لحظات فى مختبر المستشفى ، منكبة على عقاقيرها وزجاجاتها ، حتى ادارت راسها فجاة ، واطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين واقفا امامها . كان قد دخل عليها، اللحظة ، فى صمت .

وصاحت : « هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »

فأجابها فى صوت خفيض : « كيف حال المراة المسكينة ؟ »

— « انها احسن ، الان . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقا » .

وقصت عليه ما جرى ، وان فانتين كانت مريضة جدا الليلة البارحة ولكنها الان احسن حالا لانها اعتقدت ان السيد العمدة ذهب إلى مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على ان تسأل السيد العمدة ، ولكن سيماه انبأتها ، فى وضوح ، انه ليس قادما من هناك على الاطلاق .

وقال : « هذا حسن . لقد احسنت صنعا حين احجمتعن خداعها. »

فقالت الراهبة : « اجل ، ولكن الان ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »

وفكر لحظة ثم قال : « ان الله سوف يلهمنا ما نقول . »

فغمغمت الاخت فى صوت كالهمس : « ولكننا لا نستطيع ان نكذب عليها . »

وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فاضاءت وجه مسيو مادلين .

واتفق ان رفعت الاخت عينيها ، فصاحت : « يا الهي ! ايها السيد ما الذي اصابك ؟ ان شعرك ابيض كله ! »

فقال : « أبيض ! »

لقد نطق بهذه الكلمة فى لا مبالاة وكأنما كان يفكر فى شيء اخر .

واستشعرت الاخت قشعريرة اوقعها فى اوصالها شيء مجهول لمحته فى هذا كله .

وسألها : « هل استطيع ان اراها ؟ »

فقالت الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على ان تغامر بطرح السؤال : « الن يعيد اليها سيدي العمدة ابنتها ؟ »

ـ « طبعا . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »

ثم دخل غرفة فانتين ، واقترب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت نائمة وكان نفسها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع المميز لهذه الامراض ، والذي يمزق قلوب الامهات التعسات وهن يشهدن رقاد اولادهن المشرفين على الموت .

وظل مسيو مادلين فترة من الوقت جامدا لا يتحرك امام هذا السرير ، ناظرا الى المريضة حينا والى تمثال المصلوب حينا ، كما قد فعل منذ شهرين يوم وفد للمرة الاولى لكي يراها فى هذا المأوى .

ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ، واصبعه على شفتيه وكأنما كان فى الغرفة شخص ما ، يريد ان يسكته .

وفتحت عينيها ، ورأته ، وقالت فى سكينة ، وبابتسامة : « وكوزيت ؟ »

انها لم تجفل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عينه .

وتابعت : « لقد عرفت انك كنت هناك . كنت نائمة ، ولكني رايتك . لقد رايتك فترة طويلة من الزمن . لقد تتبعتك بعيني طوال الليل . كانت تحيط بك هالة من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه السماوية . »

ورفع عينيه نحو تمثال المصلوب .

واستطردت : « ولكن قل لي ، اين كوزيت ؟ لماذا لم تضعها فى سريري لكي يكون فى امكاني ان اراها لحظة استيقظ ؟ »

واجابها على نحو آلي بشيء ما ، لم يوفق بعد الى تذكره قط .

وكان الطبيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احيط علما بذلك ، وتقدم لنجدة مسيو مادلين ، قائلا : « الزمي الهدوء يا ابنتي ، ان طفلتك هنا . »

وشعت عينا فانتين بالجذل ، واضاءتا محياها كله . وشبكت ذراعيها

في سيما مفعمة بكل ما يمكن أن تنطوي عليه الصلاة من اعنف العنف والطف اللطـف .

وصاحت : « اوه ، احملوها الي » .

وتابع الطبيب كلامه : « ليس فى هذه اللحظة . انت لا تزالين محمومة بعـض الشيء . وان رؤية ابنتك قد تثيرك وتسيء الى صحتك . ينبغي ان نشفيك اولا . »

فقاطعته فى حدة : « ولكني شفيت ! اقول لك اني شفيت ! هل هـذا الطبيب مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطبيب : « ارايت كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمت فى هذه الحال فلن استطيع ان اسمح لك برؤية ابنتك . »

وحنت الام راسها : « سيدي الطبيب ، التمس عفوك . فى الماضي مـا كنت لاتكلم كما تكلمت الان ولكني ابتايت بعدد كبير من المصائب جعلني لا ادري ، فى بعض الاحيان ، ما اقول . انا افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف انتظر ما شئت لي ان انتظر . ولكني اقسم لك ان رؤية ابنتي لن تؤذيني . انا اراها الان ، انا لم ارفع عيني عنها منذ الليلة البارحة . دعهم يحملونها الي الان ، فلن اكلمها الا فى رفق . هذا كل شيء . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمـة تقريبـا .

وفى غمرة الصمت ، صاحت فانتين : « انا اسمعها ؟ اوه ، يا الهي ! انا أسمعهـا ! »

كان ثمة طفل يلعب فى الفناء ـــ ابن البوابة او عاملة ما . كانت احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف جزءا من الوضع المسرحي الخفي للاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وتركض ، لكي تنعم بالدفء ، وتغني وتضحك فى صوت مرتفع. وقالت : « اوه ، هذه كوزيت ! انا اعرف صوتها ! »

ولم تتكلم بعد ، ولم تتنفس بعد . كانت قد جلست فى سريرها نصف جلسة وقد خرجت كتفها المهزولة من قميصها . وغدا وجهها ، الذي كـان مشرقا قبل لحظة ، شديد الشحوب ، وبدت وكأنها تصوب عينها المتسعـة بالذعر الى شيء مروع واقف امامها فى الطرف الاخر من الغرفة .

وصاح مسيو مادلين : « يا الهي ، ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تجب ، ولم ترفع عينها قط عن الشيء الذي بدت وكأنها تنظر اليه،

ولكنها مست ذراعه باحدى يديها ، واشارت اليه بالاخرى ان ينظر خلفه . والتفت ، فراى جافـير .

٢

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادرمسيو مادلين قاعة محكمة الجنايات فى آراس . وكان قد رجع الى فندقه فى اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي حجز فيها مقعدا له . وقبيل الساعة السادسة صباحا كان قد بلغ مونتروي سور مير حيث كان اول مـا عمله ان حمل البريد رسالته الى مسيو لافيت ليقصد بعد الى المستشفى ويـرى فانتين .

وبعد اطلاق سراح شانماتيو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة وكان موضوع حديثهما يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير » وكانت العبارة الحافلة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده فى التقرير الذي رفعه الى كبير النواب العامين .

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير.

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائـه بشهادته مباشرة .

ولو ان امرا لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئا مما كان يجري ، ولحسب ان سيماه طبيعية الـى ابعد حد يمكن تخيله . كان عابسا ، هادئا ، رزينا ، وكان شعره الاشيـب صقيلا املس ، وكان قد ارتقى السلم فى بطئه المعتاد. اما من قدر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله فى انتباه ، فقد كان خليقا به ان يرتعد . كان ابزيم طوق قميصه الجلدي تحت اذنه اليسرى بدلا من ان يكون علـى رقبته . وكان ذلك ينم عن اهتياج لم يسمع بمثله من قبل .

كان قد اقبل فى غير مباهاة ، وكان قد اصطحب من احد مراكز الجند المجاورة عريفا واربعة انفار ، وترك الجنود فى الفناء ، وسأل البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب فى امره ، اذ كانت متعودة ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيد العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفع الباب فى لطـف معرضة او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

وحالما التقت عينا مادلين عيني جافير غدا جافير ـ من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يبدل مكانه ، ومن غير ان يقترب ـ مروعا فظيعا . كان وجه شيطان عثر على ضحيته من جديد .

لم تكن فانتين قد رات جافير من يوم ان اختطفها العمدة من هذا الرجل ولم يأخذ دماغها المريض باي تعليل ، الا انها لم تشك فى انه اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان فى ميسورها ان تتحمل هذا الوجه الرهيب ، لقد استشعرت وكأنها تحتضر ، واخفت وجهها بيديها الاثنتين ، وصاحت فى الم نفسي مبرح : « مسيو مادلين ، انقذني ! »

وكان جان فالجان ـ ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم ـ قد نهض وقال لفانتين فى جرس ليس الطف منه ولا اكثر هدوءا : « الزمي السكينة . انه لم يأت من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال : « انا اعرف ماذا تريد . »

فأجاب جافير : « هيا اسرع » .

وفيما هو يقول ذلك لم يخط خطوة واحدة ، ولكنه القى على جان فالجان نظرة اشبه بالكلابة المعدنية كان من عادته ان يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

وتقدم جافير الى منتصف الغرفة صائحا : «هاي ، هناك ! الن تأتي ؟»

ونظرت المراة المسكينة الى ما حولها . لم يكن ثمة احد غير الراهبة والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكلام الاستخفافي المحقر موجها ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها . ثم انها رات شيئا عجيبا ، شيئا عجيبا لم يتمثل لها نظيره حتى فى احلك لحظات الحمى وهذيانها . لقد رات جاسوس الشرطة يمسك بخناق السيد العمدة ، لقد رات السيد العمدة يحني راسه . وبدا لها وكأن العالم يتلاشى امام ناظريها .

وصاحت فانتين : « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها. وقال : « لم يعد هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزعج اليد القابضة على طوق سترته الطويلة المشقوقة الذيل واكتفى بالقول : ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . . .

فقال جافير : « ماذا تريد ؟ »

ـ «امهلني ثلاثة ايام، ثلاثة ايام لكي اذهب واجيء بطفلة هذه المراة المسكينة.

سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي استطاعتك ان ترافقني اذا شئت » .

فصاح جافير : « اتضحك علي ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابله الى هذا الحد ! انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تفر ثم تزعم انك تريد ان تذهب لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة !! »

وارتعدت فانتين . وصاحت : « ابنتي ! تذهب لكي تجيئني بابنتي ، اذن ، فهي ليست هنا ! »

وخبط جافير الارض بقدمه وصاح : «اخرسي ، ايتها الفتاة الخليعة !»

وانتصبت فانتين في جلستها ، معتمدة على ذراعيها المتوترتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فمها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من حنجرتها حشرجة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في الم نفسي مبرح ،وفتحت يديها في تشنج ، متحسسة ما حولها مثل مشرف على الغرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الوسادة . واصطدم رأسها بمقدم السرير ، فارتد منقلبا على صدرها . كان فمها فاغرا وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين . لقد ماتت !

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير المسكة به» وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير : « لقد قتلت هذه المراة . »

فصاح جافير في حنق : « كفى هراء ! انا لم اجيء الىهنا لاستمع الى مواعظ . امش في الحال ، والا وضعت يديك في الحديد . »

وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق متهدم فما كان من جان فالجان الا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدمه الواهن ونظر الى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وفي بطء تقدم جان فالجان ، متشبثا بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يسمع: انصحك بان لا تزعجني الان .

وارتعد جافير ، وخطر له ان يمضي ليستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتنم هذه الفرصة فيفر . وهكذا ظل معتصما بعقب عصاه ، واسند ظهره الى اطار الباب ، من غير ان يرفع عينيه عن جان فالجان .

وبعد بضع لحظات من الاستغراق في التفكير انحنى جان فالجان فوق فانتين ، وخاطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع ان يقوله هذا الرجل الهالك لهذه المراة الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ ان احدا على ظهر هذه الارض لم

يسمعها . فهل سمعتها المراة الميتة ؟ والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه هو ان الراهبة وهي الشاهدة الوحيدة لما قد جرى ، كثيرا ما روت انها لحظة همس جان فالجان في اذن فانتين رات ابتسامة يعجز البيان عن وصفها تشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين العينين القاتمتين ، المفعمتين بدهشة القبر .

وامسك جان فالجان راس فانتين بيديه ، واصلح وضعه على الوسادة ، ثم عقد وثاق منامتها ، وادخل شعرها تحت قلنسوتها واغمض عينيها .

وتدلت يد فانتين على جانب السرير . وركع جان فالجان امام هذه اليد ، ورفعها في رفق وقبلها . ثم انه نهض ، والتفت الى جافير قائلا: والان انا تحت تصرفك .

٣

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .

واثار اعتقال مسيو مادلين خواطر الناس في مونتروي سور مير ، بل الاصح ، ان نقول انه احدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان نقول انه ما كادت تذيع تلك الجملة المفردة **«كان عبدا رقيقا من عبيد سجن الاشغال الشاقة»** حتى انفض من حوله الناس كلهم تقريبا . وفي اقل من ساعتين نسي جميع الخير الذي اسداه الى البلد والناس ، ولم يعد هو « غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة . »

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت البوابة العجوز التي تعمل في خدمته جالسة في كوخها ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد اغلق طوال النهار ، وكان الباب الذي تدخل منه العربات قد اوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفرا ولم يكن في المنزل احد غير راهبتين هما الاخت بيربيتو والاخت سيمبليس ، وكانتا ساهرتين امام جثمان فانتين .

وحوالي الموعد الذي تعود مسيو مادلين العودة فيه الى منزله صعقت البوابة العجوز اذ رات مسيو مادلين في وجهها حاملا شمعدانا وصاحت: «يا الهي ! السيد العمدة ! لقد حسبت انك . . . »

فأتم فكرها قائلا : « في السجن . لقد كنت هناك . لقد كسرت قضيبا حديديا من احدى النوافذ ، وقفزت من اعلى سطح ما ، وها انا اذا . اني ذاهب الى غرفتي ، قولي للاخت سيمبليس اني اود ان اراها . انها من غير شك الى جانب تلك المراة المسكينة » .

وامتثلت العجوز الامر في سرعة بالغة .

ولم يوصها بشيء . كان واثقا من انها خليقة بان تحرسه احسن مما يحرس نفسه .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدور الاعلى فتح باب غرفته في رفق، وتلمس سبيلهنحو النافذة فاغلقها واغلقمصراعها والقى نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره الذي لم يضطجع فيه منذ ايام ثلاثة . لم يكن ثمة ايما اثر من فوضى الليلة التي قبل البارحة. ذلك بأن الخادمة كانت قد رتبت الغرفة ، بيد انها كانت قد التقطت من الرماد عقبي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سو التي سودتها النار . ووضعتها جميعا بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : **«ها هما عقبا عصاي الحديديتانوقطعة الاربعين سو المسروقة من جرفيه الصغير ، والتي تحدثت عنها في محكمة الجنايات »**.

ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكوناول شيء يراه الداخل الى الغرفة . واخرج من احدى الخزائن قميصا له عتيقا ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش لف بها الشمعدانين الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجل او اهتياج. وحتى فيما هو يلف شمعداني الاسقف انشأ يقضم قطعة من الخبز الاسود . ولعل ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فر .

وخفق شخص ما الباب خفقتين رفيقتين . وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيمبليس .

كانت شاحبة الوجه ، محمرة العينين ، وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها .

وكان جان فالجان قد كتب بضعة اسطر على قصاصة من ورق، فقدمها الى الراهبة قائلا : « ايتها الاخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن . »

ولم تكن الورقة مطوية . فالقت نظرة عليها .

وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرايها » .

وقرات : « اني ارجو سيدي الكاهن ان يتولى امر العناية بكل ما اتركه هنا . وارجو ان يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المراة التي توفيت اليوم . اما الباقي فيوزع على الفقراء . »

ولم يكد يتم كلامه حتى اقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد سمعا جلبة اقدام ترتقي السلم ، والبوابة العجوز تقول في نبرات مرتفعةالى ابعد الحدود ، ثاقبة الى ابعد الحدود : « يا سيدي الطيب ، اقسم لك بالله ان احدا لم يدخل الى هنا طوال النهار وطوال الليل ، واني لم اغادر باب كوخي

ولو مرة واحدة . »

فاجابها رجل : « ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة » .

وتبينا في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب يحجب ، حين يفتح ، زاوية الجدار القائم الى اليمين . واطفأ جان فالجان الشمعدان ، وحشر نفسه في تلك الزاوية .

وخرت الاخت سيمبليس على ركبتيها قرب الطاولة وفتح الباب .

ودخل جافير .

ولم ترفع الراهبة عينيها . كانت تصلي .

كانت الشمعة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ووقف مرتبكا . . . وفكر في الانسحاب ، ولكنه آثر اخر الامر ان يبقى ويطرح سؤالا واحدا على الاقل .

كانت هذه هي الاخت سيمبليس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يجلها على نحو خاص بسبب من ذلك .

قال : « ايتها الاخت ، هل انت وحدك في هذه الغرفة ؟ »

وانقضت لحظة رهيبة استشعرت البوابة المسكينة خلالها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغماء . ورفعت الراهبة عينيها ، واجابت : « نعم » .

وتابع جافير : « اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي . الم تري هذا المساء شخصا ، رجلا كان قد فر ، ونحن نلاحقه ـ هذا الرجل ، جان فالجان ، الم تريه ؟ »

فاجابت الراهبة : « لا . » لقد كذبت . كذبت كذبتين متعاقبتين ، احداهما اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .

ـ « التمس عفوك . »

قال جافير ذلك ، وانسحب منحنيا في احترام .

وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعدا في سرعة عن مونتروي سورمير موجها وجهه شطر باريس . كان هذا الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين او ثلاثة من سائقي العربات الذين التقوا به ، انه كان يحمل صرة ، ويرتدي دراعة . من اين جاء بهذه الدراعة ؟ ان احدا لم يدر . ومع ذلك ، فان عاملا عجوزا كان قد توفي في مستشفى المصنع قبل ايام قليلة ، غير مخلف شيئا خلا هذه الدراعة . فلعل هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان .

القسم الثاني

كوزيت

واترلو

في واترلو عام ١٨١٥ ، هزمت جيوش ولينغتون الانكليزي وبلوخر البروسي نابليون الكبير . وتناثرت الجثث في ارض المعركة كما لم تتناثر من قبل في ارض اية معركة من معارك التاريخ الحاسمة .

وفي الليلة التي انتهت فيها المعركة كان القمر بدرا . وحوالي منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق « اوهين » الغائرة ، او يدب عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من اولئك الخفافيش الذين لا عمل لهم الا سلب الجنود الموتى . كان غولا اكثر منه انسانا، جذبته رائحةالجثث، وقد حسب السرقة نصرا فاقبل ليسلب واترلو . كان يرتدي جلبابا هو ، جزئيا ، برنس عسكري وكان قلقا وجريئا ، وكان يتقدم الى الامام ويتلفت الىالوراء . من كان هذا الرجل؟لعل الليل عرفاعماله اكثر مما عرفها النهار. ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب واسعة من غير شكتحتبرنسه. وبين الفينة والفينة كان يتمهل ، ويتأمل السهل من حوله وكأنما كانيريد ان يستيقن من ان احدا لا يراقبه .

لقد راح ينقب وسط هذا القبر الهائل ، ويجيل بصره في ما حوله . لقد استعرض الجند الاموات استعراضا بشعا الى حد لا يوصف ، ومشى وقدماه تغوصان في الدم .

وفجاة كف عن المسير . فعلى بضع خطى امامه ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والخيل يد مفتوحة اضاءها القمر بشعاعه . وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خاتما ذهبيا .

وانحنى الرجل ، وظل منحنيا لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احس ان يدا كانت

تمسك به من وراء . واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي اطبقت، متشبثة بذيل برنسه .

وما هي الا لحظة حتى تراخت اليد وخلت سبيله . ان القوة تنفد وشيكا في القبر . فقال سارق الجند : ايكون هذا الميت حيا ؟ دعنا نرى.

وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد، مزيلا كلما كان يعترضه. وقبض على اليد ، وخلص الراس ، وسحب الجسد . وما هي الا لحظات حتى راح يجر في ظلمة الطريق الغائرة رجلا فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان دارعا ، وكان ضابطا . وكانت كتافة ذهبية ضخمة تبرز من تحت درعه . ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضارية قد شوهت وجهه ، فليس يرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم يبد ان ايا من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع ــ اذا كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا ــ ان تتقوّس الجثث من فوقه على نحو انجاه من السحق . كانت عيناه مغمتضين . وكان معلقا على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .

ونزع المطوف بالليل هذا الصليب فاختفى في هوة من تلك الهوى التي كانت تحت برنسه .

وبعد ذلك تلمس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فعثر فيه على ساعة، فاخرجها ، ثم بحث في صدرته فالفى محفظة دراهم فنشلها .

حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من الغوث الذي كان يقدمه الى هذا الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه .

وقال في صوت واهن : شكرا .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه بيديه ، وبرودة الليل ، وتنفس الهواء النقي في حرية ، قد ايقظته من سباته .

ولم يجب الرجل بشيء . لقد رفع راسه . وكان في ميسوره ان يسمع وقع اقدام فى السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليلي يقترب منه .

وغمغم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشرجة : « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه الرجل : « الانكليز » .

واضاف الضابط : « ابحث في جيوبي . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعة . خذهما » .

كان ذلك قد تم من قبل . وتظاهر الرجل بتنفيذ الطلب ، ثم قال : « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

ـ « لقد سرقوهما مني . انا آسف . ولولا ذلك لكانتا لك . »

ثم اردف : « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »

فاجابه الرجل الليلي في سرعة ، وفي همس : « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا قبضوا علي فسوف يقتلونني رميا بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبر امرك الان بنفسك » .

ـ « ما رتبتك ؟ »

ـ « رقيب . »

ـ « وما اسمك ؟ »

ـ « تيناردييه . »

فقال الضابط : « انا لن انسى هذا الاسم ابدا . وانت اذكر اسمي . انا ادعى بونميرسي . »

الدارعة « أوريون »

١

كانت السلطة قد القت القبض على جان فالجان ، كرة اخرى .

ولسوف نعذر لمرورنا بالتفاصيل المؤلمة مرا سريعا ، مجتزئين بان ننقل ههنا نبذتين ليس غير مما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث الغريبة التي وقعت في مونتروي سور مير .

وهاتان المقالتان موجزتان بعض الشيء . ويحسن بالقارىء ان يذكر ان « صحيفة المحاكم » لم تكن قد ظهرت في ذلك العهد .

ونحن ننسخ المقالة الاولى عن صحيفة «الراية البيضاء» . انها تحمل تاريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ .

« كانت احدى مقاطعات الـ « بادوكاليه » ، منذ قريب ، مسرح حادثة نادرة حقا . ذلك بان رجلا غريبا عن المنطقة يعرف بـ « مسيو مادلين » كان قد احيا منذ بضع سنوات صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الخرز الكهربائي والزجاج الاسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة ايضا على المنطقة . واعترافا بخدماته عين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان مسيو مادلين لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد ادين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد اعيد جان فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ويبدو انه قد وفق ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغا يزيد على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ، من صناعته تلك ، على نحو شرعي جدا . ومنذ عودته الى سجن الاشغال الشاقة في طولون لم يهتد احد الى المكان الذي خبأ فيه جان فالجان هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، فمنتزعة من عدد « الجورنال دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سيق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في « فار » منذ فترة قصيرة ، في ظروف جديرة بأن تلفت النظر، فقد كان هذا الاثيم قد وفق الى الافلات من يقظة الشرطة فغير اسمه ونجح في حمل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشمالية الصغيرة . ولقد انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خليلة هي احدى المومسات، لم تحتمل الصدمة فماتت ساعة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير، الذي منح قوة جسدية هرقلية ، وجد سبيلا الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان القت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقرية مونفيرماي ويقال بانه افاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسحب مبلغا ضخما كان قد اودعه احد مصرفيينا الرئيسيين. ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب قرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولم تتمكن السلطة من العثور على ذلك المال حتى الان . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنايات « فار » لسرقة ارتكبها في الطريق العام، والسلاح في يده، منذ ثماني سنوات تقريبا ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين . ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت ممثل التاج القدير البليغ ان اشخاصا اخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان كان عضوا في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب. وهكذا اعلن جان فالجان مذنبا وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى المحاكم العليا، ولكن الملك برافته التي لا تنضب تنازل فخفف عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سيق جان فالجان الى سجن طولون . »

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. لقد صار يدعى ٩٤٣٠ .

ولنقل هنا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، ان ازدهار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كان قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحمى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولت الروح . واغلقت مصانع مسيو مادلين الرحبة ، وتركت الابنية للخراب ، وتشتت شمل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصنعة . ومن ذلك الحين انتج كل شيء

على نطاق صغير بدلا من ان ينتج على نطاق كبير،وابتغاء الربح لا ابتغاءالخير. لقد قتلت الثقة ، وتناقص الزبائن،وقلت الصفقات،وانخفضت الاجور ، وتبطل العمل واقبل الافلاس. وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد امحى كلشيء .

وقبل ان نمضي الى ابعد يحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريبا ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض احداس السلطة العامة .

ان في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جدا تقول ان الشيطان اختار الغابة منذ الزمن القديم مكانا يخبىء فيه كنوزه. وتؤكد نسوةالمنطقةالصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس،في المناطق المنعزلة من الغابة ، رجلا اسود ، يشبه سائق عربة او حطابا ، ينتعل حذاء خشبيا ، ويرتدي بنطلونا وقميصا من كتان خشن، ويتميز بأن له على راسه، بدلا من القلنوسة او القبعة قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرفه شيئا يسيرا حقا ، وهذا الرجل مشغول ابدا في حفر الحفر .

ومن هنا ، فان اولي العزم من الرجال ، الذين لا يفوتون فرصةصالحة، كثيرا ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحفر التي شقها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان .

ولكن الباحث عن الكنز يبذل جهودا ضخمة ، لان تلك الحفر عميقة جدا في العادة،انه يعرق،انه يحفر، انه يعمل الليل بطوله لان هذا الصنع يباشر في ساعات الليل ، انه يبلل قميصه، انه يستنفد شمعته، انه يثلم معوله وعندما ينتهي اخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضعيده على «الكنز» ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ انه فلس — وفي بعض الاحيان ريال — او حجر ، او هيكل عظمي ، او جثة دامية ، واحيانا شبح مطوي اربع طيات مثل ورقة في محفظة ، واحيانا لا شيء .

والان ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوف — خلال فراره الذي دام بضعة ايام — في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها ان معبد طرق عجوزا يدعى بولاتروويل صار له « ولوع » بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل قضى شطرا من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعا لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملا في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبد للطريق الضيقة بين « غانيي » و « لا نيي » .

وكان بولاتروويل هذا رجلا ينظر اليه اهل المنطقة شزرا . كان يوقر

الناس اكثر مما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر مما ينبغي . كان يرتجف دائما ويبتسم دائما في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات اللصوص . واليك ما لاحظه اهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاترووبل ، في ساعة مبكرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حاملا معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالي المساء ، في اقصى بقاع الغابة الجرداء ، وقد بدت عليه سيما رجل يبحث عن شيء ، واحيانا سيما رجل يحفر حفرا. وبدا وكأن التقاء الناس لـ « بولاترووبل » كان يقلقه اقلاقا كثيرا . كان واضحا انه كان يحاول ان يختبىء وان في ما يعمله لغزا .

وقالت اشاعات القرية : من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاترووبل قد رآه ، فهو يبحث عن كنزه . والحق انه هو الرجل المؤهل لسرقة الشيطان . وايا ما كان فان زيارات بولاترووبل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . وشرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

بيد ان نفرا قليلا احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منطوية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشياء نصيبها من الجد والوجود المادي اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبد الطريق قد اكتشف السر من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكثرهم « انشغال بال » رجلان هما معلم القرية ، وصاحب الفندق تيناردييه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشىء علاقة ودية حتى مع بولاترووبل نفسه .

وقال تيناردييه : « لقد كان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ ايه ، يا الهي ! ان احداً لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك » .

وتفاهم تيناردييه ومعلم القرية على انتزاع السر منه . وهكذا دعوا معبد الطريق العجوز الى سهرة والحا عليه في الشراب . وشرب بولاترووبل كثيرا، ولكنه تكلم قليلا . لقد احسن الجمع ، في فن بارع ونسبة استاذية ، ما بين ظمأ رجل مسرف في الشراب ، ورصانة قاض . ومع ذلك ، فباعادة التجربة مرارا وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي ندت منه استنتج تيناردييه ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينا كان بولاترووبل منطلقا مع الفجر لاداء عمله ، اخذه الدهش اذ رای في احد زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسحاة ومعولا ، مخبأين كما قد يقول المرء هناك. بيد انه ظنهما مسحاة الاب «سيكس فور»

حمال الماء، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد. ولكنه عاد فراى فى مساء اليوم نفسه من غير ان يرى ، اذ كان مختبئا خلف شجرة ضخمة ، «شخصا ليس من ابناء تلك المنطقة على الاطلاق ، ولكنه هو ، بولاترووبل ، يعرفه معرفة جيدة » او كما ترجمها تيناردييه « رفيقا قديماً من رفاق السجن الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة » ـ راى شخصا ينعطف من الطريق العام نحو الجزء الاشد كثافة من الغابة . ورفض بولاترووبل ، فى عناد ، ان يذكر اسـم الرجـل الغريب . وكأن هذا الشخص يحمل رزمة ، شيئا مربعا مثل صندوق كبير او وعاء امتعة صغير . ودهش بولاترووبل ، وعلى اية حال ، فقـد انقضت سبع دقائق او ثماني دقائق قبل ان يخطر له ان يتعقب «الشخص» . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهي الي الاجمة ، وكان الليل قـد هبط ، ولم يوفق بولاترووبل الى ادراكه . وهكذا عقد النية على ان يراقـب حواشي الغابة . « كانت الليلة مقمرة » وبعد ساعتين او ثلاث ساعات راى بولاترووبل هذا الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هذه المرة صندوق الامتعة ، الصغير ذاك، ولكن معولا ومسحاة. وتركه بولاترووبل يمر ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانـه قال فى ذات نفسه ان لذلـك الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بمعول ، وانه سوف يقتله فى اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان امره قد انكشف . ولكن المعول والمسحاة كانا شعاعا من النور فى نظر بولاترووبل . فسارع الى الادغال ، عند منبلج الصباح ، ولكنه لم يجد لا المعول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر حين دخل الغابة حفرة بمعوله ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها بمسحاته . واذ كان الصندوق اصغر من ان يحتوي على جثة ، فلا بد انه ينطوي على مال . ومن هنـا بحثه المتواصل . وراد بولاترووبل الغابة كلها ، وسبر غورها ، وبحث فيها بكل دقة ، ونقـب الارض حيثما بدت له مقلوبة منذ قريب . ولكن على غير طائل .

٢

وفى اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان طولون السفينة اوريون تعود الى مرفأهم ، بسبب العواصف الشديدة وابتغاء اصلاح بعض الخلل الذي اصابها ، وكانت تلك السفينة تؤلف انذاك جزءا من اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة،برغم ما الم بها من كساح نتيجة لمخاشنة البحر

لها ، اثارت هزة من الفضول والاهتمام عند دخولها المرسى . وكانت ترفع علما لست ادري ما هو على التحقيق ، ولكنه اهلها لترحيب نظامي يتألف من احدى عشرة طلقة ، ردت عليها واحدة واحدة ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلقة .

ان في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئا خفيا يجذب الجماهير ويثير فضولهم . ومرد ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

واذن، فكل يوم ، من الصباح حتى المساء ، كانت ارصفة مرفأ طولون تغطى بحشد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم — كما يقولون في باريس — وليس لهم من عمل غير النظر الى الـ « اوريون » .

وكانت الـ «اوريون» سفينة مريضة منذعهد بعيد. ففي رحلاتها السالفة كانت طبقات كثيفة من المحار قد تراكمت على قعرها الى درجة جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وضعت في العام الماضي ، في حوض الترميم الجاف كي تكشط طبقات المحار عنها ، ثم انطلقت نحو البحر من جديد . ولكن هذا الكشط كان قد آذى مثبتات قعرها وعطب حامل حبل الصاري الامامي. وبعد ان منيت الـ « اوريون » بضروب من الاذى ،اعيدت الى طولون . والقيت مراسيها قرب دار الصناعة . كانت مسلحة ، وكانوا يصلحونها . ولم يكن هيكل السفينة قد اوذي من الميمنة ، ولكن بضعة الواح كانت قد نزعت ههنا وههناك ، وفقا للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكلها .

وذات صباح شهد الحشد الذي كان يحدق اليها حدثا .

كان الملاحون منهمكين في شد الاشرعة الى الصواري . واذا بخفير الصواري — المكلف بتناول الزاوية العليا من شراع الصاري الاعظم القائم في ميمنة السفينة — يفقد توازنه . ورآه القوم يترنح ، واطلقت الحشود المجتمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحة ، ورجح راس الرجل جسده ، وانفتل حول عارضة الصاري ، وقد انبسطت يداه نحو الاعماق . وفيما هو يهوي تعلق بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولا ، ثم بيده الاخرى ، وظل متدليا على هذا النحو . وكان البحر ينبسط تحته على عمق يوقع الدوار في الراس . واثارت صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيح . وتأرجح الرجل ، بقطعة الحبل هذه ، ذات اليمين وذات الشمال ، مثل حجر مقلاع .

وكان الاندفاع الى نجدته ينطوي على مجازفة مروعة . ولم يجرؤ احد من الملاحين على القيام بهذه المحاولة . وفي غضون ذلك كان خفير الصواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجته واضحة على اسارير وجهه ، ولكن انهيار قواه كان يلحظ في حركات اوصاله جميعا .

وتونرت ذراعاه فى التواءات رهيبة . ولم تؤد كل محاولة قام بها للصعود من جديد الا الى امعان المرقاة الزائفة فى التأرجح . ولم يصرخ قط خشية انيفقد قوته . وكأن القوم كلهم يرتقبون الدقيقة التي يفلت فيها الحبل ، وفى بعض اللحظات اشاحوا جميعا وجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي .

وفجاة بصر القوم برجل يتسلق حبال الدارعة بخفة سنور بري . وكان هذا الرجل يرتدي ثوبا احمر ، كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة . وكان يعتمر بقلنسوة خضراء ، كأن محكوما بالاشغال الشاقة مدى الحياة. حتى اذا انتهى الى سطح اعلى الصاري اطارت الريح قلنسوته ، وكشفت عن رأس اشيب كله . انه لم يكن شابا .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المكلفين بالقيام فوق ظهر تلك الدارعة بمهمة من مهام السجن كان قد هرع ، منذ اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفى غمرة اضطراب النوتية وترددهم ، حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، رجا الضابط ان يأذن لـه بالمغامرة بحياته لكي ينقذ خفير الصواري . واذ اومأ الضابط له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلة التيتطوق مفصل عقب رجله. ثم تناول حبلا، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، فى تلك اللحظة ، بأية سهولة كسرت السلسلة ، انهم لم يتذكروا ذلك الا فى ما بعد .

وفى طرفة عين انتهى الى عارضة الصاري . وتمهل بضع ثوان ، وبدا وكأنه يقيسها بنظرة منه. وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها تؤرجح خفير الصواري ذات اليمين وذات اليسار عند حبل من الحبال ـ وكأنها اجيال فى اعين المشاهدين . واخيرا ، رفع المحكوم عليه بالاعدام عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى امام . واخذ الحشد نفسا طويلا . لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راكضا . حتى اذا انتهى الى اقصاها عقد هناك طرفى الحبل الذي كان قد جاء به وترك طرفه الاخير يتدلى على مداه ، ثم راح يهبط ويداه متشبثتان بذلك الحبل . وعندئذ استبدت بالقوم موجة من الذعر تجل عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين بدلا من رجل واحد ، يتدليان فوق اللجة .

كان فى ميسور المرء ان يقول انها عنكبوت تنقض على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . وسمرت عشرة الاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غضن الانفعال نفسه جميع الجباه . وحبس كل امرىء انفاسه، وكأنما كان يخشى انيمد الريح التي كانت تؤرجح الرجلين البائسين باقل النفثات .

بيد ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وفق ، اخر الامر ، الى ان يشق

طريقه نحو الملاح . وكان ذلك فى الوقت المناسب ، فلو انه تأخردقيقة اضافية اذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائسا ناضب القوى . وشده المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شدا محكما الى الحبل ، وكان يتشبث به باحدى يديه ، ويعمل بالاخرى . واخيرا ، رئي يعاود الصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاح خلفه. واسنده هناك، لحظة، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيما هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

فى تلك اللحظة صفق الحشد ، وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة الشيوخ ، وتعانقت النسوة فوق ارصفة الميناء ، وسمعت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحة فى رفق :

ــ هذا الرجل يجب ان يغفر له !

اما هو فقد جعل من واجبه ان يعاود الهبوط ، فى الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو اسرع انشأ ينزلق على الحبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته العيون كلها . وانقضت لحظة استبد الذعر خلالها بالمشاهدين جميعا . وسواء كان ذلك لاحساسه بالتعب، ام لان الدوار عصف براسه ، فقد اعتقد القوم انهم راوه يتردد ويترنح . وفجاة اطلق الحشد صيحة مدوية : كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط فى البحر . وكان السقوط مهلكا . فقد كانت البارجة «الجزيرة» راسية قرب الـ «اوريون» ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين . وخشي القوم ان يغرق تحت واحدة منهما . ووثب اربعة رجال، فى وقت معا ، الى مركب. وشجعهم القوم . وغلب القلق ، كرة اخرى ، على النفوس جميعا . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح الماء ، من جديد . كان قد اختفى فى البحر من غير ان يغضن صفحة الماء ، فكأنه انما سقط في برميل زيت. وسبروا غور المكان، وغاصوا الى الاعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفى صباح اليوم التالي نشرت «صحيفة طولون » الاسطر التالية : « ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ ــ امس فيما كان احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر الـ « اوريون » عائدا الى عمله بعد ان انقذ حياة احد الملاحين ، سقط فى البحر فغرق . ولم يعثر على جثته قط . ويفترض انه علق تحت الاوتاد الغارزة فى الماء عند مقدم دار الصناعة . كان هذا الرجل مسجلا تحت رقم ٩٤٣٠ وكان يدعى جان فالجان » .

الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك النجد العالي الذي يفصل الـ « اورك » عن الـ « مارن » . انها اليوم بلـدة كبيرة تزدان طوال العام بدارات (فيلات) من جبس، وفى يوم الاحد، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة النعيم . اما عام ١٨٢٣ فلم يكن فى مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . انها لـم تكن غير قرية فى الغابات . ولكن المياه كانت نادرة فيها بسبب مـن ارتفاع النجد . فكان يتعين على اهلها ان يجتازوا مسافة غير قصيرة التماسا للماء . كانت بيوت الارستقراطيين وفى جملتها فندق تيناردييه ، تدفع ربع « سو » ثمنا لكل دلو من الماء الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له . ولكن هذا الرجل لم يكن يشتغل الا الى الساعة السابعـة مساء فى الصيف ، والى الساعة الخامسة مساء فى الشتاء . فاذا هبط الليل ، واوصدت نوافذ الادوار الاولى ، تحتم على كل من اعوزه الماء ان يلتمسه بنفسه ، اويستغني عنه.

ذلك كان الهول الذي احتملته تلك المخلوقـة المسكينة التي نرجو ان لا يكون القارىء قد نسيها ــ كوزيت الصغيرة ، ونحن نذكر ان كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا ينتزعان الاجر من الام ، والعمل من الطفلة . وانه حين اقلعت الام نهائيا عن الدفع احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت ، لقد حلت عندهما محل خادمة. وبوصفها ذاك، تعين عليها ان تركض هي لجلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فأن الطفلة الصغـيرة التي كـان يروعها دائما مجرد التفكير فى الذهاب الى الينبوع تحت جنح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايتها لكي لا يعوز الماء البيت على الاطلاق .

وكان قد وفد على الفندق اربعة نزلاء جدد .

وفكرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بانها كانت قد قاست من ويلات الدهر ما يحملها على التفكير – وهي التي لم تتجاوز الثامنة – بمثل السيما الفاجعة التي ترين على وجه امراة عجوز .

وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سددتها تيناردييه الزوجة اليها ، بجمع كفها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة : « ما اقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! »

كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، انذاك ، ان الليل قد هبط ، وانه امسى دامسا ، وان آنية الماء التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان تملأ في الحال ، وانه لم يبق ثمة ماء في الحوض .

وسرى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في حانة تيناردييه وكان بين اولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط اليد نحو وعاء الخمر الكبير لا نحو الزجاجة العريضة القاعدة . ومع ذلك فقد انقضت لحظة ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تغلي على الموقد ، ثم تناولت كوبا وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ، وكانت الطفلة قد رفعت راسها وتابعت حركاتها جميعا . وجرى من الحنفية خيط من الماء رفيع لم يملأ من الكوب غير نصفه .

وقالت : « انظر ، لم يبق شيء من الماء » .

ثم انها صمتت لحظة . اما كوزيت فحبست انفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تتفحص الكوب نصف المليء : « انا اشك في ذلك ، سوف يبقى مقدار كاف منه ، على هذا الشكل » .

واستأنفت كوزيت عملها ، ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة او يزيد ، ان قلبها يثب في صدرها مثل كرة ضخمة .

وعدت الدقائق فيما هي تتصرم هكذا ، وتمنت في لهفة لو ان الفجر يبزغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف : « ان الليل حالك مثل فرن » او « ينبغي ان يكون الانسان هرة حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح » . وارتعدت كوزيت .

وفجأة دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في صوت اجش : « انكم لم تسقوا جوادي ! »

فقالت تيناردييه الزوجة : « بل لقد سقيناه ، من غير ريب » .

فاستأنف البائع المتجول : « اقول لك لا يا سيدتي » .

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة وقالت : « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد . لقد شرب من الدلو . الدلو الملآن . ولقد حملته انا بنفسي اليه ، وتحدثت معه » .

ولم يكن ذلك صحيحا . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول: «هي ذي فتاة في حجم قبضة يدي، ومع ذلك فهي تكذب كذبة في حجم البيت. اقول لك انه لم يشرب ، ايتها الطفلة الحقيرة » .

وقالت تيناردييه الزوجة : « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابة لم تشرب بعد فينبغي ان تشرب . »

ثم اجالت البصر في ما حولها وقالت : «حسن، ما الذي حل بتلك الفتاة؟» وانحنت ، فاكتشفت كوزيت رابضة عند الطرف الاخر من الطاولة ، تحت اقدام الشاربين تقريبا .

وصاحت تيناردييه الزوجة : « الن تأتي ؟ »

وخرجت كوزيت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وتابعت تيناردييه الزوجة : « ايتها الانسة « الكلبة التي لا اسم لها » ، اذهبي واحملي شيئا من الماء الى ذلك الجواد » .

فقالت كوزيت في وهن : « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء » .

ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه : « حسن اذهبي واجلبي شيئا منه ! »

وخفضت كوزيت راسها ،ومضت تلتمس دلوا فارغا كانفي زاوية الموقد . كانذلك الدلو اكبر منها، وكانفيميسور الطفلةان تقعد فيهعلى نحومريح.

ثم ان تيناردييه الزوجة اضافت : « ايتها الانسة الضفدع ، اشتري من الخباز ، وانت عائدة ، رغيفا كبيرا . دونك خمسة عشر سو » .

كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت القطعة النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .

ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح امامها . لقد بدت وكأنها تنتظر ان يقبل شخص ما لنجدتها .

وصاحت السيدة تيناردييه : « هيا اذهبي » .

وخرجت كوزيت ، واوصد الباب .

٢

كان عيد الميلاد من عام ١٨٢٣ مشرقا على نحو خاص في مونفيرماي . وكان بعض المشعوذين قد ضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت

جماعة من الباعة المتجولين قد اقامت حوانيتها الخشبية الصغيرة امـــام الكنيسة وعلى مقربة من مطعم تيناردييه . وكانت هذه الدكاكين متـلألئة كلها ـ بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليل ـ بالشموع المشمعة فى فوانيس من ورق ، وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمـة واحـدة فى السمـاء .

وكانت اخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيمت تجاه باب تيناردييه تماما ، دكان دمى تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغة الصغر ، وبالخـرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفى الصف الاول ، وفى مكان متقدم كان البائع قد وضع ، فوق مهاد من المناديل البيضاء ، دميـة ضخمة يبلغ طولها نحوا من قدمين ، وترتدي ثوبا من «الكريب» الازهر ، وقد جعلت على راسها سنابل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينين مصنوعتين من الميناء. وكانت هذه الاعجوبة قد عرضت طوال النهار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد فى مونفيرماي كلها أم هي من الغنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريها لطفلها . كانت ايبونين وآزيلما ابنتا تيناردييه قد انفقتا ساعات فى التحديق اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلسة من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مثقلة بالكآبة والغم ، لـم تتمالك أن ترفع عينيها نحو هذه الدمية الرائعة . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انها لم تر تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الخشبية كأنها قصرا فى عينيها ، ان تلك الدمية لم تكن دمية ، لقد كانت رؤيا . كانت هي البهجة ، والبهاء والثروة ، والسعادة تراءت فى ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه المخلوقة الصغيرة البائسة .

وفى غمرة من هذا التعبد نسيت كل شيء ، حتى المهمة التي عهد اليها فيها ، وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجـش الى الواقـع : ماذا ايتها الغبية ، الم تذهبي بعد ؟ انتظري . انا آتية اليك ! اني احب ان اعرف ما الذي تفعلينه هناك ؟ ايتها المسخة الصغيرة ، اذهبي . »

وكانت تيناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع ، ورات كوزيـت فى حال من الوجد .

وولت كوزيت حاملة دلوها ، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع ان توسعها.

واذ كان فندق تيناردييه فى ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعين على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاور لـ«شيل» ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة فى الدكاكين. وكانت هذه الدكاكين

المضاءة تنير سبيلها ما بقيت فى زقاق بولانجيه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى اخر دكان . والفت الطفلة المسكينة نفسها فى الظلمة . لقد دفنت فيها . بيد انها وقد استبد بها انفعال ما ، راحت تهز عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، اقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها فى وحدتها . .

وكلما امعنت فى المسير ، امست الظلمة اشد كثافة . لم يبق شخص ما فى الشوارع . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ، كان ذلك نورا وحياة ، وكان ثمة اناس ، وكان ذلك يسري عنها ويبقي على شجاعتها . بيد ان سرعتها كانت تتباطأ ، على نحو ميكانيكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخير عسيرا ، ولقد امسى الذهاب الى ابعد من المنزل الاخير مستحيلا . ووضعت الدلو على الارض ، وغيبت يدها فى شعرها وشرعت تحك راسها فى تؤدة . انها لم تعد فى مونفيرماي ، لقد امست فى الارض الفضاء . كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها. ونظرت فى ياس الى هذه الظلمة حيث لم يبق شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح فى اغلب الظن . وانعمت النظر . ثم تناولت دلوها من جديد ، لقد امدها الخوف بالجراة . وقالت : باه ! سوف اقول لها انه لم يبق هناك شيء من الماء ! ورجعت فى غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكد تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة اخرى ، وشرعت تحك راسها. كانت تيناردييه الزوجة هي التي تبدت لها الان ، تيناردييه الرهيبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينيها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مبكية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تعمله ؟ ما الذي سيحل بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تيناردييه الزوجة ، واما وراءها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وهكذا تراجعت فى وجه تيناردييه الزوجة . واتخذت الطريق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وانشات تعدو.

وحتى فيما هي تعدو نازعتها نفسها الى البكاء .

وكان الينبوع لا يبعد عن طرف الغابة الا مسيرة سبع دقائق او ثماني دقائق وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها اياها بضع مرات يوميا . ومن عجب انها لم تضل سبيلها . لقد هدتها بقية من غريزة ، على نحو اعمى ، ولكنها لم تدر عينيها لا الى اليمين ولا الى اليسار ، خشية ان ترى اشياء على الاغصان وفى الادغال . وهكذا انتهت الى النبع .

ولم تحاول كوزيت ان تأخذ نفسا . كان الظلام دامسا ، ولكنها كانت

متعودة المجيء الى هذا الينبوع . وبيدها اليسرى تلمست في الظلمة سنديانة صغيرة منحنية فوق الينبوع – وكانت كثيرا ما تتخذ منها نقطة ارتكاز – فوجدت غصنا فتعلقت به ، وانحنت مغطسة الدلو في الماء . ومرت بها لحظة كان الاهتياج غالبا عليها الى درجة ضاعفت قوتها اضعافا ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ ان جيب مئزرها قد افرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخمسة عشر سو في الماء . ولم تر كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبت الدلو مليئا او يكاد ، ووضعته على العشب .

حتى اذا تم لها ذلك ادركت ان قوتها قد نفدت . كانت راغبة اشد الرغبة في ان تنطلق في الحال . ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيما الى حد جعل من المتعذر عليها ان تخطو خطوة واحدة فارتمت على العشب وظلت مقرفصة هناك .

واغمضت عينيها ، ثم فتحتهما من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تفعل شيئا غير ذلك .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحائب سوداء عريضة كانت اشبه بذيول من دخان . لقد بدأ قناع الليل الفاجع وكأنه يطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

وهبت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمة ، ولم يكن فيها ايما حفيف ، او ايما ومضة من ومضات الصيف . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وتلوت الاعشاب الطويلة تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . كان كل شيء من حولها فاجعا حقا .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وايما امرىء يغوص في نقيض النهار يستشعر انقباضا في الصدر . فحين تقع العين على السواد ، ترى النفس القلق . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة الفاحمة ، يستبد الحصر النفسي حتى باقوى الرجال . فما من احد يستطيع ان يسري وحده في الغابة ، ليلا ، من غير ان يرتعد .

الغابات رؤى . وان خفق اجنحة النفس الصغيرة ليحدث صوتا كالحشرجة تحت قبتها الهائلة .

ومن غير ان تعي ما الذي كانت تعانيه ، استشعرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهائي الاسود يمسك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكبلها ، ولكن شيء ما اشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن أن تقول اي شيء غريب انطوت عليه تلك الرعدة التي اثلجتها حتى اعماق

الفؤاد . وغدت عينها ضارية . لقد احست انها قد تضطر الى العودة الى هناك فى الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم انها شرعت تعد بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، الى العشرة ، حتى اذا انتهت ، عاودت العد من جديد . ومكنها ذلك من استعادة الادراك الواقعي للاشياء المحيطة بها ، ولم يجل فى ذهنها غير خاطر واحد : ان تفر . ان تفر عبر الغابات ، عبر الحقول ، الى البيوت ، الى النوافذ ، الى الشموع المضاءة . ووقعت عيناها على الدلو الذي امامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تيناردييه فى فؤادها شديدا الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضي من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين . ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات او نحوها . ولكن الدلو كان مليئا ، وكان ثقيلا ، فاضطرت الى وضعه على الارض ، وتنفست لحظة ، ثم امسكت بالعروة كرة اخرى . ومضت لسبيلها ، مواصلة السير هذه المرة من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشت منحنية الى الامام ، مطأطئة راسها مثل امرأة عجوز . لقد وتر ثقل الدلو ذراعيها الهزيلتين وصلبهما . وكانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك فى قلب احدى الغابات ، فى موهن من الليل ، وفى الشتاء ، بعيدا عن كل عين بشرية . كانت طفلة فى الثامنة من عمرها . لم يكن ثمة فى تلك اللحظة احد غير الله يرى هذا الشيء الكئيب .

وامها من غير شك ، وااسفاه .

ذلك بان ثمة اشياء تفتح أعين الاموات فى قبورهم .

وتنفست فى ضرب من الحشرجة الفاجعة . وخنقتها التنهدات ، ولكنها لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحد كانت خائفة من السيدة تيناردييه ، حتى وهي بعيدة عنها .

وايا ما كان ، فلم يكن فى ميسورها ان تقطع شوطا حسنا من الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم فى بطء شديد . لقد حاولت جهدها ان تقصر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول مسافة ممكنة . وتذكرت فى الم نفسي مرير انها تحتاج الى اكثر من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي ، وان السيدة تيناردييه سوف تضربها . حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز التي تعرفها ، وقفت للمرة الاخيرة ، وقفة اطول من سابقاتها لكي تستريح جيدا . ثم استجمعت قواها كلها ، ورفعت الدلو كرة اخرى ،

واستأنفت السير في شجاعة . ومع ذلك فلم تتمالك المخلوقة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح : اوه ! يا الهي ! يا الهي .

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت يد هائلة قد امسكت اللحظة بعروة الدلو ، فهي تحمله في يسر . ورفعت راسها . كان شكل اسود ضخم ، مستقيم منتصب القامة ، يمشي الى جانبها في الظلام . انه رجل كان قد اقبل من ورائها ، ولم تكن قد احست بقدومه . ومن غير ان يقول كلمة ، كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله.

ان ثمة غرائز لجميع ازمات الحياة .

ولم تستشعر الطفلة خوفاً ما .

٣

وفي اصيل يوم الميلاد نفسه ذاك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجل فترة طويلة في اشد اقسام «جادة المستشفى» في باريس وحشة وانعزالا . وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سيما من يبحث عن مكان يبيت فيه ، ولقد تراءى. وكأنه يؤثر الوقوف عند اكثر البيوت تواضعاً في ذلك الطرف الخرب من ضاحية « سان مارسو » .

ولسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقع ، غرفة في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بملابسه وبشخصه كله يحقق النموذج الكامل لما يمكن ان ندعوه متسول المجتمع المترف ــ بؤس متناه تمازجه نظافة متناهية وذلك مزاج نادر جدا يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جدا، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان يعتمر بقبعة مستديرة عريقة في القدم ، ومفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة طويلة (ريدنغوت) بالية مهترئة الخيوط مفصلة من جوخ خشن اصفر ضارب الى لون التراب الحديدي ، وصدرة واسعة ذات جيوب عتيقة الزي ، وبنطلونا اسود احال البلى لونه ، عند الركبتين ، الى رمادي ، وجوربين صوفيين اسودين ، وينتعل حذاء غليظا ذا ابازيم نحاسية . ومن شعره الاشيب بالكلية ، ومن جبينه المتغضن ، ومن شفتيه الزرقاوين الضاربتين الى السواد ، ومن وجهه حيث كل شيء ينم عن الاعياء والسأم من الحياة ، كان خليقا بالمرء ان يحسب انه

تخطى الستين منذ زمن بعيد . فى حين ان خطواته الثابتة وان تكن بطيئــة ، والعزم الفريد الذي يسم حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء انه لم يكد يبلغ الخمسين . وكان يحمل بيده اليسرى صرة صغيرة مشدودة بمنديل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصا قطعت من سياج من الاشجار الشائكة .

وليس يجتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة فى فصل الشتاء. ولقد بدا ان هذا الرجل يجتنب الناس اكثر مما يسعى الى لقائهم ، ولكن من غير تكلــف .

فى ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريبا الـــى «شوازي لو روا » . كانت احدى نزهاته المفضلة . وحوالي الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربة الملكية وموكــب الفرسان الملكي يخترقان «جادة المستشفى» باقصى ما يستطيعان من سرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحي الفقيرات اللواتي كن يقلن: انها الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري .

ولقد كان واضحا ان ذلك المتجول ذا السترة الطويلة الصفراء لم يكن من ابناء الحي ، ولعله لم يكن من ابناء باريس ، اذ كان يجهل هذا الحدث . فحين انطلقت العربة الملكية ، عند الساعة الثانية، نحو الجادة، بعد ان اجتازت « لاسالبيتريير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملكي الموشاة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلا : بل بدا مروعا تقريبا . لم يكن ثمة غيره عند مفرق الزقاق ، فارتد على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هذا لم يحل بين دوق دافريه وبين رؤيته. وكان الدوق دافريه جالسا فى العربة تجاه الملك . فقال لجلالته : هو ذا رجل تبدو على وجهه سيمـــاء بغيضة . ورآه بعض رجال الشرطة الذين كانوا يخلون الطريق للموكب الملكي، ايضا ، فامر واحد منهم بان يتبعه . ولكن الرجل غاص فى ازقة الضاحيـــة المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يهبط فقد الشرطي أثره ، وعندئذ استـــدار الرجل ملتفتا مرات عديدة لكي يتأكد من ان احدا لا يتبعه . وعند الساعـــة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح «لا بورت سان مارتان» حيث كانت تقدم ذلك اليوم مسرحية «المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضاء بمصابيح المسرح العاكسة للنور ، اذ توقف عنده ، على الرغم من اسراعه فى السير ، لكي يقراه . وبعد لحظة انتهى الـــى زقـــاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل «القصعة الصفيحية» ، حيث كان انذاك مكتب عربة لانيي . وكانت هذه العربة تنطلق فى الساعة الرابعة والنصف .

كانت الجياد قد قرنت اليها ، وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، يستقلون مسرعين سلم العربة الحديدية العالية .
وتساءل الرجل : « هل عندك مقاعد ؟ »
فاجابه السائق : لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على السدة . »
ـ « سوف آخذه » .
ـ « اصعد » .
بيد ان السائق القى ، قبل ان ينطق ، نظرة على ملابس المسافر الحقيرة ، وصفر صرته ، وتقاضى اجره .
وسأله السائق : « أذاهب انت حتى لانيي ؟ »
فقال الرجل : « نعم » .
ودفع الرجل اجر الرحلة حتى لانيي .
وانطلقت العربة بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر فى حديث ، ولكن هذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة .
وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الخيل .
وتلفع السائق بمعطفه. كان الجو باردا. اما المسافر فبدا وكأنه لايفكر فيه
وحوالي الساعة السادسة مساء بلغوا « شيل » . وتوقف السائق، لكي يريح جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام فى الابنية القديمة من الدير الملكي .
وقال الرجل : « سوف اترجل هنا » .
وامسك بصرته وعصاه ، ووثب من العربة .
وبعد لحظات اختفى عن العيان .
انه لم يدخل الى الفندق .
حتى اذا انطلقت العربة بعد بضع دقائق قاصدة الى لانيي لم تلقه فى شارع لانيي الرئيسي .
كان قد اجتاز بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي فى « شيل » ثم انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكا الطريق القروية المؤدية الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .
وانطلق مسرعا فى تلك السبيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي تتقاطع عندها مع الطرق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي تمتد من « غانيي » الى « لانيي » ، سمع وقع اقدام يقترب منه . فسارع الى الاختفاء فى احدى الحفر وتربص هناك ريثما امسى المارة على مسافة بعيدة .

ولم ينقلب الرجل بعد ذلك الى طريق مونفيرماي. لقد انعطف الى اليمين عبر الحقول ، واتخذ سبيله ، في خطى سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ ينعم النظر في الاشجار جميعا ، متقدما خطوة خطوة وكأنه يلتمس او يتبع طريقا خفية لا يعرفها احد غيره . وانقضت لحظة بدا فيها وكأنه ضل عن سبيله ، ووقف مترددا . واخيراً وصل بتحسسه طريقه في الظلام على نحو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخم من الحجارة ، وراح يفحصها في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يستعرض القائد الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مغطاة بتلك النوامي الغريبة التي هي تآليل النبات . فمضى الى تلك الشجرة ، وامرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسعى الى ان يتعرف ويحصي جميع الثآليل .

وتجاه هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كستناءة مصابة بداء سقوط القشر سقوطا ذاتيا ، وكانت قد ضمدت بعصابة من الزنك سمرت عليها فما كان من الرجل الا ان رفع نفسه ، على رؤوس اصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك . ثم انه قرع الارض ، بقدميه ، عند الفسحة القائمة ما بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريد ان يتحقق ان التربة لم تقلب منذ عهد قريب .

حتى اذا تم له ذلك مضى لسبيله مستأنفا سيره خلال الغابة .

كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك انه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة متجها نحو مونفيرماي ، بصر بهذا الظل الصغير الذي كان يشق طريقه في انين ، والذي وضع على الارض حملا ما ، ثم رفعه ، واستأنف المسير . كان قد اقترب من ذلك الظل ، وادرك انه طفلة صغيرة جدا تحمل دلوا هائلا من الماء . وعندئذ مضى الى الطفلة ، وامسك بعروة الدلو في صمت .

ولم تستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفا ما .

وتحدث الرجل اليها . كان صوته رزينا يجاور الهمس .

ـ « ان هذا الذي تحملينه ثقيل جدا عليك ، يا بنيتي » .

فرفعت كوزيت راسها واجابت : « نعم يا سيدي » .

واضاف الرجل : « اعطيني اياه . سوف احمله عنك » .

وخلت كوزيت الدلو . وانشأ الرجل يمشي الى جانبها .

ـ « ايتها الصغيرة ، ما سنك ؟ »

ـ « ثماني سنوات ، يا سيدي » .

ـ « وهل اقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »
ـ « من النبع الذي في الغابة » .
ـ « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
ـ « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا » .
واعتصم الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة : « اذن فليس لك ام ؟»
فأجابت الطفلة : « لست ادري » .

وكف الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ، ووضع يديه على كتفي الطفلة، محاولا،في جهد،ان ينظر اليها،وان يرى وجهها في الظلام. وارتسم وجه كوزيت المهزول الضعيف البنية ارتساما غامضا تحت ضوء السماء القاتم .

وقال الرجل : « ما اسمك ؟ »
وبدا وكأن الرجل عرته رجفة كهربائية . وعاود النظر اليها ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف المسير .
وبعد لحظة سأل : « ايتها الطفلة الصغيرة ، اين تسكنين ؟ »
ـ « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها » .
ـ « الى هناك نحن ذاهبان ؟ »
ـ « نعم يا سيدي » .
ـ « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبي الماء في هذه الساعة من الليل؟»
ـ « مدام تيناردييه » .
ـ « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ؟ »
فقالت الطفلة : « انها سيدتي . انها تدير الفندق » .
ـ « الفندق ، حسن،سوف اذهب وابيت هناك هذه الليلة . دليني على الطريق » .
فقالت الطفلة : « نحن ذاهبان الى هناك » .

ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر . انها ما عادت تستشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينيها نحو هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف .

وانقضت بضع دقائق ، وتكلم الرجل : « اليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ؟ »
ـ « لا يا سيدي » .
ـ « هل انت وحدك ؟ »

ـ « نعم يا سيدي » .
وتقضت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :
ـ « يعني ان هناك بنتين صغيرتين » .
ـ « اي بنتين صغيرتين ؟ »
ـ « بونين وزيلما » .
ـ « ومن بوني وزيلما ؟ »
ـ « انهما آنستا مدام تيناردييه ، وفى استطاعتك ان تقول بنتيها » .
ـ « وما تفعل هاتان البنتان ؟ »
فقالت الطفلة : « اوه ، انهما دميتان جميلتان ، شيئان عليهما ذهب ، انهما تلعبان . وانهما تتسليان » .
ـ « طوال النهار ؟ »
ـ « نعم يا سيدي » .
ـ « وانت ؟ »
ـ « انا ! انا اشتغل » .
ـ « طوال النهار ؟ »
ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين ترقرقت فيهما دمعة لم يكن من الميسور رؤيتها فى الظلام ، واجابت فى رقة : « نعم ، يا سيدي » .
ثم اضافت بعد فترة من الصمت : « وفى بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وترغبان هما فى ذلك ، اتسلى انا ايضا » .
ـ « وكيف تتسلين ؟ »
ـ « قدر ما استطيع . انهم يتركونني وحدي ، ولكن ليس عندي لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بان العب بلعبهما » .
وبلغا القرية ، وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا بالمخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم يوجه اليها الرجل ايما سؤال اخر . حتى اذا تخطيا الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين راى تلك الدكاكين كلها : « اذن ، نهذا اوان السوق الموسمية » .
ـ « لا ياسيدي ، انه عيد الميلاد » .
وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه فى جزع .
ـ « مسيو ؟ »
ـ « ماذا ، يا بنيتي ؟ »
ـ « لقد صرنا على مقربة من البيت » .
ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ « اتحب ان تدعني احمل الدلو الان ! »
ـ « ولمــــاذا ؟ »
ـ « لان مدام تيناردييه تضربني اذا رات شخصا يحمله عني » .
واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كانا بباب المطعم الحقير .

٤

ولم تتمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت ما تزال معروضة فى دكان الدمى ، ثم قرعت الباب . وفتــــح الباب ، وظهرت السيدة تيناردييه تحمل شمعة فى يدها .

ـ « آه ، هذا انت ، ايتها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقــد مشيت على مهلــك ! كانت تلعب ، الوقحــة » .

فقالت كوزيت مرتعدة : « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل فى الفنــدق » .

وفى سرعة بالغة ، استبدلت السيدة تيناردييه بسيماها الضارية انسراحة وجه متوردة ونظرت الى الوافد الجديد بعينين متلهفتين .

وقالت : « اهــو هــذا السيد ؟ »

فاجابها الرجل ، رافعا يده الى قبعته : « نعم ، يا سيدتي » .

ان المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان فى هذه الايماءة ، وفى مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة تيناردييه بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح المحببة تختفي . والسيما الضارية تعاودالظهور واضافت فى جفاف : « ادخل ، ايها الرجل الساذج » .

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة اخرى عليه ، متأملة على نحو خاص فى سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبعتــــه المنكسرة بعض الشيء . وبهزة راس ، وغمزة عين ، وتغضن انف ، شاورت زوجها الذي كان يعاقر الخمر مع سائقي العربات واجاب الزوج بهزة السبابة التي تعني حين يعقبها مد الشفتين، «فقر مدقع» . وعندئذ صاحت السيدة تيناردييه : «آه ايها الرجل الفاضل انا آسفة جدا، ولكن ليس عندي مكان » .

فقال الرجل : « ضعيني حيث شئت . فى العلية ، فى الاسطبل . سوف ادفع وكأنني احتل غرفة » .

ـ « أربعون سو » .
ـ « اربعون سو . ليكن ذلك » .

ـ « مقدمـا » .

وفى غضون ذلك ، كان الرجل ـ بعد ان ترك عصاه وصرته على احـد المقاعد ـ قد جلس الى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها، فى سرعة ، كأسا وزجاجة من الخمر . كان البائع المتجول الذي طلب دلو الماء قد مضى هونفسه فحمله الى فرسه . وكانت كوزيت قد انقلبت الى مكانها تحت طاولة المطبخ واستأنفت حبكهـا .

ولم تمس شفتا الرجل الخمر التي صبها فى كأسه الا نادرا . كـــان يتأمل الطفلة فى انتباه عجيب .

وكانت كوزيت بشعة . ولعلها كانت خليقة بان تكون جميلة لو كانـت سعيدة . وكانت كوزيت مهزولة ، شاحبة . كانت فى الثامنة من عمرها ،ولكن الناظر اليها كان يظن انها لم تكد تتجاوز السادسة . وكانت يداها مليئتـــين بالشقوق الناشئة عن البرد . لقد كان فى ضوء النار الذي شع من حولها فى تلك اللحظة ما ابرز زوايا عظامها ، وجعل هزالها واضحا على نحو مخيف .واذ كانت ترتعد ابدا ، فقد تعودت ان تشد احدى ركبتيها الى الاخرى . ولم يكن ثوبها كله غير خرقة خليقة بان تثير الاشفاق فى الصيف ، والذعر فى الشتاء . لم يكن على جسدها غير نسيج قطني مليء بالثقوب . انه لم يعرف خرقـــة واحدة من الصوف . كانت ملابسها تلك تكشف عـن بشرتها ههنا وههناك ، وكان فى ميسور المرء ان يتبين عليها بقعا سوداء وزرقاء تشير الى المواطن التي لمستها السيدة تيناردييه منهـا .

وكانت السيما التي تطبع محيا هذه الطفلة ذات الثمانية اعوام كئيبة ، عادة ، فاجعة ، فى بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبدو ، فى بعض اللحظات ، وكأنها فى سبيلها الى ان تصبح معتوهة او شيطانا .

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت .

وفجاة ، صاحت السيدة تيناردييه : «اوه، لقد نسيت!اين ذلك الرغيف؟»

وسارعت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقا لمألوف عادتهـا كلما رفعت السيدة تيناردييه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغيف تماما . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

ـ « مدام ، كان المخبز مغلقا » .

ـ « كان من الواجب عليك ان تقرعي البـاب » .

ـ « لقد فعلت ، يا سيدتي » .

ـ « ثم مـاذا ؟ »

ــ « ان الخباز لم يفتح » .

فقالت السيدة تيناردييه : « سوف ارى غدا ما اذا كان هذا صحيحا . واذا كنت تكذبين فسوف ارقصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، اعيدي الي قطعة الخمسة عشر سو » .

وغيبت كوزيت يدها في جيب مئزرها ، واخضر لونها . ان قطعة الخمسة عشر « سو » لم تكن هناك .

وقالت السيدة تيناردييه : « تعالي . الم تسمعيني ؟ »

وقلبت كوزيت جيبها جاعلة داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء . ما الذي يمكن ان يكون قد حل بتلك القطعة النقدية ؟ ولم تجد المسكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجرت تحجرا .

وصاحب السيدة تيناردييه : « هل اضعتهاام تريدين ان تسرقيها مني ؟ »

وفي الوقت نفسه بسطت ذراعيها نحو السوط المعلق عند زاوية الموقد .

وكان في هذه الحركة الرهيبة ما منح كوزيت القوة ان تصيح :

ــ « اغفري لي ، يا سيدتي ! انا لن افعل ذلك بعد اليوم » .

ونزعت السيدة تيناردييه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبحث فيجيب صدرته ، من غير ان يلحظ احد هذه الحركة . اما المسافرون الاخرون فكانوا يحتسون الخمر ، او يلعبون الورق ، فهم لا يلتفتون الى شيء .

وتلوت كوزيت بالالم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة ان تضم وتخفي اوصالها البائسة نصف العارية . ورفعت السيدة تيناردييه ذراعها .

فقال الرجل : « عفوا ، يا سيدتي ، ولكني رايت في هذه اللحظة شيئا يسقط من جيب مئزر هذه الفتاة الصغيرة ويكر على الارض . فقد يكون ذلك ما تطلبين » .

وفي الوقت نفسه، انحنى،وبدا وكأنه يبحث في ارض المكان لحظة من الزمن ثم قال وهو ينهض : « هكذا تماما . ها هي ذي . »

وقدم قطعة نقدية فضية الى السيدة تيناردييه .

فقالت : « اجل هذه هي » .

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين «سو»، ولكن السيدة تيناردييه وجدت فيها ربحا لها . ووضعت القطعة النقدية في جيبها، واكتفت بالقاء نظرة ضارية على الطفلة ، قائلة: « لا تدعي ذلك يحدث مرة اخرى،مدى الـدهـر » .

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تيناردييه تدعوه « جحرها » .

وشرعت عيناها الواسعتان ، المسمرتان على المسافر المجهول ، تفحصان عن شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهش ساذج ، ولكن ضربا من الثقة المشدوهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تيناردييه المسافر : « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيرا عميقا .

وفتح الباب ، واقبلت ايبونين وازيلما .

كانتا صغيرتين جميلتين حقا ، وكانتا مدينيتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احداهما بجدائلها الكستنائية الحسنة الصقال ، والاخرى بضفائرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهرها، وكانت كل منهما نشيطة،نظيفة ممتلئة ناضرة ، تطفح صحة الى درجة تجعل النظر اليها بهجة ومتعة .

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لديهما دمية ، فراحتا تقلبانها على ركبهما ظهرا بطنا وبطنا لظهر مغردتين مختلف ضروب التغريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينيها عن زردها ، وتنظر اليهما في كآبة بينا هما تلعبان .

كانت دمية الشقيقتين تيناردييه ناصلة جدا، عتيقة جدا، محطمة كلها . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، دمية حقيقية ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحا يفهمه الاطفال جميعا .

وفجأة ، لاحظت تيناردييه الزوجة ان انتباه كوزيت كان مشوشا ،وانها بدلا من ان تنصرف الى العمل كانت مشغولة بالفتاتين الصغيرتين اللاعبتين . وصاحت : « اوه لقد قبضت عليك ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها، سوف اكرهك على العمل بضربات السوط » .

ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تيناردييه، وقال مبتسما في خجل : « ولكن يا سيدتي ، دعيها تلعب » .

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد اكل شريحة من لحم الضان، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء، ولم يكن له مظهر شحاذ مروع، اذن لكانت امرا مطاعا . اما ان يجرؤ رجل حقير المظهر فيسمح لنفسه بابداء رغبة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تيناردييه ان من غير الجائز التسامح به فاجابت في حدة : «يجب ان تعمل، لانها تأكل . انا لا اعيلها لكي لا تعمل شيئا »

ــ « وما الذي تعمله ؟ »

ــ «جوارب،اذا شئت.جوارب لبنتي الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئا من ذلك يستحق الذكر ، واللتين ستضطران،بعد قليل،الى السير حافيتين» .

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت الحمراوين المثيرتين للشفقة ، واضاف:

ـ « ومتى ستنهي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

ـ « انها فى حاجة بعد الى ثلاثة ايام او اربعة ايام على الاقل . يا لها من فتـاة كسول ! » .

ـ « وكم سيساوي هذا الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »

والقت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

ـ « ثلاثين سو على الاقل » .

فقال الرجل : « اتعطينني اياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

وهنا اعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام : «نعم، يا سيدي، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان تأخذ زوجي الجوارب هذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع ان نضن على النزلاء بشيء . »

فقالت تيناردييه الزوجة فى طريقتها المختصرة الجازمة : « يجب ان تدفعها فى الحال » .

فسحب الرجل من جيبه قطعة من ذات الخمسة الفرنكات ووضعها على الطاولة وقال : « دونك المبلغ » .

ثم التفت نحو كوزيت وقال : « والان ، لقد اصبح شغلك ملكا لي . العبي يا بنيتي » .

واقترب تيناردييه . وفى صمت وضع القطعة النقدية فى جيبه ، ولم يكن عند السيدة تيناردييه ما تجيب به . لقد عضت شفتيها وطفت على وجهها سيما من الحقد .

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمست زوجته فى اذنه : « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه فى صوت آمر : « لقد رايت اصحاب ملايين فى سترات طويلة مثل هذه » .

كانت كوزيت قد تركت زردها ، ولكنها لم تغادر مكانها . كان من دأب كوزيت ان تتحرك اقل ما يمكنها ان تفعل . وكانت قد اخرجت من صندوق صغير خلفها بعض الخرق البالية ، وسيفاً رصاصيا صغيرا جدا ، فقمطت السيف بالخرق ومددته على ذراعها ، واخذت تغني له فى رقة لكي ينام .

ان الفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد لا تقل شقاء عن امراة من غير اطفال وهي تعدل هذه المراة استحالة تماما .

واذن ، فأن كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .

واقتربت تيناردييه الزوجة من الرجل الاصفر. وقالت فى ذات نفسها :

ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت. ان بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد .

وتقدمت ، واراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالسا اليها . وقالت:

ـ « مسيو ... »

ولم يكد الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة تيناردييه لم تناده من قبل الا بقولها ايها الرجل الطيب» او ايها الرجل الساذج.

وتابعت كلامها ، خالعة على وجهها اعذب ملامحه ، التي كانت ادعى الى الازعاج من سيماها الضارية : «ترى» يا سيدي» اني راغبة في ان تلعب الطفلة. انا لا اعارض في ذلك . ولكن هذا جيد اذا تم مرة واحدة ، لانك رجل كريم . غير انها ، كما ترى ، بنت فقيرة . ان عليها ان تشتغل » .

فسألها الرجل : « واذن ، فالطفلة ليست ابنتك ؟ »

ـ « اوه يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! انها شحاذة صغيرة انزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . نحن نكتب الرسائل الى مسقط راسها ، ولكنا لم نتلق جوابا منذ ستة اشهر . ولقد اصبحنا نعتقد ان امها ماتت من غير شك» .

فقال الرجل : « آه » .. واستغرق في تفكيره .

وفي تلك الاثناء كانت ابنتا تيناردييه قد تركتا دميتهما لتلاعبا الهرة ، فاخذت كوزيت تقلب تلك الدمية بين يديها وهي على اشد ماتكون من الابتهاج. حتى اذا رأتها مدام تيناردييه صرخت : « كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زلزلت من تحتها وطرحت الدمية على الارض ..

وفي الوقت نفسه نهض المسافر وقال لتيناردييه الزوجة: «ما المسألة ؟»

فقالت مشيرة باصبعها : « الا ترى ؟ »

وقال الرجل : « حسن ، وما ذاك ؟ »

فاجابت تيناردييه الزوجة : « لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تمس دمية الطفلتين ! » .

فقال الرجل : « واي باس في ان تلعب بتلك الدمية ؟ »

وتابعت تيناردييه الزوجة: «لقد لمستها بيديها القذرتين! بيديها الفظيعتين!»

وهنا ضاعفت كوزيت نحيبها .

فصاحت تيناردييه الزوجة : « اخرسي ! »

ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، وخرج .

ولم يكد يذهب ، حتى افادت تيناردييه الزوجة من غيابه فرفست كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفسة جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .

وفتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملا بيديه الاثنتين تلك الدمية الاسطورية التي تحدثنا عنها، والتي كانت موضع اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . واوقفها امام كوزيت ، قائلا : « خذي ، هذه لك ! »

ورفعت كوزيت عينيها . لقد رات الى الرجل يقبل نحوها حاملا تلك الدمية وكأنما كانت ترى الى الشمس تقبل نحوها، وسمعت هذه الكلمات التي لم يسمع بمثلها من قبل : « هذه لك ! » ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدت الى الوراء في تؤدة ، فاختبأت ، ابعد ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .

ولم تبك بعد، ولم تصرخ بعد، لقد بدت وكأنها ما عادت تجرؤ على التنفس.

وغدت تيناردييه الزوجة ، وايبونين ، وآزيلما اشبه بالتماثيل . وكف الشاربون انفسهم عن الشراب . لقد ران صمت مهيب على الحانة كلها .

واستأنفت تيناردييه الزوجة — وقد تحجرت واصابها البكم — حدسها ورجمها : « من ذلك العجوز ؟ اهو شحاذ ؟ اهو مليونير ؟ لعله الاثنان معا ، يعني لعله لص » .

اما تيناردييه الزوج فقد تقدم نحو زوجته وهمس في اذنها قائلا : «كفى بلاهة . اركعي على ركبتيك امام هذا الرجل ! »

فقالت تيناردييه الزوجة ، في صوت ارادت ان يكون عذبا : « وبعد ، يا كوزيت ، الا تريدين ان تأخذي دميتك ؟ »

وغامرت كوزيت فخرجت من جحرها .

وقال تيناردييه في جرس ملاطف : « يا صغيرتي كوزيت . ان السيد يقدم اليك دمية . خذيها . انها لك » .

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر. كان وجهها لا يزال غارقا بالدمع ، ولكن عينيها شرعتا تمتلئآن ، شأن السماء عند انبلاج الفجر ، باشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خامرها في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجدير به ان يخامرها لو ان احدا قال لها فجأة : « ايتها الصغيرة ، انت ملكة فرنسة ! »

وتقدمت كوزيت اخر الامر، وغمغمت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة : « ااستطيع ، يا سيدتي ؟ »

وقالت تيناردييه الزوجة : « يا الهي ، انها لك . ما دام السيد قد اعطاك اياها » .

فقالت كوزيت : « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي؟ هل السيدة لي ؟ »

وتراءى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلغ مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافة ان يبكي. وحنى راسه لكوزيت انحناءة تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » فى يدها الصغيرة .

وسارعت كوزيت الى سحب يدها ، وكأن يد «السيدة» قد احرقتها ، وانشأت تنظر الى الارض . وفجأة ، استدارت وامسكت بالدمية فى لهفة ، وقالت : « سوف ادعوها كاترين » .

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب الدمية وشاشها الموصلي الازهر الرقيق ، وضغطت عليها .

ونظرت اليها ايبونين وآزيلما فى حسد ، وتعاظمت نقمة مدام تيناردييه عليها وقررت ان تطردها فى الصباح .

وانقضت عدة ساعات . وتلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، واغلقت الحانة ، وهجرت القاعة السفلى، وخمدت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب فى المكان نفسه ، والوضع نفسه . لقد غير ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه ، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت الى النوم .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول، فى القاعة. وغمغمت : « ايعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحا، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها:

— « انا ذاهبة الى الفراش . فى استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، فى احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرا صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او يزيد ، قرأ الفندقي الفاضل فى اثنائها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى اسم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يحدث بكرسيه صريرا ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « اهو نائم ؟ » ان الرجل لم يكن نائما ، ولكن ايما شيء لم يكن قادرا على ايقاظه .

واخيرا نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم فى رفق وغامر بالقول : « الا يعتزم سيدي ان يهجع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال : « الا يعتزم سيدي **ان ينام** اذن لكان ذلك ثقيل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله **ان يهجع** فكان ينطوي على ترف وكان ينم عن احترام. ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الخفية الرائعة

التي تمكنها من تضخيم الفاتورة فى صباح اليوم التالي . فالغرفـة التي تنام فيها تكلف عشرين سو، على‌حين ان الفرفة التي تهجع فيهاتكلف عشرين فرنكا.

وقال الغريب : « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فاجابه تيناردييه فى ابتسامة : « سيدي ، انـا سوف ادل سيدي على الطريـق » .

واخذ الشمعة ، واخذ الرجل صرته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة فى الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ، وسرير رفيع العماد ، وسجف من نسيج قطني احمر .

وقال المسافر : « ما هذه ؟ »

فاجاب صاحب الفندق : «انها غرفة عرسنا الخاصة. نحن نحتل غرفة مماثلة لهذه ، انا وزوجتي . ان هذه الغرفة لا تفتح غير ثلاث مرات او اربع مـرات فى العام » .

فقال الرجل فى خشونة : « انا افضل الاسطبل عليها » .

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه اللياقة .

واضاء شمعتين لم تمسا من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت النار حسنة التأجج تضطرم فى الموقد . وعلى غطائه ، تحت صندوق زجاجي، كانت قبعة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال.

وقال الغريب : « ما هذا ؟ »

فاجابه تيناردييه : « سيدي ، انها قبعة زفاف زوجتي » .

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرة بدت وكأنها تقول : « لقد انقضت اذن لحظة كانت فيها هذه الغولة عذراء » .

حتى اذا التفت المسافر كرة اخرى لم يجد صاحب الفندق . كـان تيناردييه قد انسل فى لباقة من غير ان يجرؤ على ان يتمنـى للغريب ليلـة سعيدة ، لعدم رغبتـه في ان يعامل بمودة غير محتشمة رجلا كان يعتزم ان يسلخ جلده ، فى كثير من الابهة ، صباح اليوم التالي .

٥

وفى صباح اليوم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ، جلس تيناردييه الى طاولة فى قاعة الحانة السفلى ، والـى جانبـه شمعـة وفى يده قلم وانشأ يعد فاتورة المسافر ذي السترة الطويلة الصفراء فبلغت ثلاثة وعشرين فرنكا .

واشعل تيناردييه غليونه والتفت الى زوجته وقال : « انت ستقــدمين الفاتورة الى الرجل » .

ثــم خــرج .

ولم يكد يغادر الغرفة حتى دخلها المسافر .

وفى الحال برز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظل جامدا لــدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زوجته .

وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرته بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة : « لقد استيقظت باكرا جدا ! ايعتزم سيدي ان يفارقنا اللحظــة ؟ »

وفيما هي تتكلم ، ادارت الفاتورة بين يديها فى سيماء مرتبكة ، وراحت تغضنها باظافرها . لقد بدا لها ان فى تقديم مثل هذه الفاتورة الضخمة الى رجل تبدو عليه مظاهر « الشحاذ » كاملة احراجا كثيرا .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلا . واجابها : « نعم ، يا سيــدتي . انــا راحــل » .

فاضافت : « واذن فليس عند سيدي اعمال فى مونفيرماي ؟ »

فاردف : « لا . انا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعين علي ان ادفع يا سيدتي ؟ »

وناولته السيدة تيناردييه الفاتورة المطوية ، ولم تجب بشيء .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . ولكن افكاره كانت، على نحو واضح، في مكــان اخــر .

وسالها : « هل تسير الاعمال على ما يرام فى مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت لهذا السؤال : « بــين بــين يا سيــدي » .

ثم تابعت فى جرس فاجع يدعو الى الرثاء: « اوه يا سيدي .الازمة شديدة يا سيدي، ان لدينا نفقات كثيرة .ان تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها» .

ــ « اية فتاة صغيرة ؟ »

ــ « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبرة ، كما يدعونها هنا » .

فقال الرجل : « آه ! »

وتابعت : « نحن لا نربح شيئا ، وان علينا اشياء كثيرة يجب ان تدفع . وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل من المال . والى هذا ، فانعندي بنتي . ولست فى حاجة الى ان اعيل اطفال الناس » .

واجابها الرجل فى صوت رغب فى ان يجعله لا مباليا ولكنه كان ينطوي

على ارتجافة : « افرضي ان امرءا خلصك منها ؟ »
ــ « ممن ؟ كوزيت ؟ »
وغدا وجه الفندقية الاحمر العنيف متهللا بانطباعة مخيفةوقالت: «آه ، يا سيدي الطيب ! خذها ! احتفظ بها ، اصطحبها ، اطبخها بالكماه ، اشربها ، كلها ، ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »
ــ « أتفقنــــا ! »
ــ « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »
ــ « سوف اذهب بها » .
ــ « فـي الحـــال ؟ »
ــ « فى الحال ، نادي الطفلة ! »
فصاحت تيناردييه الزوجة : « كوزيت »
وتابع الرجل : «وفى انتظار ذلك، سوف ادفع اليك فاتورتي، ما مبلغها ؟ والقى نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات الدهش : « ثلاثة وعشـرون فرنكا ! »
فقالت مدام تيناردييه: «نعم طبعا ، ياسيدي!انهاثلاثة وعشرون فرنكا» .
ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الخمسة الفرنكات على الطاولة وقال : « اذهبي وائتيني بالفتاة الصغيرة » .
وفى تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال: «يتعين علي ان اتحدث مع السيد بشأن الطفلة . اتركينا وحدنا ايتها الزوجة » .
واصيبت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشداه الذي توقعه فى نفس المرء بوارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان الممثـل العظيم قد دخل الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسبيلها .
وما ان خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسيا . وقعد المسافر ، ولكن تيناردييه ظل واقفا ، وقد اتخذوجهه انطباعة فريدة من الطيبة والبساطة وقـــال :
ــ « اسمع يا سيدي ، ينبغي ان اقول انني اعبد هذه الطفلة » .
فنظر الغريب نظرا موصولا وقال : « اية طفلة ؟ »
ــ « اوه ، كوزيتنا الصغيرة ! الا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اتكلم فى صراحة حقا ، فمما لا ريب فيه اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف افتقدهذه الطفلة، من غير شك . لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جدا . صحيح انها تكلفنا مالا ، صحيح ان لها اخطاءها ، صحيح اننا لسنا اغنياء ، صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غير ! ولكنا يجب ان

نعمل شيئا في سبيل الله ! هذه الطفلة لا ام لها ولا اب . لقد انشأتها انا . ان عندي من الخبز ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان احتفظ بهذه الطفلة انها مثل ولد من اولادنا . انا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت».

كان الغريب يحدق اليه طوال الوقت . وتابع حديثه :

ـ « عفوا يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرء لا يقدم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحا أني على صواب؟ ولنفرض اني تركتها تذهب واني ضحيت بعواطفي فاني احب ان اعرف الى أين سوف تذهب. انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب واراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذي هو في مقام ابيها، لا يزال يرعاها . واخيرا فثمة أشياء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ويجب على الاقل ان ارى قصاصة ورق بالية ، او قطعة من جواز سفر ، او شيئا ما . »

ومن غير ان يكف المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرس وقور : « مسيو تيناردييه ، ان الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس. اذا اخذت كوزيت اخذتها . هذا كل ما هنالك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك لن تعرف الى اين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها بعد اليوم ابدا . هل يوافقك ذلك ؟ نعم ام لا ؟ »

وكما تحس الشياطين والجن ، من بعض الامارات ، انها في حضرة رب اسمى ، كذلك ادرك تيناردييه انه امام رجل قوي جدا . فسارع الى القول :

ـ « يجب ان احصل على الف وخمسمائة فرنك ، يا سيدي » .

واخرج الغريب من جيبه الجانبي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد اسود وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة. ثم انه اراح ابهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفندقي : « ادع كوزيت » .

وطلب تيناردييه من زوجته احضار كوزيت ... وبعد لحظة دخلت كوزيت القاعة السفلى ...

وتناول الغريب الصرة التي كان قد جلبها معه ، وفكها . كانت تلك الصرة تحتوي على مجموعة ثياب كاملة لفتاة في الثامنة. وكانت تلك الملابس كلها سوداء.

وقال الرجل : «خذي هذه، يا بنيتي ، واذهبي فالبسيها في سرعة » .

وكان الضحى يرتفع عندما وقعت ابصار سكان مونفيرماي الذين بدأوا يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى باريس ، ممسكا بيد فتاة صغيرة ترتدي ملابس حداد كاملة ، وتحمل بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد اتجها نحو ليفري .

لقد مضت كوزيت لسبيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك. الى اين ؟ لم تكن تدري. كل ما فهمته انهاخلفت وراءها مطعم تيناردييهالحقير. ولم يخطر فى بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر فى بآلها هي ان توجه كلمــة وداع الى احد . لقد غادرت ذلك البيت مكروهة كازهة .

يا لها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتــى تلك اللحظة شيئــا غير السحق !

وسارت كوزيت فى رصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين، ناظرة الىالسماء. وبين الفينة والفينة ، كانت ترنو الى الرجل الطيب . لقد استشعرت، بعض الشيء وكأنها قرب اللــه .

٦

كانت مدام تيناردييه ، وفقا لعادتها ، قد تركت زوجها وشانه . وكانت تتوقع احداثا ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة او تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، انتحى بها جانبا واراها الالف والخمسمئة فرنك .

وقالت : « مــا هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرات فيها ، منذ زواجهما ، على ان تنقد عملا من اعمــال سيدها .

واحس بأثــر الضربــة .

وقال : « صحيح ، انت على صواب ، انا معتوه . اعطني قبعتي » .

وطوى الاوراق المالية الثلاث ، واقحمها فى جيبه ، وانطلق باقصى مــا يستطيع من سرعة ، ولكنه ضل الطريق ، آخذا يمينه بادىء الامر . ولكنه سأل بعضالجيران فهدوه سواء السبيل.لقد شوهدت القبرة والرجل سائرين فى اتجاه ليفري. فمضى فى ذلك الاتجاه، منطلقا بخطوات واسعة، مخاطبا نفسه: «هذا الرجل منغير شك مليونير فى ملابس صفراء، اما انا فبهيمة. لقد اعطى ، اول الامر عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ، ثم خمسين فرنكا ، ثم الفا وخمسمئة فرنك ، ودفعها كلها فى كثير من اليسر . ولقد كان على استعداد لان يدفــع خمسة عشر الف فرنك . ولكني سوف اوقعه فى الفخ مرة ثانية . »

وصرة الثياب هذه التي كانت مهيأة سلفا من اجل الفتاة . . . كل هذا كان غريبا. كأن وراء ذلك سر خفي. وحين يضع المرء يده علىسر فانهلا يفلته. ان اسرار الاغنياء قطع من الاسفنج مليئة بالذهب.ويتعين على المرء ان يعرف كيف يعصرها . وكانت هذه الافكار كلها تعصف في دماغه. وقال: «انا بهيمة».

ان فى امكان المرء ، حين يغادر مونفيرماي ويبلغ منعطف الطريق الى ليفري ، ان يرى الطريق تمتد امامه بعيدا بعيدا فوق النجد. حتى اذا انتهى الى هناك قدر انه سوف يرى الرجل والفتاة الصغيرة من غير ريب. ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه ان تنظرا ، ولكنه لم ير شيئا. واستعلم كرة اخرى. وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث عنهما مضيانحو الغابة فى اتجاه غانيي . فسارع الى الانطلاق فى هذا الاتجاه .

وفجأة كف عن السير ، وصفع جبينه مثل رجل نسي الشيء الرئيسي ، رجل على وشكان يرتد على آثاره ، وقال : كان ينبغي ان اجيء ببندقيتي !»

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه: « ولكن هذا سوف يمنحهما متسعا من الوقت للهرب ! »

وواصل طريقه ، ماضيا الى الامام فى سرعة ، وقد غلبت على محياه سيماء من الثقة تقريبا، وساقته فطنة كفطنةالثعلب استروحسربا من الحجلان.

والواقع انه حين اجتاز المستنقعات ، وعبر على نحو موارب ذلك المرج العريض المنبسط الى يمين شارع بيلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب الذي يطوق الكثيب او يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تجر المياه الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبعة كان قد بنى عليها كثيرا من الظنون والاحداس . كانت قبعة رجل ، وكأن الدغل منخفضا ، وادرك تيناردييه ان الرجل وكوزيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن فى ميسوره ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادرا على ان يلمح راس الدمية .

ولم يخطىء تيناردييه . كان الرجل قد جلس هناك لكي يمكن كوزيتمن ان ترتاح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغل، وبرز فجأة امام اعين هذين اللذين يبحث عنهما .

وقال وهو يلهث لهاثا شديدا : « عفوا يا سيدي ، ولكن هذه هي الالف والخمسمئة فرنك التي دفعتها الي » .

وفيما هو ينطق بذلك قدم الاوراق المالية الى الرجل الغريب . ورفع الرجل عينيه وقال : « ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تيناردييه : «هذا يعني انني سوف استرجع كوزيتيا سيدي» .

وارتعدت كوزيت ، وتشبثت بالرجل الطيب. اما هو فاجاب، ناظرا الى تيناردييه مباشرة، مباعدا ما بين مقاطع الحروف : «انت تسترجع كوزيت؟ »

ــ «نعم ، يا سيدي ، سوف استرجعها. اريد ان اقول لك. لقد فكرت. فى الواقع، اني لا حق لي فى ان اعطيك اياها. انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة ليست لي . لقد استودعتني امها اياها ، فليس فى استطاعتي

ان اسلمها الا الى امها . وقد تقول لي : ولكن امها ماتت . حسنا ، فى هـذه الحال لا استطيع ان اسلم الطفلة الا الى شخص يحمل الي امرا موقعا من الام ينص على ان من واجبي ان اسلم الطفلة اليه » .

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجل فى جيبه ، ورای تیناردییه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت فى اوصال الفندقي رعشة من البهجة . وقال فيما بينه وبين نفسه : « حسن ! اصمد . انه يريد ان يرشوني » .

وقبل ان يفتح حافظة نقوده ، القى المسافر نظرة على ما حوله . كان المكان خاليا تماما فلم تكن ثمة نفس واحدة لا فى الغابة ، ولا فى الوادي . وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق الماليةالتيكان تيناردييه يتوقعها، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها الى صاحب الفندق قائلا : « انت على صواب . اقرا هذا ! »

وتناول تيناردييه الورقة ، وقرا :

مونتروي سور مير ، فى ٢٥ اذار ، ١٨٢٣

مسيو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة . انه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة ، لي الشرف ان احييك فى احترام . »

« فانتين »

واردف الرجل : « اتعرف هذا التوقيع ؟ »

كان توقيع فانتين حقا . ولقد عرفه تيناردييه .

ولم يكن ثمة ما يقوله. لقد استشعر غيظا مضاعفا، فهو مغيظ لاضطراره الى التخلي عن الرشوة التي منى النفس بها ، وهو مغيظ للهزيمةالتي اصابته. واضاف الرجل : « فى استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كايصال » .

وانسحب تيناردييه فى نظام . ودمدم قائلا: « هذا التوقيع مزور تزويرا بارعا . حسن فيلكن ذلك ! »

ثم انه بذل جهدا يائسا ، فقال : « هذا حسن، يا سيدي. واذن فانت الناقل المشار اليه .ولكن عليك ان تدفع جميع الديون الصغيرة، انها مدينة لي بمبلغ ضخم » .

ونهض الرجل واقفا ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار عن ردنه المهترىء : « مسيو تيناردييه ، فى كانون الثاني قدرت الام انها مدينة لك بمئة وعشرين فرنكا . فارسلت اليها فى شباط مذكرة بخمسمئة فرنك . ولقد تلقيت ثلاثمئة فرنك فى اخر شباط ، وثلاثمئة فرنك فى مطلع اذار . وانقضت

منذ ذلك الحين تسعة اشهر ، كل شهر بخمسة عشر فرنكا ، وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكا . ولقد قبضت مئة فرنك مقدما ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون فرنكا . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، الفاً وخمسمئة فرنك » .

واستشعر تيناردييه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي الشرك الفولاذيين ، وقال في ذات نفسه : « اي شيطان هو هذا الرجل ! »

وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية. كانت الجراة قد نجحت معه قبل الان . وقال في عزم : « ايها السيد الذي لا اعرف له اسماً . سوف استرجع كوزيت او تعطيني الف ريال » .

فقال الغريب في هدوء : « كوزيت ، تعالي » .

وامسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمنى، وكانت علىالارض.

ولاحظ تيناردييه ضخامة الهراوة ، ووحشة المكان .

واختفى الرجل فى الغابة ، ومعه الطفلة ، مخلفاً صاحب الفندق جامدا مرتبكــا .

وفيما هما ينطلقان لاحظ تيناردييه منكبيه العريضين ، المقوسين بعض الشيء . وقبضتيه الضخمتين . ثم وقعت عيناه على ذراعيه هو، المهزولتين ، وقال في ما بينه وبين نفسه : « لقد كنت مجنونا حقا اذ لم آت ببندقيتي ما دمت خارجا الى القنص » .

ومع ذلك فان الفندقي لم يكف عن تعقبه قائلا : « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب » . وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بــين يديه شيئان ، اولهما سخرية مريرة ، وهي قصاصة الورق الموقعة **فانتين ،** والثاني عزاء وهو مبلغ الالف والخمسمئة فرنك .

كان الرجل يقود كوزيت فى اتجاه « ليفري » و « بوندي » وكان الشتاء قد عرى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح فى ميسور تيناردييه ان يتبعهمــا بصره ، برغم بقائه بعيدا عنهما . وبين الفينة والفينة كان الرجل يتلفت فيرى ما اذا كان احد يقتفي آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فمــا كان منه الا ان دخل هو وكوزيت احدى الغابات ، فغابا عن العيان .

وضاعف سرعته . . . وقال تيناردييه : « يا للشيطان ! »

واكرهته كثافة الغابة على ان يقترب منهما . حتى اذا انتهى الرجــل الى اشد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعا . وكان تيناردييه قد حــاول الاختباء بين الاغصان ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والقى الرجل نظرة قلقة ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان مــن

الفندقي الا ان تعقبه كرة اخرى . وتقدما على هذا النحو مثنـــي خطوة او ثلاثمئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقي . ونظـر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حد جعل تيناردييه يقدر أن « من غير المجدي » الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث اتى .

٧

ان جان فالجان لم يمت .

فحين سقط فى البحر ، او على الاصح حين القى بنفسه فيه ، كان كما قد راينا غير راسف فى الاغلال . لقد سبح تحت الماء الى سفينة راسية شد اليها مركب من المراكب ... ووجد سبيلا مكنته من الاختباء فى هذا المركب حتى المساء . وفى موهن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى فى الماء ، وانتهـى الى الساحل على مسافة غير بعيدة من راس « برون » ... واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس ، هناك . وعندئذ سلك جان فالجان سبيلا غامضا مترحلا ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء الـذين يحاولون ان يضللوا ارصاد القانون والقدر الاجتماعي . واخيرا وصل الـى باريس . ولقد رأيناه فى مونفيرماي .

وكان اول همومه لدن بلغ باريس ان يشتري ثوب حداد لفتاة صغيرة يتراوح عمرها بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك عـن مكان يبيـت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القارىء انه كان قد قام ، عند فراره الاول او حوالي ذلك الحين، برحلة خفية لمحت العدالة وميضا منها .

والى هذا ، فقد سرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كثف الظلمة التي اكتنفته . وفى باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي دونت الواقعة . فاستشعر الطمأنينة وقدرا من الامن يكاد يعدل ذلك الذي كان خليقا به ان يستشعره لو انه مات حقا .

وفى مساء اليوم نفسه الذي وفق فيه جان فالجان الى انتزاع كوزيت من مخالب تيناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل المدينة، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك استأجر عربة اقلته الى ساحة المرصد . ثم ترجل من العربة ، وامسك بكوزيت من يدها ، وانشآ يمشيان ، فى الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة للـ « اورسين » والـ « غلاسيير » ، نحو جادة المستشفى .

بيت غوربو العتيق

١

منذ اربعين سنة ، كان المتنزه المتوحد الذي يغامر في التقدم الى مجاهل «لاسالبيترييير» ويصعد في الجـادة حتى «باب ايطالية»، ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اختفت . انها لم تكن بقعة مهجورة، فقد كان ثمة عابر سبيل . ولم تكن ريفا ، فقد كان ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة، فقد كانت الشوارع ملأى بالاخاديد ، مثل الجادات الكبيرة، وكان العشب ناميا على حوافيها . ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جدا . مـاذا كانت اذن ؟ كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ، كـانت بقعة مهجورة ينزلها نفر من الناس ، كانت جادة من جادات المدينة العظيمة ، شارعا مـن شوارع باريس ، اشد وحشة ـ في الليل ـ من غابة ، واكثر كآبة ـ فـي النهار ـ مـن مقبرة .

كانت حي « مارشيه او شيفو » القديم .

ولو قد غامر هذا المتنزه بالمضي الى ما وراء جدران «مارشيه او شيفو» الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعد من شارع « بيتي بانكييه» بعد ان يخلف الى يمينه فناء تحيط به اسوار عالية ، ثم مرجا مرصعا باكداس من قشر الدبغ اشبه ما تكون بتلك السدود الضخمة التي تبنيها كلاب الماء ؛ نقول لو غامر هذا المتنزه الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع « فيني سان مارسيل » ، وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك، قرب احد المصانع ، وبين جدارين من جدران الجنائن كان يرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ، للنظرة الاولى ، صغيرا مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعا مثـل كاتدرائية . لقد كان ذلك البيت كله محجوبا تقريبا . ان المرء ما كان في ميسوره ان يرى منه غير الباب واحدى النوافذ ليس غير .

وكان الباب مجرد مجموعة من اكواخ خشبية اكلها السوس ، شد بعضها الى بعض بعوارض تشبه قطعا من الوقود قدت قدا رديئا . وكان ينفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل، والجص، والغبار .

وكانت النافذة عريضة ، وعلى ارتفاع غير يسير . وكانت ذات مصاريع خارجية ، واطر ذات الواح زجاجية عريضة . بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد اصيبت بجروح مختلفة اخفتها واعلنت عنها ، في وقت معا ، ضمادات ورقية غير بارعة . وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدد عابر السبيل بالخطر ، اكثر مما تصون النازلين في البيت .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جدا هو اشبه شيء بسقيفة حولت إلى بيت . وكان شريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقا طويلا تنفتح الى يمينه والى يساره اشباه غرف ذات ابعاد مختلفة ، غير آهلة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبية منها الى ان تكون غرفا . وكانت هذه الحجرات تطل على الاراضي المجاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلها مظلمة ، قابضة للصدر شاحبة ، كئيبة تذكر بالمقابر ، وكانت تخترقها أشعة الشمس الباردة حينا ، ورياح الشمال المثلوجة حينا آخر .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطل على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريبا عن الارض ، كوة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هناك .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ ــ ٥٢ ، بيد انه كان معروفا في الحي بـ « بيت غوربو » .

٢

امام بيت غوربو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير المكان الاشد انعزالا لكي يبني عشه .

وبحث في صدرته ، واخرج منها ضربا من مفتاح تعنو له الاقفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم اعاد اغلاق الباب في عناية ، ورقي السلم وهو لا يزال حاملا كوزيت .

وعند اعلى السلم اخرج من جيبه مفتاحا آخر فتح به بابا ثانيا . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلاقها في الحال ضربا من العلية ، فسيحة بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشية ممدودة على الارض ،وطاولة، وبضعة

كراسي . وكان في احدى الزوايا موقد مشعل تبدو جمراته للعيان .
واضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحقيرة اضاءة باهتة . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي سيور . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة النائمة .
وقدح بالزند نارا ، واضاء شمعة ، وكان ذلك كله معدا على الطاولة مقدما . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ يحدق الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليه ان تبلغ حد الخبل . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد ـ بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة القصوى او الضعف الاقصى ـ من غير ان تدري مع من كانت ، وواصلت نومها من غير ان تعرف اين كانت .
وانحنى جان فالجان ، وقبل يد الطفلة .
ولتسعة اشهر خلت قبل يد الام التي كانت ، ايضا ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد .
وركع قرب سرير كوزيت .
كانت الشمس قد اشرقت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبر نافذة العلية شعاع شاحب من اشعة شمس كانون الاول ورسم على السقف خيوطا طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجت عربة قالع حجارة ، مثقلة باحمالها ، فوق حصباء الجادة وهزت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من اساسه الى قمة راسه .
وافاقت كوزيت مجفلة، وصاحت: «نعم، مدام! ها قد جئت! ها قد جئت!»
ووثبت من السرير ، واجفانها ما تزال نصف مغمضة بثقل النوم، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .
وقالت : « آه ، يا الهي ، يا الهي اين مكنستي ؟ »
وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مداهما ، فرات وجه جان فالجان الباسم .
وقالت الطفلة : « اوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »
وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليها في الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مئة من الاسئلة : اين هي ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة جدا ؟ هل سترجع كرة اخرى ؟ الخ. الخ. وفجأة صاحت : ما اجمل هذا المكان !
كان كوخا مخيفا ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .
واردفت اخر الامر : « اليس من واجبي ان اكنس ؟ »

فقال جان فالجان : « العبي ! »
وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تتعب نفسها بمحاولة فهم شيء ، نعمت كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير، بين هذه الدمية، وهذا الرجل الطيب.

* * *

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو على مقربة من كوزيت ايضا . كان ينتظر هناك ، من غير حراك ، ليرى اليها وهي تستيقظ .
كان شيء جديد يداخل روحه .
ان جان فالجان لم يحب شيئا فى يوم من الايام. لقد سلخ خمسا وعشرين سنة وهو وحيد فى هذا العالم . انه لم يكن، ذات يوم، ابا او عاشقا ، او زوجا او صديقا . وفى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان نكدا ، كالح الوجه عفيفا ، جاهلا ، نفورا . ان اخته واطفال اخته لم يخلفوا فى نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت اخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم حتى اذا لم يجدهم نسيهم . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، ان عرف شيئا من ذلك ، فقد سقطت فى هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين انقذها ، استشعر ان فؤاده قد عرته هزة . لقد استيقظ كل ما فيه من مشاعر وانفعالات واندفع فى عنف نحو هذه الطفلة . كان يقترب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر اشواقا باطنية مثل ام من الامهات ، من غير ان يدري ما هي . ذلك بانها جد مبهمة وجد عذبة هذه العاطفة العظيمة الغريبة التي تعمر القلب فى حبه الاول .
يا له من قلب شقي عجوز لا يزال غضا طريا !
كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبدت له . كان الاسقف قد اطلع فى افقه فجر الفضيلة، ثم جاءت كوزيت فاطلعت في افقه ذاك فجر الحب.
وكرت الايام القليلة الاولى فى غمرة من هذا الانشداه .
وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصا اخر . يا لها من كائنة صغيرة بائسة ! كانت صغيرة جدا حين فارقتها امها فهي لا تتذكرها البتة . وكما يفعل جميع الاطفال ، وهم فى ذلك اشبه بطلائع الكرمة الغضة التي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت ان تحب . ولكنها ما كانت لتقدر . لقد صدها الناس جميعا : تيناردييه وزوجته ، واولادهما ، والاولاد الاخرون . وكانت قد احبت الكلب لكنه مات . بعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء ما ، ان تكون له صلة بها . وهكذا فمنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها من فكر وشعور يحب هذا الرجل الطيب . لقد احست اليوم بما لم تحس به قط من قبل ــ استشعرت انها تتفتح وتنمو .

لقد كف الرجل الطيب عن ان يكون فى عينيها عجوزا او فقيرا . لقد وجدت جان فالجان جميلا ، تماما كما قد وجدت الكوخ جميلا .

لقد اقامت الطبيعة هوة عريضة ــ فترة خمسين عاما ــ ما بين جان فالجان وكوزيت . ولكن هذ هالهوة ردمها القدر . لقد جمع القدر ، فجأة ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتي الجذور ، المتباينتين فى السن ، المتشابهتين فى الاسى . والحق ان احداهما تممت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن اب ، كما كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان فى اجتماعهما ما يفيد معنى عثور كل منهما على ضالته .

وفى غضون ذلك ، كان جان فالجان قد احسن اختيار مخبأه . كان هناك فى حال من الامن بدت كاملة غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحجيرة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جار يخشى اذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠ ــ٥٢ اشبه شيء بملحق خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول فى السباخ ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولا عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للمسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي على عدة غرف وبضع عليات كانت واحدة منها فقط آهلة بامراة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة .

كانت هذه المراة العجوز ، التي كانت تحمل لقب «المستاجرة الرئيسية» والمكلفة فى الواقع بمهام الحارسة او البوابة ، هي التي اجرته هذا المأوى يوم عيد الميلاد . وكان قد اوهمها انه ثري افقرته « سندات اسبانيا » ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيدته .

وتصرمت اسابيع . وعاش هذان المخلوقان عيشة سعيدة فى ذلك المأوى الحقير . ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضحك ، وتهذر ، وتغني . ان للاطفال اغانيهم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق فى بعض الاحيان ان يمسك جان فالجان بيدها الصغيرة الحمراء ، التي شققها برد الشتاء ، ويقبلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعودة ان تضرب لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتد الى الوراء فى حياء .

وفى بعض الاحيان كان يغلب عليها الجد ، وتتأمل فستانها الصغير

الاسود . ان كوزيت ما عادت ترتدي اسمالا بالية ، انها ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلمها القراءة . واحيانا ، كان يتذكر — فيما هو يعلم الطفلة كيف تتهجى — انه انما تعلم القراءة ، فى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها فى عمل الشر . وها هو هدفه ذاك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة ..

لقد استشعر ان فى ذلك تعمدا من قوة علوية ، استشعر انها ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق فى تفكيره الحالم .

كان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريبا . وبعد ذلك راح يحدثها عن أمها ويعلمها كيف تصلي .

وكانت تناديه : «ابي» ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلخ ساعات وهو يتأملها تلبس دميتها ثيابها ثم تنزعها عنها،ويستمع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة فى عينيه ملأى بالمتعة ، وبدا الناس خيرين منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه، على احد ما او ليحمله تبعة ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الان الى ان لا يعيش طويلا بعد ان احبته هذه الطفلة . لقد تطلع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن .

وكان جان فالجان من الحكمة بحيث حظر على نفسه مغادرة الغرفة فى ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للنزهة ، حوالي الغسق ، فيتمشى ساعة او ساعتين وحده فى بعض الاحيان ، ومع كوزيت فى كثير من الاحيان ، متخيرا ازقة الجادة الاكثر انعزالا ، او قاصدا الى الكنائس عندما يهبط الليل . وكانت كوزيت تبقى اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المراة العجوز ، ولكنها كانت تؤثر ان تقضي ساعة معه على ان تجلس وجها لوجه مع كاترين نفسها . وكان يمشي ممسكا بيدها ، ويحدثها احاديث حلوة .

واتفق ان اصبحت كوزيت لعوبا الى حد بعيد .

وكانت المراة العجوز تدبر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ، وكانت هي التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .

لقد عاشا عيشة مقتصدة . كانت النار هزيلة دائما فى موقدها. ولكن جان فالجان — شأن الناس الذين تكتنفهم ظروف حرجة — لم يحدث اي تغيير فى اثاث الغرفة ، بل ابقاه كما كان فى اليوم الاول . كل ما فى الامر انه اوعز بأن يوضع باب خشبي محل باب حجيرة كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، دائما ، سترته الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ،

وقبعته العتيقة. وفي الشارع كان الناس يحسبونه شحاذا. وكان يتفق، في بعض الاحيان ، أن تستدير النسوة الصالحات ، ويقدمن اليه فلسا .

وكان جان فالجان يأخذ الفلس وينحني فى اتضاع . وكان يتفق فى بعض الاحيان ايضا ، ان يلتقي بائسا يلتمس صدقة ، فلا يكون منه الا ان يلتفت الى وراء ليتأكد من ان احدا لا يراه ، ويقترب من المسكين خلسة ، ويضع فى يده قطعة نقدية ، هي غالبا قطعة فضية ، ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك مساوئه . لقد بدا الناس يعرفونه ، فى الحي، باسم الشحاذ الذي يوزع الصدقات

وكانت « المستاجرة الرئيسية » تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتيابه . كانت صماء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذارة . وكان قد بقي لها من ماضيها سنان ، الاولى فى الفك الاعلى، والثانية فى الفك الاسفل، وكانت لا تفتأ تقرع هاتين السنين احداهما بالاخرى . وكانت قد وجهت بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت غير قادرة على ان تقول اكثر من انها اقبلت من مونفيرماي . وذات صباح رات هذه الجاسوسة جان فالجان يمضي الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمثل خطى هرة عجوز ، ووقفت الى ان تراه، من غير ان يراها هو ، من خلال خصاص الباب المقابل مباشرة . وكان جان فالجان قد ولى ظهره ذلك الباب ، زيادة فى الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به يبحث فى جيبه ، ويخرج منها مثبرة ، ومقصا ، وخيطا ، ثم يعمد الى فتق بطانة جانب من جوانب سترته الطويلة ويخرج من تحتها قصاصة ورق ضاربة الى الصفرة ما لبث أن نشرها . ولاحظت العجوز ، فى ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هذه الفئة ، التي وقعت عليها عيناها منذ ان أبصرت النور . وفرت والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقة الالف فرنك هذه مضيفا انها دخله نصف السنوي ، الذي تلقاه البارحة. وفي ما بينها وبين نفسها ، تساءلت العجوز « اين؟ » انه لم يغادر الغرفة آلا فى الساعة السادسة مساء ، وخزينة الدولة لا تظل مفتوحة حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، واطلقت العنان لظنونها واحداسها . وأدت ورقة الالف فرنك هذه الى نشوء جمهرة من الاحاديث اللاهثة بين عجائز شارع « فيني سان مارسيل » الثرثارات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جان فالجان ينشر الخشب فى الرواق، غير مرتد سترته الطويلة . وكانت العجوز فى غرفته تنظفها وترتبها . فبصرت بالسترة المعلقة بمسمار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيطت من جديد .

وتلمستها في عناية ، واعتقدت انها ستجد في ثنياتها وتحشياتها اكداسا من الاوراق المالية .

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبه كانت حافلة بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الابر والمقص والخيوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت فوق هذا على حافظة دراهم ضخمة ، ومدية كبيرة جدا وعلى عدة لم من الشعر المستعار ذات الوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة تحتوي على شيء يستعان به ضد حادث مفاجيء.

وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

٣

وكان قرب سان ميدار شحاذ يجلس القرفصاء فوق حافة بئر عمومية مسدودة . وكان جان فالجان كثيرا ما يتصدق على هذا الرجل. انه ما كان ليمر به ألا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشحاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادما عجوزا في كنيسة من كنائس العوام ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهمهم بصلواته وادعيته على نحو موصول .

وذات مساء، فيما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق، ولم تكن كوزيت معه، لمح الشحاذ جالسا في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذلحظة. وبدا الرجل ، وفقا لعادته وكأنه يصلي ، وكان منحنيا انحناء كاملا ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشحاذ عينيه، وحدق الى جان فالجان ، ثم طأطأ راسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى انه لمح اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديع الفاغر الفم، ولكن وجها فظيعا يعرفه جيدا . وغلب عليه مثل ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه فجأة ، وتحت جنح الظلام ، وجها لوجه امام نمر من الانمار . وارتد الى الوراء ، مذعورا متحجرا، غير واجد الجراة لا على ان يتنفس ولا على ان يتكلم ، لا على ان يبقى ولا على ان يفر ، مسددا نظره الى الشحاذ الذي عاود خفض راسه المغطى بخرقةممزقة ، والذيبدا وكأنه ما عاد يحس بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما ــ لعلها غريزة حفظ الذات ، الخفية ــ بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، واسماله البالية ، وهيئته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطبا نفسه ، « تبا لي ! اني معتوه ! انا احلم ، مستحيل » . وانقلب الى غرفته قلقا

اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بشق النفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بان الوجه الذي ظن انه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم ــ وهو يفكر في المسالة ــ لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يكرهه على ان يرفع راسه كرة اخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه. وقال جان فالجان في عزم: «مساء الخير ايها الرجل الطيب!» واعطاه فلسا. فرفع الشحاذ راسه واجاب في صوت منتحب : «شكرا ، يا سيدي الطبيب شكرا » انه لم يكن ، في الحق، غير خادم الكنيسة العجوز .

واطمانت نفس جان فالجان اطمئنانا كاملا . بل لقد شرع يضحك .

وبعد بضعة ايام ، ولعل الساعة كانت الثامنة مساء، كان جان فالجان في غرفته يعلم كوزيت التهجية عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد . وبدا ذلك غريبا في نظره. ذلك ان المراة العجوز، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة، عند هبوط العتمة، لكي توفر الشمع . واومأ جان فالجان الى كوزيت بان تلزم الصمت. لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم. لعلها المراة العجوز وقد استشعرت مرضا فقصدت الى الصيدلي ثم عادت . واصغى جان فالجان. وكان وقع القدمين ثقيلا، وكان يبدو كأنه وقع قدمي رجل .

واطفأ جان فالجان شمعته. وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها .

وفيما هو يقبلها من جبينها انقطع وقع القدمين . وظل جان فالجان صامتا ، جامدا ، مديرا ظهره الى الباب ، جالسا على كرسيه الذي لم يتزحزح عنه قط ، حابسا انفاسه في الظلام. حتى اذا انقضت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيئا ما استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نورا ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ، وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضع دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين، مما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه.

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه، ولكنه لم يستطع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان يهوم من الاعياء افاق كرة اخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى

السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب رجاء ان يلمح الشخص ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في منتصف الليل والذي استرق السمع لدى بابه. كان رجلا، في الواقع، ذلك الذي مر بغرفة جان فالجان، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة. وكان الرواق لا يزال مظلما الى حد لم يمكنه من ان يتبين وجهه ، ولكن حين وصل الرجل الى السلم المنعكس عليه من الخارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظللة سوداء، رأى جان فالجان ظهره رؤية كاملة. كان الرجل طويل القامة، يرتدي ردنغوتا طويلا، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة. كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في مقدور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة أخرى من خلال نافذته المطلة على الجادة، ولكن ذلك كان يقتضيه فتح النافذة، وهذا ما لم يجرؤ عليه.

كان واضحا ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟

وعند الساعة السابعة صباحا ، حين اقبلت العجوز لتنظف الغرفة ، رمقها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجه اليها ايما سؤال. وبدت المرأة الطيبة في حال طبيعية . وفيما هي تكنس ، قالت: « لعل سيدي سمع شخصا ما يدخل البيت الليلة البارحة ؟ »

واجابها بنبرة طبيعية : «بالمناسبة، هذا صحيح. من كان ذلك الشخص؟ »

فقالت المرأة العجوز : « مستأجر جديد وفد على المنزل » .

ـ « وما اسمه ؟ »

ـ « لم اعد اذكر ذلك. ديمون او دومون . شيء من هذا القبيل » .

ـ « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »

وتأملته العجوز لحظة ، واجابت: «رجل يعيش على دخله، مثلك انت ».

وجائز ان لا تكون العجوز قد رمت الى شيء ، ولكن جان فالجان اعتقد انها استهدفت بملاحظتها تلك امرا ما .

وحين مضت لسبيلها نضد مئة من الفرنكات، كانت في احد الادراج، على شكل اصبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الحذر البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يسمع رنين الفضة ، فان قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضته ، وكرت ضاجة فوق ارض الغرفة .

وعند الغسق ، هبط السلم ، واجال طرفه في طول الجادة وعرضها، ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورة هجرا كاملا . صحيح ان من الجائز ان يكون رجل ما ، مختبئا خلف شجرة. وارتقى السلم من جديد . وقال لكوزيت : « تعالي » . وامسك بيدها ، وغادرا المكان .

المُطارَدةُ السَّوْداءُ تحتاجُ الى كلابِ قنصٍ صامتة

١

شرع جان فالجان يجوب الشوارع في حذر ، مكسرا خطوط سيره ما وسعه تكسيرها ، مرتدا فجأة على آثاره لكي يستيقن ان احدا لا يتعقبه .

كان القمر بدرا. ولم يكن جان فالجان مغضبا لذلك. فقد فصّل القمر، وهو ما يزال جد قريب من الافق، مواشير ضخمة من الضوء والظل في الشوارع. وكان في ميسور جان فالجان أن ينساب في محاذاة المنازل والجدران، في الجانب القاتم، وان يراقب الجانب المضيء. ولعله لم يدرك ادراكا كافيا ان الجانب القاتم ، قد فاته . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغيرة المهجورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احدا لا يلحق به .

ومشت كوزيت من غير ان تسأل ايما سؤال . كانت آلام السنوات الست الاولى من حياتها قد ادخلت شيئا من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها. والى هذا فقد اعتادت صفات صديقها الطيب الفارقة وغرائب القدر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت تستشعر الامن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري، اكثر من كوزيت، الى اين كان يقصد . كان مفوضا امره الى الله، كما فوضت هي امرها اليه . لقد بدا له انه يمسك، هو ايضا ، بيد كائن اكبر منه. لقد استشعر ان كائنا غير منظور يقوده ، واخيرا، فلم تكن عنده ايما فكرة محددة ، او ايما مقصد . بل انه لم يكن واثقا كل الثقة من ان ذلك الرجل هو جافير . والى هذا فقد يكون هذا الرجل جافير، من غير ان يعلم انه جان فالجان . الم يكن متنكرا ؟ الم يعتقد القوم انه قد مات؟ ومع

ذلك ، فقد حدثت اشياء غريبة منذ بضعة ايام . انه في غير حاجة الى مزيد من ذلك . لقد وطن العزم على ان يدخل بيت غوربو كرة اخرى . وكالحيوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يختبىء فيه ريثما يجد ثقبا يقيم فيه.

واجتاز جان فالجان متاهات عديدة متباينة في حي مو فتار الذي كان قد اوى في تلك اللحظة الى الرقاد، وكأنه لا يزال حياً في ظل نظام القرون الوسطى، وتحت نير منع التجول ليلا. لقد احدث مزاوجات مختلفة، في استراتيجية حكيمة ، ما بين شارع سانسييه وشارع كوبو ، وشارع بأتوار سان فيكتور وشارع بوي ليرميت . ان ثمة بيوتا في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل ايا منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقتفون اثره ، اتفاقا ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الان .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة اجتاز شارع بونتواز امام مكتب مفوضية البوليس الذي يحتل المبنى رقم ١٤ . وبعد بضع لحظات دعته الغريزة الى ان يلتفت الى الوراء . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح ـ بفضل مصباح المفوضية الذي نم عليهم ـ ثلاثة رجال كانوا يتبعونه عن كثب يمرون واحدا اثر واحد تحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجاز المؤدي الى بيت المفوضية . ولقد بدا له الرجل السائر في الطليعة على نحو لا يحتمل الشك .

وقال لكوزيت : « تعالي ، يا بنيتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدوره ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موصدا بسبب من انتصاف الليل ، واغذ السير في شارع الـ « ايبيه دو بوا » وشارع الـ « آرباليت » وغاص في « شارع البريد » .

وكانت ثمة ساحة ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث يتشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

وسفح القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدرا ان في ميسوره ، اذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته، ان يراهم على وجه التأكيد رؤية واضحة وهم يجتازون هذه الرقعة المضاءة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق او اقل . كانوا الان اربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة سمراء، ويعتمرون بقبعات مدورة ، ويحملون هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة اكثر ترويعاً من سيرهم المشؤوم في الظلام.

وكفوا عن السير وسط الساحة وشكلوا حلقة اشبه بحلقات الناس حين يتبادلون الراي . كانت عليهم سيما التردد. واستدار ذلك الذي تراءى انه يقودهم، واشار بيده اليمنى اشارة كلها عزم، نحو الجهة التي كان جان فالجان فيها. وبدا واحد من الاخرين وكأنه يشير في شيء من العنادالى الجهةالمعاكسة ولحظة استدار قائدهم اضاء القمر وجهه اضاءة تامة ، وتبين جان فالجان وجه جافير تبينا كاملا .

وهكذا نفد الشك عند جان فالجان. ولكنه لم ينفد لحسن الحظ، عند اولئك الرجال وافاد من ترددهم . كان ذلك وقتا يضاع بالنسبة اليهم، ووقتا يكسب بالنسبة اليه ، وبارح المدخل الذي كان يختبىء فيه ، واغذ السير في « شارع البريد » متجها نحو « حديقة النبات » . وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسبب من القمر .

وضاعف سرعته . وفي بضع خطى، وصل الى معمل غوبليه الخزفي وخلف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عين « سان فيكتور »، ومضى في محاذاة «حديقة النبات»، سالكا الشوارع المنخفضة، حتى انتهى الى رصيف النهر . وهنالك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف مهجورا ، وكانت الشوارع مهجورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس الصعداء .

وانتهى الى جسر اوسترليتز ... وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسما من عابري ذلك الجسر... وقدم نفسهالى موظف المكوس، فيمكتبه، ودفعاليه فلسا.

كانت كارة ضخمة تعبر الـ «سين» في تلك اللحظة عينها، وكانت مثله متخذة الضفة اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يفيد منه جان فالجان . ان في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظل تلك الكارة .

وحوالي منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خدرت رجلاها ، في ان تسير فانزلها الى الارض ، وامسك بيدها .

واذ اجتاز الجسر لمح اكداسا من الخشب قائمة امامه، منحرفة قليلا الى ناحية اليمين . فمضى في ذلك الاتجاه . وكان عليه لكي يبلغ ذلك المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة من الارض ، مكشوفة مضاءة . ولم يتردد . كان واضحا ان اولئك الذين تعقبوا خطواته قد ضلوا السبيل .

واطل على شارع صغير ، هو شارع «شومان فير سان انطوان» ، ممتد بين مستودعين للخشب مطوقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقا ، مظلما وكانه صنع خصيصا من اجله . وقبل ان يدخله التفت الى وراء . ومن موقفه ذاك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترليتز بطوله .

وفي تلك اللحظة، دخل الجسر اربعةاشباح. وسرت فياوصال جان فالجان رعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتعقبهامن جديد.

كان قد بقي عنده امل واحد، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لما يدخلوا الجسر، ولم يلمحوه لحظة اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة ممسكا بيد كوزيت. في تلك الحال، يكون في ميسوره ـ اذا ما اندفع في الشارع الصغير المنبسط امامه، واذا ما وفق الى بلوغ مستودعي الخشب، والمستنقعات، والحقول، والارض الفضاء ان ينجو بنفسه.

لقد بدا له ان في امكانه انيفوض امره الى هذا الشارع الصامت. فدخله.

وبعد ان خطا نحوا من ثلاثمئة خطوة بلغ نقطة افترق فيها الشارع. لقد انشعب الى فرعين، ينعطف احدهما، منحرفا، نحو الشمال، وينعطفالاخر منحرفا، نحو اليمين. فأي الفرعين يختار؟

ولم يتردد قط. وانعطفنحو اليمين... لماذا؟ لانالفرع الايسريقودالى الضاحية، يعني الى المناطق الآهلة بالسكان ولان الفرع الايمن يقود الى البرية، يعني الى المناطق المهجورة.

ولكنهما ما عادا يمشيان، الان، في سرعة. لقد اعاقت خطوات كوزيت خطوات جان فالجان... ورفعها عن الارض حاملا اياها من جديد. واسندت كوزيت راسها الى كتف الرجل الطيب، ولم تنبس ببنت شفة.

وكان يستدير، بين الفينة والفينة، وينظر خلفه. وكان يحرص على ان يلتزم الجانب المظلم من الشارع ابدا. كان الشارع مستقيما وراءه. وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها، لم ير شيئا. كان الصمت عميقا، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان. وفجأة، بدا له، حين استدار كرة اخرى، انه رأى شيئا يتحرك بعيدا في الظلام، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع. وانطرح الى الامام، ولا نقول مشى، راجيا ان يجد شارعا جانبيا يفر من خلاله ويزوغ كرة اخرى من مطارديه.

ووصل الى جدار. بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد. كان جدارا يحيطبزقاق معترضينتهي به الشارع الذيكان جان فالجان فيه آنذاك. وهنا ايضا تعينعليه ان يقرر: اينطلقالى اليمينام ينطلقالى الشمال.

ونظر الى اليمين. كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت اما سقائف او اهراء، ثم ينتهي فجأة. كان في اخر هذا الزقاق غير النافذ جدار ضخم ابيض.

ونظر الى الشمال. كان الزقاق من هذه الناحية مفتوحا، وكان يتصل

على بعد مئتي خطوة تقريبا، بشارع كان هو رافدا من روافده. وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظة قرر جان فالجان ان ينعطف شمالا ، لكي يحاول بلـوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وشك الانطلاق نحوه شبح تمثال اسود جامد .

كان شخصا ما ـ رجلا ـ كلف بالوقوف هناك من غير شـك ، وكـان ينتظره ليقطع الطريق عليه .

واجفل جان فالجان . كانت البقعة التي انتهى اليها تدعى الـ «بيكبوس الصغير » . وكان للـ « بيكبوس الصغير » ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينة اسبانية تقريبا. كانت الطرق معبدة تعبيدا رديئا، وكانت الشوارع منشأة على نحو هزيل . فوراء الشارعين او الثلاثة الشوارع التي نوشك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الاسوار والوحشة . فلا دكان ، ولا عربة . بل لا شمعة مضاءة ههنا وههناك ، في النوافذ الا نادرا. كانت الانوار كلها تطفأ بعد الساعة العاشرة. جنائن، واديرة ومستودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة، وجدران ضخام لا تقل ارتفاعا عن المنازل .

كذلك كان هذا الحي في القرن الماضي. ولكن الثورة غيرت معالمه تغييرا كبيرا . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيته وشقت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحي يمحى محوا تدريجيا بانشاء ابنية جديدة. اما اليوم فقد شطب نهائيا.

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد اجفل كما قلنا ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمـة شك . كان ذلك الشبـح يراقبـه .

ما الذي يجب ان يفعله؟ لم يبق ثمة متسع من الوقت للارتداد. وان ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفه ، في اللحظة السابقة، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الان الى اول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته. وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها، يعرف هذا الشرك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحدا من رجاله ليحرس المنفذ. وفجأة ، عصفت هذه الاحداس الشديدة الشبه بالحقائق في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تتطاير في وجه ريـح مفاجئة . لقـد تأمل زقاق جانرو ، كـانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ، كان ثمة حرس. لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداء فوق بلاط الطريق الابيض

المغمور بأشعة القمر. كان التقدم الى امام يعني الانقضاض على ذلك الرجل. وكان الارتداد الى وراء يعني القاء نفسه بين يدي جافير. واستشعر جان فالجان وكأنه مطوق بسلسلة كانت تضيق الخناق عليه شيئا بعد شيء. ورفع عينيه الى السماء في يأس.

٢

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكون فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تغادر شارع بولونسو لتدخل هذا الزقاق. وكان زقاق دروا مور مطوقا من ناحية اليمين تطويقا كاملا تقريبا، حتى شارع بيكبوس الصغير، بمنازل تبدو عليها سيماء الفقر، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجيا دورا او دورين، فيما هي تقترب من زقاق بيكبوس، بحيث ان هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولونسو. هناك، عند الزاوية التي تحدثنا عنها، امسى البناء منخفضا الى حد جعله مجرد حائط ليس غير. ولم يكن هذا الحائط ينتهي، على نحو متعامد الى الشارع. لقد بدا وكأنه شقة جدار بترت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة تحجبها زاويتاها عن اعين المراقبين اللذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولونسو، والاخر على مسافة ما في شارع « دروا مور ».

ومن زاويتي الشقة المبتورة هاتين، كان الجدار يمتد على شارع بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩، وعلى شارع « دروا مور » حيث كان ارتفاعه اقل بكثير، حتى ذلك البناء الكالح الذي تحدثنا عنه، قاطعا حائطه المثلث الجانبي محدثا بذلك زاوية منعكسة جديدة في الشارع. وكان لهذا الجدار مظهر كئيب. لم يكن المرء ليرى ثمة، غير نافذة واحدة، او على الاصح مصراعين محجوبين بصفيحة من الزنك، موصدين ابدا.

وكان يملأ شقة الجدار المبتورة هذه شيء يشبه جدارا هائلا حقيرا. وكان ذلك مجتمعا واسعا غير منسق من الواح عمودية، اعلاها اعرض من ادناها، وقد شد بعضها الى بعض بسيور من حديد طويلة معترضة. والى جانب، كان باب للعربة ذو ابعاد عادية، لا يرقى انشاؤه، من غير شك، الى ابعد من خمسين عاما.

ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المبتورة، وكان الجدار مغطى باللبلاب من ناحية شارع بولونسو.

وفي الخطر الداهم الذي كان يحيط بجان فالجان تكشفت هذه البناية

الكالحة عن وجه منعزل غير آهل لفت نظره اليها ، واجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه انه اذا ما وفق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعاوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة .

وعند منتصف واجهة البناء المطلة على شارع دروا مور احاطت بنوافذ الادوار كلها انابيب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الانابيب ترتسم على الواجهة شبه شجرة. ولقد بدت تشعبات هذه الانابيب بمرافقها المئة مثل قضبان الكرمة المجردة من اوراقها ، والملتفة على واجهات البيوت الريفية القديمة .

وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديد اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسندا ظهرها الى احد الاعمدة ، طالبا اليها ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يمس الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجد وسيلة تساعده على ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل. ولكن الانبوب كان متصدعا . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة اضاءة كاملة ، وخليق بالرجل الذي كان يراقبه من اقصى الشارع ان يراه يتسلق الجدار . واخيرا ، ما الذي يفعله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة ادوار ؟

واطرح فكرة التسلق بواسطة الانبوب ، ودب على طول الجدار الى شارع بولونسو . وحين بلغ شقة الجدار المبتورة حيث ترك كوزيت لاحظ ان احدا لا يستطيع ان يراه هناك. لقد تخلص من النظرات جميعا ايا كان مصدرها. والى هذا ، فقد كان الظلام يلفه. واخيرا، كان ثمة بابان. لعلهم ان يقتحموهما. وكان واضحا ان الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون واللبلاب ، يطل على حديقة كان في ميسوره ان يختبىء فيها على الاقل ويمضي بقية الليل هناك .

كان الوقت ينقضي . ان عليه ان يعمل في سرعة .

وجرب باب العربات، فوجد في الحال انه موصد من الداخل والخارج.

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد عمر فؤاده امل عظيم . كان عتيقا الى حد مروع ، وكانت الواحة الخشبية عفنة، واربطته الحديدية صدئة . لقد بدا اختراق هذا النطاق النخر امرا ميسورا .

حتى اذا امتحن هذا الباب رأى انه لم يكن بابا . فليس فيه رزات ، او صفائح حديدية ، او قفل ، او خصاص في الوسط. وكانت العصائب الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع. لقد اضطر الى الاعتراف في انشداه ان هذا الباب الكاذب لم يكن غير زخرف زين به ذلك الجدار . وكان يسيرا عليه ان ينزع لوحا خشبيا، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجها لوجه مع

جدار من الجدران . . وفي تلك اللحظة بدات ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة ما . وغامر جان فالجان فاتلع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة مؤلفة من سبعة جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع بولونسو . لقد راى وميض حرابهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .

وتقدم الجند ، وقد تبين على راسهم قامة جافير الطويلة ، في تؤدة وفي حذر . وبين الفينة والفينة كانوا يقفون . كان واضحا انهم يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكل فرجة من فرج الابواب والازقة . وانما كان هؤلاء الجنود يؤلفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان تضع نفسها بتصرفه .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجةالى ربع ساعة تقريبا حتى يبلغوا البقعة التي تطأها قدما جان فالجان . كانت لحظة مروعة . ان بضع دقائق لتفصل جآن فالجان عن تلك الهاوية المخيفة التي فغرت فاها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الان ، سجن الاشغال الشاقة وحسب. لقد امسى ذلك السجن ضياع كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .

كان ثمة الان شيء واحد ممكن. وكانت لجان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كان يحمل جرابين في آن معا. فاما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار قديس ، واما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبة التي يتمتع بها محكوم عليه بالاشغال الشاقة . ولقد كان يلتمس العون من واحد من هذين الجرابين ، تبعا لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعاته الاخرى ، كان قد امسى ــ كما نذكر جيدا ، وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقةفي طولون ، استاذا في ذلك الفن الذي لا يصدق والذي يجعل المرء قادرا على ان يرفع نفسه ، من غير سلالم ومن غير كلاليب ، بالقوة العضلية وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه وركبتيه ، مستعينا او يكاد ببعض نتوءات الحجر النادرة ــ ان يرفع نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس من بناية ما عند الحاجة .

وقاس جان فالجان، بعينيه، الجدار الذي راى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدما تقريبا. وكانت الزاوية التي شكلها مع حائط البناية الضخمة ملأى ، في جزئها الادنى ، بركام من الحجارة يبلغ ارتفاعه نحوا من خمسة اقدام . ومن قمته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدما .

وكان الجدار مغطى بطبقة من الحجارة المسطحةلا نتوء فيها على الاطلاق. كانت كوزيت هي العقبة. فكوزيت ما كانت تعرف كيف تتسلق جدارا. ايتخلى عنها ؟ ان ذلك لم يخطر في بال جان فالجان. وما كان حملها امرا ممكنا فان كامل قوة المرء ينبغي ان تحشد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب. ولا ريب في ان اقل عبء خليق بان يفقده مركز ثقله، ويهوي به الى الارض.

كان الموقف يقتضي حبلا. ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك. واين يستطيع ان يجد حبلا، عند منتصف الليل، في شارع بولونسو ؟

وفجأة التقت نظرة جان فالجان اليائسة بعمود المصباح العام في زقاق جانرو. في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح. فما ان يهبط الليل حتى تضاء مصابيح الشارع، التي كانت مقامة على مسافات معينة، والتي كانت ترفع وتخفض بحبل يخترق الشارع من اقصاه الى اقصاه، ويجري عبر ثقوب الاعمدة. وكان الملوى الذي يلتف حوله هذا الحبل مخبوءا، تحت المصباح في صندوق حديدي صغير يحتفظ به الموظف المكلف انارة المصابيح، وكان الحبل نفسه مصونا، حتى ارتفاع بعينه، في بيت معدني.

وبقوة صراع اسمى، اجتاز جان فالجان الشارع بوثبة واحدة، واقتحم الزقاق وكسر لسان قفل الصندوق الصغير براس مديته، وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرة اخرى. كان معه حبل.

وفي غضون ذلك كانت الساعة، والمكان، والظلمة، وانهماك جان فالجان وسلوكه العجيب، ورواحه ومجيئه ــ كانت هذه كلها قد شرعت تقلق كوزيت فقالت في همس: « ابي، انا خائفة. من القادم ؟ »

فاجابها الرجل التعس: « هش! انها السيدة تيناردييه ! »

وارتعدت كوزيت. واضاف: « لا تقولي كلمة. دعيني اعمل. واذا صرخت واذا بكيت، فعندئذ تسمعك السيدة تيناردييه. لقد جاءت لكي تستردك. »

ثم ان جان فالجان نزع رباط عنقه، وربط به جسد كوزيت ثم شد الرباط الى طرف الحبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون «عقدة السنونو» وعض على طرفه الاخر باسنانه، ونزع نعليه وجوربيه طارحا اياها فوق الجدار، وارتقى ركام الحجارة المبنية على شكل مستطيل، وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار في صلابة وثقة بالغتين وكأن تحت عقبيه ومرفقيه مراقي وسلالم. ولم تكد تنقضي نصف دقيقة حتى كان على ركبتيه، فوق الجدار.

وراقبته كوزيت ذاهلة، من غير ان تنبس بكلمة. فقد كان في وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تيناردييه ما اصابها بالبكم.

وفجـأة سمعت جان فالجـان يدعوها في همـس : « اسندي ظهرك الـ الجـدار . »
واطاعت . فاضاف جان فالجان : « لا تنطقي بكلمة ، ولا تخافي » .
واستشعرت انها ترتفع عن الارض .
وقبل ان تجد متسعا من الوقت للتفكير اين كانت، وجدت نفسها عند قمة الجدار ... واخذها جان فالجان بين يديه ، ووضعها على ظهره ، وامسك يديها الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه، ودب فوق قمة الجدار حتى انتهى الى الزاوية المبتورة . وكمـا سبق له ان قدر ، كان ثمة بناية يتحدر سطحها من اعلى السياج الخشبي الى قريب جدا من الارض ، تحدرا رفيقا ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيزفون .
كانت تلك ظاهرة سارة، لان الجدار كان في ذلك الجانب أعلى مما كان في جانب الشارع بكثير. ولمح جان فالجان الارض ، من تحته ، على عمق بعيد .
واعلنت جلبة عنيفة وصول دورية العسس وسمع صوت جافير الراعد: فتشوا في الزقاق ! ان شارع « دروا مور » تحت الحراسة ، وكذلك شارع بيكبوس . اؤكد لكم انه في الزقاق !
واندفع الجنود الى زقاق جانرو ...
وانزلق جان فالجان هابطا السطح ، متشبثا بكوزيت حتى بلغ شجـرة الزيزفون ووثب الى الارض. وسواء اكان ذلك ثمرة الذعر ام ثمرة الشجاعة ، فان كوزيت لم تهمس همسة واحدة. كانت يداها قد خدشتا بعض الشيء .

٣

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جدا وذات مظهر فريد، حديقة من تلك الحدائق المحزونة التي تبدو وكأنها جعلت لكي يراها المرء في الشتاء وفي موهن من الليل. كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل، في اقصاها صف من شجر الحور الضخم، وفي زواياها ادواح فارعات الطول، وفي وسطها فسحة غير ظليلة، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة الضخامة، ثم بضع شجرات مثمرة متاوية شعثاء ، ومساكب من الخضر ، وبئر قديمة . وكان ههنا وههناك مقاعد حجرية بدت سوداء من اثر الطحلب .
وكان الى جانب جان فالجان تلك البناية التي مكنه سطحها من الهبوط ، وركام من الخشب ، وخلف الخشب، في محاذاة الحائط تماما، تمثال من حجر لم يعد وجهه الابتر غير قناع شائه بدا على نحو ضبابي في غمرة الظلام .
وكان البناء خرابا ، ولكن بعض الغرف المهدمة كان يمكن ان تميز فيه.

وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها، مما يؤذن بان القوم يتخذون منها سقيفة.

وكانت بناية شارع «دروا مور» الكبيرة المرتجعة على شارع بيكبوس الصغير تطل على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان الواجهتان الداخليتان اشد كآبة من الواجهات الخارجية نفسها. كانت جميع النوافذ مقضبة بالحديد. ولم يكن ثمة ضوء ما. وفي الادوار العليا كانت مصاريع كالتي توجد في السجون . وكانت احدى هاتين الواجهتين تلقي بظلهـا فوق الاخـرى ، فينطرح على الحديقة مثل قطعة ضخمة من قماش اسود .

وما كانت العين لتقع على ايما منزل اخر. كان اقصى الحديقة مضمحلا في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقد كان في ميسور المرء ان يتبين جدرانا تتقاطع ، وسطوح شارع بولونسو المنخفض .

وليس في ميسور الانسان ان يتخيل شيئا اكثر ضراوة واشد انعزالا من هذه الحديقة . فلم يكن ثمة احد ، وهو امر طبيعي بسبب من تقدم الليل . ولكن المكان بدا وكأنه لم يجعل لكي يمشي فيه انسان ما ،حتى في رائعة النهار.

وكان اول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وان ينتعله . ثم انَ يدخل السقيفة مع كوزيت ... وارتعدت كوزيت ، والتصقت به . وسمعـا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثا عنهما ، ونداءات جافير للحرس الذين اقامهم ههنا وههناك ، ولعناته الممتزجة بكلمات لم يكن في ميسورهما ان يتبيناها .

وفجأة ، وفي غمرة من هذا السكون العميق ، ارتفعت ضجة جديدة ، ضجة سماوية الهية لا سبيل الى وصفها. كانت ترنيمة انبثقت من الظلام ، مزاجا مذهلا من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم المخيف، اصواتا نسائية. ولكنها اصوات تحمل نبرات العذارى الصافية، ونبرات الاطفال الساذجة، تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، والتي تتردد في مسمعي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من البناية الكالحة المطلة على الحديقة. وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها جلبة الابالسة لم يكن عجيبا ان يخيل الى السامع انها جوقة من الملائكة تقترب تحت جنح الظلام .

وركعت كوزيت وجان فالجان على ركبهما .

انهما لم يعرفا ماهية ذلك ، انهما لم يعرفا اين كانا ، ولكنهما كليهما ، الرجل والطفلة ، التائب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يركعا .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البناية من ان تبدو موحشة . كانت اشبه باغنية خارقة في منزل مهجور .

وخمدت الاغنية . ولعلها ان تكون قد استمرت فترة طويلة . فلم يكن

في ميسور جــان فالجان ان يدري . ان ساعات النشوة الروحيّة ليست ابدا غــير دقيقة واحــدة .

وغرق كل شيء في الصمت كرة اخرى. لم يبق شيء في الشارع، ولم يبق شيء في الحديقة ، لقد تلاشى كل شيء : ذلك الذي كان يتهدد ، وذلك الذي كان يوقع الطمأنينة في النفس . وداعبت الريح العشب الجاف فــوق قمــة الجدار ، محدثة ضجة خفيضة ، رفيقة ، كئيبة .

٤

كانت ريح الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذن بــان الساعة كانت تتراوح ما بين الواحدة والثانية صباحا. ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما. وانحنى قليلا ، ونظر اليها. كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترين على وجهها سيماء اوجعت فؤاد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف . فقال جان فالجان : « هل انت ناعســة ؟ »

فاجابت : « انا اشعر ببرد شديد » .

وبعد لحظة اضافت : « الا تزال هناك ؟ »

فقال جان فالجان : « مــن ؟ »

ــ « مدام تيناردييــه » .

ــ « اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئا بعد الآن » .

وتنهدت الطفلة ، وكأن ثقلا قد رفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جميعا، وكانت الريح تزداد لحظة بعد لحظة.ونزع الرجل الطيب سترته الطويلة ولف كوزيت بها وقال : « هل تحسين بالدفء الان ، اكثر من ذي قبل ؟ »

ــ « اوه ، نعم ، يا أبت ! »

ــ « حسن ، انتظريني هنا لحظة . سوف ارجع في الحال » .

وغادر المكان الخرب ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماسا لمـأوى افضل . لقد وجد ابوابا ، ولكنها كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الــدور الارضي مقضبة بالحديد... وفيما هو يجتاز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمح عندها بصيصا من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال احدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء انيتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قنديل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مهجورة ،

وكان كل شيء ساكنا. ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه راى شيئا منبسطا على ارض القاعة ، شيئا بدا وكأنه مغطى بكفن وكأن له شكلا انسانيا . كان ملقى على صدره متصالب الذراعين ، جامدا جمود الموت . ولقد كان خليقا بالرائي ان يقول ، بسبب شبه افعى كانت تزحف فوق ارض القاعة ، ان حبلا كان يطوق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرين على الاماكن الباهتة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيرا ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين انه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كئيبة لا تكاد تحصى، فانبصره لم يقع علىما هو افظع وادعى الىالرعب من تلك الصورة الملغزة في ذلك الموطن الكالح ، والتي تلمح على هذا النحو الضبابي في الليل . كان يروع المرء ان يفترض انها قد تكون ميتة ، وكان مما يروعه اكثر ان يظن انها قد تكون على قيد الحياة .

وانس من نفسه الجراة على ان يضغط جبينه على الزجاج، وان يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكن على غير طائل . ان الشكل المنبطح لم يبد حراكا . وفجأة عصف به ذعر يجل عن الوصف، وولى فرارا . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى وراء . فقد بدا له انه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعدو خلفه في خطى واسعة ، هازة ذراعيها .

وبلغ السقيفة الخربة لاهثا . وخذلته ركبتاه ، وتحلب العرق البارد من جسده كله . . . اين كان ؟ من ذا الذي قدر له يوما ان يتخيل ايما شيء مثل هذا الضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل بالاسرار الليلية ، ينادي الارواح ، تحت جنح الظلام ، باصوات الملائكة ، حتى اذا اقبلت فاجأها بمثل هذا المشهد الرهيب . اكان ذلك بناء حقا ، بيتا ذا رقم في الشارع ؟ الم يكن هذا حلما ؟ كان في حاجة الى ان تلمس يداه الجدران لكي يصدق ذلك .

كان البرد ، والقلق ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليلةمن آلام ــ كانت هذه كلها توقع في جسده حمى حقيقية. وانشأت افكاره كلهاتتصادم فيدماغه. واقترب من كوزيت . كانت نائمة . لقد القت راسها على حجر واستسلمت للرقاد . . . وجلس قربها ، ونظر اليها . وشيئا بعد شيء ، فيما هو يتأملها ، هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضمه ، طرقت مسمعه ، فترة ما ، ضجة فريدة . كانت اشبه بصوت جرس صغير

يتمايل. وانما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . لقد اشبهت تلك الموسيقى البدائية الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلا في مراعيها .

ونظر جان فالجان فرأى ان في الحديقة شخصا ما .

كان مخلوق شبيه بالرجل يمشي وسط الحديقة ناهضا حينا ، منحنيا حينا ، كل ذلك في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئا على الارض . وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو ... وارتعد جان فالجان بارتعاشة المساكين الموصولة . انهم يجدون كل شيء معاديا ومريبا . فهم يحذرون النهار لانه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويحذرون الليل لانه يساعد اولئك الرجال على مباغتتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحديقة خالية ، وها هو ذا الان يرتعد لان ثمة شخصا فيها .

وانتقل كرة اخرى من خضم المخاوف الوهمية الى خضم المخاوف الحقيقية . وقال في ذات نفسه : «لعل جافير وجواسيسه لم يغادروا المكان بعد ، وانهم قد خلفوا من غير ريب شخصا ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويسلمه الى السلطة» . وفي رفق ، رفع كوزيت النائمة ، بين ذراعيه ، وحملها الى اقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركام من الاثاث القديم لم يعد موضع الاستعمال . ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في رقعة من الحديقة مزروعة بطيخا . ومن عجب ان صوت الجلجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة، كان يصاحب تلك الحركة ارتجاف في الصوت. وحين كان يتوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحا ان الجلجل كان مشدودا الى ذلك الرجل . ولكن اي رجل هو ذاك الذي يعلق في عنقه جلجل ، كما يعلق في عنق كبش او ثور ؟

وفيما هو يفكر في هذه الاسئلة، لمس يدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال : « آه ، يا الهي ! »

فلم تفتح عينيها ... وهزها في قوة ، فلم تستيقظ .

فقال : « ايمكن ان تكون قد ماتت ؟ »

ووثب واقفا ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه. واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، افظع الافكار وادعاها الى الذعر .

كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قد انطرحت على الارض ، عند قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .. واصغى الى انفاسها. كانت تتنفس ، ولكن تنفسا

بدا له واهنا وعلى وشك ان يخمد .

ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى ايقاظها ؟ لقد طرد كل شيء من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الخرب .

كان ضروريا جدا ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتضرم النار الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

ومضى مباشرة الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قد حمل بيده لفة المال التي كانت في جيب صدرته . وكان ذلك الرجل مطأطأ الراس . فلم يره مقبلا نحوه . وما هي الا بضع خطوات حتى كان جان فالجان على مقربة منه . وحاذاه جان فالجان هاتفا : « مئة فرنك ! »

واجفل الرجل ورفع عينيه .

وتابع جان فالجان : « مئة فرنك تكسبها اذا آويتني هذه الليلة . »

واضاء القمر وجه جان فالجان الذاهل اضاءة كاملة .

وقال الرجل : « ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعة المظلمة ، وفي ذلك المكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فالجان يرتد الى الوراء .

كان مستعدا لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلا عجوزا ، متقوس الظهر اعرج ، مرتديا ثيابا هي اشبه بثياب الفلاحين ، وعلى ركبته اليسرى واقية للركب جلدية يتدلى منها جرس ضخم بعض الشيء . اما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبينه المرء .

وفي غضون ذلك كان الرجل الساذج قد نزع قلنسوته ، وهتف وهو يرتجف :

« ــ آه يا الهي ! كيف جئت الى هنا ايها الاب مادلين ؟ من اين دخلت ؟ اوه ، ايها الرب يسوع ! هل هبطت من السماء ؟ وما الذي دهاك ؟ فانت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر بقبعة ، وليس على جسدك سترة ما ؟ اتدري انك كنت جديرا بان تروع اي امرىء لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الهي ! ايجن القديسون في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

وسأله جان فالجان : « من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل العجوز : « اوه ، حقا ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظفته هنا ، وهذا البيت هو المكان الذي وظفتني فيه . ماذا؟ انت لا تتذكرني؟»

فقال جان فالجان : « لا . وكيف اتفق ان عرفتني ؟ »

فاجاب الرجل : « لقد انقذت حياتي . »

والتفت فاضاءت اشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان انــه فوشلوفان العجوز . وقال جان فالجان : «آه اهذا انت ؟ اجل انا اذكرك .»

فقال الرجل العجوز في نبرة عتاب : « هذا سار جدا . »

واضاف جان فالجان : « ماذا تفعل هنا ؟ »

ـ « اوه ! انا اغطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده، لحظة دنا منه جان فالجان، طرف حصير من قصب كان منهمكا في نشره فوق مسكبة البطيخ .

واضاف : « لقد قلت لنفسي : القمر نير ، ولسوف تصقــع الارض . لعل من الخير ان البس بطيخاتي ستراتها . »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على الاقل فقد اطرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعف اسئلته .

« ــ وما هذا الجلجل المعلق بركبتك ؟ »

فاجابه فوشلوفان : « هذا ؟ ان الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

« كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

« آه ، يا الهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجلجل يحذرهن . فحين اجيء يذهبن . »

« ــ وما هــذا البيت ؟ »

« ــ ولكن انــت تعرفه جيدا ! »

« ــ لا ، انــا لا اعرف . »

« ــ ولكنك انت الذي جعلتني بستانيا في هذا المكان . »

« ــ اجبني وكانني لا اعرف شيئا البتة . »

« ــ حسنا ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكر جان فالجان. كانت المصادفة ، يعني العناية الالهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حي سان انطوان هذا حيث كان فوشلوفان العجوز قد ادخل بنــاء على توصية منــه ، بعد ان اقعده السقوط من عربته ، قبل عامــين اثنــين .

واستأنــف فوشلوفان : « ولكن كيف استطعت ، حقا ان تدخل الــى هنا ، انت ، ايها الاب مادلين ؟ عبثا تحاول اقناعي بانك قديس . انت رجل ، ومحظور على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

« ــ ولكنــك هنــا . »

« ــ ليس هنــا رجل غيري . »

فاردف جان فالجان : « ومع ذلك فينبغي ان ابقى هنا . »

فصاح فوشلوفان : « آه ، يا الهي ! »
واقترب جان فالجـان من الرجل العجوز وقال له في نبـرة فاجعـة : « ايها الاب فوشلوفان ، لقد انقذت حياتك . »
فاجابه فوشلوفان : « لقد كنت انا اول من تذكر ذلك . »
« ــ حسنا ، في استطاعتك ان تقدم لي اليوم مثل تلك الخدمة التي قدمتها اليك بالامس . »
وامسك فوشلوفان بيديه الهرمتين المتجعدتين المرتجفتين يدي جـان فالجان القويتين . وصاح . « اوه ! اذا استطعت ان ارد اليك بعض جميلك فسوف يكون ذلك فضلا من الله . انا ! انا انقذ حياتك ! سيدي العمدة ، ان الرجل العجوز تحت تصرفك ! ما الذي تطلب الي ان اعمله ؟ »
« ــ سوف اشرح لك ذلك . اعندك غرفة ؟ »
« ــ عنـدي كوخ منعـزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ، في زاوية لا يراها احد . ان هناك ثلاث غرف . »
« ــ حسن سوف اسألك ، الآن ، امرين . »
« ــ ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »
« ــ اولا ، ان لا تقول لاحد ما تعرفه عني . وثانيا ، ان لا تحـاول ان تعرف من ذلك شيئا اضافيا . »
« ــ كما تريد . انا ادري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرف وانـك كنت دائما رجلا من رجال الله . والى هذا ، فانك انت الذي وضعتني هنا . هذا المكان لك وانا طوع امرك . »
« ــ حسن جدا . والان ، تعال معي . سوف نذهب لنأتي بالطفلة . »
فقال فوشلوفان : « آه ! هناك طفلة . »
ولم يزد على ذلك كلمة واحده ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلب سيده.
وفي اقل من نصف ساعة كانت كوزيت قد امست وردية اللون بفضل اللهب المنبعث من نار قوية ، ونامت في سرير البستاني العجوز . وكان جـان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وسترته الطويلة . وكانت قبعتـه التـي قذف بها من فوق الجدار قد وجدت ورفعت عن الارض . وفيما كان جان فالجان يلبس سترته الطويلة كان فوشلوفان قد نزع واقية ركبته ذات الجلجل وعلقها بمسمار قرب مصراع النافذة . كان الرجلان يتدفئان ، وقد اسنـدا مرفقيهما الى مائدة كان فوشلوفان قد وضع عليها قطعة جبن ، وشيئا من الخبز الاسمر اللون وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال العجـوز لجان فالجان

واضعا يده على ركبته : «آه ! ايها الاب مادلين ! انك لا تعرفني لاول وهلة ، انت تنقذ الناس ، ثم تنساهم ، اوه هذا غير حسن ! انهم يذكرونك ، انت جاحد تنكر الجميل ! » .

٥

والواقع ان الاحداث التي رأينا اللحظة وجهها الاخر، اذا جاز التعبير ، انما تمت في ظل ابسط الاحوال والملابسات .

عندما فر جان فالجان ــ في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة ــ من سجن مونتروي سور مير انبلدي ، قدر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس خضم صاخب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي فيدوامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . والفارون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . انهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يغمرهم ، فثمة بالوعات تنجي وتنقذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضا ، فهم انما يبحثون في باريس عمن اضاعوه في اي مكان اخر . ولقد بحثوا هناك عن عمدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جافير الى باريس ليساعد الشرطة في مباحثها .

وكانجافير قد اطرح التفكير في جانفالجان نهائيا ــ فعند كلاب القنص هذه يطمس ذئب اليوم على ذكرى ذئب الامس ــ عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما فلفت نظره في الاسطر الدنيا من احدىالصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نحبه. وانما سيق الخبر في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة. لقد اكتفى بالقول : « ان هذا يضع حدا للمسألة » ، ثم القى الصحيفة جانبا ، واقلع عن التفكير في ذلك .

وبعد فترة اتفق انتحولت مذكرة بوليسية منمديرية شرطةالـ «سين ايه واز» الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع، كما قيل ، في ظروف خاصة، في قضاء مونفيرماي. وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة كانت امها قد عهدت في تربيتها الى فندقي من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق رجل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تعرف بكوزيت . وكانت بنت فتاة تدعى فانتين ، ماتت فيالمستشفى،وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها او اين . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكد عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير .

كان هذا الاسم ، فانتين معروفا عنده جيدا . لقد ذكر ان جان فالجان سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماسا لابنة هذه المخلوقة . وذكر أن جان فالجان اعتقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قادته بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العربة ، وانه كان قد قام، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لان احدا لم يره في القرية نفسها . اي شيء كان يعمله في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احد ان يحزره . ولكن جافير فهمه الان . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان التماسا لها . وها قد سرق رجل مجهول تلك الطفلة . مـن عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ ايمكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات. ومن غير ان يقول كلمة لاحد، امتطى جافير متن العربة العمومية وسافر الى مونفيرماي.

لقد توقع ان يجد ايضاحات هامة هناك، ولكنه لم يجد غير غموض كبير.

ففي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد اذاعا ، في غمرة من غيظهما، نبأ ذلك . واحدث اختفاء القبرة ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ورويت روايات مختلفة، انتهت بان امست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرة البوليس التي اشرنا اليها . وايا ما كان ، فحين همدت الفـورة الاولى ادرك تيناردييه في غـير ابطاء ، تحدوه غريزته الرائعة، ان ليس من مصلحتـه ان يستدعـي النيابـة العامة الملكية ، وان اولى نتائج شكواه في ما يتصل باختطاف كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الثاقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . وان اخر ما تتمناه البوم هـو ان تحمل اليها شمعة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر الف فرنك التي تسلمها ؟ وغير وجهته بغتة، واخرس فم زوجته، وتظاهر بالدهش كلما حدثه امرؤ عن الطفلة المسروقة . انه ما كان يعرف عن ذلك شيئا . ولا ريب في انه تشكى ، في الحال، ان «تنتزع» منه تلك الفتاة الصغيرة العزيزة بمثل هذه السرعة ، ولقـد كان يفضل ، بدافع من الحنان المحض ان يحتفظ بهـا يومين اضافيين او ثلاثة ايام اضافية . ولكن جدها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء اخر في العالم . كان قد اضاف الجد الى القصة، وهو ما بدا سائغا في الاذان. على هذه الحكاية وقع جافير في مونفيرماي وكان في ذكر الجد ما استبعد جان فالجان ، واخرجه من الحساب .

ومع ذلك طرح جافير بعض الاسئلة : من كان هذا الجد ، وما اسمـه ؟ واجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رايت جواز سفره. انا اعتقد انه يدعى مسيو غييوم لامبير » .

ان لامبير اسم وقور جدا يوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس . وقال مخاطبا نفسه : « ان جان فالجان ميت حقا . واني لمعتوه».

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندماسمع بعضهم يتحدث،خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن فيابرشية سان ميدار ، ويدعى «الشحاذ الذي يوزع الصدقات» . وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلا يحيا على دخله، وليس يعرف احد اسمه تماما ــ رجلا يعيش وحدهمع فتاةصغيرة في الثامنة، لا تدري من امرها غير شيء واحد وهو انها اقبلت من مونفيرماي. مونفيرماي ! ان هذا الاسم ليتكرر دائما ، وانه ليلفت انتباه جافير . واضاف جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين ــ وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه ــ معلومات جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد النفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله الا ليلا ، وهو لا يتحدث الى احد، ما عدا الفقراءفى بعضالاحيان، ولايدعاحدا يتعرفاليه.انه يرتدي سترةعتيقة صفراءمخيفةتساوي عدةملايين، لانهامحشوة كلها بالاوراق النقدية». واثارذلك فضولجافير منغيرريب. ولكي يرىالى هذا الغنيالغريب عن كثب منغير انيجفله، فقد استعار ذاتيوم منالمستخدم فيالكنيسة ملابسه الرثة والمكانالذي تعود جاسوسالشرطة العجوز انيجلس فيه القرفصاء كل مساء مخنخنا بادعيته ، متجسسا من خلال صلواته .

وفى الواقع فقد وفد « الشخص المريب » ، الى جافير المتنكر على هذا النحو ، وتصدق عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير راسه . واصابه ، اذ اعتقد انه عرف جان فالجان ، مثل تلك الصدمة التي اصابت جان فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعل الظلمة قد خدعته ، فقد كان موت جان فالجان امرا مثبتا عند السلطات . ولكن بقيت في نفس جافير شكوك جدية . وفى حال الشك ، ما كان جافير ــ وهو الحذر الذي يسعى جهده لاجتناب الخطأ ــ ليأخذ بخناق ايما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . واغرى « المراة العجوز » بالكلام . وايدت العجوز رواية السترة المحشوة بطانتها بالملايين ، وقصت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الالف فرنك . لقد راتها ! لقد لمستها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجيا ان يبلغ اذنيه جرس صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، واحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفى اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان. ولكن العجوزسمعت صدىقطعة

الخمسة الفرنكات التي افلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى اعلام جافير بالامر قبل حدوثه . وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة انتمده بقوةاضافية، ولكنهلميصرح باسم الشخص الذي يرجو القاء القبض عليه . كان ذلك سرا من اسراره ، وقد احتفظ به لثلاثة اسباب : اولا ، لان اقل افشاء للسر خليق به ان يحذر جان فالجان. وثانيا، لان اعتقال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فار معدودبين الاموات سوف يكون فوزا رائعا لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء لوافد جديد مثل جافير ، ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده الهارب من سجن الاشغالالشاقة. واخيرا، لانجافير ــبوصفهفنانا ــ كانمولعا بالمفاجآت. لقد كان يكره تلك الانتصارات التي يزيل بهاءها طول التحدث عنها مقدما . كان يحب ان يتقن روائعه في الظلام ، ليكشف النقاب عنها بعد ذلك فجأة .

كان جافير قد تعقب جان فالجان من شجرةالى شجرة، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة . وحتىفى تلك اللحظات التي استشعر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مسمرة عليه .

لماذا لم يلق جافير القبض على جان فالجان ؟ لانه كان لا يزال فى ريب من امره . وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، فى ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافة الحرة تضايقها. والحق انبعض الاعتقالات الاعتباطية التياعلنتها الصحف ترددصداها حتىفى قاعةالبرلمان، مما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد . كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئا خطيرا. وكان ضباط البوليس يخشون ارتكابالاخطاء. لقد جعلتهم المديرية مسؤولينعن ذلك، فاذا ما وقعضابط فيخطأ خسر وظيفته. ولنكرر ، الى هذا ان جافير كانت له وساوسه . وانضافت وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من امر الرجل حقا .

وادار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .

وكان الحزن،والقلق، وثقل الهموم، وهذا الشقاء الجديد الذي اكرهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث من غير تبصر عن مأوىفى باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره الى ان يكيف خطوته وفقا لخطوة طفلة صغيرة ــ كل ذلك كان قد غير مشية جان فالجان، وهو لا يدري،وطبعهيئته بطابع الشيخوخة الى حد جعل فىالامكان خداع البوليسنفسه ، المتجسد في

جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكر بمؤدب عجوز مهاجر ، وفي تصريح تينارديه الذي جعله جدا ، واخيرا في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزز الشك المتعاظم في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابراز اوراقه . ولكن اذا لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثريا عجوزا محمود السيرة فاغلب الظن انه لص متصل اتصالا عميقا بارعا بشبكة الجريمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء اخفاء لمواهبه الاخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاجيء قريبة يفزع اليها . وكل هذا اللف والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلا بسيطا صالحا . فالقاء القبض عليه باسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهبا » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافير موقنا احسن اليقين من انه لن يفر .

وهكذا واصل تقدمه في كثير من الارتباك ، موجها الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية اللغز .

ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجان من غير ريب الا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق من احدى الحانات .

ولم يكد يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل العجوز هو جان فالجان حتى انتبه الى انه على راس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز ان تمده بقوة اضافية .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مع رجاله ما جعله يفقد الاثر . ومع ذلك ، فسرعان ما حزر ان جان فالجان راغب في ان يتخذ من النهر حائلا بينه وبين مطارديه . ونكس راسه وفكر . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعا مباشرا نحو جسر اوسترليتز . وطرح سؤالا على مأمور المكوس اطلعه على جلية الامر — « هل رايت رجلا يصطحب فتاة صغيرة ؟ » فاجابه المأمور : « نعم » . ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض الفضاء التي كانت اشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع «شومان فير سان انطوان» وفكر في زقاق جانرو القائم هناك مثل شرك من الاشراك ، وفي المنفذ الوحيد من شارع « دروا مور » الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المسالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من العسس عائدة الى مخفر دار الصناعة ، فصادرها وحملها على مرافقته . حتى اذا اتم

هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقـع في الشرك تنـاول قبضة من السعوط .

ثم انه بدأ يلعب. لقد استمتع بلحظة نشوى تمور بالخبث. فترك طريده يمضي امامه ، عارفا انه اسيره ، راغبا في ان يرجىء لحظة اعتقاله، سعيدا بأن يستشعر انه قد وقع في قبضته وبأن يراه حرا طليقا ، ناظرا اليه في مثل لذة العنكبوت التي تدع الذبابة تطن ، والهرة التي تدع الفأرة تعدو .

كان جافير محبورا . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقا من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير اطباق يده .

واذ صحبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومـة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطا ، شديد البأس ، يائسا .

وتقدم جافير في تؤدة ، جاسا في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية، فاحصا اياها ، كما يفعل المرء بجيوب لص من اللصوص . حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك فتصور حنقه وسخطه !

لقد استجوب الحارس الذي اقـامه عنـــد شارعي « دروا مور » « بيكبوس » ولكن ذلك الشرطي لم ير الرجل يمر .

ومع ذلك فان جافير لم يفقد صوابه . لقد كان واثقا ان جان فالجان لا يستطيع ان يكون بعيدا فبث الارصاد ، واقام الأشراك والمكامن، وجاس خلال الحي طول النهار . وكان اول ما رآه هو التغير الطارىء على مصباح الشارع العمومي الذي قطع حبله ــ امارة ثمينة ولكنها اضلته السبيل ، مع ذلك، بأن جعلته يوجه مباحثه كلها نحو زقاق جانرو . فقد كان في ذلك الزقاق جدران شديدة الانخفاض تطل على حدائق كانت حدودها تمتد الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحا ان جان فالجان قد فر في ذلك الاتجاه. والحق ان جان فالجان كان خليقا بان يفعل ذلك ، لو انه تقدم الى ابعد قليلا في زقاق جانرو ، وعندئذ يتعذر العثور عليه . وراد جافير تلك الحدائـق والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد اليهما في امـر الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلا مثل جـاسوس مـن جواسيس الشرطة اعتقله لص من اللصوص .

بيكبوس الصغير

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن، ما يمثل باب العربات النموذجي الكبير، في ذلك العهد ، اكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ من شارع بيكبوس الصغير . وكان هذا الباب مشرعا على نحو نصفي مغر الى ابعد حدود الاغراء ، كاشفا عن شيئين ليسا فاجعين جدا : فناء مطوق بجدران مزدانة بالعرائش ووجه بواب يقطع الوقت متنقلا من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين. وفوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة. وحين تبهج اشعة الشمس الفناء ، وتبهج كأس من الخمر البواب يكون من العسير عليك ان تمر برقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تنصرف حاملا فكرة ضاحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لمحته موطنا قاتما .

لقد ابتسم الجدار . اما المنزل فصلى وبكى .

واذا استطعت اجتياز الباب وجدت من ناحية اليمين دهليزا صغيرا يؤدي بك الى سلم محصورة بين جدارين ، ضيقة الى حد يجعلها لا تتسع لصاعدين اثنين في وقت واحد . ثم تصل الى منبسط اول ، ثم الى منبسط ثان ، وتبلغ الدور الثاني برواق ما يلبث ان ينعطف ويمسي مظلما . فاذا تجاوزت ذلك انتهيت ، بعد بضع خطوات ، الى باب يزيده غموضا واسرارا كونه غير موصد ايصادا كاملا . وتدفع الباب ، فتجد نفسك في غرفة صغيرة تبلغ مساحتها نحوا من ستة اقدام مربعة ، مزدانة الجدران بورق نانكين ذي الزهيرات الخضراء . ان ضوءا ابيض باهتا يقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ، وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنظر ، فلا ترى احدا . وتصغي ، فلا تسمع خطوة ما ، او صوتا بشريا ما.

وترجع البصر كرة اخرى فترى في الجدار الذي يواجه الباب فتحة مربعة الزوايا مساحتها نحو من قدم مربع، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية

المتعارضة ، تؤلف مربعات يقل طولها عن انش واحد . ولو فرضنا ان كائنا حيا كان من الهزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها اذن لحال ذلك الحاجز بينه وبين ما يبتغي . انه ما كان يجيز للجسد ان يدخل. ولكنه كان يجيز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا، بدليل انهم اردفوا الحاجز بصفيحة من التنك ركبت في الجدار المتخلف عنه بعض الشيء وتناثر فيها الف من الثقوب الميكروسكوبية . وفي ادنى هذه الصفيحة كانت فرجة اشبه ما تكون بفم علبة من علب البريد ، وكانت شريطة عريضة تتصل بجرس معلق الى يمين الفتحة المقضبة .

وتحرك هذه الشريطة ، فيرن جرس ، وتسمع على مقربة دانية منك صوتا تجفل منه وترتعد ، ويسأل الصوت : « من هناك ؟ »

انه صوت امرأة ، صوت عذب ، عذب الى درجة جعلته فاجعا .

وهنا ايضا كانت ثمة كلمة سحرية يجب ان تعرفها. فاذا جهلتها لم تسمع الصوت كرة اخرى ، ويرتد الجدار صامتا من جديد وكأن ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الاخر . اما اذا عرفت الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

ـ « ادخل الى اليمين » .

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، بابا مزججا يعلوه اطار مزجج ايضا مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب، وتحس بمثل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شباك ، في احد المسارح ، قبل ان يخفض الشباك وتضاء الانوار . انك في الواقع في شبه مقصورة مسرحية يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقة، مؤثثة بكرسيين هرمين وحصير من قصب مقطع الاوصال . وكانت تلك المقصورة ذات شباك ، الا انه لم يكن شباكا من خشب مذهب ، كشبابيك الاوبرا، ولكن شباكا من اعمدة حديدية متداخلة على نحو مخيف .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عيناك تألفان هذه العتمة الكهفية، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة انشات ليس غير . هناك تبصر حاجزا من مصاريع النوافذ السوداء وقد ثبتت ودعمت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وبعد بضع لحظات تسمع صوتا يناديك من وراء هذه المصاريع ، قائلا : « انا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

انه صوت محبب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتا تهيم به القلوب . ولا ترى احدا . وما تكاد تسمع ترداد نفس من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتا شبحيا يتحدث اليك من خلال باب القبر .

ولو انك برزت هناك في بعض الاحوال الضرورية فعندئذ ينفتح امامك ضلع

ضيق من اضلاع تلك المصاريع ، ويغدو الصوت الشبحي طيفـا . فخلف القضبان الحديدية ، وخلف المصراع،ترى راسا لا تلمح منه غير الفم والذقن. اما سائره فمحجوب بنقاب اسود . وتلمح قميصا نسائيا أسود ، وشكلا غير واضح المعالم يجلله كفن اسود . ويتحدث هذا الراس معك ، ولكنه لا ينظر اليـك ، ولا يبتسم لك البتة .

ان النور المنبعث من ورائك مركز على نحو يجعلك ترى الراس في النور، ويجعله يراك في الظل . انه نور رمزي .

ان ظلمة كثيفة لتغلف هذا الشكل اللابس ثوب الحداد. وتبحث عيناك في هذه الظلمة ، وتحاول ان تستبين اي شيء يحيط بالطيف . وما هي الا فترة قصيرة حتى تدرك انك لا ترى شيئا . ان ما تراه هو الليل، والفراغ، والظلمات وضباب الشتاء ممزوجا ببخار القبور .

ان ما تراه عيناك هو الجزء الداخلي من دير. انه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرنارديات للسجود السرمدي. وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الـذي خاطبك اول مرة ، هو صوت البوابة القاعدة ابدا عند الجانب الاخـر مـن الجدار ، قرب الفتحة المربعة .

اما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المقضبة فناشئة عن ان غرفـة الاستقبال ذات النافذة المطلة على العالم الخارجي لم يكن لها ايما نافذة تطل على ناحية الدير. ان الاعين الدنيوية ينبغي ان لا ترى شيئا من هذا المكان المقدس.

والواقع ان هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤، دهرا طويلا في شارع بيكبوس الصغير ، كان لجماعة من الراهبات البرنارديات اللواتي يدن بالطاعة لمارتن فيرغا .

والانظمة التي تخضع لها راهبات مارتن فيرغا البرنارديات البنيدكتيات هي اقسى الانظمة الرهبانية على الاطلاق . انهن يتشحن بالسواد ، ويرتدين قميصا يرتفع حتى الذقن ، وثوبا من نسيج صوفي غليظ ذا ردنين واسعين، وحجابا صوفيا كبيرا ، والقميص الذي يرتفع الى الذقن وقد شق على شكل مربع فوق الصدر ، وعصابة الراس التي تنخفض حتى العينين . تلك هي ملابسهن،وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الراس فهي بيضاء. والراهبات الحديثات العهد بالترهب يرتدين الملابس نفسها، مع فارق وحيد هو ان ملابسهن هذه بيضاء كلها. اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هذا بسبحة تحملها كل منهن بجنبها.

وما كن يرين قط الكاهن المحتفل بالقداس ، الذي كان محجوبا عنهن ابدا بستار يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين يكون الكاهن في

الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن. ان عليهن دائما ان يتحدثن في صوت خفيض،ويمشين وقد غضضن من ابصارهن، وطأطأن رؤوسهن . ولكن رجلا واحدا يستطيع ان يدخل الدير ، هو كبير اساقفة الابرشية .

والحق ان ثمة رجلا اخر قادرا على ذلك،هو البستاني . ولكنه دائما رجل عجوز ، ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي تحذر الراهبات منه فيجتنبنه ، فقد علق بركبته جرس صغير .

وكانت كل منهن تؤدي بدورها ، ما يسمينه «الاستغفار». والاستغفار صلاة يقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تقترف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بغي وكل جريمة ترتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحا،او من الساعةالرابعة صباحا حتى الساعةالرابعة بعد الظهر، تظل الراهبة «المستغفرة» راكعة على الحجر، امام القربان المقدس، مشبوكة اليدين،مطوقة العنق بحبل .حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبة الذراعين ، مستقبلة الارض بوجهها. ذلك كان نصيبها من الراحة . وفيما هي على هذا الوضع تصلي من اجل جميع المذنبين في الكون .

واداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيها النفس كلها . فالراهبة الجاثية امام الوتد لا تلتفت ولو سقطت خلفها صاعقة .

والى هذا ، فهناك ابدا راهبة راكعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجنود في اثناء العمل . وذلك هو السجود السرمدي .

وحين ترى الى هؤلاء الراهبات لا تبصر غير افواههن . وكلهن ذوات اسنان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط. ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلم ادنى درجاتها خسارة النفس .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقات اضافية . وعند هذه الاشارة تقطع الرئيسة، والامهات الصوتيات، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمات بالاعمال اليدوية، والراهبات المستجدات، وطالبات الترهب ــ عند هذه الاشارة يقطعن ما كن يقلنه، او ما كن يفعلنه، او ما كن يفكرن فيه ، ويقلن جميعا في صوت واحد ، اذا كانت الساعة الخامسة مثلا: «في الساعة الخامسة، وفي كل ساعة، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس!» فاذا كانت الساعة الثامنة قلن : « في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة الخ ... » وهكذا ، وفقا للساعة كائنة ما كانت .

وكانت راهبات بيكبوس الصغير قد جعلن كهفا صغيرا تحت مذبحهن

المرتفع لدفن من يتخطفه الموت من اعضاء الرهبانية، والحكومة ماكانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكهيف . وهكذا كن يفارقن الدير عند الوفاة. وكان ذلك يحزنهن ويروعهن وكأنه مخالفة للشريعة .

وكن قد فزن بامتياز يتيح لهن ان يدفن موتاهن في ساعة مخصوصة، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيرار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبل ملكا لرهبانيتهن .

وحين تدعى احدى الراهبات الى غرفة الاستقبال، ولو كانت الرئيسة نفسها ، فانها تسدل حجابها على نحو لا يبدي من وجهها غير الفم .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله مارتن فيرغا اكثر صرامة .

وتسلخ المرشحة لدخول الدير سنتين على الاقل،بوصفها طالبةترهب، واربع سنوات في الغالب قبل ان تصبح عضوا في الرهبانية . ثم تقضي اربع سنوات اخرى بوصفها راهبة مستجدة . ونادرا ما تعلن النذور النهائية قبل ثلاث وعشرين سنة او اربع وعشرين سنة .

وهن يخضعن انفسهن ، في قلاياهن ، لضروب من الاماتة المجهولة التي لا يحق لهن ان يتحدثن عنها ابدا .

وفي الفترة التي ترقى اليها هذه القصة الحقت بالدير مدرسة داخلية تضم عددا من الفتيات الصغيرات الموسرات . وكانت هاته الفتيات يرتدين ملابس زرقاء ويعتمرن بقلنسوة بيضاء . والحق انهن ملأن ذلك البيت المهيب بذكريات فاتنة .

المقابر تأخذ ما يقدم اليها

١

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد «هبط من السماء» كما قال فوشلوفان . كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو. وكانت تلك الترنيمة الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السحر تؤديها الراهبات ، وكانت تلك القاعة التي لمحها في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممددا على الارض هو الراهبة المستغفرة، وكان ذلك الجرس الصغير الذي ادهشه صوته هو جلجل البستاني المشدود الى ركبة الاب فوشلوفان.

وحين وضعت كوزيت في الفراش ، كان فالجان وفوشلوفان قد احتسيا زجاجة من خمر واكلا قطعة من جبن امام نار ملتهبة . واذ كانت كوزيت قد شغلت الفراش الاوحد في الكوخ ، فقد انطرح كل منهما على حزمة من قش . ولكن ايا منهما لم يكن قد استسلم للرقاد .

فاما جان فالجان ، فقد ادرك انه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبت عليه، الى هذا الدير لم يطف في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد ، ان يبقى هناك. والواقع ان هذا الدير كان، لرجل في مثل وضعه الشقي، آمن مكان واخطر مكان في وقت معا. كان اخطر مكان لانه محظور على الرجال دخوله . فاذا ما اكتشف جان فالجان فيه يقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه الا ان يخطو خطوة واحدة من الدير الى السجن . وكان آمن مكان ، لانه اذا وفق الى الفوز بأذن يجيز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يقبل الى ذلك المكان بحثا عنه ؟

واما فوشلوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر انه لا يفهم شيئا من الامر . كيف تأتى لمسيو مادلين ان يفد الى هناك؟ ان جدران الدير

ليس من اليسير تجاوزها. وكيف اتفق ان كان يصطحب طفلة ؟ ان المرء لا يتسلق جدارا شديد الانحدار وبين يديه طفلة. من هذه الطفلة؟ من اين اقبل كلاهما ؟ فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ايما حديث عن مونتروي سور مير، لم يعرف شيئا مما كان قد حدث. وكانت تغلب على محيا الاب مادلين سيما لا تشجع على طرح الاسئلة ، وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطبا نفسه: « ان المرء لا يستجوب قديسا » . وكان مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتباره كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي ندت من جان فالجان ، ان من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائنوه يلاحقونه ، او ان يكون تورط في قضية سياسية فهو يلتمس مفزعا يختبيء فيه .

كان فوشلوفان يخبط في غمرة من الظنون والاحداس، ولكنه لم ير على نحو واضح غير هذا : لقد انقذ مسيو مادلين حياتي. وقال في ذات نفسه «لقد جاء دوري الان » . واضاف في وجدانه : « ان مسيو مادلين لم يفكر طويلا الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يقحم نفسه تحت العربة لكي يسحبني من هناك » . ووطن العزم على ان ينقذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة واجاب عنها عدة اجوبة : « بعد الذي اسداه الي من معروف ، ايتعين علي ان انقذه ولو كان لصا من اللصوص ؟ » ــ «طبعا» ــ « واذا كان سفاكا ، فهل ينبغي لي ان انقذه؟» ــ «طبعا» ــ « وبما انه قديس ، فهل سأنقذه ؟ » ــ «طبعا» .

ولكن ابقاءه في الدير هو المشكل الاكبر! ولم ينكص فوشلوفان امام هذه المحاولة التي توشك ان تكون وهمية. والواقع ان فوشلوفان كان رجلا عجوزا سلخ حياته كلها انانيا ، حتى اذا بلغ ارذل العمر ، اعرج عاجزا ، ولم يعد له من ارب في الحياة وجد متعة في ان يكون معترفا بالجميل. وصاغ قراره: ان ينذر نفسه لانقاذ مسيو مادلين .

وعند انبلاج الفجر فتح فوشلوفان عينيه ، فابصر مسيو مادلين جالسا على كومة قشه ، رانيا الى كوزيت المستسلمة للرقاد. ونهض فوشلوفان نصف نهضة وقال: «والان وقد اصبحت هنا، ما السبيل التي تعتزم انتهاجها للدخول؟»

لقد لخص هذا السؤال الموقف كله، وايقظ جان فالجان من تفكيره الحالم .

وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان : « قبل كل شيء ، انك لن تضع قدما خارج هذه الغرفة . لا انت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا » .

ــ « هذا صحيح » .

واستأنف فوشاوفان حديثه : « مسيو مادلين ، لقد وصلت في وقت جيد جدا ، اعني في وقت سيء جدا . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من اجل ذلك تجد انهن لا ينظرن كثيرا الى ناحيتنا . لاشك في انها تحتضر . انهن يتلون صلوات الاربعين ساعة. فالمراة الموشكة على الرحيل هي قديسة . انهن يعتزمن اداء صلاة الاحتضار، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم، في هذا المكان. ولكني لست ادري ما الذي سيحمله الينا الغد».

فقال جان فالجان : «ومع ذلك، فهذا الكوخ قائم تحت زاوية الجدار انه محجوب بضرب من البناء الخرب . ان ثمة اشجارا . انهن لا يستطعن ان يرينه من الدير » .

ــ « وانا اضيف ان الراهبات لا يقتربن منه البتة » .

فقال جان فالجان : « حسنا ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعت الكلمة تعني : « يبدو لي ان في استطاعتنا ان نظل مختبئين هنا » . وكان جواب فوشلوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال : « هناك الفتيات الصغيرات » .

فسأله جان فالجان : « اية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكد فوشلوفان يفتح فمه ليشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة حتى سمع الناقوس يقرع قرعة واحدة . وقال : «لقد ماتت الراهبة. هوذا الناقوس ينعاها » . واشار الى جان فالجان بأن يصغي .

وقرع الناقوس مرة ثانية فقال : « انه النعي ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس يقرع مرة كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة، حتى يغادر الجثمان الكنيسة. وفي العطلة، لا تكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الانظمة ويبحثن عنها مبعثرات كل شيء . ان هاته الملائكة الفاتنات شياطين حقا ».

فتساءل جان فالجان : « من ؟ »

ــ « الفتيات الصغيرات. سوف يكتشف امرك في وقت قريب. ولكن ليس ثمة خطر، اليوم. لن تعطى الفتيات عطلة. سوف يخصص النهار كله للصلاة ».

ــ « لقد فهمت ، ايها الاب فوشلوفان. هناك طالبات داخليات ». وفكر جان فالجان فيما بينه وبين نفسه : « هنا ، اذن، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضا » .

وهتف فوشلوفان : « وحق الرب ! لو راتك الفتيات الصغيرات ! اي صيحة سوف يطلقن حين تقع اعينهن عليك! وبأية سرعة سوف يولين فرارا. فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلا ، اشبه شيء بالطاعون . الا ترى كيف شددن الى رجلي جلجلا وكأنني وحش ضار ؟ »

وفكر جان فالجان اعمق فاعمق . وتمتم : « الدير سوف ينقذنا » .
ثم رفع صوته : « نعم ، الصعوبة هي في البقاء » .
فقال فوشلوفان : « لا . انها في الخروج » .
واحس جان فالجان بالدم يجري باردا في عروقه، وقال: «في الخروج ؟ »
– « اجل يا مسيو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج » .
وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تتلاشى، استأنف فوشلوفان حديثه : « ليس من الخير ان يجدنك ههنا على هذا الشكل. من اين اقبلت ؟ اما انا فاعتقد انك سقطت من السماء ، لاني اعرفك. واما الراهبات فسوف يعتقدن انك دخلت من الباب » .

وفجأة سمعا قرعا معقدا منبعثا من ناقوس اخر . فقال فوشلوفان : « اوه ! هذا الناقوس يدعو الامهات الصوتيات . انهن يذهبن الى مجلس الراهبات . ولكن الا تستطيع ان تخرج من حيث دخلت ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ، ولكن من اين دخلت ؟ »

وشحب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . وتخيل ان رجال البوليس كلهم لا يزالون يجوبون الشوارع، وأن قبضات رهيبة تمتد للاخذ بخناقه . ولعل جافير ان يكون في زاوية المفرق .

فقال : « مستحيل . افترض اني هبطت من السماء » .

فاجابه فوشلوفان: «آه ! انا اصدق ذلك. لا بد ان الله قد اخذ بيدك ، لكي يرى اليك عن كثب، ثم افلتك. كل ما في الامر أنه كان يريد ان يضعك في دير للرجال . لقد اخطأ . اسمع ، الناقوس يقرع مرة اخرى . هذا تنبيه للبواب لكي يذهب الى البلدية ويحيط رجالها علما بالحادث ، لكي يذهبوا ويعلموا طبيب الاموات فيجيء ويتحقق من ان ثمة امرأة ميتة. وهؤلاء السيدات الطيبات لا يرحبن بهذه الزيارة كثيرا ، فالاطباء لا يؤمنون بشيء. انهم يرفعون الحجاب، بل انهم يرفعون شيئا اخر، في بعض الاحيان. ولكن ما اسرع ما اعلمن الطبيب هذه المرة! فما القصة، يا ترى؟ ان صغيرتك لا تزال نائمة. ما اسمها ؟ »
– « كوزيت » .
– « اهي ابنتك ، يعني انك جدها ، اليس كذلك ؟ »
– « نعم » .
– «ان الخروج من هنا سهل بالنسبة اليها . ان عندي بابا خاصا بي ينفتح على الفناء . سوف اقرعه فيفتح البواب . ولسوف احمل سلتي على ظهري ، وفي جوفها الفتاة الصغيرة . ولسوف اخرج . ولسوف تطلب انت

الى الفتاة الصغيرة ان تلتزم السكينة. ولسوف تكون محجوبة بغطاء. ولسوف اتركها عند صديقة لي طيبة عجوز، بائعة خضر وفاكهة ، في شارع « الطريق الاخضر » . وهذه الصديقة صماء ، ولسوف اصرخ في اذنها انها ابنة اخ لي ، واسألها ان تحافظ عليها حتى يوم غد. ثم ان الفتاة الصغيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اردها اليك . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ »

وهز جان فالجان راسه . وقال : « لا تدع احداً يراني. هذا كل شيء ، ايها الاب فوشلوفان . ابحث عن وسيلة ما لاخراجي انا ايضاً، مثل كوزيت ، في سلة او تحت غطاء » .

والهاهما قرع الناقوس ، مرة ثالثة ، بعض الالهاء وقال فوشلوفان : « هوذا طبيب الاموات يمضي لسبيله . لقد رآها وقرر انها ميتة . وحين يؤشر الطبيب على الجواز الموصل الى الجنة يبعث متعهدو مواكب الدفن بتابوت فاذا كانت «اما» كفنتها الامهات. واذا كانت «اختا» كفنتها الاخوات . حتى اذا تم ذلك دققت المسامير في النعش. ان هذا جزء من عملي كبستاني. فالبستاني ضرب من حفار القبور. انهن يضعنها في غرفة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما ان يدخل ، باستثناء طبيب الموتى . انا لا اعد نفسي وحملة النعش رجالا . . وفي تلك الغرفة ادق المسامير في النعش. ويقبل حملة النعش ويأخذونها ، ويعمل السائق سوطه ! هكذا يذهبن الى الجنة . انهم يجيئون بصندوق ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . تلك هي حقيقة الدفن . »

وشع خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة . وكان جان فالجان ينظر اليها . انه ما عاد يصغي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصغاء ليس سببا كافيا للصمت . وهكذا واصل البستاني العجوز الصالح ثرثرته : « لقد اعد الجدث في مقبرة فوجيرار. وان لي صديقا هناك، هو الاب ميتين، حفار القبور. وللراهبات في هذا الدير امتياز يخولهن الحق في ان يحملن الى تلك المقبرة عندما يهبط الليل . ولكن اي شيء قد حدث منذ امس ! لقد توفيت الام كروسيفكسيون والاب مادلين . . . »

فقال جان فالجان مبتسما ابتسامة محزونة : « قد دفن . »

وقرع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزع واقية ركبته ذات الجلجل عن المسمار المعلقة به ، واعاد شدها حول ركبته ، وقال : « الناقوس يدعوني ، انا هذه المرة . إن الام الرئيسة محتاجة الي . مسيو مادلين ، لا تتحرك انتظرني . هناك شيء جديد . »

وغادر الكوخ وهو يقول : « لقد جئت ! لقد جئت ! »

وبعد عشر دقائق ، او اقل ، قرع الاب فوشلوفان احد الابواب قرعا رفيقا ، فاجابه صوت عذب : « الى الابد ! الى الابد ! » ، يعني ادخل .

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المخصص للبستاني يستعمله حين يحتم الموقف الاتصال به. وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الاوحد ، في غرفة الاستقبال : تنتظر فوشلوفان .

٢

ان سيماء قلقة رزينة تميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطبائع وبعض المهن ، وتميز بخاصة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية الهم المزدوجة تلك تطبع محيا رئيسة الدير الام اينوسانت التي كانت مبتهجة الفؤاد عادة .

وانحنى البستاني بتحية جازعة،ووقف عند عتبة القلية. كانت الرئيسة تمر حبات سبحتها تحت ابهامها ، فما راته حتى رفعت عينيها وقالت : ايها الاب فوشلوفان ، لقد دعوتك .

ــ « ها انا ذا ، ايتها الام الموقرة . »

ــ « اريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشلوفان في جراة اوقعت الرعب في نفسه هو : « وانا عندي شيء اقوله للام الموقرة جدا . »

ونظرت الرئيسة اليه : « آه عندك ما تسر به الي . »

كان الرجل الطيب فوشلوفان الذي كان من قبل كاتبا عدلا ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعتريهم القلق والاضطراب ابدا . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج لا يرى شيئا . ولعله ان يكون اصم بعض الشيء ــ يا لها من سجايا وافرة ! ان من العسير احلال امرىء ما محله .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بانه موضوع التقدير، القى الرجل الطيب فيحضرة الرئيسة الموقرةخطابا مطولا تحدثفيه عن عمره وعن اسقامه وعن مطالب عمله المتزايد واتساع الحديقة . واخيرا ختم كلامه بقوله ان له اخا (وهنا اجفلت رئيسة الدير) اخا ليس شابا ، وانفي استطاعةهذا الاخ ان يأتي ويعيش معه ويمد اليه يد المساعدة ، وانه كان بستانيا ممتازا ، وان الجماعة تستطيع ان تتوقعمنه خدمات افضلمن تلك التي يؤديها هو اليها ، على حين انه ، اذا لم يلحق اخوه بالدير ، فسوف يضطر هو ــ بوصفه الاكبر

سنا ــ الى مغادرة الدير ، وان لاخيه بنتا صغيرة سوف تصحبه ، وسوف يكون في ميسورهاان تنشأ تحت راية الله في الدير، ولعلها ان تصبح في يوم من الايـــام ، راهبــة .

حتى اذا انتهى ، كفت الرئيسة عن امرار حبات السبحة من خلال اصابعها ، وقالت : « هل تستطيع ، من الان حتى المساء ، ان تحصل على قضيب حديدي قوي ؟ »

ــ « لاي غــرض ؟ »

ــ « لكي نتخذ منه مخلا . »

فاجابها فوشلوفان : « نعم ايتها الام الموقرة . »

ونهضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعة مجلس الراهبات حيث كانت الامهات الصوتيات مجتمعات . وبقي فوشلوفان وحيدا .

وانقضى ربع ساعة تقريبا. ورجعت الرئيسة وجلستعلى الكرسي من جديد وبدا كل منهما مستغرقا في التفكير . ثم دار بينهما هذا الحوار :

ــ « ايها الاب فوفان ، انت تعرف الكنيسة جيدا . »

ــ « ان لي قفصا صغيرا هناك اسمع منه القداس والخدمات الدينية. »

ــ « وهل دعتك اعمالك الى ان تدخل يوما الجزء الخاص بالجوقة ؟ »

ــ « مرة او ثلاث مرات . »

ــ « ان ثمة حجرا ينبغي ان يرفع . »

ــ « اهو ثقيل ؟ »

ــ « انها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

ــ « الحجر الذي يغطي الكهيف ؟ »

ــ « نعــم . »

ــ « هذه مناسبة تثبت ان من الخير ان يكون ههنا رجلان . »

ــ « الام صعود ، القوية مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

ــ « مهما بلغت المراة من القوة تظل اضعف من ان تضاهي الرجل . »

ــ « ليسعندنا غير امراةواحدة لتساعدك. وكل امرىءيعمل قدر طاقته. »

ــ « ولكن المراة ليست رجلا . ان اخي قوي جدا . »

ــ « والى هذا سوف يكون عندك مخل . »

ــ « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك الضرب من الابواب . »

ــ « هناك حلقة في الحجر . »

ــ « ولسوف ادخل المخل من خلالها . »

ـ « ولقد اقيم الحجر بطريقة تجعله يدور على محور . »
ـ « حسن جدا ، ايتها الام الموقرة . وسوف افتح الكهيف . »
ـ « والامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك » .
ـ « وبعد أن يفتح الكهيف ؟ »
ـ « يجب أن يغلق من جديد »
ـ « اهذا كل شيء ؟ »
ـ « لا ايها الاب فوفان ، ان لنا ثقة فيك . »
ـ « انا هنا لكي اعمل كل شيء . »
ـ « ولكي تسكت عن كـل شيء . »
ـ « نعم ، ايتها الام الموقرة . »
ـ « وحين يفتح الكهيف . . . »
ـ « اعود فاغلقه من جديد . »
ـ « ولكن قبل . . . »
ـ « ماذا ، ايتها الام الموقرة ؟ »
ـ « يجب ان ينزل شيء الى هناك . »

وران الصمت . وبعد اختلاجة من شفتها الصغيرة بدت اشبه بالتردد اضافت الرئيسة : «ايها الاب فوفان انت تعلم ان احدى « الامهات » توفيت هذا الصباح . انها الام كروسيفكسيون . احدى الطوباويات . لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المؤدية الى الكنيسة . وليس في استطاعة رجل غيرك ان يدخل الى تلك الحجرة ، ولا يجوز له ان يفعل . انتبه جيدا . فسوف يكون من المستغرب ان يرى رجل داخلا الى حجرة الموتى ! »

واعلنت الساعة التاسعة . وتمتمت الرئيسة تمتمة قلبيةقصيرة اخرى، لعلها مقدسة ، ثم رفعت صوتها : « كانت الام كروسيفكسيون ترد النـاس ، في حياتهـا ، الى طريق الدين القويم . وفي مماتها ، تجترح العجائب . ايها الاب فوفان ، يجب ان ننفذ رغبات الموتى . »

واحصت الرئيسة بضع حبات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتـا ثم تابعت : « لقد استشرت في هذه المسألة عددا من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، وفوق هذا ، فانها اكثر من ميتة ، انها قديسة . لقد نامت في نعشها منذ عشرين عاما ، باذن خاص من ابينا المقدس بيوس السابع . . ايهـا الاب فوفان ، ان الام كروسيفكسيون سوف تدفن في النعش الذي نامت فيه منذ عشرين سنة نزولا عند رغبتها . »

ـ « سوف اضطر الى ان اسمرها في ذلك النعش اذن ؟ »

ــ « اجــل . »
ــ « ولسوف نضع نعش الدفان جانبا . »
ــ « تمــامــا . »
ــ « انا تحت تصرف جماعة الدير الموقرة جدا . »
ــ « ان الامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
ــ « لدق المسامير في النعش ؟ انا لست محتاجا اليهن . »
ــ « لا ، لانزال النعــش . »
ــ « الــى ايــن ؟ »
ــ « الى الكهيف . الكهيف الذي تحت المذبح . »
واجفل فوشلوفان وقال : « الكهيف الذي تحت المذبح ! »
ــ « سوف يكون لديك قضيب حديدي . ولسوف ترفــع الحجــر بواسطــة الحلقــة . »
ــ « ولكـــن . . . »
ــ « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت امنية الفقيدة ان تدفن في ذلــك الكهيف لا ان تذهب الى التربة غير الطاهرة ــ وان تبقى بعد الممات حيــث صلت في الحياة . لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدرت امرها بذلك . »
ــ « ولكن هذا محظور . »
ــ « لقد حظره البشر ، وامر به الله . »
ــ « ولكن ، ايتها الام الموقرة ، واذا اقبل شرطي مفوضية الصحة ؟ »
ــ « لقد قاوم القديس بينوا الثـــاني ، في مسألة الدفن ، قسطنطين بوغوناتوس . هل استطيع ان اتكل عليك ؟ »
ــ « سوف امتثل امرك . »
ــ « لقد غدا واضحا انك سوف تغلق النعش . ان الاخوات سوف يحملنه الى الكنيسة . ولسوف تتلــى صلاة الميت . وبعد ذلك يرجعن الــى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي انت ومعك القضيب الحديدي . ان كل شيء سوف يصنع في سرية كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير «الامهات» الاربع المرتلات ، والام «صعود» ، وانت . »
ــ « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »
ــ « انها لن تلتفت . »
ــ « ولكنها سوف تسمع . »
ــ « انها لن تصغي. والى هذا، فأن ما يعرفه الدير لا يعرفه العالم . »
وران الصمتُ لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها : « ســـوف تنزع

جلجلك . لا داعي الى ان تلمح الاخت التي في المركز انك هناك » .
ـ «ايتهاالام الموقرة،سوف احتاج الىمخل طوله ستة اقدام على الاقل.»
ـ « من اين ستأتي به ؟ »
ـ « ان عندي كومة من الحديد العتيقة في مؤخرة الحديقة » .
ـ « قبل منتصف الليل بثلاثة ارباع الساعة . لا تنس . »
ـ « ايتها الام الموقرة ؟ »
ـ « مـــاذا ؟ »
ـ « اذا احتجت الى القيام باي عمل اخر مثل هذا ، في المستقبل، فان اخي قــوي . »
ـ « سوف تقوم بذلك باسرع ما يمكن . »
ـ « انا لا استطيع ان اسرع . انا عاجز. من اجل ذلك طلبت ان يكون لي مساعد . اني اعــرج . »
ـ « العرج ليس جريمة ، انه قد يكون بركة . ويخيــل الي اننا سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير. كن قرب المذبح العالي ، حاملا القضيب الحديدي، في الساعة الحادية عشرة. ان الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتم كل شيء قبل ذلك بربع ساعة او يزيد » .
ـ « سوف اعمل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . »
ـ « بقي شيء أخر . »
ـ « وما هو ايتها الام الموقرة ؟ »
ـ « بقي التابوت الفارغ . »
وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرئيسة .
ـ « ايها الأب فوفان . ما الذي سوف نعمله بالنعش ؟ »
ـ « سوف ندسه في التراب . »
ـ « فــارغـــا ؟ »
وران الصمت كرة اخرى . ثم ان فوشلوفان قال : « ايتها الام الموقرة سوف اسمر النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، ولسوف اغطي النعش بالكفن . »
ـ « اجل ، ولكن حملة النعش سوف يلاحظون من غــير شك ، حــين يضعونه في عربة الموتى،وحين ينزلونه الى القبر، ان ليس في داخله شيء . »
فقال فوشلوفان : « ايتها الأم الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . أن ذلك سيجعله ثقيلا وكأن فيه جثمانا . »
ـ « انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه، وكان حتى تلك اللحظة مضطربا مكفهرا . واومأت اليه ايماءة رئيس يسرح مرؤوسا . فتقدم فوشلوفان نحو الباب . وفيما هو يغادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق: « ايها الاب فوفان ، انا راضية عنك. غدا بعد الدفن، جئني باخيك، وقل له ان يصطحب ابنته. »

٣

ان خطوات الاعـرج اشبه شيء بنظرات الاعور ، لا تنتهي الى غايتها في سرعة. والى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكا . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريبا للعودة الى كوخه في الحديقة. كانت كوزيت يقظى . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . ولحظة دخل فوشلوفان كان جـان فالجان يريهـا سلة البستاني معلقة على الجدار ، ويقول لها : « اصغي الي جيدا ، يجب ان نغادر هذا البيت . ان الرجل الطيب الذي هنا سينقلك على ظهره . ولسوف تنتظرينني في منزل احدى السيدات. اني سأعود واصطحبك. يجب عليك ان تكوني مطيعـة . »

واومأت كوزيت براسها وقد غلبت عليها الكآبة .

وحين فتح فوشلوفان الباب التفت جان فالجان وقال : « خير ؟ »

فقال فوشلوفان: «لقد حصلت على اذن بادخالك، ولكن قبل ان ادخلك يتعين علي ان اخرجك . هنا المشكلة . اما الصغيرة فامرها هين . »

وبعد صمت هتف فوشلوفان: «ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلت ؟ »

فاكتفى جان فالجان بان اجابه ، شأنه من قبل : « مستحيل . »

وغمغم فوشلوفان : « هناك شيء اخر يقض مضجعي . لقد قلت انـي سوف اضع هناك بعض التراب . ولكني اعتقد ان وضع التراب فيه بدلا من الجثة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جثمانا حقا . ان هذا العمل لن ينجح . ان التراب سوف يهتز وعندئذ يشعر الرجال به . وتكتشف الحكومة الامر . »

وحدق جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي . واستأنف فوشلوفان حديثه : « ما السبيل ، بحق الشيطان الى خروجك من هنـا ؟ لان هذا كلـه يجب ان يتم غدا . غدا سوف ادخلك الى هنا . ان الرئيسة تنتظرك . »

ثم اوضح لجان فالجان ان ذلك مكافأة له ، هو فوشلوفان ، على خدمـة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ان يشارك في اعمال الدفن ، وان يدق المسامير في النعوش، وان يساعد حفار القبور في الجبانة . وان الراهبة التي توفيت ذلك الصباح اوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشا ، وان توارى الثرى في الكهيف القائم تحت مذبح الكنيسـة . وان

انظمة الشرطة تحظر ذلك ، وانه هو ، فوشلوفان ، سوف يسمر النعش في القلية ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، وينزل الجثمان الى الكهيف وان الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بان تدخل اخاه الى الدير كبستاني ، وان اخاه كان مسيو مادلين ، وان الرئيسة قالت له انيجيء باخيه صباح غد، بعد ان يتم الدفن الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من الخارج اذا لم يكن مسيو مادلينفي الخارج. وان تلك كانت هيالصعوبة الاولى. وانه كانت ثمة عقبة اخرى هي النعش الفارغ .

فسأله جان فالجان : « وما النعش الفارغ ؟ »

فاجابه فوشلوفان : « نعش الادارة . »

ـ « اي نعش ؟ واية ادارة ؟ »

ـ « حينتموت راهبة، يأتي طبيب البلدية ويقول: لقد ماتت راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ، وبعض الحملة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويقبل حملة النعش لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

ـ « من ؟ شخصا ميتا ؟ ليس عندي اي ميت . »

ـ « لا . »

ـ « ماذا اذن ؟ »

ـ « شخصا حيا . »

ـ « اي شخص حي . »

فقال جان فالجان « انا . »

فوثب فوشلوفانوكأن حقة بارود قد انفجرتتحتكرسيه وصاح:«انت!»

ـ « ولم لا؟ انت تعرف، يا فوشلوفان. انك قلت: ان الام كروسيفكسيون قد ماتت . واني اضفت : والاب مادلين قد دفن . ذلك ما سيكون » .

ـ « آه ، حسن . انت تهزل . انت لا تتحدث جادا » .

ـ « انا جاد الى ابعد الحدود. يجب ان اخرج من هنا . ولقد قلت لك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضا » .

ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ «ستكون السلةمن خشبالصنوبر، وسيكونالغطاءمن قماش اسود».

ـ « قبل كل شيء ، احب ان اصحح الكلام فاقول : من قماش ابيض . ان الراهبات يدفن بالبياض » .

وتابع جان فالجان : «المقصود اناخرج من هنا من غير ان يراني احد .

هذه وسيلة. ولكن، قبل كل شيء، اعلمني. كيف يجري ذلك؟ اين هذا النعش؟»
— « النعش الفارغ ؟ »
— « نعم » .
— « تحت. في ما يدعى حجرة الموتى. انه فوق صفالتين وتحت الكفن» .
— « ما طول النعش ؟ »
— « ستة اقدام » .
— « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »
— « انها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضبة تطل على الحديقة ونوصد من الخارج بمصراع وبابين، احدهما يؤدي الى الدير ، والاخر يؤدي الى الكنيسة » .
— « اية كنيسة ؟ »
— « الكنيسة التي على الشارع. الكنيسة التي يدخل اليها كل انسان ».
— « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »
— « لا ، عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . اما المفتاح المؤدي الى الكنيسة فهو مع البواب » .
— « ومتى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »
— « حين يقبل الحملة لنقل النعش ، ليس غير . وما يكاد النعش يخرج حتى يغلق الباب من جديد » .
— « ومن الذي يدق المسامير في النعش ؟ »
— « انا » .
— « انت وحدك ؟ »
— « ليس ثمة رجل اخر غير طبيب الشرطة يستطيع ان يدخل الى حجرة الموتى بل ان ذلك مكتوب على الجدار نفسه » .
— «هل تستطيع الليلة بعد ان ينام اهل الدير ان تخبئني في تلك الحجرة؟»
— « لا . ولكني استطيع ان اخبئك في حجيرة مظلمة تؤدي الى حجرة الموتى حيث احتفظ بادواتي الخاصة بالدفن. انها حجيرة انا حارسها وحامل مفتاحها » .
— « ومتى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غدا ؟ »
— « حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر . ان الدفن سوف يتم في مقبرة فوجيرار ، قبيل المساء . انها ليست قريبة جدا » .
— « سوف ابقى مختبئا في حجيرة ادواتك طوال الليل وطول النهار . ومسألة الطعام ؟ سوف احس بالجوع » .

ــ « اني سأحمل اليك ما تأكله » .
ــ « في استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي في الساعة الثانية » .
واجفل فوشلوفان واخذ يقضقض عظام اصابعه: «ولكن هذا مستحيل!»
ــ « دع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول مطرقة وتدق بعض المسامير في لوح خشبي » .
ــ « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحل عقدته ؟ »
ــ « سوف اتنفس » .
ــ « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يميتني اختناقا » .
ــ « لا ريب في ان عندك مخرزا . وفي استطاعتك ان تحدث بعض الثقوب، حوالي الفم ، ههنا وههناك » .

وبعد قليل استأنف جان فالجان كلامه : «الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذلك الذي يجري في المقبرة » .

فهتف فوشلوفان : « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني على وجه الضبط. فحفار القبور سكير ، وصديق من اصدقائي . انه الاب ميتيين . ان حفار القبور يضع الموتى في الجدث، وانا اضع حفار القبور في جيبي. سأقول لك ما الذي سوف يحدث . اننا سوف نصل قبل الغسق بقليل قبل ان تغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . ولسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . ولسوف اتبعها ، تلك هي مهمتي . وسيكون في جيبي مطرقة وازميل ، وبعض الكلابات . وتقف عربة الموتى . ويشد الحملة وثاق نعشك بحبل ، وينزلونك الى الحفر . ويتاو الكاهن الصلوات ، ويمضي لسبيله . وابقى وحدي مع الاب ميتيين . انه صديقي ، اقول لك ، ولسوف آخذه الى حانة السفرجلة الطيبة واسقيه الخمر حتى يسكر ، واضعه تحت الطاولة ، وانتزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وارجع بدونه . وعندئذ اخرجك من الحفرة » .
ــ « اتفقنا . كل شيء سوف يجري على ما يرام » .

وفي اليوم التالي، فيما كانت الشمس تجنح للغروب رفع عابرو السبيل المتناثرون في « بولفار دو مين » قبعاتهم لدى مرور عربة موتي عتيقة الزي. وفي عربة الموتى تلك كان نعش مغطى بغطاء ابيض يختال فوقه صليب اسود ضخم.

وكانت تتبع هذه العربة عربة مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلمح فيها كاهنا وغلاما من غلمان الجوقة . وعن يمين عربة الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعوش وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيرار .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربة الموتى شارع مقبرة

فوجيرار . ولم يكن الرجل الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان ... وكان دفن الام كروسيفكسيون في الكهيف الذي تحت المذبحواخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى...كان ذلككله قد تم منغير ما عائق ومن غير ان يمسه الاخفاق .

وعرج فوشلوفان خلف عربة الموتى، في ارتياح عظيم. كانت مؤامرتاه التوامان ، واحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين، قد نجحتا على حد سواء . اما الاشياء التي ما يزال من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر ... وفجاة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى باب المقبرة . وكان من الضروري ان تبرز اجازة الدفن . وتهامسالدفان معبواب المقبرة . وفي اثناء هذه المحادثة اقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى، الى جانب فوشلوفان . كان اشبه بعامل من العمال يرتدي كساء طويلا ذا جيوب واسعة ، ويحمل تحت ذراعه معولا .

ونظر فوشلوفان الى الرجل المجهول وسأله : « من انت ؟ »

فاجاب الرجل : « حفار القبور » .

ـ « انت ! »

ـ « انا » .

ـ « ان حفار القبور هو الاب ميتيين » .

ـ « لقد مات » .

كان فوشلوفان مستعدا لكل شيء ، ما خلا هذا : ان يكونفي استطاعة حفار القبور ان يموت . ومع ذلك، فهذا صحيح.ان حفاري القبور انفسهم يموتون . انهم بالانصباب على حفر القبور للناس يحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يحر فوشلوفان جوابا اول الامر ثم اضاف: «ولكن هذا مستحيل!»

ـ « هذا هو الواقع » .

فكرر في وهن : « ولكن حفار القبور هو الاب ميتيين » .

ـ « بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتيين ، غريبييه . ايها الفلاح ، ان اسمي غريبييه » .

وانفجر فوشلوفان ضاحكا : «آه ! يا لها من احداث مضحكة ، لقد مات الاب ميتيين . الاب ميتيين الصغير قد مات ، ولكن فليحي لونوار الصغير ! اتدري ما هو الاب لونوار الصغير؟ انه كوز الصهباء التيءيباع ثمن الغالون منها بستة سو. واذن فقد مات ميتيين العجوز؟انا محزون عليه. كان فتى طروبا . ولكن انت ايضا ، انت فتى طروب. سوف نمضي ونشرب شيئا من الخمر » .

فاجابه الرجل : « انا لم اشرب الخمر في حياتي قط » .

كانت عربةالموتى قد انطلقت.وكانت تتدحرج على مجاز المقبرة الرئيسي الضيق ... وكان فوشلوفان قد تباطأ ، لقد عرج من القلق اكثر مما عـرج مـن عاهتـه .

ومشى حفار القبور امامه ... وحدق فوشلوفان ، كرة اخرى ، الـى غريبيه غير المنتظر وقال : « هكذا اذن . لقد مات الاب ميتيين » .

فاجاب الرجل : « تمامـا . لقد راجع الاب الرحيم لائحـة سنداتـه المستحقة الاداء.كان الدور دور الاب ميتيين.وهكذا توفي الاب ميتيين » .

واستدارت عربة الموتى حول شجرة سرو ضخمة، ودخلت الجزء المشجر من المقبرة ، وتوارت وسط احد الادغال . وكان ذلك يؤذن بان القبر امسى جد قريب . وخفف فوشلوفان من سرعة خطوه ، ولكنه لم يستطع ان يخفف من سرعة خطو العربة . واقترب من حفار القبور وغمغم : « ان عندهم خمرة ارجانتوي فاخرة جدا » .

فتابع الرجل : «ايها الريفي، انا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور . لقد كان ابي يعدني للحياة الادبية . ولكنه ضارب في البورصة فخسر ، وكان علي ان اتخلى عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك فانا لا ازال كاتبا عموميا » .

فاجاب فوشلوفان : « ولكنك لست حفار القبور اذن ؟ »

ـ « ان احداهما لا تتنافى مع الاخرى ، انا اجمع بين الوظائف » .

ولم يفهم فوشلوفانهذا التعبير الاخير، وقال: «دعنا نذهب ونشرب» .

وهنا لا بد من ملاحظة: ان فوشلوفان برغم قلقه الشديد اقترح معاقرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امرا واحدا : من الذي سيدفع ؟ ذلك انه كان من عادة فوشلوفان ان يقترح ، وكان من عادة الاب ميتيين ان يدفع !

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، الى يمين والىشمال ، والى امام والى وراء . كانت قطرات ضخام من العرق البارد تتحدر من جبينه .

ووقفت عربة الموتى . وترجل غلام الجوقة من العربة وتبعه الكاهن . كانت العربة قد وصلت الى قبر فاغر الفم .

٤

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .

كان جان فالجان قد رتب الاشياء بحيث يستطيع ان يحيا في النعش ويتنفس بعض الشيء.ومن باطن ذلك النعش كان فيميسوره ان يتابع مختلف مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت ... فما ان اتم فوشلوفان تسمير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان ان الحملة قد رفعوه ، وان

العربة قد انشأت بعد ذلك تجري به . ومن خلال ضجة خافتة ادرك انهم يعبرون جسر اوسترليتز ، وعندما وقفت العوبة اول مرة ، علم انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

واحس بأيد تمسك بالنعش ، ثم احس باحتكاك مبحوح فوق الالواح . فاستنتج ان ذلك حبل طوقوا به النعش لكي ينزلوه الى الحفرة ... ثم انه استشعر ضربا من الدوار ... لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدمه قبل مؤخره. واستعاد وعيه حين امسى في وضع افقي. كان قد مس القعر ... واحس بقشعريرة . وارتفع فوقه صوت مثلوج مهيب. وسمع بضع كلمات لاتينية لم يفهمها ، تلفظ ببطء مكنه من ان يلتقطها واحدة اثر اخرى . وقال في ذات نفسه . سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة قصيرة . ان الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود ميتيين الى الحانة ، ثم يرجع فوشلوفان وحيدا . ولسوف اخرج . ان ذلك سيستغرق ساعة او يزيد .

وسمع جان فالجان صدى اشبه بصدى الاقدام المتراجعة . وقال في ذات نفسه : « انهم ينصرفون . لقد امسيت وحدي » .

وفجأة سمع فوق رأسه صوتا بدا له وكأنه قصف الرعد .

كان ملء مسحاة من التراب يسقط على النعش . وسقط ملء مسحاة اخر . وسد احد الثقوب التي كان يتنفس منها. وسقط ملء مسحاة ثالث . ثم ملء مسحاة رابع . ان ثمة اشياء اقوى من اقوى رجل . واغمي على جان فالجان ... ولكن ما الذي حدث فوق النعش الذي ضم جان فالجان بين جنباته ؟

حين مضت عربة الموتى لسبيلها ، وامتطى الكاهن وغلام الجوقة متن العربة وانصرفا ، بصر فوشلوفان بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مغروزة على نحو مستقيم في ركام التراب . وهنا اتخذ فوشلوفان قرارا رفيعا . لقد اقحم نفسه بين الحفرة والحفار ، وقال مصالبا ذراعيه : « سوف ادفع انا ثمنها » .

ــ « ثمن ماذا ؟ »

ــ « خمر الارجانتوي » .

فقال حفار القبور : « اذهب الى الشيطان ! »

وردد النعش صدى غائرا . واستشعر فوشلوفان انه يترنح ، وكاد يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يمتزج به اختناق الحشرجة ، صاح : « تعال ، ايها الرفيق قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها ! »

ورفع حفار القبور ملء مسحاة اخر من التراب . وتـابـع فوشلوفان : « سوف ادفع ! » وامسك بحفـار القبور من ذراعه ، فقال الحفار : « ايهـا الريفي ، اذا لم يكن من ذلك بد فاني اوافق . سوف نشرب . ولكن بعد اتمام العمـل ، لا قبلـه » .

وحرك مسحاته من جديد . وامسك فوشلوفان به ، وقال : « اوه تعال واشرب كأسا ، ما دمت انا الذي سأدفع » .

فقال حفار القبور « بعد ان نضع الطفل في المهد » .

وقذف بملء المسحاة الثالث . ثم غرز المسحاة في التراب . وفي هذه اللحظة ، وفيما كان حفار القبور يثقل مسحاته بالتراب،انحنى انحناء شديدا، ففغر جيب كسائه فاه. واستقرت عين فوشلوفان الذاهلة استقرارا آليا على هذا الجيب ، وظلت مسمرة هناك . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .

ومن غير ان يلمحه حفار القبور دس يده من وراء في ذلك الجيب، واستل منه الشيء الابيض الذي احتواه. وقذف حفار القبور بملء المسحاة الرابع الى اللحد . وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تساءل فوشلوفان وهو ينظر اليه في هدوء عميق : «بالمناسبة، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »

وتوقف حفار القبور : « اية بطاقة ؟ »

– « الشمس على وشك المغيب » .

– « حسن ، ثم ماذا ؟ »

– « هل تحمل بطاقتك ؟ »

فقال حفار القبور : « آه ، بطاقتي ! » .

وبحث في جيبه. حتى اذا لم يجد فيه شيئا ، بحث في جيبه الاخر . ثم انتقل الى جيب صدرته ، فنقب فيه ، ثم جعل داخل جيبه الاخر خارجه. وقال : « لا ! لا ! انا لا احمل بطاقتي . لا شك في اني نسيتها » . فقـال فوشلوفان : « خمسة عشر فرنكا غرامة » .

وغدا لون حفار القبور اخضر . وصاح : « اوه ، اي مجنون انا ! خمسة عشر فرنكا غرامـة ! »

وافلت حفار القبور مسحاته .. وكان دور فوشلوفان قد جاء ، فقال : «تعال ، تعال ، ايها المجند الجديد ، لا داعي لليأس . ليس ثمة ما يحملك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاما للديدان . ان خمسة عشر فرنكا هي خمسة عشر فرنكا ، والى هذا فقد تكون غير قادر على دفعها. لذلك ساقدم اليك نصيحه صديق . ان ثمة شيئا واضحا ليس غير ، هو ان الشمس في سبيلها الى المغيب، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . وخمس دقائق لا تكفيك لطمـر

القبر ، فهو عميق كالشيطان . من اجل ذلك ارى ان تخرج من هنـا قبل ان يغلـق البـاب » .

ـ « انت على صواب » .

ـ « وما تكاد تجتاز الباب حتى تعدو الى البيت ، وتجـيء ببطاقتك ، وترجع الى هنا فيدخلك البواب من جديد . وحين تمسي البطاقة في يدك لا يبقى ثمة داع الى ان تدفع شيئا. وعندئذ تستطيع ان تقوم بعملية الدفن » .

ـ « انا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح » .

فقال فوشلوفان : « اغرب ، اذن ، اسرع » .

وحين توارى حفار القبور وسط الادغال، اصغى فوشلوفان حتى تلاشى وقع قدميه، وعندئذ انحنى فوق القبر، ونادى في صوت مهموس : «ايها الاب مادلين .» فلم يقع على جواب . وارتعد فوشلوفان . وتدحرج نحو القبر ، وطرح نفسه على مقدم النعش ، وصاح : « أأنت هناك ؟ » . . .

ولكن الصمت كان يسود النعش . . . وتناول فوشلوفان ازميله واقتلع اللوح الفوقي . كان في ميسوره ان يرى وجه جان فالجان في الغسق، وكانت عيناه مغمضتين ، ولونه شاحبا . واجفل فوشلوفان . ونهض واقفا . ثـم تمايل موليا ظهره جانب القبر مستعدا لان يسقط فوق النعش . ونظر الـى جان فالجان . . . كان جان فالجان يرقد هناك شديد الشحوب، عديم الحركة. وتمتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه الهمس : « لقد مات ! »

ثم ان العجوز المسكين شرع ينتحب، موجها الكلام الى نفسه في صوت مرتفع : « انها غلطة الاب ميتيين . لماذا مات ، المجنون !؟ اي فائدة له في ان يموت في هـذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقع ذلك ؟ انه هـو الذي قتل مسيو مادلين . انه في النعش. لقد استقر ههنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهذا كله ؟ آه يا الهي ! لقد مات ! اممكن هذا ؟ حين افكر انه اقحم نفسه تحت عربتي !.. ايها الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اختنق ! لقد قلت له ذلك ولكنه لم يحب ان يصدقني. ولكن قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدير ؟ من هنا بدات المتاعب . مثل هذه الامور يجـب ان لا تعمل . ايهـا الاب مادلين ! ايهـا الاب مادلين ! انـه لا يسمعني . اخـرج نفسك من هنا ، الان اذا شئت . »

وانشأ يقطع شعره . وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سمع صرير حاد . كان باب المقبرة يوصد . . . وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه ارتد فجأة الى الوراء . كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدق اليـه .

وقال جان فالجان : « كنت نائما . » وجلس متخذا وضعا قاعدا .

وركع فوشلوفان على ركبتيه : « اوه ، ايتها العذراء الطيبة ! كم قد روعتني ! » كان قد اغمي على جان فالجان ، ليس غير . حتى اذا استنشق الهواء الطلق ثاب الى رشده .

وقال فوشلوفان : « فلنخرج من هنا في الحال . »

وخرج جان فالجان من النعش ، وساعد فوشلوفان على اعادة تسمير اللوح العلوي . وما انقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . واخذ باسباب التمهل . كانت المقبرة موصدة . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبييه حفار القبور . كان «المجند الجديد » في منزله منهمكا في البحث عن بطاقته ، وما كان محتملا أن يعثر عليها ، لانها كانت في جيب فوشلوفان .

وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان المعول ودفنا النعش الفارغ معا . وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان: «تعال فلنذهب . سوف احتفظ انا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالمعول . »

وهبط الليل . ووجد جان فالجان بعض العسر في الحركة والمشي . كان التصلب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد ما ، جثة هامدة . وقال فوشلوفان : « انت حذر . ومن اسف اني معوج الساقين ، والا لكان في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . »

وارتدا سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتهيا الى الباب الموصد والى مقر البواب القى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان : « ما احسن ما يسير كل شيء ! اية فكرة بارعة هذه التي طلعت بها ، ايها الاب مادلين ! »

واجتازا حاجز فوجيرار على ايسر نحو في العالم . ففي ضواحي مقبرة من المقابر يقوم المعول والمسحاة مقام جواز السفر .

٥

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة تجاه رقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سنا قارعة الباب وخفقه . وكانوا فوشلوفان وجان فالجان ، وكوزيت .

وكان الرجلان قد انطلقا التماسا لكوزيت في دكان بائعة الفاكهة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين متسائلة عن معنى ذلك ،

ومرتعدة في صمت. انها لم تذق طعاما البتة. وكانت بائعة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تفوز من الجواب باكثر من نظرة كئيبة.

بيد انها ما ان وقع بصرها على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرح .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السر . كانت الابواب كلها تفتح في وجهه .. وهكذا حلت تلك المشكلة المزدوجة والمروعة : مشكلة الخروج ثم الدخول من جديد ... وفتح البواب ــ وكان قد تلقى الاوامر ــ البويب الجانبي الذي يصل الفناء بالحديقة ، واجاز للثلاثة جميعا ان يدخلوا منه ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، اوامر رئيسة الدير .

كانت الرئيسة تنتظرهم والسبحة في يدها . وكانت احدى الامهات الصوتيات واقفة قربها مسدلة الحجاب . وقد اضاءت شمعة الغرفة .

وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس من عين مغضوضة .

ثم تقدمت الى سؤاله : « انت اخوه ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « نعم ، ايتها الام الموقرة » .

ــ « ما اسمك ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « اولتيم فوشلوفان ».

لقد كان له اخ متوفي يدعى اولتيم .

ــ « ما عمرك ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « خمسون سنة » .

ــ « وما صنعتك ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « بستاني » .

ــ « هل انت مسيحي صالح ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « كل افراد اسرتنا هم كذلك » .

ــ « اهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »

فاجاب فوشلوفان : « نعم ايتها الام الموقرة » .

وقالت الام للرئيسة في صوت كالهمس : « انه يجيب اجابة حسنة » .

ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما ... وانعمت الرئيسة النظر الى كوزيت ، ثم اسرت في اذن الام الصوتية : « سوف تغدو بشعة » .

وفي صوت خفيض جدا تحدثت الامان ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الام الرئيسة وقالت : « ايها الاب فوفان ، سوف تعطى واقية ركب اخرى ذات جلجل . نحن نحتاج الان الى اثنتين » .

وهكذا سمع ، في الصباح التالي ، جاجلان يرنان في الجنينة . ولم تتمالك الراهبات ان يرفعن احدى زوايا حجبهن . لقد رأين رجلين يحفران جنبا الى جنب في اقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوفان وشخصا آخر .

* * *

وفي الدير ، واصلت كوزيت صمتها . لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جدا ، انها بنت جان فالجان ، والى هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان تبوح بشيء . وعلى اية حال ، فقد كان خليقا بها ، حتى لو عرفت ، ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعود الاطفال الصمت ، كما سبق ان قلنا ، مثل الشقاء .

وكان على كوزيت ، وقد اصبحت طالبة داخلية في الدير ، ان ترتدي ملابس الطالبات . ووفق جان فالجان الى اقناع جماعة الدير بان يعطوه الثياب التي اطرحتها . كانت هي الثياب الحدادية نفسها التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البلى قد اصابها . ولف جان فالجان هذه الثياب ، واضاف اليها الجورب الصوفي والحذاء ، ومقدارا وافرا من الكافور وغيره من ضروب الطيب التي تكثر في الاديرة ، ثم وضعها في حقيبة وفق الى الحصول عليها ، ووضع هذه الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بمفتاحها في جيبه .

ولم تتبن الراهبات اسم اولتيم . لقد دعون جان فالجان فوفان الاخر . . وأيا ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالهدوء والسكينة . وراقب جافير الحي شهرا أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان اشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين امست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمنها كان في ميسوره ان يرى السماء الى حد يوقع الطمأنينة في نفسه ، وكوزيت الى حد يثلج فؤاده .

لقد استهل ، من جديد ، حياة سعيدة جدا . . . وعاش مع فوشلوفان العجوز في الكوخ الذي في اقصى الجنينة . وكان هذا المأوى الحقير ، المبني من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائما عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسيو مادلين حتى اقنعه ، بالنزول في الغرفة الرئيسية منها .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الفائدة هناك . كان من قبل مشذب اغصان ، فانقلب الى بستاني عن رضا وطيب خاطر . واذ كان يعرف جميع ضروب الوصفات والاسرار الخاصة بالزراعة فقد افاد من ذلك في

عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريبا ، شجرات برية . فلقحها وجعلها تعطي ثمرا ممتازا .

واجيز لكوزيت ان تفد عليه كل يوم، وتقضي ساعة معه . واذ كانت الراهبات مكتئبات ، واذ كان هو لطيفا ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن، وهامت به هياما شديدا . ففي الساعة المعينة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجنة. لقد تهلل جان فالجان، واحس بسعادته تتعاظم بسبب من السعادة التي اضفاها على كوزيت. وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها ـ من بعيد ـ تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعا .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقته كوزيت ، كان من داب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفها . اما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المهجع الذي كانت تنام فيه .

وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت !

القسم الثالث

ماريوس

باريس مدروسة
من خلال ذرّيتها

١

لباريس طفل ، وللغابة طائر . اما الطائر فيدعى الدوري ، واما الطفل فيدعى المتشرد .

هذا الكائن الصغير مفعم بالبهجة . انه لا يأكل الطعام كل يوم، ومعذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسبا . انهمخلوقلا قميص على ظهره ، ولا حذاء في رجله،ولا سقف فوق راسه.انه مثلذباب السماء الذي لا يملك شيئا من هذه جميعا.اما سنه فتتراوح ما بينالسابعةوالثالثة عشرة ، وهو يحيا مع العصابة التي ينتميإليها ، ويضرب فيالشوارع، وينام فيالهواء الطلق ، ويرتدي سروالا عتيقا من سراويل أبيه ينتهي الى عقبيه، وقبعة عتيقة من قبعات اب اخر تهبط الى ابعد من اذنيه. انه يعدو،ويتتبع الاثر ، ويقتل الوقت ، ويقسم مثل رجل من اهل الجحيم ، ويختلف الى الحانات، ويعرف اللصوص ، ويهذر بلغة السوقة،ويغني اغانيداعرة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الاطلاق . ذلك ان فينفسه جوهرة، هي البراءة. والجواهر لا تنحل في الوحل .

ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : من ذلك المخلوق ؟ أذن لاجابت: انه ولدي الصغير .

تبدأ باريس بالمتبطل المضيع وقته في التحديق الى كل شيء والاصغاء لكل شيء وتنتهي بالمتشرد — كأنثان ليس ثمة مدينة اخرى جديرة بهما . ان طفل الضواحي الباريسية الشاحب هذا ليعيش ، وينمو ، ويقتحم

المآزق ويخرج منها ، في غمرة الآلام ، شاهداً مرويا على واقعنا الاجتماعي ومشكلاتنا الانسانية . الا فليسمع التحامل ، والجور، والاستبداد، والبغي، والتعصب والطغيان . ان هذا الصبي سوف يكبر .

وفي الفترة التي جرت فيها احداث هذه القصة ، لم يكن ثمة،كما هي الحال اليوم ، ضابط بوليس عند كل زاوية من زوايا الشوارع. كانت باريس تغص بالاطفال المتسكعين . وتشير الاحصاءات الى ان نحوا من مئتين وستين طفلا لا مأوى لهم يقبض عليهم البوليس سنويا ، في الاراضي غير المسيجة، وفي البيوت التي لما يتم تشييدها ، وتحت قناطر الجسور . ان جميع جرائم الانسان لتبدأ بتشرد الاطفال .

ومع ذلك فيتعين علينا ان نرتضي باريس . وهذا الارتضاء حق، الى درجة نسبية ، وبرغم الذكرى التي استرجعناها منذ لحظة . فبينا نجد في كل مدينة كبيرة اخرى ان الطفل المتسكع هو الرجل الهالك ، وبينا نجد في جميع المواطن تقريبا ان الطفل المستغرق في بطالته قد نذر نفسه واستسلم لضرب من الانغماس المشؤوم في الرذائل العمومية، نرى ان متشرد باريس برغم خشونته البالغة ، وانثلام شرفه في الظاهر — يكاد يكون سليماً لم يمس، باطنيا.

والواقع ان المتشرد نعمة من نعم الله على الامه ، وهو في الوقت نفسه مرض من امراضها . مرض ينبغي ان يعالج . كيف ؟ بالضياء .

الضيـــاء يشفي .

الضيـــاء ينـور .

ان جميع الاشعاعات الاجتماعية السخية لتنبثق عن العلم ، عن الادب، عن الفنون ، عن التعليم . اصنعوا رجالا ، اصنعوا رجالا . امنحوهم الضياء لكي يعطوكم الدفء .

المتشرد لسان حال باريس ، وباريس لسان حال العالم .

ذلك بان باريس حاصل جمع . ان هذه المدينة العجيبة كلها هي مجمل الاخلاق والعادات الميتة والاخلاق والعادات الحية . ومن يرى باريس يخيل اليه انه يرى التاريخ كله ويرى السماء وابراجها في اثناء ذلك .

وباريس تبدي نواجذها دائما . فهي اما مزمجرة او ضاحكة .

تلك هي باريس . ان ادخنة سطوحها هي افكار الكون . ركام من الوحل والحجارة ، اذا شئت ، ولكنها فوق ذلك كائن اخلاقي . انها اكثر من عظيمة ، انها غير متناهية . لماذا ؟ لانها تتجرأ .

الجراة . هذا هو ثمن التقدم .

ان جميع الفتوح الجليلة هي ، كثيرا او قليلا ، ثواب الجراة . فلم يكن

كافيا ـ لكي تندلع الثورة ـ ان يتنبأ بها مونتيسكيو ، ويبشر بها ديـدرو ، ويعلنها بومارشيه ، ويدبرها كوندورسيه ويمهد لها فولتير ، ويتعمدهـا روسو . كان من الضروري ان يجرؤ عليها دانتون .

اما الشعب الباريسي ، حتى حين يبلغ مبلغ الرجال ، فهو «متشرد» من المتشردين دائما . انك اذ تصور الطفل تصور المدينة . ومن اجل ذلك درسنا هذا النسر من خلال ذلك الدوري الصريح .

٢

بعد حوالي ثماني سنوات انقضت على الاحداث التي رويناها في القسم الثاني من هذه القصة شوهد ، على «جادة التامبل» وعلى مقربة من «شاتو ذو» فتى صغير في الحادية عشرة او الثانية عشرة من العمر كان خليقا به ان يحقق في دقة كبيرة المثل الاعلى للمتشرد ، الذي وصفناه آنفا ، لو لم يكن ذا فؤاد مظلم فارغ بالكلية. كان هذا الطفل يرتدي على نحو غريب بنطلون رجل، ولكنه ليس بنطلونا اخذه من ابيه، وصدرة نسائية ذات ردنين ، ولكنها لم تكن صدرة ورثها عن امه. لقد كساه نفر من الغرباء، بهذه الاسمال صدقة واحسانا. ومع ذلك، فقد كان له اب، وكانت له ام. ولكن اباه لم يفكر به قط، وامه لم تحبه قط.

ولم يكن هذا الطفل ليستشعر فيضا من السعادة الا في الشارع. ان حصباء الطريق كانت عنده اقل قسوة من قلب امه .

كان ابواه قد القياه في خضم الحياة برفسة .

وكان قد نشر جناحيه في كثير من البساطة ، وطار .

كان صبيا صاخبا ، شديد الشحوب، رشيقا ، نبيها، ساخرا تبدو عليه سيما من الحيوية والمرض في وقت واحد . كان يروح ويجيء ويغني، ويلعب لعبة « النقش والطغراء » ، ويكشط السواقي ، ويسرق قليلا . لم يكن عنده لا مأوى ولا طعام ، ولا نار ، ولا حب ، ولكنه كان مبتهجا لانه كان حرا .

بيد انه كان يتفق لهذا الولد في بعض الاحيان ، ان يقول لنفسه كل شهرين او ثلاثة اشهر ، برغم الاهمال الذي يحيا في غمرته : اسمع، سوف اذهب وارى امي! ثم يغادر الجادة و «السيرك» و «باب سان مارتان» ويهبط ارصفة النهر ، ويعبر الجسور ، وينتهي الى الضواحي ويمشي حتى الـ « سالبترير » ويصل ـ الى اين ؟ بالضبط الى ذلك الرقم المزدوج ، ٥٠ـ٥٢ ، الذي يعرفه القارىء ، الى بيت غوربو العتيق .

في تلك الحقبة ، كان البيت ذو الرقم ٥٠ـ٥٢، الخالي في العادة، المزدان على نحو سرمدي باللوحة القائلة «غرف للتأجير» ـ نقول كان ذلك البيت، وهو

وضع نادر ، آهلا بعدد من الاشخاص الذين لم تكن لاحد منهم صلة او علاقة بالاخر . كانوا كلهم ينتسبون الى تلكالطبقة البلدية التي تبدأ بالبورجوازي الصغير المعسر ، وتهبط درجات البؤس فيطبقات المجتمع الدنيا،درجةدرجة حتى تصل الى هذين المخلوقين اللذين تنتهي بهما اشياء التمدن المادية كلها: البلاليعي الذي يكنس الوحل ، والخرقي الذي يلتقط المزق البالية .

وكان اشد سكان البيت العتيق بؤسا اسرة مؤلفة من اربعة اشخاص ـ الاب والام وفتاتين في ميعة الصبا ـ يقطنون كلهم في علية واحدة من تلك العلالي التي تحدثنا عنها من قبل .

ولم تكن تلك الاسرة لتبده المرء ، للوهلة الاولى،بشيء فريد غير عوزها المتطرف . وكان الاب قد اتخذ ، يوم استأجر الغرفة،اسمجوندريت.وكانت هذه الاسرة هي اسرة ذلك الصبي المرح الحافي القدمين ، وكان اذا ما وصل الى هناك وجد الفقر ، والبؤس ، ووجد عبوسا موصولا . كان يجد موقـدا باردا ، وقلوبا باردة . فاذا ما دخل سألوه : من اين اقبلت؟ فيجيب : مـن الشارع. حتىاذا فارقهم سألوه: الى اين انت ذاهب؟ فيجيب : الى الشارع.

ومع ذلك فقد احب امه واختيه .

ولقد نسينا ان نقول ان القوم كانوا ، في جادة التامبل ، يدعون هـذا الغلام غافروش الصغير . لماذا سمي غافروش ؟ لعل مرد ذلك الى ان ابـاه كـان يدعى جوندريت .

انقطع الخيوط جميعا هو،فيما يبدو ، غريزة عندبعض الاسرالبائسة.

لقد كانت الغرفة التي احتلتها اسرة جوندريت في بيت غوربو العتيق هي اخر غرفة في اقصى الرواق ، وكان يحتل الغرفة المحاذية شاب فقـير جدا يدعى مسيو ماريوس . فلنر من كان ماريوس هذا .

البورجوازيّ الكبير

١

كان مسيو جيلنورمان واحدا من اولئك الرجال الذين امسوا موضوع فضول لمجرد انهم عمروا دهرا طويلا ، والذين تكتنفهم الغرابة لانهم كانوا من قبل مثل اي انسان اخر ، ثم غدوا الان لا يشبهون احدا البتة. كان شيخا غريبا. وكان في الواقع من اهل جيل اخر، فهو يمثل بورجوازي القرن الثامن عشر الحقيقي المتعجرف بعض الشيء . كان قد تجاوز التسعين. وكان يمشي منتصب القامة ، ويتحدث بصوت مرتفع ، ويرى في وضوح، ويشرب الخمر صرفا ، ويأكل، وينام ويغط في النوم. وكان يحتفظ بأسنانه الاثنتين والثلاثين جميعا. وكان لا يصطنع نظارتيه الا عند القراءة . كان ذا مزاج غرامي، ولكنه قال انه هجر النساء منذ عشر سنوات هجرا كاملا لا تردد فيه. كان دائما في صحة جيدة. كان سطحيا، طياشا ، سريع الغضب. وكان الحنق يستبد به في كلّ مناسبة، واكثر ما يكون ذلك حيث لا يقتضي الموقف حنقا البتة. وكانت له ابنة غير متزوجة تبلغ من العمر الخمسين ، وكان يضربها ــ حين يستبد به الغضب ــ ضربا مبرحا . لقد كانت تبدو في عينيه وكأنها في الثامنة من العمر .

كان يقطن في ماريه، شارع «فتيات كالفير» رقم ٦ . وكان البيت ملكه. ولقد احتل شقة عتيقة واسعة في الدور الاول، بين الشارع والحدائق. وكانت الحديقة، الواقعة تحت نوافذه مباشرة، متصلة بالزاوية التي بينهما بسلم ذات اثنتي عشرة درجة ، كان الرجل العجوز يرتقيها ويهبطها في نشاط وجذل . وكانت له زوجتان اثنتان، وكان يضع يديه، دائما ، في بعض جيوبه. ويقول في نبرة ذي السلطان « الثورة الفرنسية كومة من اللصوص المسلحين » .

وكان مسيو جيلنورمان يقدس آل بوربون ، ويرتعد مشمئزا من ذكرى عام ۱۷۸۹ . كان لا يفتأ يروي كيف نجا بنفسه أثناء عهد الارهاب ، واي مبلغ من المرح والذكاء كان ينبغي ان يتكشف عنه لكي ينقذ راسه من المقصلة . واذا ما خطر لاي شاب ان يطري الثورة في حضرته اسود وجهه واستبد به الغضب حتى الاغماء .

كان عنده خادمان ذكر وانثى . وكان مسيو جيلنورمان يعيد تعميد الخادم حين يدخل بيته وكان يخلع على الرجال اسماء مقاطعاتهم . وكان خادمه الاخير رجلا ضخم الجثة مبهورا ضيق النفس، في الخامسة والخمسين من العمر غير قادر على ان يركض عشرين خطوة ، ولكن لما كان قد ولد في بايون فقد خلع عليه مسيو جيلنورمان أسم « باسك » اما الخادمات فكن كلهن يسمين في بيته نيقوليت .

٢

كان الاسى يترجم، في منزل مسيو جيلنورمان ، الى غضب . وكان الغيظ يعصف به حين يستشعر اليأس . كانت له اهواؤه المختلفة ، وكان يبيح لنفسه كل شذوذ . وكان بين الاشياء التي قام على اساسها رونقه الخارجي وارتياحه الباطني انه لا يزال غزلا ناضر العود، وان الناس يعتبرونه كذلك . وكان يدعو ذلك «تمتع المرء بشهرة ملكية» . ولكن الشهرة الملكية عادت عليه في بعض الاحيان بهدايا فريدة . فقد حمل اليه ذات يوم في سلة من السلال صبي بدين ابصر النور منذ قريب . وكان هذا الصبي يصرخ مثل الشيطان ، وقد لف بالاقمطة على احسن وجه . وكانت خادمة طردت قبل ستة اشهر تقول انه ولده . وكان مسيو جيلنورمان قد اتم انذاك عامه الرابع والثمانين . واستبد السخط بالحاشية واطلقت صيحات الاحتجاج . اما مسيو جيلنورمان فلم يظهر شيئا من الغضب . لقد نظر الى الاقمطة في ابتسامة محببة كابتسامة رجل وجد في الفرية اطراء له . وقال وكأنما يخاطب شخصا وهميا : «حسنا ماذا؟ ما المسألة ؟ ما هذه الضجة كلها ، ان هذا السيد الصغير ليس مني . ولكن احيطوه بعنايتكم . انها ليست غلطته » . وكانت العملية سهلة جدا . فقدمت اليه تلك الخادمة، وكانت تدعى مانيون، هدية ثانية في السنة التالية . وكان المولود ذكرا ايضا . وهذه المرة استسلم مسيو جيلنورمان . لقد رد الطفلين الى الام، واخذ على نفسه ان يدفع ثمانين فرنكا كل شهر لاعالتهما ، شريطة ان لا تعود تلك الام الى مثلها مرة ثانية واضاف : « اريد ان تحسن الام معاملتهما . سوف اذهب لاراهما بين الفينة والفينة » . وقد قام بذلك فعلا .

وكانت له في وقتما ، كما ذكرنا، زوجتان. وقد رزق من الاولى فتـاة ظلت غير متزوجة، ورزق من الثانية فتاة اخرى توفيت في الثلاثين من عمرها وكانت قد تزوجت جنديا مثرياكان قد خدم في جيوش الجمهورية والامبراطورية وفاز بوسام لحسن بلائه في اوسترليتز ، ورقي الى رتبة كولونيل في واترلو. وكان البورجوازي العجوز يقول : « هذا هو عار اسرتنا » .

واذ اعتزل المجتمع فقـد احاط نفسه بسور من عاداته . وكانت عادته الرئيسية التي لم يشذ عنها قط هي ابقاء باب داره موصدا طوال النهار وعدم استقبال احد كائنا من كان ولايما مسألة من المسائل الا في المساء .

اما ابنتا مسيو جيلنورمان فقد ولدت احداهما بعد ولادة الاخرى بعشر سنوات. وفي صباهما، كان الشبه بينهما ضئيلا جدا ، وكانتا لا توحيان سواء من حيث الشخصية او من حيث المحيا ، انهما شقيقتان. فاما الصغرى فكانت مرحة الروح يجذبها كل ما هو مشرق، منهمكة بالازهار والاشعار والموسيقى ، شديدة الحماسة ، لطيفـة ، مخطوبة منذ الطفولة ، في الخيال ، لشخصية بطولية غامضة ، واما الكبرى فكانت لها هي الاخرى اوهامها . . .

ولكن ايا من الامال لا يتحقق تحققا كاملا، هنا في هذه الدنيا على الاقل. لقد تزوجت الصغرى فتى احلامها ، ولكنها ماتت. اما الكبرى فلم تتزوج .

وكانت هذه ، عند دخولها القصة التي نرويها ، فضيلة عجوزا ، مخدرة غير قابلة للاحتراق . وكانت تدعى الانسة جيلنورمان الكبرى .

وكان المنزل يضم بالاضافة الى هذه العانس وهذا الشيخ طفلا ، صبيا صغيرا يرتجف دائما وينعقد لسانه امام مسيو جيلنورمان . ولم يكن مسيو جيلنورمان ليكلم هذا الطفل ابدا في صوت فظ، وبمساعدة عصا مرفوعة في بعض الاحيان « هاي ! مسيو ! ـــ ايها الوغد ، ايها الفاجر ، تعال الى هنـا ! اجبني ايهـا الحقير ، دعني اراك ، يا من لا يصلح لشيء » . الخ . الخ . كان يحبـه حبـا جمـا .

كان حفيده . وكان من عادته ان يصطحبه الى صالون مدام دوت . . .

الجدّ والحفيد

١

ان كل من قدر له ان يمر ، في تلك الحقبة ، بمدينة فيرنون الصغيرة وان يسير على جسرها الجميل الفخم قد لاحظ من غير ريب، عندما خفض بصره من اعلى سور الجسر ، رجلا في نحو الخمسين من العمر يعتمر بقبعة جلدية ذات حافة ناتئة ، ويرتدي بنطلونا وصدرة من جوخ رمادي غليظ ، وينتعل حذاء خشبيا ، رجلا ذا وجه يكاد يكون اسود وشعر يكاد يكون ابيض، على جبينه ندبة عريضة تمتد فتشمل جزءا من خده ، رجلا محدودب الظهر المت به الشيخوخة قبل الاوان يتمشى كل يوم تقريبا ، وفي يده اما مسحاة واما مدية لتشذيب الاغصان في احد تلك البيوت المسورة المجاورة للجسر ، حيث كان ذلك الرجل يحيا متوحدا منعزلا، يكتنفه الصمت والفقر، مع امراة ليست بالشابة وليست بالعجوز ، ليست بالجميلة وليست بالقبيحة، كانت تقوم على خدمته. وكان ذلك المربع من الارض الذي يدعوه حديقته شهيرا في المدينة بجمال ازهاره التي كان يتعهدها بعنايته . لقد كانت الازهار موضوع اهتمامه .

وبالاكثار من العمل، والمواظبة ، والانتباه، ودلاء الماء ، وفق الى ان يخلق بعد الخالق، وكان قد اخترع بعض الزنابق والزهرات التي بدت وكأن الطبيعة قد نسيتها. كان حاذقا نشيطا. فما ان يرتفع الضحى ، من كل يوم ، في فصل الصيف ، حتى يكون في ممرات حديقته يحفر ، ويشذب الاغصان ، ويقتلع الاعشاب الطفيلية ، راويا النباتات ، ماشيا وسط ازهاره مستسلما الى الاحلام في بعض الاحيان، واقفاً لا يتحرك ساعات بكاملها، مصغيا الى انشودة طائر على شجرة او زقزقة طفل في بيت. وكان يشرب اللبن اكثر مما يشرب الخمر . كان خجولا الى حد جعله يبدو نفورا. وكان نادرا ما يغادر بيته، وما كان ليرى

احدا غير الفقراء الذين يخفقون زجاج نافذته باصابعهم ، وغير كاهنه ، الاب مابوف ، وكان هذا وجلا عجوزا طيبا . ذلك كان صهر مسيو جيلنورمان الذي كان هذا الاخير يدعوه « قاطع طريق اللوار » و « عار اسرتنا » .

وكل من قرأ ، في الوقت نفسه، المذكرات العسكرية ، وسير الرجال ، وجريدة «المونيتور» الرسمية وبلاغات الجيش العظيم خليق بأن يبدهه اسم كثيرا ما يتردد فيها ، هو اسم جورج بونميرسي . ففي صدر الشباب ، كان جورج بونميرسي هذا جنديا في كتيبة سينتونج. وانفجرت الثورة . وكانت كتيبة سينتونج تؤلف جزءا من جيش الرين . وقاتل بونميرسي في «سبير» و «وورمز» و « نويشتات » و « توركهايم » وغيرها . ولقد ابلى بلاء حسنا في استرليتز ، اثناء ذلك الزحف الرائع الذي انتشر فيه الجنود انتشارا عميقا، تحت نيران العدو . وحين سحقت خيالة الحرس الامبراطوري الروسي فوجا من كتيبة المشاة الرابعة كان بونميرسي بين اولئك الذين ثأروا لهذا الفوج والذين هزموا ذلك الحرس . ومنحه الامبراطور صليب الحرب . ولقد شهد معركة فريدلند ، ثم رأى موسكو، ثم لوتزين، وليبزغ وضفاف المارن، وضفاف الاين، والوضع الرهيب في لاون. وفي ارني لو دوك، وكان برتبة رئيس، طعن عشرة من الجنود القوزاق بسيفه . ولقد استخرجت سبع وعشرون شظية من ذراعه اليسرى وحدها. لقد رافق نابليون الى جزيرة البا. وفي واترلو، قاد كوكبة فرسان دارعين في لواء دوبوا . وكان هو الذي انتزع الراية من فوج لونبورغ . لقد طرح الراية على قدمي الامبراطور ، وكان مضرجا بالدم ، فقد اصيب وهو ينتزع الراية بضربة سيف عبر وجهه. وصاح الامبراطور يخاطبه، وقد غلبه السرور «انت كولونيل ، انت بارون، انت ضابط في جوقة الشرف!» واجاب بونميرسي : «مولاي ، اني اشكرك بالنيابة عن ارملتي» . وبعد ساعة سقط في وادي اوهين ، فمن كان جورج بونميرسي هذا ؟ لقد كان قاطع طريق اللوار ذاك نفسه .

لقد روينا من قبل، شيئا من قصته. فبعد واترلو اخرج بونميرسي من طريق اوهين الغائرة ، ووفق الى اللحاق بالجيش ، فنقل من عربة اسعاف الى عربة اسعاف حتى بلغ معسكر الجند الموقت في اللوار .

وخفضت حكومة آل بوربون تعويضاته ثم ارسلته الى فيرنون ليقيم فيها اقامة جبرية ، تحت الحراسة . واذ انكر لويس الثامن عشر كل ما تم خلال «الايام المئة» فانه لم يعترف لا برتبته ككولونيل ، ولا بلقبه كـ « بارون » . اما هو فلم يغادر فرصة الا وقع فيها اسمه هكذا : « الكولونيل البارون بونميرسي». ولم يكن عنده غير سترة زرقاء عتيقة، وما كان ليخرج من بيته

البتة من غير ان يعلق عليها العقدة الورديــة الشكل المؤذنة بأن حاملها ضابط فــي جوقــة الشرف .

ولم يكن لديه غير نصف راتبه الهزيل جدا والذي كان يقدم اليه بوصفه قائد كوكبة فرسان، ولقد استأجر اصفر بيت استطاع ان يجده في ڤيرنون. وهناك هاش وحده على النحو الذي وصفناه منذ لحظة. ففي عهد الامبراطورية بين حربين اثنتين، وجد متسعا من الوقت لان يتــزوج الانسة جيلنورمان . ولقد اقر البورجوازي العجوز، الذي استبد به السخط ، ذلك الزواج ، وقال وهو يطلق زفرة : «ان اعظم العائلات تكره على ذلك» . وفي عام ١٨١٥ توفيت مدام بونميرسي مخلفة وراءها طفلا ، وكان هذا الطفل خليقا بان يكون بهجة الكولونيل في عزلته، ولكن الجد طالب بحفيده في صلف، معلنا انه اذا لم يفز به فسوف يحرمه الميراث . واذعن الاب حرصا منه على مصلحة الفتى . حتى اذا حرم ابنه اخذ يحب الرياحين .

ولم يكن لمسيو جيلنورمان ايما اتصال بصهره. كان الكولونيل، في نظره، قاطع طريق، وكان هو في نظر الكولونيل، «رجلا متبلد الذهن» . وكان مفهوما على نحو واضح جدا ان بونميرسي يجب ان لا يحــاول رؤيــة ابنه او التحدث اليه البتة ، والا طرد الفتى وحرم الميراث .

وعرف الطفل ، الذي يدعى ماريوس ، ان له ابا ولكنه لم يعرف شيئا اكثر من ذلك . ان احدا لم يقل له كلمة عنه. ومع ذلك ففي المجتمع الذي كان جده يصطحبه اليه ، وفقت الهمسات ، والتلميحات ، والغمزات الى ان تنور الفتى الصغير ، آخر الامر . لقد انتهى الى ان يدرك شيئا . ومع الايام اصبح لا يفكر بابيه الا في خجل وفي انقباض صدر .

وفيما كان الفتى يشب على هذا النحو، كان الكولونيل يفر ــ كل شهرين او ثلاثة اشهر ــ ويفد خلسة على باريس، وكأنه مجرم قديم يغادر مكان اقامته الاجبارية، ليمضي الى سان سولبيس، ساعة كانت الخالة جيلنورمان تصطحب ماريوس الى القداس . هناك كان يرى طفله ، وهو يرتجف خشية ان تلتفت الخالة الى الوراء ، ويختفي خلف احد الاعمدة غير واجد في نفسه الجراة على ان يتنفس . كان المحارب القديم ذو الندبة يخاف هذه العانس العجوز .

ومن هنا في الواقع ، نشأت صلته بكاهن فيرنون ، الاب مابوف .

وكان هذا الكاهن الفاضل اخا لوكيل كنيسة سان سولبيس، الذي لاحظ ذلك الرجل عدة مرات، يحدق الى هذا الغلام كما لاحظ الندبة التي على خده ، والعبرات الكبار في عينيه . وكان هذا الرجل قد لفت انتباه وكيل الكنيسة . ولم يبرح ذلك الوجه ذاكرته. وذات يوم، وكان قد شخص الى فيرنون ليرى

اخاه التقى بالكولونيل بونميرسي على الجسر فعرف فيه رجل سان سولبيس. وحدث وكيل الكنيسة اخاه في ذلك، فقام كلاهما بزيارة للكولونيل . وادت هذه الزيارة الى زيارات اخرى. وما لبث الكولونيل، الذي اعتصم بادىء الامر بتحفظ شديد، ان باح بمكنون صدره ، فعرف الكاهن ووكيل الكنيسة القصة كلها ، وكيف ضحى بونميرسي بسعادته من اجل مستقبل ولده . وكان من نتيجة ذلك ان استشعر الكاهن اجلالا له وحنـــوا عليه ، وان استشعر الكولونيل بدوره مودة للكاهن .

٢

كان صالون مدام دو تـ ... كل ما عرفه ماريوس من العالم . كان الكوة الوحيدة التي استطاع ان يطل منها على الحياة. وكانت هذه الكوة قاتمة، وكان يخترقها البرد اكثر مما يخترقها الدفء، وينفذ منها الظلام اكثر مما ينفذ النور. وما لبث الطفل ــ الذي كان عند دخوله هذا العالم الغريب مجرد بهجة وضياء ــ ان امسى محزونا ، وان امسى وقورا رصينا. لقد وجد نفسه محوطا بمجموعة من الاشخاص المهيبين الغريبين ، فراح ينظر في ما حوله بدهش جدي .

اي شيء كانوا يفعلون في صالون مدام دو تـ ... ؟ كانوا متطرفــين مغالــين في التطرف ...

والواقع ان كون المرء مغاليا في التطرف فقد اليوم معناه. فلنوضح ذلك . ان المغالاة في التطرف هي ان تجاوز المطلوب ، انها ان تهاجم الصولجان باسم العرش ، وتاج الاسقف باسم المذبح . انها ان تعيب على الصنم قلة صنميته. انها ان تحقر بدافع من الافراط في الاحترام . انها ان لا تجد في البابا مقدارا كافيا من البابوية ، وفي الملك مقدارا وافيا من الملكية ، وان تجد في الليــل قدرا من النور اكثر مما ينبغي ...

ان «روح التطرف المغالى فيه» خاصة فريدة من خصائص الصدر الاول من عهد عودة آل بوربون الى العرش . والواقع ان التاريخ لم يعرف شبيها لهذه الفترة القصيرة ، التي بدأت عام ١٨١٤ وانتهت حوالي ١٨٢٠. لقد كانت هذه السنوات لحظة خارقة للعادة ، فهي مشرقة ومظلمة في آن معا ، ضاحكة وعابسة، مضاءة بمثل اشعة الشمس، ومغلفة في الوقت نفسه بظلام الكوارث. كان ثمة في ذلك الضوء وفي ذلك الظل عالم صغير نسيج وحده ، عالم حديث عتيق ، بهيج محزون ، فتى هرم ، يفــرك عينيه ، فليس من شـــيء يشبـــه الاستيقاظ اكثر من العودة. كانت هناك جماعة تنظر الى فرنسة في سخط ، على حـــين تنظر فرنسة اليها في سخرية . وكانت الشوارع ملأى بمراكــزة

كالبوم صالحين عجائز ، ومهاجرين قد عادوا ومهاجرين في سبيلهم الى العودة. وبجمهرة من المتعلقين باهداب النظام القديم ذاهلين منشدهين امام كل شيء.

وخضع ماريوس بونميرسي ، شأن سائر الاطفال ، لتعليم ما . فحين فارق يدي الخالة جيلنورمان عهد جده في تثقيفه الى استاذ وقور يتميز بأصفى البراءة الكلاسيكية. لقد انتقلت تلك النفس الاخذة في التفتح من يدي امرأة مغالية في التمسك باهداب الفضيلة الى يدي متعالم غليظ مضحك. واتم ماريوس سنوات دراسته في المدرسة الثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق . كان ملكيا متعصبا، صارما . كان قليل الحب لجده الذي كان مرحه وعدم احتشامه يجرحانه ، وكان موضع ابيه في نفسه فراغا قاتما .

وكان ماريوس، في ما عدا ذلك، ولدا هماما ولكنه ثائر ، نبيلا ، كريما ، فخورا ، متدينا ، متهوسا . كان فاضلا حتى القسوة طاهرا حتى التوحش . ولقد انهى ماريوس دراساته الكلاسيكية في تلك الفترة التي اعتزل فيها مسيو جيلنورمان الحياة الاجتماعية. ولقد ودع الشيخ ضاحية سان جيرمان، وصالون مدام دو تـ . . . وانتقل الى الـ «ماريه» ليستقر في منزله بشارع « فتيات كالفير » وكان يخدمه هناك ، الى جانب البواب ، نيقوليت تلك التي خلفت مانيون ، وذلك الـ « الباسك » المبهور الذي تحدثنا عنه من قبل .

وفي عام ١٨٢٧ بلغ ماريوس سنه السابعة عشرة . واذ انقلب الى المنزل ذات مساء رأى جده وفي يده رسالة .

وقال مسيو جيلنورمان : « ماريوس ، سوف تسافر غدا الى فيرنون» .

فتساءل ماريوس : « لماذا ؟ »

ــ « لكي ترى اباك » .

وارتعد ماريوس. لقد فكر في كل شيء الا هذا : ان يوما قد يأتي يضطر فيه الى ان يرى والده . ان شيئا ما ، لم يكن ابعد عن التوقع من هذا ، وادعى الى الدهش ، وابغض الى النفس .

كان ماريوس مقتنعا، الى جانب الدوافع السياسية التي تنفره من ابيه ، بأن هذا الاب السياف الجاهل فن الحرب ـ كما كان مسيو جيلنورمان يدعوه ـ لم يكن يحبه . وكيف لا يقتنع بذلك وهو الذي هجره وتركه للاخرين؟ وكان من الانشداه بحيث لم يوجه الى مسيو جيلنورمان سؤالا ما . واردف الجد قائلا : « يبدو انه مريض . انه يريد ان يراك » .

وبعد صمت، اضاف: « انطلق غدا صباحا . هو يقول ان الحالة ملحة» .

ثم انه دعك الرسالة ووضعها في جيبه. لقد كان بوسع ماريوس ان يسافر ذلك المساء نفسه فيكون الى جانب ابيه صباح اليوم التالي. كانت ثمة في ذلك

العهد عربة عمومية تغادر روان ليلا وتمر بفيرنون. ولكن لا مسيو جيلنورمان ولا ماريوس فكر في الاستعلام عنها .

وفي اليوم التالي ، وصل ماريوس الى فيرنون مع الغسق . وكانت الشموع قد بدات تضيء. وسأل اول عابر سبيل : بيت مسيو بونميرسي ؟ ذلك بانه كان متفقا في تفكيره مع وجهة نظر العهد البوربوني الجديد ، فلم يعترف هو ايضا ببارونية ابيه او برتبته ككولونيل .

وهدوه الى المنزل . وقرع الجرس . واقبلت امراة ففتحت الباب حاملة بيدها مصباحا صغيرا ... وقال ماريوس : « مسيو بونميرسي ؟ »

وظلت المراة جامدة لا تتحرك ... وسألها ماريوس : « أهو هنا ؟ »

واومأت المراة براسها ايماءة ايجابية .

— « هل استطيع ان اتحدث اليه ؟ »

واومأت المراةايماءة سلبية. فاردف ماريوس:«ولكني ابنه. انهينتظرني».

فقالت المراة : « انه ما عاد ينتظرك » .

ولاحظ عندئذ انها تبكي. واشارت باصبعها الىباب غرفة منخفضة .

وكان في تلك الغرفة ، المضاءة بشمعة من شحم موضوعة على الموقد ، ثلاثة رجال احدهم واقف، والاخر راكع، والثالث مرتد قميصه وحسب وقد تمدد بطوله على الارض . كان ذلك الممدد على الارض هو الكولونيل . وكان الرجلان الاخران طبيبا وكاهنا يصلي .

كان الكولونيل قد أصيب منذ ثلاثة ايام بحمى دماغية . وكان قد كتب عند بدء المرض الى المسيو جيلنورمان مطالبا برؤية ابنه . وتفاقم الداء. وليلة وصول ماريوس الى فيرنون كان الكولونيل قد اصيب بنوبة من الهذيان. لقد وثب من سريره على الرغم من الخادمة وهو يصيح : «ابني لم يأت حتى الان ! سوف اذهب للقائه!» ثم انه خرج من غرفته وسقط على ارض غرفة الانتظار. كان قد لفظ انفاسه منذ لحظة ليس غير .

وكان الطبيب والكاهن قد دعيا الى المنزل ، ولكن الطبيب كان قد وصل بعد فوات الاوان ، والكاهن كان قد وصل بعد فوات الاوان، وكذلك كان الابن قد وصل بعد فوات الاوان .

وعلى ضوء الشمعة الباهت ، كان في استطاعتهم ان يتبينوا على وجنة الكولونيل الشاحب الصريع دمعة كبيرة كانت قد انحدرت من عينه الميتة . كانت العين خامدة ، ولكن الدمعة لم تكن قد جفت . كان قد سفح هذه الدمعة لتأخر ولده .

وتأمل ماريوس هذا الرجل الذي رآه للمرة الاولى، وللمرة الاخيرة، هذا

المحيا الجليل الناضح بالرجولة ، هاتين العينين المفتوحتين اللتين لا تريان البتة ، هذا الشعر الاشيب ، هذه الاوصال القوية التي كان في ميسور المرء انيتبين عليها بعض الخطوط السمراء التي كانت ضربات سيف، وضروبا من النجوم الحمر التي كانتحفرا احدثتها القذائف. لقد تأمل هذه الندبة الهائلة التي طبعت البطولة على ذلك الوجه الذي كان الله قد طبععليه الطيبة. وفكر فيان هذا الرجل كان اباه، وان هذا الرجلكان ميتا ، وظل جامدا لا يتحرك.

كان الحزن الذي استشعره هو الحزن الذي كان خليقا بان يستشعره امام اي امرىء تقع عيناه عليه طريح الموت . وكان الحداد الممض ، يخيم على تلك الغرفة . فالخادمة تنتحب فياحدى الزوايا ، والكاهن يصلي، مسموع الزفرات ، والطبيب يكفكف العبرات . ان الجثة نفسها قد بكت .

وننظر هذا الطبيب ، وهذا الكاهن ، وهذه المرأة من خلال اشجانهم الى ماريوس ، من غير ان ينطقوا بكلمة . كان هو ـ لا غيره ـ الغريب وسط هذه المناحة. واذ لم يغلب التأثر علىماريوس الا قليلا، فقد احس بالخجل واستشعر الارتباك بسبب من وضعههذا. وكان يمسك بقبعته في يده، فتركها على الارض لكي يحملهم على الاعتقاد بان الاسى قد حرمه القدرة على الامساك بها .

وفي الوقت نفسه استشعر شيئا كتبكيت الضمير. واحتقر نفسه لتصرفه على هذا النحو . ولكن اهي غلطته ؟ انه ما كان يحب اباه ، حقا !

ولميخلف الكولونيل شيئا. ان بيع اثاثه لم ينهض بنفقات دفنه الا بشق النفس. ووجدت الخادمة قصاصة منالورق قدمتها الى ماريوس كانتتنطوي على هذه الكلمات مكتوبة بخط الكولونيل : « الى ولدي : ان الامبراطور قد جعلني بارونا في ساحة القتال بواترلو. ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر علي هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمنا له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديرا به » .

وعلى قفا تلك القصاصة كان الكولونيل قد اضاف : «وفي معركة واترلو تلك انقذ حياتي جندي برتبة رقيب. ان ذلك الرجل يدعى تيناردييه. واعتقد انه كان يدير ، منذ فترة غير بعيدة، فندقا صغيرا في قرية بضواحي باريس ، في « شيل » او في مونفيرماي . فاذا ما لقيه ولدي فلسوف يقدم الى تيناردييه كل خدمة يقدر عليها » .

وبدافع من الاحترام الغامض للموت ، لا بدافع من واجبالطاعة لابيه ، اخذ ماريوس تلك الورقة ، وضغط عليها .

ولم يبق من الكولونيل اثر ما . كان مسيو جيلنورمان قد باع سيفه وبذلته العسكرية لاحد المتاجرين بالسلع القديمة. وسطا الجيران على الحديقة

ونهبوا الرياحين النادرة. اما النباتات الاخرى فامست عوسجا وعليقا، او ماتت.

ولم يقم ماريوس غير ثمان واربعين ساعة في فيرنون. وبعد الدفن ، رجع الى باريس واستغرق في دروسه الحقوقية من غير ان يفكر في ابيه اكثر مما كان يفعل لو انه لم يعش قط. لم ينقض يومان حتى كان الكولونيل قد دفن ، ولم تمض ثلاثة ايام حتى كان قد نسي .

٣

كان ماريوس قد احتفظ بعادات صباه الدينية. وذات يوم من ايام الاحد ذهب ليسمع القداس في « سان سولبيس » في «كنيسة العذراء» نفسها التي كانت خالته تصحبه اليها يوم كان صبياً صغيرا . واذ كان في ذلك اليوم اكثر ذهولا مما كان في العادة، فقد اتخذ مكانا له خلف احد الاعمدة وركع، من غير ان ينتبه لذلك ، امام كرسي من مخمل اوترخت كتب على ظهره هذا الاسم : « مسيو مابوف ، وكيل الكنيسة » . ولم يكد القداس يبدأ حتى برز رجل عجوز وقال لماريوس « سيدي ، هذا مكاني » .

وسارع ماريوس الى مغادرة المكان ، واتخذ العجوز كرسيه .

وبعد القداس ، ظل ماريوس مستغرقا في التفكير على بعد بضع خطوات. واقترب العجوز نحوه ، كرة اخرى ، وقال : «عفوك يا سيدي لازعاجي اياك منذ لحظة قصيرة ، ولازعاجي اياك الان مرة ثانية . ولا شك انك قد حسبتني شرسا ، ومن اجل ذلك ينبغي ان ابرر لك موقفي » .

فقال ماريوس : « هذا غير ضروري يا سيدي » .

فاستأنف العجوز كلامه : « اجل ! انا لا اريد ان تأخذ فكرة سيئة عني، انت ترى اني الزم ذلك المكان ، والذي يبدو لي ان القداس هو هناك افضل. لماذا ؟ سوف اقول لك . فطوال سنوات عديدة رايت ابا صالحا فقيرا يأتي الى ذلك المقعد مرة كل شهرين او كل ثلاثة اشهر من غير انقطاع — ابا لم تكن لديه ايما فرصة اخرى او ايما وسيلة اخرى لرؤية ولده الصغير بعدان حرمته ذلك بعض التسويات العائلية ، كان يأتي ساعة يعرف انهم قد جاؤوا بابنه الى القداس. ولم يخطر ببال الصغير قط ان اباه كان هناك. بل لعل ذلك الصبي البريء ما كان يدري ان له ابا ! وكان الاب يلتزم الجلوس خلف هذا العمود لكي لا يكون في ميسور احد ان يراه . كان ينظر الى ولده ويبكي . كان ذلك الاب المسكين يعبد هذا الولد الصغير ! لقد رأيت ذلك . لقد امسى هذا الموضع مقدسا عندي، ومنذ ذلك الحين اخذت نفسي بالمجيء الى هنا لكي اسمع القداس. بل لقد عرفت ذلك السيد المسكين بعض المعرفة. كان له حم وعمة

غنية جدا وانسباء وكانوا يهددونه بحرمان الولد من الميراث اذا ما رآه هو ، هو ابوه ؛ لقد ضحى بنفسه لكي يصبح ابنه ، ذات يوم ، غنيا سعيداً . وانما تفرق شملهم بسبب من الاراء السياسية ، انا اقر اعتناق الاراء السياسية طبعا ، ولكن هناك اناسا لا يعرفون اين ينبغي ان يقفوا . يا الهي ! لان الرجل الذي شهد واترلو ليس غولا ، ان الاب لا يفصل عن ابنه من اجل ذلك . لقد كان زعيما (كولونيل) من زعماء بونابرت . لقد توفي ، على ما اعتقد . كان يسكن في فيرنون حيث يعمل اخي كاهنا ، وهو يدعى بونماري او مونبارسي او شيئا من ذلك. لقد كان فى جسمه ، فى الواقع ، اثر من ضربة سيف » .

فقال ماريوس وقد شحب لونه : « بونميرسي ؟ »

ــ « تماما . بونميرسي . اكنت تعرفه ؟ »

فقال ماريوس : « ايها السيد ! لقد كان ابي » .

وشبك وكيل الكنيسة العجوز يديه ، وصاح : « آه ! انت ذلك الطفل ، اجل ، هذا صحيح . وينبغي ان يكون قد اصبح رجلا الان . حسنا، ايها الطفل المسكين ، في استطاعتك ان تقول انه كان لك اب احبك حبا عظيما ! »

وبسط ماريوس ذراعه الى الرجل العجوز ومشى معه حتى منزله . وفى اليوم التالي قال لمسيو جيلنورمان : « لقد اعددت مع بعض الاصدقاء نزهة صيد . هل يسمح لي بان اغيب ثلاثة ايام ؟ »

فاجابه : « واربعة ! اذهب وروح عن نفسك » .

وبغمزة من احدى عينيه همس فى اذن ابنته : «مسألة عشق موقت» .

٤

اما الى اين ذهب ماريوس فذلك ما سنعرفه بعد قليل .

وغاب ماريوس ثلاثة ايام ، ثم انقلب الى باريس ، فقصد تواً الى مكتبة مدرسة الحقوق ، وطلب مجموعة اعداد الجريدة الرسمية .

لقد قرا تلك الجريدة . قرا تاريخ الجمهورية والامبراطورية . قرا مذكرات القديسة هيلانة ، والصحف والبيانات الرسمية ، والاذاعات . لقد التهم كل شيء . ويوم وقع على اسم ابيه ، اول مرة ، فى بيانات الجيش العظيم الرسمية عصفت به حمى تطاولت اسبوعا بكامله . وسعى الى الاجتماع بالجنرالات الذين حارب جورج بونميرسي تحت امرتهم . وقدم اليه وكيل الكنيسة مابوف صورة عن حياة فيرنون واعتزال الكولونيل الحياة الاجتماعية ، ورياحينه ، ووحدته . وهكذا انتهى ماريوس الى ان يفهم هذا الرجل النادر ، السامي ، الوديع الذي كان اباه .

وفي غضون ذلك لم يعد يرى احدا تقريبا من آل جيلنورمان بعد ان استغرق في هذه الدراسة التي شغلت وقته كله وافكاره كلها. كان يبرز عند تناول الطعام حتى اذا التمسوه بعد ذلك لم يعثروا عليه. كانت الخالة تتذمر، وكان الجد يبتسم قائلا: «بوه! بوه! انه عهد الصبايا». وفي بعض الاحيان كان العجوز يضيف: «يا للشيطان! لقد حسبت انها مغازلة. ولكن يبدو انه هيام».

كان هياما، حقا. كان ماريوس في سبيله الى الشغف بابيه.

وفي الوقت نفسه طرأ تغير فوق العادة على افكاره. كانت مظاهر هذا التغير متعددة ومتعاقبة. واذ كان هذا التاريخ هو تاريخ كثير من العقول في عصرنا فنحن نعتقد ان من المفيد ان نتتبع هذه المظاهر خطوة خطوة، وان نشير اليها جميعا.

ان ذلك التاريخ الذي وقعت عليه، الان، عيناه، قد اذهله. لقد كان الاثر الاول انشداها. ان الجمهورية والامبراطورية لم تكونا عنده، حتى ذلك الحين، غير كلمتين مخيفتين. الجمهورية، مقصلة في الغسق، والامبراطورية، حسام في الليل. كان قد نظر اليهما فوجد في ضرب من دهش خارق مشوب بالخوف وبالبهجة كواكب ساطعة: ميرابو، سان جوست، روبسبيير، كاميل ديمولان، دانتون، وشمسا مشرقة: نابوليون. ولم يدر اين هو. لقد ارتد وقد اعمته الانوار. وشيئا بعد شيء، زايله الدهش، واعتاد هذه الاشعاعات. وانشأ يتأمل الاعمال من غير دوار، ويدرس الشخصيات من غير ذعر. لقد برزت الثورة والامبراطورية بروزا مضيئا امام عينيه الجاهدتين. لقد رأى كلا من مجموعتي الحوادث والرجال هاتين تلخص نفسهـا في حقيقتين ضخمتين: الجمهورية، في سيادة حق المواطن معادا الى الجماهير، والامبراطورية، في سيادة الفكرة الفرنسية مفروضة على اوروبة. لقد رأى صورة الشعب تنبثق من الثورة، وصورة فرنسة تنبثق من الامبراطورية. واعلن في ما بينه وبين نفسه ان ذلك كله كان حسنا.

لقد شعر عندئذ انه لم يفهم وطنه، حتى تلك اللحظة، باكثر مما كان قد فهم اباه. انه ما كان يعرف لا هذا، ولا ذاك، ولقد كان يغشى عينيه ضرب من الظلمة الادارية. اما الان فقد اخذ يرى. واستبد به الاعجاب من ناحية، وغلب عليه التقديس من الناحية الاخرى.

كان مفعما بالاسف وتبكيت الضمير. وخطر له في يأس، انه لا يستطيع الان ان يبث كل ما في روحه الا الى جدث. اوه! لو ان اباه كان حيا، لو ان الرب قد اجاز، برحمته وخيريته، ان يبقي ابوه على قيد الحياة، اذن لسارع نحوه، واذن لطرح نفسه على قدميه، واذن لصاح مخاطبا اياه: «ابي! انا هنا!

هذا انا ! ان لي قلبا مثل قلبك ، انا ولدك!» ما كان اجدره بأن يعانق راسه الابيض ، ويندي شعره بالدموع ، ويحدق الى ندبته ، ويضغط على يديه ويقبل قدميه ! اوه ! لماذا توفي والده في مثل هذه السرعة ، قبل الكهولة ، قبل العدالة ، قبل حب ولده !

وانفتح كل شيء ، وكأن في يده مفتاحا . لقد شرح لنفسه ما كان قد ابغضه ، واستوعب ما كان قد مقته . لقد رأى في وضوح ، منذ ذلك الحين، المعنى السماوي الالهي، البشري الذي انطوت عليه الاشياء العظيمة التي علموه ان يكرهها، والرجال العظام الذين لقنوه ان يسبهم . وحين فكر في آرائه السابقة، التي كان يعتنقها حتى وقت قريب، والتي بدت له مع ذلك عتيقة جدا، اخذه السخط على نفسه وابتسم . ومن اعادة اعتبار ابيه، انتقل على نحو طبيعي الى اعادة اعتبار نابوليون.

وذات ليلة ، كان وحده في غرفته الصغيرة القائمة تحت السطح . كانت شمعته مضاءة ، وكان يقرأ متكئا على طاولته الى جانب النافذة المفتوحة. وتقاطرت عليه ضروب الهواجس وامتزجت بتفكيره .

وقرأ بيانات الجيش العظيم الرسمية ، تلك الفلذات البطولية التي كتبت في ساحة المعركة . كان اسم ابيه يرد فيها احيانا ، وكان اسم الامبراطور يتردد خلالها دائما . وتبدت له الامبراطورية العظيمة كلها. لقد احس وكأن مدا كان ينفتح في ذات نفسه ويرتفع . لقد بدا له في بعض اللحظات أن اباه يمر على مقربة منه مثل نسمة من النسمات ، ويهمس في اذنه. وشيئا بعد شيء غدا غريبا تائها . لقد حسب انه سمع الطبول، والمدافع ، والابواق، وخطى الافواج الموزونة ، وخبب الفرسان المبهم النائي. وبين الفينة والفينة كانت عيناه ترتفعان نحو السماء ، فتريان البروج الهائلة تسطع في الاعماق التي لا قرار لها ، ثم ترتدان الى الكتاب فتريان هناك اشياء اخرى بالغة الضخامة تضطرب في غير وضوح . كان منقبض الصدر. وكان مهتاجا ،مرتجفا، لاهثا. وفجأة ومن غير ان يدري هو نفسه اي شيء يحركه، نهض وبسط ذراعيه خارج النافذة ، وحدق الى الظلام ، الى الصمت ، الى الرحب الازلي الذي لا حد له ، « فليحي الامبراطور ! »

وتمت هذه الثورات كلها في ذات نفسه من غير ان تشعر اسرته بها على الاطلاق ... وحين اطرح في هذا الجهد الخفي جلده البوربوني القديم المغالي في التطرف اطراحا كاملا، حين تعرى من كل ما هو ارستوقراطي وملكي، حين امسى ثوريا بكل معنى الكلمة ، ديمقراطيا الى الاعماق، جمهوريا او يكاد، شخص الى حفار الـ «كي ديزورفيفر» واوصى على مئة بطاقة تحمل هذا الاسم: «البارون ماريوس بونميرسي» . واذ لم يكن يعرف احدا، واذ لم يكن

في وسعه ان يترك بطاقته عند باب احد، فقد وضع تلك البطاقات في جيبه.
وبسبب من نتيجة طبيعية اخرى كان كلما ازداد قربا من ابيه، من ذكراه، من الاشياء التي قاتل الكولونيل من اجلها طوال خمس وعشرين سنة، ازداد بعدا عن جده. والواقع ان خصال مسيو جيلنورمان ماكانت لترضيه منذ عهد بعيد. كان يكرهه كما يكره شاب آخذ باسباب الجد شيخا عاتيا مستهترا. وفوق ذلك كله، فقد عصفت الثورة بماريوس على نحو لا سبيل الى وصفه عندما فكر ان مسيو جيلنورمان قد فصله من غير ما رحمة، وبدوافع حمقاء، عن الكولونيل، وبذلك حرم الاب ابنه والابن اباه.
وكان ماريوس يغيب عن المنزل بين الفينة والفينة. وكانت الخالة تتساءل: «الى اين تراه يذهب، على هذه الشاكلة؟»
وفي احدى هذه الرحلات، البالغة القصر دائما، قصد الى مونفيرماي انفاذا للوصية التي تركها له ابوه، وبحث عن رقيب واترلو السابق، الفندقي، تيناردييه. وكان تيناردييه قد افلس، وكان الفندق قد اغلق، ولم يكن احد ليدري ما الذي حل به. واضطر ماريوس، من اجل القيام بهذا البحث، الى التغيب عن المنزل اربعة ايام.
وقال الجد: «لا ريب في انه عاشق ضل السبيل».
ولقد خيل اليهما انهما لاحظا انه يحمل على صدره وتحت قميصه شيئا يتدلى من عنقه بشريطة سوداء.

٥

وكان الملازم الاول تيبودول جيلنورمان ابن ابن اخي مسيو جيلنورمان وكان قد حقق جميع الشروط التي يحتاج اليها المرء لكي يكون ما يدعى ضابطا جميلا. كان له خصر آنسة، وشارب معقوص. وكان نادرا ما يذهب الى باريس، نادرا الى حد ان ماريوس لم يره قط. وكان تيبودول اثيرا لدى الخالة جيلنورمان تفضله لانها لم تكن تراه!...
وذات صباح انقلبت الانسة جيلنورمان الكبرى الى غرفتها وهي مهتاجة الى ابعد ما تسمح لها وداعتها بان تهتاج. كان ماريوس قد سأل جده ان يأذن له في القيام برحلة قصيرة، مضيفا انه يعتزم الانطلاق تلك الليلة نفسها. وكان الجد قد اجاب: «اذهب!» وكانت الانسة جيلنورمان قد رجعت الى غرفتها في ارتباك شديد، ملقية على السلم علامة التعجب هذه: «هذا جميل!» وعلامة الاستفهام هذه: «ولكن الى اين تراه يذهب؟» وتخيلت مغامرة من مغامرات القلب المحظورة قليلا او كثيرا: امراة في الظل، موعدا غراميا، سرا خفيا، ولم

تكن خليقة بأن تعضب لو استطاعت ان تقحم نظارتيها في هذه المسألة. ان مذاق سر من الاسرار اشبه شيء بباكورة ريبة . والنفوس الطاهرة لا تكره ذلك البتة . ان في حجرات التطرف في التقوى بعض الفضول الى الفضيحة . لقد كانت اذن فريسة رغبة عمياء في معرفة قصة ما .

وفجأة فتح الباب . ورفعت الانسة جيلنورمان انفها . كان الملازم الاول تيبودول امامها يحييها بتحية المرافق العسكري . واطلقت صيحة ابتهاج وهتفت : « انت هنا ، يا تيبودول ! »

ـ « لقد احببت ان امر بكم في طريقي ، ايتها العمة » .

ـ « عانقني اذن » .

فقال تيبودول : « ها انا ذا افعل ! »

وعانقها ومضت العمة جيلنورمان الى مكتبها وفتحته .

ـ « سوف تبقى عندنا طوال الاسبوع على الاقل ، اليس كذلك ؟ »

ـ « ايتها العمة ، سوف ارحل هذا المساء » .

ـ « ابق ، يا صغيري تيبودول ارجوك » .

ـ « القلب يقول نعم ، ولكن الاوامر تقول لا . القصة بسيطة . لقد غيروا مقر حاميتنا . كنا في ميلون ، وها قد وجهتنا القيادة الى غابون. ولكي نذهب من مقر الحامية القديم الى المقر الجديد يتعين علينا ان نمر بباريس. وهكذا قلت : سوف اذهب وارى عمتي » .

ـ « دونك هذه جزاء ما لقيت من تعب». ووضعت في يده عشر ذهبيات.

ـ « تعنين جزاء ما نعمت به من سرور ايتها العمة العزيزة » .

وسألته : « اتقوم بهذه الرحلة على صهوة الجواد مع كتيبتك ؟ »

ـ « لا ، ايتها العمة . لقد اردت ان اراك . لقد حصلت على اجازة خاصة . ان خادمي يقود جوادي . اما انا فاركب العربة العمومية . وبالمناسبة ، هناك سؤال احب ان اوجهه اليك . ان ابن عمتي ماريوس بونميرسي راحل ايضا ، اليس كذلك ؟ »

فصاحت العمة وقد استثير فضولها ، فجأة، الى ابعد حدود الاستثارة:

ـ « كيف تعرف ذلك ؟ »

ـ « حين وصولي ، شخصت الى مركز العربات العمومية لاحجز محلا في القسم الامامي من العربة . وكان احد المسافرين قد حجز محلا في القسم الاعلى من العربة . لقد رايت اسمه في السجل » .

ـ « اي اسم ؟ »

ـ « ماريوس بونميرسي » .

فصاحت العمة : « آه ، ان ابن عمتك ليس غلاما حسن السلوك مثلك. انا لا استطيع ان افكر انه سوف يمضي الليل في عربة عمومية . ولكن الى اين تذهب هذه العربة العمومية ؟ »

— « الى الانديلي » .

— « اذن فماريوس ذاهب الى هناك ؟ »

— « الا اذا غادر العربة، مثلي، في بعض الطريق . سوف انزل في فيرنون لاتخذ الطريق الفرعية الى غايون. انا لا اعرف شيئا عن طريق ماريوس . . »

— « ماريوس! يا له من اسم بشع !ويا لها من فكرة صائبة، تلك التي جعلتهم يسمونه ماريوس. حسنا. ان ماريوس يغيب عن البيت احيانا كثيرة» .

— « ايه ! ايه ! »

« انه يبيت خارج المنزل. ونحن نريد ان نعرف ما وراء ذلك كله » .

وفي هدوء رجل من برونز ، اجاب تيبودول : « فتاة صغيرة » .

فقالت العمة : « قم بهذا الصنيع من اجلنا . اتبع ماريوس قليلا. انه لا يعرفك ولسوف يكون ذلك سهلا عليك. فما دام ثمة فتاة صغيرة فحاول ان تراها. في استطاعتك ان تبعث الينا بالحكاية . ان ذلك سوف يسلي جدك » .

ولم يكن تيبودول شديد الرغبة في مثل هذا الضرب من الترصد. ولكن الليرات الذهبية العشر وقعت في نفسه موقع الارتياح العظيم، وخيل اليه انه يرى تتمة يمكن ان تتلوها . فقبل المهمة ، وقال : «كما تريدين، ايتها العمة» .

وفي المساء الذي تلا ذلك الحوار ، ركب ماريوس العربة العمومية من غير ان يخطر بباله ان احدا يراقبه . اما المراقب فكان اول ما عمله ان استسلم للرقاد . كان نومه عميقا يؤذن بضمير مرتاح . لقد غط طوال الليل .

وعند منبلج الصباح صاح سائق العربة العمومية : «فيرنون. المسافرون الى فرنون ! » فافاق الملازم الاول تيبودول من سباته: ودمدم نصف نائم : « حسن . في هذا المكان سوف انزل »،.

حتى اذا انجلت ذاكرته شيئا بعد شيء ، نتيجة اليقظة ، تذكر عمته والتقرير الذي كلف بتقديمه عن سلوك ماريوس . واغراه ذلك بالضحك .

وفكر فيما كان يزرر صدرته غير الرسمية : « لعله غادر العربة .جائز ان يكون قد ترجل في «بواسي». لعله قد نزل في «تربيل» الا اذا ذهب حتى «باسي» ليس غير، مع امكان انعطافه الى الشمال نحو « ايفرو » او الى اليمين نحو « لاروش غويبون » . اتبعه ، يا عمتي . يا للشيطان ! اي شيء سوف اكتبه الى تلك العجوز الطيبة ؟ »

في تلك اللحظة بدا من زجاج القسم الامامي من العربة بنطلون اسود كان

يهبط من قسمها الاعلى. وقال الملازم الاول: « ايكون هذا ماريوس ؟ »

لقد كان هو ماريوس ... وكانت ريفية صغيرة واقفة الى جانب العربة ، بين الخيل والسائقين ، تعرض الازهار على المسافرين ، صائحة : « ازهار لسيداتكم ! »

واقترب ماريوس منها ، واشترى اجمل ما في سلتها من الرياحين. وقال تيبودول واثبا من العربة : « والان ، هو ذا شيء مثير . الى من ترى يحمل هذه الرياحين ؟ ينبغي ان تكون امراة جميلة الى حد فاتن تلك التي تحمل اليها باقة كهذه . اني اود ان اراها » .

وشرع يتبع ماريوس ، لا تنفيذا لمهمة عهد بها اليه ، هذه المرة ، ولكن بدافع من الفضول ، مثل تلك الكلاب التي تقتنص لحسابها الخاص .

ولم يلق ماريوس بالا الى تيبودول . وخرجت من العربة العمومية بعض النسوة الانيقات . لقد بدا وكأنه لم ير شيئا مما حوله .

وفكر تيبودول : « ايكون عاشقا ؟ »

ومشى ماريوس نحو الكنيسة .

وقال تيبودول مخاطبا نفسه : « حسن ، الكنيسة ! هذا هو . ان المواعيد الغرامية المتبلة بشيء من القداس هي المواعيد الفضلى » .

حتى اذا انتهى ماريوس الى الكنيسة لم يدخلها ، بل استدار خلف البناء . ثم اختفى عند زاوية عمود من اعمدة الكنيسة . وقال تيبودول : « اللقاء في الخارج . فلنر الفتاة الصغيرة » .

واقترب على رؤوس اصابعه نحو الزاوية التي استدار ماريوس حولها. حتى اذ بلغها وقف مشدوها ... كان ماريوس راكعا على العشب ، مخفيا وجهه بيديه ، فوق قبر من القبور . كان قد نثر باقته هناك . وفي اقصى القبر انتصب صليب من خشب، اسود كتب عليه هذا الاسم باحرف بيضاء: « الكولونيل البارون بونميرسي » . لقد سمع ماريوس ينتحب .

كانت الفتاة الصغيرة قبرا .

٦

الى هناك كان ماريوس قد ذهب اول مرة غاب فيها عن باريس . والى هناك كان يعود كلما قال مسيو جيلنورمان : « انه يبيت خارج المنزل » .

واضطرب الملازم الاول تيبودول لهذا الالتقاء ، غير المتوقع ، بقبر. لقد اعتراه شعور مقيت غريب لم يكن قادرا على تحليله ــ شعور مؤلف من احترام لقبر ، ممزوج باحترام لكولونيل . وانكفأ تاركا ماريوس وحده في

المقبرة . واذ لم يدر ما ينبغي ان يكتبه الى عمته ، فقد اعتزم انلا يكتب اليها شيئا على الاطلاق . ولعل شيئا ما كان لينتج عن الاكتشاف الذي تم لتيودول في موضوع غراميات ماريوس لو لم يتبع مشهد فيرنون بنوع من الضربة المقابلة في باريس .

لقد رجع ماريوس من فيرنون في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث وشخص الى بيت جده . واذ استبد به التعب بسبب من الليلتين اللتين قضاهما في العربة العمومية ، واستشعر الحاجة الى التعويض عن قلة نومه بساعة يمضيها في مدرسة السباحة ، فقد ارتقى السلم مسرعا الى غرفته، فنزع سترة السفر الطويلة والشريطة السوداء المطوقة عنقه ومضى على جناح السرعة الى الحمام .

وكان مسيو جيلنورمان قد سمعه يعود فسارع باقصى ما تمكنه رجلاه العجوزان الى ارتقاء السلم المؤدية الى غرفة ماريوس لكي يعانقه ، ولكي يستجوبه في اثناء العناق ، ويستطلع بعض الاستطلاع من اين اقبل .

ولكن المراهق اقتضاه النزول وقتا اقصر من ذلك الذي احتاج اليه الشيخ في الطلوع. حتى اذا دخل مسيو جيلنورمان علية ماريوس لم يجده هناك.

كان السرير مرتبا لم يمس ، وقد انتشرت فوقه ، في غير احتياط او حذر ، سترة ماريوس الطويلة وشريطته السوداء .

وبعد لحظة دخل غرفة الاستقبال حيث كانت الانسة جيلنورمان الكبرى قد جلست ، واخذت تطرز عجلات عربتها .

وكان الدخول مظفرا .

وامسك مسيو جيلنورمان السترة في يد ، وشريطة العنق في يد ، وصاح : « النصر ! سوف ننفذ الى السر ! سوف نعرف نهاية النهايات ! ها نحن مع الرواية كاملة . ان عندي الصورة ! »

والحق ان علبة من الجلد الاسود المبرغل ، اشبه ما تكون بحلية بيضية الشكل كانت تتدلى من الشريطة .

واخذ الشيخ هذه العلبة وتأملها ، فترة ، من غير ان يفتحها، وعلى وجهه سيما الشهوة ، والدهش ، والغضب التي ينظر بها شيطان فقير جائع الى مائدة ممتازة تمر تحت انفه وهي غير معدة له . وقال : « ان في جوف هذه العلبة صورة من غير ريب . انا اعرف كل شيء عن ذلك . ان هذه العلبة تحمل في رفق ، فوق القلب . يا لهم من مجانين . انها عاهرة بغيضة ما ، قد توقع الرعدة في اوصال المرء ! ان للشبان مثل هذا الذوق الرديء كله، في هذه الايام ! »

فقالت العانس : « فلنر يا ابت ! »

وفتحت العلبة بالضغط على نابض . ولم يجدا فيها غير قصاصة من الورق طويت في عناية . وقال مسيو جيلنورمان ، وهو ينفجر بالضحك: « من داعرة الى داعر . انا ادري ما هي . انها رسالة غرام ! »

فقالت الخالة : « آه ، اذن فلنقرأها ! »

ولبست نظارتيها . ثم نشرت قصاصة الورق وقرات ما يلي : « الى ولدي : — ان الامبراطور قد جعلني بارونا في ساحة القتال بواترلو. ولماكان عهد آل بوربون الجديد ينكر علي هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمنا له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديرا به».

وليس من سبيل الى وصف الشعور الذي اعتلج في صدري الاب وابنته. لقد احسا بالقشعريرة وكأن انفاس راس الموت قد مستهما . ولم يتبادلا كلمة واحدة . بيد ان مسيو جيلنورمان قال في صوت خفيض وكأنما كان يخاطب نفسه : « انه خط ذلك السياف الجاهل » .

وفحصت الخالة الورقة ، وقلبتها عدة مرات، ثم اعادتها الى الصندوق.

وفي تلك اللحظة نفسها سقطت رزمة مستطيلة ملفوفة بورق ازرق، من جيب من جيوب السترة. والتقطتها الانسة جيلنورمان ، وفضت الورقة الزرقاء . كانت بطاقات ماريوس المئة . ودفعت احداها الى مسيو جيلنورمان الذي قرأ : « البارون ماريوس بونميرسي » .

وقرع الشيخ الجرس . راقبات نيقوليت . وتناول مسيو جيلنورمان الشريطة والعلبة ، والسترة الطويلة والقاها على الارض وسط غرفة الاستقبال وقال : « اعيدي هذه الاشياء الى مكانها » .

وبعد لحظات برز ماريوس . ودخل . وحتى قبل ان يجتاز عتبة غرفة الاستقبال لمح جده الذي كان حاملا احدى بطاقاته في يده ، والذي لم يكد يراه حتى صاح في نبرة بورجوازية ساخرة كان فيها شيء يسحق سحقا : « قف ! قف ! قف ! قف ! انت « بارون » الان . انا اقدم اليك تهنئتي . ما معنى هذا كله ؟ »

وشاع الدم في وجه ماريوس واجاب : « هذا يعني اني ابن ابي . »

وكف مسيو جيلنورمان عن الضحك ، وقال في قسوة : « ابوك ؟ انا ابوك . »

فاردف ماريوس وقد خفض بصره وغلبت الصرامة على وجهه : «لقد كان والدي رجلا متواضعا وباسلا خدم الجمهورية وفرنسة خدمة ماجدة ، رجلا عظيما في اعظم تاريخ قدر للبشر ان يصنعوه ، رجلا عاش ربع قرن في

معسكرات القتال ، رجلا انتزع رايتين ، واصيب بعشرين جرحا ، ومات منسيا مهجورا ، رجلا لم يكن يرتكب غير خطأ واحد ، هو انه احب اكثر مما ينبغي عاقين اثنين : وطنه وانا ! »

كان ذلك اكثر مما استطاع مسيو جيلنورمان ان يحتمل سماعه . فلم تكد هذه الكلمة ، الجمهورية ، تطرق سمعه حتى انتصب واقفا . وكانت كل الكلمات التي نطق بها ماريوس قد احدثت ، فى وجه الملكي العجوز ، مثل ذلك الاثر الذي تحدثه انفاس الكير فى الفحم المشتعل . كان قاتما فغدا احمر ، وكان احمر فغدا ارجوانيا ، وكان ارجوانيا فغدا متوهجا .

وصاح : « ماريوس ايها الولد البغيض ! انا لا ادري اي شيءكان ابوك! انا لا اريد ان اعرف شيئا عنه ولست اعرفه . ولكن الذي اعرفه انه لم يوجد قط غير جماعة من البؤساء بين اولئك القوم جميعا. انهم كانوا كلهم شحاذين سفاحين ذوي قلانس حمراء ، ولصوصا . اقول كلهم ! انا لا اعرف احدا ! اقول كلهم ! اسمع انت ، ماريوس ! ان فيك من البارونية مقدار مافى بابوجي منها ! لقد كانوا كلهم قطاع طرق اولئك الذين عملوا تحت امرة بو ــ وو ــ نا ــ برته ! كلهم خونة خذلوا ملكهم الشرعي ! كلهم جبناء فروا من وجه البروسيين والانكليز فى واترلو ! هذا هو الذي اعرفه ، فاذا كان ابوك واحدا منهم فلست اعرفه . انا آسف لذلك ، يا سيدي . »

وامسى ماريوس ، بدوره ، الفحم ، وامسى مسيو جيلنورمان انفاس الكير . وسرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها . انه لا يدري ما يجب ان يفعل ، لقد اشتعل راسه . كان كالكاهن الذي يرى الى قرابينه يقذف بها كلها فى مهب الريح و « الفقير » الذي يرى عابر سبيل يبصق على صنمه . انه ما كان يستطيع ان يسمح بالتلفظ امامه بمثل هذه الاشياء من غير ان يرد عليها ، ولكن اي شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ لقد ديس ابوه ورفس على مسمع منه ، ولكن من الذي داسه ورفسه ؟ جده . فكيف يثأر لاحدهما من غير أن يهين الاخر ؟ كان امامه ، من ناحية ، جدث مقدس ، وكان امامه ، من ناحية اخرى شعر اشيب . واخذه الدوار ثم رفع عينيه وحدق الى جده ، وصاح فى صوت راعد : « فليسقط آل بوربون ، وذلك الخنزير الكبير لويس الثامن عشر ! »

كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ اربع سنوات ، ولكن ذلك ما كان ليقدم عنده او يوخر .

وفجأة غدا لون الشيخ اشد بياضا من شعره . ثم مشى في تؤدة وفى صمت ، من الموقد الى النافذة ، ومن النافذة الى الموقد مرتين جاعلا ارض

الغرفة تقضقض وكأن صورة من حجر تخطر فوقها . وفي المرة الثانية انحنى نحو ابنته ، التي كانت تتحمل الصدمة في انشداه خروف طاعن في السن ، وقال لها في ابتسامة كادت تكون هادئة : « ان بارونا مثل حضرة السيد وبورجوازيا مثلي لا يستطيعان ان يظلا تحت سقف واحد . »

وبسط ذراعيه نحو ماريوس وصاح به : « اغرب من هنا ! »

وغادر ماريوس البيت ... وفي اليوم التالي قال مسيو جيلنورمان لابنته : « سوف ترسلين ستين « بيستولا » كل ستة اشهر الى شارب الدماء هذا ، ولن تحدثيني عنه بعد اليوم على الاطلاق . »

وانصرف ماريوس ، من ناحيته ، ساخطا . ويحسن بنا ان ننص هنا على حادثة اذكت غيظه اكثر فاكثر . ذلك ان نيقوليت حين سارعت الى نقل «اشياء» ماريوس الى غرفته ـ تنفيذا لاوامر العجوز ـ كانت قد اسقطت من غير ان تشعر وربما على سلم العلية التي كانت مظلمة ، الحلية الجلدية السوداء المنطوية على الورقة المكتوبة بخط الكولونيل . ولم يعثر لتلك الورقة او لتلك الحلية على اثر . وكان ماريوس مقتنعا بان جده قد قذف ب «وصية ابيه » الى النار . كان يحفظ عن ظهر قلب تلك الاسطر القليلة التي خطها الكولونيل ، ومن هنا لم يضع شيء البتة . ولكن الورقة ، الخط ، ذلك الاثر المقدس ، كل ذلك كان قلبه نفسه . اي شيء قد صنع بها ؟

وغادر ماريوس المنزل من غير ان يقول الى اين كان ذاهبا ؛ ومن غير ان يعرف الى اين كان ذاهبا ، وليس معه غير ثلاثين فرنكا وساعته وبعض الملابس في قطعة من بساط . واستأجر عربة من عربات الاجرة ، ووثب اليها ، وانطلق كيفما اتفق نحو الحي اللاتيني .

اي شيء سيحل بماريوس ؟

أصدقاء الألفباء

١

في تلك الحقبة ، اللامبالية في الظاهر ، كانت فرنسة تحس بقشعريرة ثورية غامضة. كانت بعض الهمسات المنبثقة من اعماق عامي ٨٩،٩٢ حديث القوم. وكانت باريس الفتية على وشك ان تبدل جلدها . وقد تحول الناس من غير ان يعوا ذلك تقريباً ، بحكم حركة العصر نفسها . ان العقرب الذي يمشي فوق ميناء الساعة يمشي في النفوس ايضا . لقد خطا كل امرىء تلك الخطوة التي كان يتعين عليه ان يخطوها الى امام . وهكذا اصبح الملكيون متحررين ، واصبح المتحررون ديموقراطيين .

وكانت بعض الجماعات العقلية الاخرى اكثر جدية . لقد سبرت غور المبدأ ، لقد كلفت بالحق . لقد تاقت الى المطلق ، ولمحت وميضا من الثمرات اللانهائية . ان المطلق ، بصرامته نفسها ، ليدفع بالعقول نحو الافق البعيد ، ويجعلها تطفو في اللامحدود . فليس شيء كالاحلام خالقا للمستقبل . اليوم مدينة فاضلة ، وغدا لحم ودم .

وفي ذلك الحين لم تكن قد نشأت بعد في فرنسة اي من تلك المنظمات السرية التي تشبه منظمة «توجيندبوند» الالمانية ومنظمة الـ «كاربوناري» الايطالية . ولكن بعض «الحفريات» الغامضة كانت قد بدات تتشعب . كانت جماعة الـ «كوغورد» تتكون في ايكس، وكانت في باريس — الى جانب جماعات اخرى من هذا الضرب جمعية اصدقاء الالفباء .

من كان اصدقاء الالفباء هؤلاء ؟ كانوا جماعة هدفها في الظاهر تعليم الاطفال ، وهدفها في الواقع تقويم الرجال .

لقد اعلنوا انفسهم اصدقاء الالفباء A. B. C. وكان الـ Abaissé

(المخفوضون او المظلومون) هم افراد الشعب . كانـوا يريـدون ان يرتفعوا بهم • وهو تلاعب لفظي ينبغي ان لا نسخر منه . فالتلاعب اللفظي كثيرا ما يكون ذا خطر في عالم السياسة .

ولم تكن جماعة اصدقاء الالفباء كثيرة الاعضاء . كانت جمعية سريـة في المرحلة الجنينية. وكان افرادها يجتمعون بباريس ، في مكانين قرب الـ «بانتييون» ، في مقهى صغير في ساحة «سان ميشيل» يدعى مقهى الموزين. كان اول موطن من موطني اللقاء هذين قريبا من العمال ، وكان ثانيهما قريبا مـن الطـلاب .

وكانت اجتماعات اصدقـاء الالفبـاء العادية تعقد في غرفة خلفية من مقهـى الموزيـن .

هذه الغرفة ، النائية بعض الشيء عن المقهى والمتصلة به بمجاز طويل جدا ، كان لها نافذتان ومنفذ بواسطة سلم خفية الى شارع دو غري الصغير. كانوا يدخنون هناك ، ويحتسون الخمر ، ويقامرون ، ويضحكون . كانـوا يتحدثون عن كل شيء تقريبا في صوت مرتفع جدا ، وبهمس عن شيء اخر . كانت قد علقت على الجدار خريطـة قديمة لفرنسة في عهد الجمهورية ، وهي امارة كافية لان تثير ظنون رجل من رجال الشرطة .

ومعظم اصدقاء الالفباء كانوا طلابا على تحالف ودي مع بعض العمال . ودونك اسماء المقدمين فيهم : «آنجولراس ، كومبوفير ، جان بروفير ، فويي ، كورفيراك ، باهوريل ، ليسغل او ليغل ، جولي ، غرانتير . »

وكان هؤلاء الشبان يؤلفون في ما بينهم شبه اسرة .

كانت جماعة رائعة. لقد تلاشت في الاعماق غير المنظورة التي وراءنا . وعند هذه النقطة التي بلغناها الان من المأساة لن يكون من غير المفيد ان نلقي شعاعا من النور على هذه الرؤوس الشابة قبل ان يراها القارىء غارقة في ظلام مغامرة فاجعـة .

فاما انجولراس فكان وحيد ابويه ، وكان موسرا .

كان شابا فاتنا ، قادرا على ان يصبح فظيعا . كان وسيما على نحـو ملائكي. كان من وجهة النظر المباشرة جنديا من جنود الديموقراطية ، وكان ، فوق الحركة المعاصرة ، كاهنا من كهان المثل الاعلى . كان ذا حدقة ثاقبة ، وجفن احمر بعض الشيء ، وشفة سفلى غليظة سريعة الى الازدراء ، وجبـين عال . كان قد بلغ الان مبلغ الرجال ، ولكنه ظهر وكأنه ما يزال طفلا . لقد بدت اعوامه الاثنان والعشرون سبع عشرة سنة ليس غير . كان الجد اغلب

مليه ، ولم يبد انه يعرف ان على ظهر الارض كائنا يدعى المراة . لم يكن لـه غير هوى واحد ، هو الحق . ولو قدر له ان يكون في «المؤتمر الوطني» اذن لكـان سان جوست . كان زاهدا في الملذات وكان يغض طرفـه في عفة امام كل شيء الا الجمهورية . كان العاشق الرخامي للحرية . وكان حديثه ملهما في خشونة، وكانت فيه ارتعاشة ترتيلة من التراتيل، كان يدهشك بتحليقه . والويل للغرام الذي يغامر فيقترب منه! ولو ان عاملة مغناجة من عاملات ساحة كامبري رأت هذا الوجه الابق من الكلية ، هذه الاهداب الطويلة الشقراء ، وهاتين العينين الزرقاوين ، وهاتين الوجنتين الورديتين ، وهاتين الشفتـين الطاهرتين ، وهذه الاسنان الرائعة ــ نقول لو ان عاملة مغناجة من اولئـك العاملات رأت ذلك ، وتشهت هذا الفجر كله، فحاولت ان تسدد سهام جمالها الى انجولراس اذن لحدجها هو بنظرة مذهلة رهيبة تريها فجـأة اي واد سحيق يفصل ما بينه وبينها ، وتعلمهـا ان لا تخلط بـين ملاك بومارشيه الغزال ، وملاك حزقيال المخيف .

والى جانب انجولراس الذي مثل منطق الثورة كان كومبوفير الذي مثل فلسفتها . وبين منطق الثورة وفلسفتها يقوم هذا الفارق ــ ان منطقها قـد يؤدي الى حرب ، على حين ان فلسفتها لا تستطيع ان تنتهي الا الى السلم . لقد اتم « كومبوفير » «انجولراس» وصححه. كان دونه ارتفاعا ، واكثر منه اتساعا. وكان يرغب في ان يفرغ في جميع الحقول المبادىء العريضة للفكرات العامة . كان يقول : «الثورة ، ولكن الحضارة». كان انجولراس اكثر رجولة ، وكان كومبوفير اعظم انسانية . كان يحب كلمة « مواطن » ، ولكنه آثر عليها كلمة « انسان » . كان قد قرأ كل شيء ، وقصـد الى المسارح ، وشهـد المحاكمات العامة . كان على اطلاع بماجريات العصر ، فهو يتتبع العلم خطـوة خطوة ، ويعارض نظريات سان سيمون بنظريات فورييه ، ويفك رموز الاحرف الهيروغليفية ، ويكسر الحصى التي يعثر عليها ويتحدث عن علم طبقات الارض ، ويشير الى الاخطاء اللغوية التي وقعت في «معجم الاكاديمية» . كان يعلن ان المستقبل في ايدي المدرسين ، فهو شديد الانهماك في مسائل التربية . لقد دعا الى ان يعمل المجتمع من غير انقطاع على رفع المستوى الفكري والاخلاقي ، على سك العلم، على وضع الفكرات موضع التداول، على انماء العقل في الشباب.

كان انجولراس زعيما ، اما كومبوفير فكان هاديا . وانه لخليق بالمرء ان يقاتل مع الاول ، وان يمشي مع الثاني . وليس معنى ذلك ان كومبوفير لم يكن قادرا على القتال ، فهو ما كان ليرفـض مقارعة العقبات ، ومهاجمتها قسرا وبانفجار، ولكن معناه ان اقامة التناغم التدريجي بين الجنس البشري ومصائره،

بتعليم الحقائق البدهية واعلان القوانين الوضعية ، كانت ادعى الى سروره . ولو كان له ان يختار واحدا من نورين ، اذن لآثر ميله الاضاءة على الالتهاب . ان الحريق قادر على ان يحدث فجرا من غير ريب ، ولكن لم لا ننتظر ارتفاع الضحى؟ان البركان ينير،ولكن الصباح ينير على نحو افضل. ولعل كومبوفير كان يؤثر وضاءة الجميل،على سطوع الجليل. كان الضوء الذي يكدره الدخان، والتقدم المشترى بالعنف لا يرضيان هذا العقل الرؤوف والجدي غير نصف ارضاء .

وكان جان بروفير درجة اخرى من درجات المعنى نفسه اكثر رقة والين جانبا. كان عاشقا وكان يعزف على الفلوت، وينظم الشعر ، ويحب الشعب ، ويرثي للمرأة ، ويبكي على الطفولة . كان صوتا رقيقا ،عادة ولكنه ما يلبث ان تغلب عليه الفحولة ، فجأة . وكان حسن الثقافة حتى الموسوعية ، ومستشرقا او يكاد. كان يعرف الايطالية ، واللاتينية، واليونانية، والعبرية. وكان مولعا بأن يهيم على وجهه في حقول الشوفان البري. وكان لعقله وضعان، احدهما في جوار الانسان، والاخر في جوار الله. كان اما دارسا، واما مفكرا. وطوال النهار كان يتعمق المسائل الاجتماعية: الاجور ورأس المال ، الزواج، والدين ، وحرية التفكير، وحرية الحب، والتربية، والعقاب، والبؤس، والشركة، والملكية والانتاج، والتوزيع . وفي الليل كان يحدق الى النجوم، تلك الكائنات الهائلة .

وكان فويي عامل مراوح ، يتيم الاب والام ، يكسب بشق النفس ثلاثة فرنكات في اليوم ، وليس في راسه غير فكرة واحدة ، أن يخلص العالم. وكانت له رغبة اخرى : ان يثقف نفسه ، وهو ما كان يدعوه تخليص النفس ايضا . كان قد علم نفسه القراءة والكتابة ، وكل ما عرفه انما تعلمه بنفسه . وكان فويي قلبا كريما . كان يعانق الكون . ذلك ان هذا اليتيم تبنى الشعوب جميعا. لقد اعوزته الام فانشأ يفكر في الوطن . انه ما كان راغبا في ان يكون ثمة على الارض انسان لا وطن له . لقد حضن في ذات نفسه ما ندعوه اليوم فكرة القوميات . كان قد درس التاريخ خصيصا لكي يقيم سخطه على اساس من معرفته السبب في ذلك السخط . وفي تلك الندوة الحديثة التي ضمت اولئك المثاليين الواقفين تفكيرهم على فرنسة ، كان يمثل الامم الاجنبية . وكان اختصاصه يدور على محور اليونان وبولونيا ،وهنغارية، ومقاطعات الدانوب، وايطالية. كان يتلفظ بهذه الاسماء على نحو موصول، لمناسبة وغير مناسبة ، في اصرار الحق وعناده . وكان اعتداء تركية على كريت وتسالية ، واعتداء الروسيا على فرصوفيا ، واعتداء النمسا على البندقية ــ كانت الاعتداءات كلها تثير غيظه .

وكان لكورفيراك اب يدعى مسيو دو كورفيراك . اما هو فسمى نفسه ،

باختصار ، كورفيراك . . . ويكاد يكون في استطاعتنا ، ان نقف هنا ونجتزيء بالقول ، في ما يتصل بسائر نواحي شخصية هذا الرجل ، كورفيراك : انظر تولوميس . ولكن وراء المشابه الظاهرية في العقل الخارجي كان ثمة فرق كبير بينه وبين تولوميس . ان الرجل الكامن في كل منهما غيره في الاخر تماما . كان في تولوميس محام ، وكان في كورفيراك فارس مغامر .

كان آنجولراس هو الزعيم ، وكان كومبوفير هو الهادي ، وكان كورفيراك هو المركز . كان رفيقاه يرسلان نورا اقوى من نوره ، على حين كان يرسل هو حرارة اقوى من حرارتهما . والحق انه كان يجمع صفتي المركز كلتيهما : الاستدارة والاشعاع .

وكان باهوريل مخلوقا دمث الاخلاق ، رديء العشره ، شجاعا ، مبذرا ، متلافا حتى الجود ، ثرثارا حتى الفصاحة ، جسورا حتى القحة . كان خير عجينة يمكن ان يكون منها شيطان. لقد اتخذ هذا الشعار : لن اكون محاميا ابدا . وكان كلما مر بمدرسة الحقوق ، وهو امر نادر ، يزرر سترته الطويلة ويتخذ احتياطات صحية . وكان يقول عن باب المدرسة الرئيسي : يا له من عجوز جميل ! وعن عميد المدرسة : يا له من اثر نفيس ! كان يرى في دروسه موضوعات للاغاني ، وفي اساتذته مناسبات لرسم الصور الكاريكاتورية .

وكان باهوريل – وهو رجل غريب الاطوار – موزعاً في قهوات عدة . كانت لسائر رفاقه عادات ، اما هو فلم يكن له شيء من ذلك . كان يتسكع . ان الهيام على الوجه انساني . اما التسكع فباريسي . وكان في اعماقه عقلا نافذا ، وكان مفكرا اكثر مما يبدو لعين الناظر .

كان اشبه بهمزة وصل بين « اصدقاء الالفباء » وجماعات اخرى لما يكتمل شكلها بعد ولكنها كانت في سبيلها الى ذلك .

وفي هذا المجمع من الرؤوس الغضة كان راس اصلع .

وكان عضو الندوة الاقرع هذا يدعى ليغل، وكان يوقع اسمه ليغل دو مو . وكان رفاقه يدعونه ، رغبة في الايجاز ، بوسوويه .

كان بوسوويه فتى مرحا قليل الحظ . وكان اختصاصه هو عدم النجاح في اي شيء . ومن ناحية ثانية ، كان يسخر من كل شيء . وفي الخامسة والعشرين امسى اصلع . وكان ابوه قد توفي ، مخلفا بيتا وحقلا . ولكنه ، هو الابن ، لم يجد ما هو اكثر الحاحاً من اضاعة هذا الحقل وذلك البيت في مضاربة طائشة . ولم يبق لديه شيء. وكان على مقدار صالح من المعرفة والذكاء ، ولكنه كان يخيب دائما . كان كل شيء يعوزه ، وكان كل شيء يخدعه. فما ان يقيم بناء حتى ينهار على رأسه . وكان يقول : انا احيا تحت سطح القرميد المتساقط .

كان فقيرا ، ولكن جعبته من البشاشة ودماثة الاخلاق لم تكن تنضب . كان ينتهي سريعا الى فلسه الاخير ، ولكنه ما كان ينتهي ابدا الى ضحكته الاخيرة.

واتخذ بوسوويه سبيله ، في تؤدة، نحو مهنة المحاماة ، فقد كان يدرس القانون على طريقة بأهوريل. ولم يكن لبوسوويه بيت، تقريبا . ولم يكن له في بعض الاحيان بيت البتة . كان يقيم احيانا عند هذا ، ويقيم احيانا عند ذاك ، وغالبا ما كان يقيم عند جولي . وكان جولي هذا يدرس الطب، وكان يصغر بوسوويه بسنتين .

وكان جولي « مريض وهم » شاباً . لقد افاد من الطب ما جعله مريضا اكثر منه طبيبا . وفي الثالثة والعشرين ، حسب نفسه ممراضا ، وانفق ايامه في النظر الى لسانه في المرآة. كان يعلن ان الانسان ممغنط مثل ابرة البوصلة، وهكذا كان يجعل رأس سريره ، في حجرة نومه ، الى الجنوب وقدمه الى الشمال لكي لا يعترض تيار الكرة الارضية المغناطيسي حركة الدم، عنده ، في اثناء الليل . وفي ايام الجو العاصف ، كان يجس نبضه . ومع ذلك فقد كان اشدهم مرحا .

وكان لهؤلاء الشبان كلهم الشديدي التباين دين واحد ، هو التقدم .

كانوا كلهم ابناء مباشرين للثورة الفرنسية . وكان اكثرهم طيشا يغلب عليهم الخشوع حين يلفظ هذا التاريخ : ٨٩ . صحيح ان آباءهم ، باللحم والدم ، كانوا او سبق ان كانوا من الدستوريين المعتدلين ، او الملكيين ، او المتحررين المعتدلين ولكن ذلك ما كان ليقدم او ليؤخر كثيرا . ان هذه الفوضى السابقة لايامهم لم يكن لها اية صلة بهم ، فقد كانوا شبابا . كان دم المبادىء الصرف يجري في عروقهم . لقد تعلقوا ، من غير ما فارق دقيق متوسط ، بالحق الذي لا يبلى ، وبالواجب المطلق .

وبين هذه القلوب السريعة الانفعال كلها ، هذه العقول المؤمنة كلها ، كان ثمة متشكك واحد . وكان اسم ذلك المتشكك غرانتير ، وكان يوقع عادة بهذا الرسم الرمزي R. * . وكان غرانتير رجلا يعنى عناية شديدة بان لا يؤمن بأي شيء . والى هذا ، فقد كان من الطلاب الذين افادتهم فترة الدراسة في باريس علما غزيرا : لقد تعلم ان القهوة الفضلى كانت تقدم في مقهى لامبلين ، وان طاولة البليارد الفضلى كانت في مقهى فولتير ، وانه كان في ميسورك ان تجد الكعك الجيد والفتيات الحسان في « الخلوة » في «جادة مين» ، والدجاج المشوي في مطعم الام ساغيه ، والسمك المطبوخ بالسمن وشيء من العجين

* ذلك ان هذا الحرف ، مرسوما بشكله الكبير ، يلفظ بالفرنسية هكذا : Grand R ومن هنا نفهم لماذا كان غرانتير يوقع اسمه بهذا الحرف R ليس غير .

والخمر في باب لاكونيت، وضربا من الصهباء الخفيفة في باب كومبا. والى هذا، فقد كان يعرف الملاكمة، والتنس، وبعض الرقصات، وكان الى هذا سكيرا ضخما .

هذه الكلمات كلها : «حق الشعب» ، «حقوق الانسان» ، « العقـــد الاجتماعي » ، « الثورة الفرنسية » ، « الجمهورية » ، « الديمقراطيـــة » ، « الانسانية » ، « الحضارة » ، «الدين» ، « التقدم » ، كانت عند غرانتير اقرب شيء الى الكلام الفارغ الذي لا يعني شيئا البتة . كان يسخر منها. ذلك ان التشكك ـ هذا التسوس الذي يصيب الفكر ـ لم يبق في عقله فكرة كاملة واحدة . كان يحيا في سخر. وكانت هذه هي الحقيقة البدهية عنده : ليس هناك غير شيء مؤكد واحد هو كأسي المترعة .

ومع ذلك، فقد كان لهذا المتشكك عصبية . ولم تكن هذه العصبية لا فكرة ولا عقيدة جوهرية ، ولا علما من العلوم. كانت رجلا ، هو انجولراس. لقد اعجب غرانتير بانجولراس ، واحبـه ، وكلف به . بأي وسيلة اخضعه انجولراس؟ بالافكار؟لا. بالشخصية. ظاهرة كثيرا ما تلاحظ. متشكك يشايع مؤمنا، ذلك شيء سهل مثل قانون الالوان المتممة. انما يعوزنا يجذبنا. وليس ثمة من يحب النور بقدر ما يحبه الاعمى . والقزم يعبد رئيس الطبالين . ان ضفدع الجبل يتطلع ابدا الى السماء. لماذا؟ لكي يرى العصفور طائرا. وفي جوار انجولراس ، امسى غرانتير شخصا ما، من جديد. وكان هو نفسـه، الى ذلك ، مؤلفا من عنصرين متنافرين ظاهريا . كان ساخرا وودودا . وكانت لا مبالاته محبة . لقد استغنى عقله عن الايمان ، ولكن قلبه لم يستغن عن الصداقة .

واذ كان انجولراس مؤمنا، فقد ازدرى هذا المتشكك، واذ كان زاهدا في الشراب فقد احتقر هذا السكير. لقد جاد عليه بشفقة يسيرة متشامخة. كان يلقى من انجولراس معاملة قاسية دائما ، وكان انجولراس يصده في خشونة ، وكان برغم ذلك يقول عن انجولراس : « يا له من تمثال رائع ! »

٢

وذات اصيل كان له ، كما سنرى، بعض الموافقة الزمنية للاحداث التي رويناها آنفا ، اسند ليغل دو مو ، ظهره في تكاسل الى مدخل مقهى الموزين . انه ما كان يحمل شيئا غير هواجسه واحلامه. كان ينظر الى ساحة سان ميشيل. وانما كان ليغل دو مو يفكر، في غير كآبة، بمصيبة صغيرة نزلت به امس الاول في مدرسة الحقوق ، وعدلت خطط مستقبله الشخصية .

والاستغراق في التفكير لا يمنع عجلة صغيرة من المرور ، ولا يحول بين الحالم وبين رؤية عربة صغيرة. وهكذا لاحظ ليغل دو مو التائه العينين عجيلة

ذات دولابين تنعطف نحو الساحة ، وتمضي وكأنها مترددة متحيرة. ونظر ليغل اليها. كان في داخلها، الى جانب السائق شاب ، وكان امام الشاب كيس امتعة ضخم . وكان ذلك الكيس يبدي لاعين عابري السبيل هذا الاسم : «ماريوس بونميرسي » مكتوبا باحرف سوداء على بطاقة مخيطة فوق القماش .

وغير هذا الاسم وضع ليغل . لقد تصدر والقى بهذا السؤال المفاجىء في وجه الشاب الذي في العجيلة : « مسيو ماريوس بونميرسي ؟ »

ورفع الشاب، الذي بدا مستغرقا في التفكير ايضا، عينيه، وقال: «نعم؟»

ــ « كنت ابحث عنك » .

ــ « كيف هذا ؟ » كذلك تساءل ماريوس ، اذ كان في الواقع قد فارق منزل جده ، وكان امامه وجه رآه للمرة الاولى. واردف: «انا لا اعرفك».

فاجابه ليغل : « وانا ايضا لست اعرفك » .

وحسب ماريوس انه قد التقى بماجن كثير المزاح ولم يكن على مزاج رائق في تلك اللحظة عينها . فزوى ما بين حاجبيه .

وتابع ليغل دو مو : « انت لم تكن في المدرسة امس الاول ؟ »

ــ « ذلك جائز . هل انت تلميذ ؟ »

ــ « نعم يا سيدي. مثلك. امس الاول، اتفق ان ذهبت الى المدرسة . وكان الاستاذ على وشك ان يدعو كل طالب باسمه . وانت لا تجهل انهم يكونون مضحكين جدا في تلك اللحظة . فاذا لم تلب النداء في المرة الثالثة حذفوا اسمك . ستون فرنكا تذهب مع الريح » .

وبدأ ماريوس يصغي . وتابع ليغل كلامه: «كان بلوندو يتلو الاسماء. انت تعرف بلوندو. ان له انفا محددا جدا، خبيثا جدا، وانه ليبتهج حين يشم رائحة الغائبين من الطلاب. لقد بدا ، في مداراة بالحرف P . ولم اكن اصغي، لانني ما كنت لاعنى بذلك الحرف. وسارت عملية المناداة سيرا حسنا. ولم يمح ايما اسم. كان الكون كله حاضرا ، وكان بلوندو محزونا ، وقلت في ذات نفسي : بلوندو، يا حبيبي، انك لن توفق الى اصدار اصغر حكم من احكام الاعدام اليوم وفجأة ، نادى بلوندو : ماريوس بونميرسي ؟ ولم يجب احد . وغمر الامل قلب بلوندو فكرر بصوت اقوى : ماريوس بونميرسي . وامسك بريشته . سيدي، ان فؤادي عامر بالحب. وسرعان ما قلت في نفسي: هو ذا فتى شجاع سوف يمحى اسمه . انتبه. انه شاب مرح حقا لا يعرف الدقة في المواعيد. انه ليس سوسة كتب ، فلننقذه . الموت لبلوندو ! وفي تلك اللحظة غمس بلوندو ريشته في الحبر، واجال حدقته الصهباء في القاعة، وكرر للمرة الثالثة: ماريوس بونميرسي ! واجبت : حاضر : حاضر ! وهكذا لم يمح اسمك » .

فقال ماريوس : « سيدي !... »
واضاف ليغل دومو : « ومحي اسمي انا » .
فقال ماريوس : « انا لا افهمك » .
واستأنف ليغل كلامه : « ليس ما هو اسهل من ذلك . لقد كنت قريبا من الكرسي ، لكي اجيب ، وقريبا من الباب لكي افر . كان الاستاذ ينظر الي في شيء من التركيز . وفجأة وثب بلوندو الى الحرف L . والحرف L هو حرفي . انا من « مو » واسمي هو ليغل » .
فقاطعه ماريوس : « ليغل يا له من اسم جميل ! »
– « سيدي، لقد وصل بلوندو الى هذا الاسم الجميل وصاح: ليغل ! فاجبت : حاضر ! وعندئذ نظر بلوندو الي في رقة النمر ، وابتسم ، وقال : اذا كنت بونميرسي ، فلست ليغل . وما أن قال ذلك حتى محا اسمي ».
فهتف ماريوس : « انا آسف جدا » .
فقال ليغل: «ليكن ذلك درسا لك. في المستقبل، كن دقيقا في مواعيدك» .
– « انا آسف جدا » .
وانفجر ليغل ضاحكا : « وانا في طرب بالغ. لقد كانت قدمي على وشك ان تزل في منحدر المحاماة . فجاء هذا الشطب فانقذني . اني اتخلى عن انتصارات المحاماة . انا لن ادافع عن الارملة ، ولن اهاجم اليتيم. لا «روب» بعد اليوم ، ولا فترة تدرج. وها قد تم شطب اسمي. واني لمدين لك بذلك ، يا مسيو بونميرسي . انا اعتزم ان ازورك وارفع اليك آيات شكري. اين تسكن؟»
فقال ماريوس : « في هذه العجيلة » .
فاجاب ليغل في هدوء : « ذلك دليل سعة وثروة . ان عندك هناك بيتا تبلغ اجرته تسعة الاف فرنك سنويا » .
وفي تلك اللحظة خرج كورفيراك من المقهى .
وابتسم ماريوس في كآبة : كنت في ذلك البيت منذ ساعتين ، واني لاتمنى ان اغادره . ولكنها القصة المعتادة ، انا لا ادري الى اين اذهب » .
فقال كورفيراك : « ايها السيد ، تعال الى منزلي » .
فلاحظ ليغل : « كان ينبغي ان يكون لي حق الاولوية، ولكني لا منزل لي» .
فاجاب كورفيراك : « أسكت ، يا بوسوويه ! »
فقال ماريوس : « بوسوويه . ولكني ظننت انك تدعو نفسك ليغل» .
فاجاب ليغل : « ليغل دومو . وفي المجاز ، بوسوويه » .
ودخل كورفيراك العجيلة .
وقال : « الى اوتيل دو لابورت سان جاك ، ايها السائق » .

وفي ذلك المساء نزل ماريوس في غرفة من غرف اوتيل دو لابورت سان جاك ، جنبا الى جنب مع كورفيراك .

٣

ولم تنقض بضعة ايام حتى امسى ماريوس صديق كورفيراك . فالشباب هو موسم الامزجة اللاحمة ، والالتئامات السريعة . وتنفس ماريوس، وهو في جوار كورفيراك ، في حرية ــ وهو شيء جديد بالنسبة اليه .

وذات صباح سأله كورفيراك على نحو مفاجىء : « بالمناسبة ، هل لك رأي سياسي ؟ »

فقال ماريوس وقد غاظه السؤال او كاد : « ماذا تعني ؟ »

ــ « مـا انت ؟ »

ــ « ديمقراطي بونابرتي » .

فقال كورفيراك : « ظل اشهب للون فأرة مطمئنة » .

وفي اليوم التالي قدم كورفيراك ماريوس الى مقهى الموزين . ثم همس في اذنه مبتسما : يجب ان افتح لك باب الثورة . وقاده الى حجرة اصدقاء الالغباء ، حيث قدمه الى سائر الاعضاء قائلا في صوت كالهمس هذه الكلمة البسيطة التي لم يفهمها ماريوس . « تلميذ » .

كان ماريوس قد وقع على وكر عقلي . ومع انه كان صموتا آخذا باسباب الجد فانه لم يكن اوهنهم جناحا ولا اقلهم سلاحا . واذ كان ماريوس، حتى ذلك الحين ، متوحدا نزوعا الى مناجاة النفس وتوجيه الخطاب الى الذات بدافع العادة والذوق ، فقد اخذه شيء من الذهول لدن رؤيته هذه الجماعة من الشبان حوله . لقد هاجمته هذه المبادرات المختلفة ، في آن معا، واربكته . ان الحركة الدائمة الصاخبة التي تكشف عنها هذه العقول المتحررة العاملة قد اثارت افكاره وعصفت بها . كان يسمع احاديث في الفلسفة ، والادب، والفن ، والتاريخ ، والدين ، في اسلوب غير منتظر . لقد لمح مظاهر غريبة، واذ لم يكن يتوقعها فما كان واثقا من ان ما يراه ليس مجرد تشوش . لقد ظن، حين تخلى عن معتقدات جده ليعتنق معتقدات ابيه انه قد نعم بالاستقرار . ولكنه حسب الان ، في قلق ، ومن غير ان يعترف بهذا امام نفسه ، انه لم يكن كذلك . وآذاه ذلك او كاد .

لقد بدا وكأن هؤلاء الفتيان لم يكن لديهم « اشياء مقدسة » . ففي كل موضوع من الموضوعات ، سمع ماريوس لغة فريدة مزعجة لعقله الذي مـا يـزال هيابـا .

ولم ينطق اي من اولئك الفتيان بهذه اللفظة : «الامبراطورية» . كان جان بروفير وحده يقول في بعض الاحيان : «نابوليون» . اما سائر الجماعة فكانوا يقولون : «بونابرت» . وكان آنجولراس يلفظها هكذا : « بوونابرت ». ودهش ماريوس والتبس عليه الامر .

ومن بين الاحاديث التي دارت بين هؤلاء الفتيان ، على مسمع من ماريوس ، والتي شارك فيها بعض الاحيان ، حديث اصابه بهزة عنيفة .

دار ذلك الحديث في الحجرة الخلفية من مقهى الموزين . وكان«اصدقاء الالفباء » كلهم مجتمعين ذلك المساء . واضيء المصباح الكبير في احتفال . وتحدثوا في موضوعات مختلفات ، من غير انفعال ، وفي ضجة . وباستثناء آنجولراس وماريوس ، اللذين لزما الصمت ، القى كل منهم خطابا صغيرا.

ولم يكن يجاز لاي من النساء ان تدخل الى هذه الحجرة الخلفية ، ما خلا لويزون غاسلة الاطباق في المقهى ، التي كانت تجتازها بين الفينة والفينة لكي تمضي من المغسل الى « المختبر » .

وكان غرانتير ، وقد تعتعه السكر ، يتحدث باعلى صوته حديثا بعضه معقول وبعضه هراء . لقد صاح : « انا ظميء. ايها الفانون، انا ابتغي الشراب، انا اريد ان انسى الحياة . ان الحياة اختراع بشع لست ادري صاحبه. انها لا تدوم ، وهي لا تساوي شيئا . وكل منا يدق عنقه لكي يعيش . الحياة مشهد تمثيلي ليس فيه غير قليل من محتمل الوقوع. اني اهزأ من كمالاتكم، وفضائلكم ، وسجاياكم. فكل سجية تنقلب الى نقيصة . المقتصد يحاذي البخيل ، والكريم يتاخم المبذر ، والشجاع يسير جنبا الى جنب مع المتظاهر بالشجاعة . ان في الفضيلة من الرذائل مثلما في رداء ديوجين من الثقوب. بمن تعجبون : بالقتيل ام بالقاتل ، بقيصر ام ببروتس ؟ ان الناس على العموم يصفقون للقاتل ، وهذه حماقة ايضا . وما التاريخ كله غير تكرار طويل. انا لا اقيم كبير وزن للنصر . فليس شيء اشد حماقة من الفتح والغلبة. المجد الحقيقي هو الاقناع . انا احتقر الجنس البشري. اتريدون ان نهبط من الكل الى الجزء ؟ اتريدون ان اشرع في الاعجاب بالشعوب ؟ اي شعب، من فضلكم؟ اليونان ؟ ان الاثينيين ، باريسيي العصور القديمة ، قتلوا فوسيون، كما قتلنا كوليني مثلا . اعجب بانكلترة ؟ اعجب بفرنسة ؟ فرنسة ، لماذا ؟ من اجل باريس ، لقد ابديت اللحظة رأيي في اثينا . انكلترة ؟ لماذا ؟ من اجل لندن؟ انا اكره قرطاجة . ثم ان لندن ، عاصمة الترف ، هي حاضرة البؤس . ففي ابرشية «تشيرنغ كروس» وحدها يموت مئة انسان جوعا، كل عام. فلننتحب اذن على انكلترة . انا لا اعجب بـ « جون بول » فهل ينبغي لي ان اعجب

بالاخ جوناتان * اذن ؟ انا لا استسيغ هذا الشعبذا العبيد الارقاء الا قليلا. ضعوا «الوقت من ذهب» جانبا فماذا يبقى من انكلترة ؟ ضعوا «القطن ملك» جانبا فماذا يبقى من اميركة ؟ ان المانيا هي السائل اللمفاوي . وان ايطالية هي الصفراء التي تفرزها الكبد » .

وبسط بوسوويه ذراعه نحوه محاولا ان يفرض عليه الصمت، فاستأنف غرانتير حديثه على نحو اروع : « فلتسقط براثنك ، يا ايغل دومو ! انت لا تأثير لك بايماءتك هذه . انني اعفيك من تهدئتي . والى هذا، فانا حزين. اي شيء تريدون ان اقول لكم ؟ الانسان شرير ، الانسان قبيح . لقد انتصرت الفراشة ، وكبا زند الانسان . . . »

ــ « اسكت » ! كذلك صاح بوسوويه من جديد وكان يناقش نقطة قانونية على حدة وكان غارقا الى ابعد من خصره في سلسلة من عبارات اللغة القضائيــة .

وفي الزاوية المقابلة لغرانتير كان جولي وباهوريل يلعبان الدومينو، ويتحدثان عن الحب .

قال جولي : « انك محظوظ . ان لك خليلة لا تكف عن الضحك » .

فاجاب باهوريل : « هذا خطأ ترتكبه هي . ان خليلة المرء تخطىء اذ تضحك . ذلك ان الضحك يشجعك على خداعها. فمجرد رؤيتك اياها مبتهجة يضع حدا لوخز الضمير . اما اذا رايتها محزونة فعندئذ يقلقك ضميرك ».

ــ « يا لك من ناكر للجميل ! المراة الضاحكة شيء حسن ! انت لــن تتشاجر معها ابدا » .

وكانت الزاوية الثالثة مستغرقة في مناقشة شعرية. كانت الميثولوجيا الوثنية تتصارع مع الميثولوجيا المسيحية. وكان الموضوع هو الاولومب الذي ايده جان بروفير بروح هي الرومانسية نفسها . ان بروفير لم يكن حييا الا في فترات السكينة فما ان يستثار حتى ينفجر . كان ضرب من البهجة يميز حماسته ، كان ضاحكا وغنائيا في وقت معاً .

وفي الزاوية الاخيرة ، كانت السياسة موضوع الحديث. كانوا يطعنون على دستور لويس الثامن عشر . ودافع كومبوفير عنه في فتور . وشــن كورفيراك عليه هجوما لا هوادة فيه .

وفجأة انبثقت من صليل بعض الكلمات، وعلى نحو غريب، فكرة صارمة، واجتازت فوضى الكلام التي تصارع في غمرتها غرانتير، وباهوريل، وبروفير، وبوسوويه ، وكومبوفير ، وكورفيراك تصارعاً مشوشا. ففي غمرة الاصوات

* لقب يطلق على شعب الولايات المتحدة .

الصاخبة ختم بوسوويه ، على نحو مفاجيء ، كلاما كان يوجهه الى كومبوفير، بالتاريخ التالي : « ١٨ حزيران ، ١٨١٥ : واترلو » .

ولم يكد ماريوس يسمع هذا الاسم ، واترلو، حتى نزع معصمه من تحت ذقنه وانشأ يحدق الى الجماعة تحديقا موصولا ... ونطق كورفيراك بكلام سخر فيه من نابوليون وواترلو ، فما كان من ماريوس الا ان نهض ومشى في تؤدة نحو خريطة فرنسة المنشورة على الجدار، وكانت تبدو في ادناها جزيرة طوقت باطار منعزل . ووضع اصبعه على هذا الاطار وقال : « كورسيكة . جزيرة صغيرة جعلت فرنسة دولة عظيمة حقا » .

كانت تلك هبة من هواء مثلوج . وكانوا كلهم صامتين . واستشعروا ان شيئا ما على وشك ان يبدا .

ولم يكن من آنجولراس الا ان اجاب من غير ان ينظر الى ماريوس: «ان فرنسة لا تحتاج الى شيء مثل كورسيكة لكي تكون عظيمة » .

ولم يستشعر ماريوس ايما رغبة في النكوص. لقد التفت الى آنجولراس. وجلجل صوته في ارتجاج ناشيء عن ارتعاش اعصابه : «لست انتقص من قدر فرنسة ، ولكن ادغام نابليون بها لا ينتقص من ذلك القدر ، البتة. تعال، دعنا نتحدث اذن . انا وافد جديد عليكم ، ولكني اعترف انكم توقعون الدهش في نفسي . اين نحن ؟ من نحن ؟ فلنوضح آراءنا في الامبراطور . اني اسمعكم تقولون بوونابرت مشددين على الواو مثل الملكيين . وفي استطاعتي ان اقول لكم ان جدي يفوقكم في ذلك ايضا ، انه يلفظها بوونابرته . لقد حسبت انكم شباب . أين حماستكم اذن ، وما الذي تفعلونه بها ؟ بم تعجبون ، اذا كنتم لا تعجبون بالامبراطور ؟ وهل تطمعون في اكثر من ذلك؟ واذا لم تتمنوا مثل هذا الرجل العظيم فأي رجل تتمنون ؟ كان كل شيء . كان كاملا . كان في دماغه مكعب الكفايات الانسانية . لقد وضع القوانين مثل جوستنيانوس ، واملى ارادته مثل يوليوس قيصر ، لقد صنع التاريخ وكتبه ، لقد عرف كل شيء وهو ما لم يمنعه من ان يضحك ضحكة رجل ساذج امام مهد طفله الصغير. وفجأة ، اصغت اوروبة المشدوهة ، وزحفت جيوش، ودارت حظائر المدافع، وامتدت جسور من المراكب فوق الانهار ، وانطلقت سحائب من الخيالة وسط الاعصار ، وضج الكون بالصيحات ، والابواق، وارتجافات العروش، وتذبذبت تخوم الممالك على الخارطة ، وسمع صليل حسام سوبرماني ينبثق من الكور ، ورآه الناس ، راوه هو ، ينتصب واقفا عند الافق، وفي يديه برق، وفي عينيه ضياء ، ناشرا في الرعد جناحيه الاثنين ، الجيش العظيم والحرس القديم ، وكأنه ملاك الحرب الاكبر » .

واعتصم الجميع كلهم بالصمت، وخفض انجولراس راسه، ومن غير ان يأخذ نفسا ، تقريبا ، تابع ماريوس كلامه في حماسة : « لنكن عادلين ، ايها الاصدقاء اي قدر بهي ذلك الذي يجعل الامة امبراطورية لمثل هذا الامبراطور؟ فلأن تبرز وتلي العرش ، ولان تتخذ من كل عاصمة من العواصم محطة لك، ولان تختار رماة قنابلك وتجعل منهم ملوكا ، ولان تصدر امرك باسقاط السلالات المالكة ولان تسمو بأوروبة في مثل سرعة الزحف العسكري، ولان تتبع – في رجل واحد – هنيبعل ويوليوس وقيصر وشارلمان، ولان تطالع كل لحظة في سمت القرون ابراجا من الانتصارات ، ان ذلك كله لشيء جليل ، واي شيء يمكن أن يكون اعظم من هذا ؟ »

فقال كومبوفير : « ان نكون احرارا » .

وخفض ماريوس ، بدوره ، راسه . كانت هذه الكلمات الباردة البسيطة قد شقت تدفقه الملحمي مثل شفرة من فولاذ ، فاستشعر ان هذا التدفق قد تلاشى في قرارة نفسه . وحين رفع عينيه ، لم يكن كومبوفير هناك. ولعله ان يكون قد احس بالارتياح لرده على ذلك التأليه ، فغادر المكان وتبعه الجميع كلهم ما عدا آنجولراس . كانت الحجرة خالية . وانشأ آنجولراس ينظر الى ماريوس في جد بعد ان لم يبق غيرهما في تلك الحجرة . وفي غضون ذلك كان ماريوس قد لم شتات افكاره فهو لا يعتبر نفسه مهزوما . كأن فيه بقية من ثورة كانت على وشك ان تجد تعبيرها في اقيسة منطقية موجهة ضد آنجولراس عندما سمعا فجأة ، شخصا يغني فيما هو يهبط السلم . كان ذلك الشخص هو كومبوفير ، وكان ينشد الابيات التالية :

اذا منحني قيصر ، المجد والحرب ،
واذا تعين علي ان اتخلى عن حب امي ،
فعندئذ اقول لقيصر العظيم، استرجع صولجانك ومركبتك الحربية.
انا افضل امي ، انا افضل امي .

وكان في النبرة العذبة الضارية التي اصطنعها كومبوفير في انشاده ما خلع على هذه المقطوعة عظمة غريبة . وعلى نحو آلي كرر ماريوس ، وقد استغرق في التفكير ، وسدد بصره الى السقف : « امي ؟ ... »

وفي تلك اللحظة احس بيد آنجولراس على كتفه .

وقال آنجولراس له : « ايها المواطن ، ان امي هي الجمهورية » .

٤

قضى ماريوس تلك الليلة في اهتياج عميق ، وفي قتام نفسي كئيب. كان يعاني ما تعانيه الارض لحظة نشقها بالحديد لكي نودعها حبة القمـح . انها لا تستشعر غير الم الجرح . اما اختلاجة البذرة ، وابتهاج الثمرة فلن تعرفهما الا في ما بعد .

كان ماريوس مغموما ، لقد اعتنق ــ وما كاد ــ عقيدة جديدة . فهل يستطيع ان يطرحها بمثل هذه السرعة ؟ وفي ما بينه وبين نفسه قرر انه لا يستطيع . لقد اعلن لنفسه انه لن يشك ، ولكنه شرع يشك بالرغم منه. وعلى الرغم من رغبته القوية في ان يقف حيث هو وان يصمد هناك، فقد اضطر الى ان يستمر ، ويتقدم ، ويدرس ، ويفكر ، ويمضي الى امام . الى اين سيقوده ذلك ؟ لقد خشي ، بعد ان خطا هذه الخطوات كلها ، التي قربته الى ابيه، ان يقوم الان بأي خطوة تبعده عنه . وكان ضيقه النفسي يتعاظم مع كل فكرة تخطر له . وارتفعت من حوله صخور سامقة شديدة التحدر . انه لم يكن على وئام لا مع جده ، ولا مع اصدقائه . كان متهورا مع الاول ، وكان متخلفا عن الاخرين . ولقد استشعر انه يحيا في عزلة مضاعفة ، عن الشيخوخة من ناحية ، وعن الشباب من ناحية ثانية ، ولم يعاود الذهاب الى مقهى الموزين.

وذات صباح ، دخل مدير الخدم غرفة ماريوس ، وطالبه بالدين .

فقال ماريوس : « سل كورفيراك ان يأتي ويتحدث معي » .

واقبل كورفيراك . وفارقهما مدير النزل . وقص عليه ماريوس ما لم يفكر في ان يرويه له من قبل ، وهو انه كان وحيدا في هذا العـالم ، وان ليس له أنسباء البتة . فقال كورفيراك : « ما الذي سيحل بك ؟ »

فاجاب ماريوس : « لست ادري شيئا من ذلك » .

ــ « هل عنـدك مال ؟ »

ــ « خمسة عشر فرنكا » .

ــ « هل عندك ثياب ؟ »

ــ « عنـدي هـذه » .

ــ « هل عندك حلية مـا ؟ »

ــ « عندي ساعة » .

ــ « انا أعرف تاجرا مستعدا لان يأخذ سترتك وبنطلونا واحدا » .

ــ « واحذيتي » .

ــ « ماذا ؟ انك لن تمشي حافيا ؟ يا لها من رفاهية ! »

ـ « هذا سوف يكفيني » .
ـ « وانا اعرف ساعاتيا مستعدا لان يشتري ساعتك » .
ـ « ذلك حسن » .
ـ « لا . انه غير حسن . ما الذي ستفعله فيما بعد ؟ »
ـ « كل ما يتعين علي . ايما عمل شريف على الاقل » .
ـ « اتعرف الانكليزية ؟ »
ـ « لا . »
ـ « هذا مؤسف » .
ـ لماذا ؟ »
ـ « لان لي صديقا ، صاحب مكتبة ، يعد ضربا من الموسوعة. ولقدكان في امكانك ان تترجم له بعض المقالات الالمانية او الانكليزية لو كنت تعرف احدى هاتين اللغتين » .
ـ « سوف اتعلم الانكليزية والالمانية ، وفي انتظار ذلك سوف آكل ملابسي وساعتي » .

وارسل في طلب تاجر الملابس ، فاشترى الثياب الباليةبعشرين فرنكا. وقصد الى الساعاتي ، فاشترى الساعة بخمسة واربعين فرنكا .

وقال ماريوس لكورفيراك وهما عائدان الى الفندق : « هذا مبلغ لابأس به. واذا اضفت اليه الخمسة عشر فرنكا التي معي يصبح المجموع ثمانين فرنكا».

فلاحظ كورفيراك : « وفاتورة الفندق ؟ »

فقال ماريوس : « اوه ، لقد نسيتها » .

فقال كورفيراك : « يا للشيطان سوف يكون عندك خمسة فرنكات لتأكل بها بينا تتعلم الانكليزية ، وخمسة فرنكات بينا تتعلم الالمانية » .

وفي غضون ذلك كانت الخالة جيلنورمان قد انتهت الى اكتشاف المكان الذي اوى اليه ماريوس . وذات صباح ، فيما كان ماريوس عائدا من المدرسة، وجد رسالة من خالته و « الستين بيستولا » ، يعني ستمئة فرنك ذهبي، في علبة مختومة . واعاد ماريوس الليرات الذهبية الثلاثين الى خالته مع رسالة موقرة اعلن فيها ان لديه بعض اسباب الرزق، فهو قادر منذ اليوم على ان يسد حاجاته جميعا . ولم يكن قد بقي لديه ، في تلك اللحظة ، غير ثلاثة فرنكات.

ولم تخبر الخالة جد ماريوس بهذا الرفض خشية ان تثير سخطه. ومن ناحية ثانية، الم يكن قد قال لها: «حذار ان يحدثني احد عن شارب الدماء هذا».

وغادر ماريوس اوتيل دولابورت سان جاك ، غير راغب في ان يثقل على نفسه باي دين .

فصل الشقاء

١

وامست الحياة قاسية على ماريوس. لقد سلخ اياما من غير خبز، وليالي من غير نوم، واماسي من غير شمع، وموقدا من غير نار، واسابيع من غير عمل، ومستقبلا من غير امل، وسترة مثقوبة عند المرفقين، وقبعة عتيقة تغري الفتيات الصغيرات بالضحك، والباب الذي يوصد في وجهك ليلا لانك لم تدفع قيمة الايجار المستحقة، وغطرسة البواب وصاحب الفندق، وسخريات الجيران، وضروب الاهانات، والرضا بالكدح في اعمال حقيرة، والتقزز، والغم، والضنى. لقد تعلم ماريوس كيف يبتلع المرء كل ذلك وكيف تكون هذه الاشياء، في كثير من الاحيان، كل ما تقدمه الايام الى افواه الناس. وفي تلك المرحلة من الحياة حين يحتاج المرء الى الصلف لانه في حاجة الى الحب، استشعر انه موضع الهزء لانه كان رث الثياب، وموضع السخرية لانه كان فقيرا.

وانقضت فترة في حياة ماريوس كنس فيها غرفته بنفسه، واشترى من بائعة الخضر والثمار ما ثمنه فلس واحد من جبن « بري »، وانتظر فيها هبوط الليل ليتخذ سبيله الى الخباز فيشتري رغيفا يحمله خلسة الى عليته وكأنه قد سرقه.

وفي مناسبات عديدة كانت الخالة جيلنورمان تقوم ببعض المحاولات فتبعث اليه بالستين بيستولا. ولكن ماريوس كان يردها اليها دائما قائلا انه في غير حاجة الى شيء.

وكان لا يزال في حداد على ابيه عندما اندلعت تلك الثورة التي تحدثنا عنها وعصفت بعقله. ومن ذلك الحين لم يفارق الملابس السوداء قط. بيد ان ملابسه فارقته. فقد اطل عليه، اخر الامر، يوم لم يبق لديه فيه ثوب ما. وبلي بنطلونه ايضاً. فما الذي يستطيع ان يعمله؟ واعطاه كورفيراك،

وكان قد اسدى هو بدوره بعض الخدمات اليه ، بذلة عتيقة. ودفع ماريوس تلك البذلة الى احد البوابين ، فاعادها اليه جديدة مقابل ثلاثين «سو». ولكن تلك البذلة كانت خضراء . وعندئذ لم يعد ماريوس يغادر مأواه الا بعدهبوط الليل . فكان ذلك يجعل بذلته سوداء . واذ كان يرغب دائما في ان لا ينزع ثوب الحداد ، فقد خلع على جسمه قطعة من الليل .

ومن خلال هذا كله شق سبيله الى صفوف المحامين . وكان النـاس يحسبون انه يقطن غرفة كورفيراك النظيفة ، حيث كانت بضعة من كتب الحقوق ، تردفها وتتممها بضعة اخرى من الروايات الفريدة ، وكان يطلب الى الناس ان يوجهوا اليه رسائلهم على عنوان كورفيراك .

وحين امسى ماريوس محاميا اعلم جده بذلك في رسالة باردة ولكنها حافلة بالخضوع والاحترام . وتلقى مسيو جيلنورمان تلك الرسالة بيديـن راجفتين ، وقراها ، وطرحها ممزقة اربا في سلة المهملات .

وبقوة الكدح ، والشجاعة ، والمثابرة ، والارادة وفق ماريوس الى ان يكسب من عمله نحو سبعمئة فرنك كل عام. كان قد تعلم الالمانية والانكليزية. وقدمه كورفيراك الى صديقه الكتبي، فأخذ يعد مراجعات للكتب، ويترجم مقالات من الصحف، ويعلق الحواشي على الطبعات الجديدة، ويجمع سير الاعلام الخ.

لقد احتل ماريوس ، لقاء اجر سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً، غرفة حقيرة صغيرة من غير موقد ، غرفة يدعونها حجيرة ، لم يكن فيها من الاثـاث غير الضروري الذي لا يستغنى عنه . وكان ذلك الاثاث ملكا له . ولقد اعطى ثلاثة فرنكات شهريا الى امرأة عجوز كانت تتولى امر العناية بالبناء لكي تكنس غرفته، وتحمل اليه كل صباح قليلا من الماء الحار وبيضة طازجة ورغيفا ثمنه فلس واحد . وعلى هذا الرغيف وهذه البيضة كان يفطر . وفي الساعة السادسة مساء كان يهبط الى شارع سان جاك لكي يتعشى في مطعم روسو ، ولم يكن يتناول حساء ما ، مجتزئا بطبق من اللحم ، ونصف طبق من الخضر ، وطبق من الفاكهة او الحلوى بثلاثة فلوس . اما خمره فكانت الماء .

وكانت عند ماريوس دائما بذلتان كاملتان ، احداهما عتيقة « للايـام جميعا »، والاخرى بالغة الجدة ، للمناسبات الخاصة. وكانت كلتاهما سوداء. ولم يكن عنده غير ثلاثة قمصان ، احدها على بدنه ، والاخر في الـدرج ، والثالث عند الغسالة . وكان يجددها كلما بليت .

ولم يبلغ ماريوس هذه الحالة الزاهرة الا بعد صبر دام سنوات طويلة. ولم يعرف ماريوس اليأس يوما واحدا. لقد تحمل كل شيء في مجال الحرمان.

ولقد عمل كل شيء ما خلا الترد ي في الدين . لقد تمدح بهذه المأثرة، وهي انه لم يكن في يوم من الايام مدينا لاحد بفلس واحد. فقد كان الدين، في اعتقاده، اول العبودية . بل لقد استشعر ان الدائن شر من السيد . ذلك بان السيد لا يملك الا شخصك ، اما الدائن فيملك كرامتك ، وفي استطاعته ان يصفعها. وبدلا من ان يستدين ، كان يمتنع عن الطعام .

والى جانب اسم ابيه كان اسم اخر منقوشا على قلب ماريوس ، هو اسم تيناردييه. كان ماريوس قد طوق بضرب من الهالة ذلك الرجل الذي كان مدينا له -كما توهم- بحياة والده ، ذلك الرقيب الذي انقذ الكولونيل وسط قذائف واترلو وقنابلها. انه لم يفصل في يوم من الايام ذكرى هذا الرجل عن ذكرى ابيه ، ولقد كان يجمع ما بينهما في اجلاله. كان ذلك الاجلال ضربا من العبادة على درجتين ، فالمذبح الكبير للكولونيل ، والمذبح الصغير لتيناردييه . وكان مما كثف عرفانه للجميل ادراكه ان تيناردييه قد سقط في مهاوي الفاقة فكادت تبتلعه . فقد علم ماريوس من ابناء مونفيرماي بافلاس الفندقي التعس. ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهودا جبارة لكي يتعقب اثره ، ويحاول العثور عليه في هوة البؤس المظلمة التي اختفى فيها . وكان ماريوس قد جاب البلاد كلها من اجل ذلك . لقد شخص الى شيل ، الى بوندي ، الى غورناي ، الى نوجان ، الى لانيي . وطوال ثلاث سنوات وقف نفسه لهذا الفرض ، منفقا في تنقيباته هذه كل ما وفره من مال ضئيل. بيد انه لم يجد من يزوده بأيما نبأ عن تيناردييه . لقد اعتقد القوم بانه هاجر الى بلد اجنبي . وكان دائنوه قد بحثوا عنه ايضا ، في حب اقل من حب ماريوس ، ولكن في عناد مثل عناده، فلم يوفقوا الى وضع يدهم عليه . ولام ماريوس نفسه ، بل كاد يبغضها ، لاخفاقه في مباحثه. كان ذلك هو الدين الاوحد الذي تركه الكولونيل له، ولقد حسب ماريوس ان في دفعه شرفا له وكرامة . وفكر في ما بينه وبين نفسه : « عجيب ! عندما كان والدي يلفظ انفاسه الاخيرة في ساحة القتال عرف تيناردييه كيف يجده وسط الدخان وقذائف المدافع ويرجع به وقد حمله على منكبيه، ومع ذلك فلم يكن مدينا له بشيء . في حين اني انا ، المدين لتيناردييه بشيء كثير ، اعجز عن الوصول اليه في تلك الظلمة التي يعاني وسطها سكرات الموت ، واعيده بدوري من الموت الى الحياة! اوه ! سوف اجده ! » والواقع ان ماريوس كان مستعدا لان يقدم احدى ذراعيه ثمنا للعثور على تيناردييه ، وان يبذل دمه كله ثمنا لانقاذه من الشقاء .

٢

كان ماريوس قد بلغ ، في تلك الفترة، العشرين من عمره. لقد انقضت ثلاث سنوات على فراقه جده . وكان كل منهما قد لزم موقفه ، فلم يحاولا اصلاح ذات البين ولم يسعيا الى اللقاء . وما جدوى اللقاء ، في الواقع ؟ الكي يتصادما ؟

ولنقل هنا ان ماريوس اخطأ في فهمه لقلب جده. لقد تخيل ان مسيو جيلنورمان لم يحبه في يوم من الايام، وان هذا الرجل العجوز الجاف القاسي الضاحك الذي كان يجدف ، ويصيح، ويعصف، ويرفع عصاه لم يكن يستشعر نحوه غير تلك المودة الخفيفة الصارمةمعا،التي يتكشف عنها عجائز الكوميديا. لقد خدع ماريوس . ان ثمة آباء لا يحبون اولادهم . ولكن ليس ثمة جد لا يهيم بحفيده . والحق اننا قلنا من قبل ان مسيو جيلنورمان كان يعبد ماريوس . لقد عبده بطريقته الخاصة ، على انغام الكلام اللاذع، بل على انغام الصفعات . ولكن ما ان ذهب الغلام حتىاحس بفراغ اسود في فؤاده . لقد اصدر امره بان لا يحدثه احد حديثه منذ اليوم ، آسفا فيما بينه وبين نفسه لان يكون امره قد اطيع على هذا النحو الدقيق. وفي بادىء الامر كان يرجو ان ينكص هذا البوونابرتي ، هذا اليعقوبي ، هذا الارهابي ، على عقبيه . ولكن الاسابيع انقضت ، والاشهر تصرمت ، والسنين حالت، من غير أن يعود شارب الدماء الى الحظيرة . « ولكني ما كنت قادرا على ان افعل شيئا غير طرده ». كذلك قال الجد بينه وبين نفسه ، ثم تساءل : « لو ان ذلك الحادث قد تكرر فهل اعاود الاقدام على ما اقدمت عليه ؟ » وعلى الفور اجابت كبرياؤه ان نعم ، ولكن رأسه العجوز الذي هزه في صمت اجاب في حزن ان لا .

وفيما العجوز يأسف، كان ماريوس يتهلل. لقد محا الشقاء ، شأنه مع ذوي القلوب الطيبة ، كربه ومرارته . كان لا يفكر في مسيو جيلنورمان الا في دماثة، ولكنه كان قد وطن العزم على ان لا يتلقى شيئا اضافيا من الرجلالذي كان شديد القسوة على ابيه . كان ذلك ، الان ، هو التعبير الملطف لسخطه القديم. والى هذا ، فقد كان سعيدا بانه قاسى الآلام ، وبانه ما يزال يقاسيها. كان ذلك من اجل ابيه . لقد ارضته قسوة الحياة، ولقد سرته . كان يقول لنفسه في ضرب من البهجة ان هذا اقلما ينبغي له، وان ذلك كان تكفيرا ، وانه لولا هذا اذن لعوقب على نحو اخر وفي موعد آجل بسبب من لا مبالاته الملحدة بابيه ، وانه ليس من العدل ان يكون ابوه قد قاسى تلك الآلام كلها وان لا يتحمل هو الما ما ، وعلى اية حال فما جهوده وما املاقه اذا قيسا بحياة الكولونيل البطولية ؟

وعاش ماريوس في عزلة . وكان قد قرر ان لا يدخل الجماعة التي يرئسها انجولراس ، وذلك بسبب نزعته الى الابتعاد عن كل شيء ، وبسبب من غلو تلك الجماعة وتطرفها . لقد ظلا صديقين مخلصين . وكانا مستعدين لان يساعد احدهما الآخر ، اذا قضت الحاجة، بمختلف الطرق الممكنة ، ولكن ليس اكثر من ذلك . كان لماريوس صديقان ، شاب هو كورفيراك ، وعجوز هو مسيو مابوف ، وكان اميل الى الصديق العجوز . كان قبل كل شيء مدينا له بالثورة التي اندلعت في نفسه ، كان مدينا له بمعرفته اباه وحبه له . وكان يقول : « لقد اجرى لي جراحة اظلام العدسة البلورية » .

حقا ، لقد كان وكيل الكنيسة هذا حاسما .

بيد ان مسيو مابوف لم يكن في تلك المناسبة شيئا اكثر من رسول هادىء مطواع من رسل العناية الالهية . كان قد نور ماريوس مصادفة ومن غير ان يكون له بذلك علم ، كما تفعل شمعة يحملها شخص ما . لقد كان هو تلك الشمعة لا ذلك الشخص .

اما ثورة ماريوس السياسية الباطنية فقد كان مسيو مابوف عاجزا كل العجز عن فهمها ، او الرغبة فيها ، او توجيهها . انه لم يفهم كيف يشغل الناس انفسهم بالتباغض من اجل اشياء باطلة مثل الدستور ، والديموقراطية، والشرعية ، والملكية ، والجمهورية الخ . في حين يحفل هذا العالم بمختلف ضروب الطحالب ، والاعشاب ، والشجيرات التي يستطيعون النظر اليها ، وبركام من الكتب التي يستطيعون تصفحها . ولقد بذل عناية كبيرة لكي لا يكون قليل الفائدة. ان امتلاكه الكتب لم يمنعه من المطالعة ، وان كونه عالما بالنبات لم يمنعه من ان يكون بستانيا . وحين عرف بونميرسي ، نشأت بينه وبين الكولونيل هذه المشاركة الوجدانية وهي ان ما فعله الكولونيل من اجل الازهار ، فعله هو من اجل الاثمار . وكان مسيو مابوف قد وفق الى انتاج اجاص فاخر ، وكان يشهد القداس بدافع من الدماثة اكثر مما كان يشهده بدافع من العبادة ، ولانه كان يحب محيا الرجال ولكنه يكره صخبهم . واذ كان يشعر ان عليه ان يكون شيئا فيالدولة فقد اختار وظيفة وكيل كنيسة . لقد عاش وحده ، مع مربية عجوز . كان مصابا بنقرس الايدي بعض الشيء ، حتى اذا نام تشبثت اصابعه الهرمة، المتصلبة بالروماتزم ، بثنيات الشرشف. وكان قد الف ونشر « نباتات ضواحي كوتيرتز » المزين بالرسوم الملونة، وهو مصنف جليل كان يحتفظ بالواحه النحاسية ، وكان يبيعه بنفسه . وكان الناس يقبلون مرتين او ثلاث مرات في اليوم فيقرعون جرسه ، في شارع ميزيير ، التماسا لذلك الكتاب . وكان يجني من ورائه الفي فرنك كاملة كل

عاموكان ذلك كل دخله تقريبا. وبرغم فقره ، وفق الى ان يلم شتات مجموعة نفيسة من النسخ النادرة، في كل موضوع. انه لم يغادر منزله قط ، يوما ، الا وهو متأبط كتابا ، وكثيرا ما ينقلب اليه حاملا كتابين . وكـان الزخرف الوحيد الذي يزين غرف الدور الارضي ذات الحديقة الصغيرة التي تؤلف بيته ، بعض مجموعات النباتات المؤطرة المحفوظة للدرس ، وبعض النقوش من عمل الفنانين القدماء .

وكانت خادمته هي الاخرى ، ضربا من البراءة . وكان هرها ،«سلطان» ، قد ملأ فؤادها وسد حاجة ذلك القدر الذي كانت تملكه من العاطفة . ان ايا من احلامها لم يذهب بها الى تخوم رجل ما. وهي لم تجتز في يوم من الايام حدود هرها ذاك . لقد كان لها ، مثله ، شاربان وكانت تعرف القراءة ، وكان مسيو مابوف قد اطلق عليها اسم الام بلوتارك .

ووقع ماريوس موقعا حسناً عند مسيو مابوف ، لان ماريوس، الغض الإهاب العذب الروح ، اسبغ الدفء على شيخوخته من غير ان يثير خوفه .

وحوالي عام ١٨٣٠ ، توفـي اخوه الكاهن . وبعد ذلك مباشرة تقريبا اظلم افق مسيو مابوف كله . لقد خسر ، بافلاس كاتب من الكتاب العدول ، عشرة الاف فرنك كانت كل ما يملكه من مال باسم اخيه وباسمه. وادت ثورة تموز الى ازمة في بيع الكتب. وتوقف رواج « نبات ضواحي كوتيرتز » فجأة. فتصرمت اسابيع من غير ان يفد من يشتريه . وبالاختصار ، فقد غادر مسيو مابوف شارع ميزيير ذات يوم ، وباع جزءا ـ لا من كتبه ، ولكن من صـوره المطبوعة على الخشب ، وكان اقل تعلقا بها منه بمجموعةكتبه ـ واقام فيشبه كوخ بقرية اوسترليتز حيث استأجر ثلاث غرف ، وحديقة مطوقة بسياج من النبات الشائك ، وبئرا ، لقاء خمسين ريالا في العام . ولقد افاد من هذه النقلة فباع اثاثه كله تقريبا . ويوم دخل الى هذا المأوى الجديد استشعر ابتهاجا بالغا ، وراح يدق المسامير بنفسه ليعلـق عليها النقوش والمجموعات النباتية المحفوظـة .

ومالت نفس ماريوس الى هذا العجوز الابيض القلب ، الذي رأى الـى العوز يستبد به شيئا بعد شيء ، ولكن من غير ان يلم به الحزن على الاطلاق وكان ماريوس يلتقي كورفيراك ويمضيان لزيارة مسيو مابوف .

وكان يبهج قلب ماريوس ان يتمشى وحده مسافات طويلة، في الجادات الخارجية ، او في الـ «شان دو مارس» ، او في ممرات اللوكسمبورغ الضيقة التي كان الناس قليلا ما يسلكونها. وكان ينفق ، في بعض الاحيان ، نصف نهار ناظرا الى بستانمن البساتين، والى الدجاج فوق المزابل ، والى الحصان يدير

دولاب الناعورة . وكان عابرو السبيل ينظرون اليه في دهش، وظن بعضهم ان له مظهــرا مريبا وسيماء مشؤومة . انه لم يكن غير شاب فقير ، يحلم من غــير مــا مأرب .

وفي احــدى نزهاته هذه ، اكتشف بيت غوربو العتيق . واذ جذبه انعزال ذلك البيت ورخصه ، فقد استأجر غرفة من غرفه . وعرفه القوم هناك باسم ماريوس ليس غير .

وحوالي منتصف تلك السنة ، ١٨٣١ ، علم ماريوس من العجوز التــي تخدمه ان جيرانه ، اسرة جوندريت البائسة ، سوف يقذف بهم الى الشارع . ان ماريوس ، الذي قضى اياما كلها تقريبا خارج غرفته ، لم يكن يدري ، او لم يكد ، ان له جيرانا .

وقال : « ولماذا يخرجونهم من بيتهم ؟ »

ــ « لانهم لا يدفعون الاجرة . لقد تأخروا عن دفع قسطين اثنين ».

ــ « وما مبلــغ ذلك ؟ »

فقالت العجوز : « عشرون فرنكا » .

وكان ماريوس يحتفظ بثلاثين فرنكا في احد الادراج . وقال للعجوز : «خذي. هذه خمسة وعشرون فرنكا . ادفعي الاجرة عن هذه الاسرة البائسة، وقدمي اليها خمسة فرنكات ، ولا تقولي ان هذا المبلغ مني » .

٣

واتفق ان الكتيبة التي كان الملازم الاول تييودول منضويا تحت لوائهــا عسكرت في باريس . وكانت هذه مناسبة خطرت فيها للخالة جيلنورمان فكرة جديدة . لقد فكرت ، في المرة الاولى ، ان تخضع ماريوس لرقابة تييودول . اما الان فقد ائتمرت لكي تجعل تييودول يخلف ماريوس .

وايا ما كان،وفي حالة شعور الجد بحاجة الى وجه فتى في المنزل فقد كان من الملائم ان يبحث عن ماريوس اخر .

وذات صباح ، فيما كان مسيو جيلنورمان يقرأ شيئا مثل صحيفــة « لا كوتيديين » ، دخلت ابنته عليه ، وقالت بصوتها الاكثر رقة ، اذ كــانت المسألــة تتصل بالشخص الاثير لديها : « ابي ، تييودول سوف يأتــي هــذا الصباح ليقدم اليك احترامه » .

ــ « ومن هذا ، تييودول ؟ »

ــ « آبن ابــن اخيك » .

ــ فقال الجــد : « آه ! »

ثم استأنف قراءته ، ولم يفكر بعد بابن ابن اخيه. وسرعان ما غلب عليه الاهتياج ، شأنه كلما طالع شيئا ، تقريبا . لقد اعلنت الجريدة التي يقراها – وكانت ملكية الهوى – ان طلاب مدرستي الحقوق والطب سوف يجتمعون في البانتييون ظهرا ، للتداول والمذاكرة. وكان الموضوع يدور حول قضية من قضايا الساعة : مدفعية الحرس الوطني ، والخلاف بين وزارة الحرب و « ميليشيا المواطنين » حول مسألة المدافع المنصوبة في ساحة اللوفر . كان الطلاب يعتزمون « المذاكرة » في امر ذلك . وكان هذا كافيا ، وحده لاثارة مسيو جيلنورمان .

وفكر في ماريوس الذي كان طالبا ، والذي كان من الراجح ان يذهب ، مثل غيره « للمذاكرة ، ظهرا ، في ساحة البانتييون » .

وفيما هو مستغرق في هذا التفكير الاليم دخل الملازم الاول تيبودول ، مرتديا ملابسه المدنية ، فقدمته الانسة جيلنورمان في حذر قائلة لابيها : « تيبودول ، ابن ابن اخيك » .

وفي همس قالت للملازم الاول: « وافق على كل شيء » . وانسحبت .

ولم يكن الملازم متعودا على اللقاءات الموقرة جدا ، فتلجلج في شيء من الحياء: «صباح الخير، يا عماه!» فقال الرجل العجوز: «آه! هذا انت! اجلس» .

وبعد ذلك . نسي العجوز ضيفه نسيانا كاملا .

وجلس تيبودول ، ونهض مسيو جيلنورمان .

وشرع مسيو جيلنورمان يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، واضعا يديه في جيبيه متحدثا بصوت مرتفع ، فاركا اصابعه العصبية الهرمة الساعتين اللتين كان يحملهما في جيبي صدرته .

– «هذه الكومة من الغلمان الاغرار! انهم يجتمعون في ساحة البانتييون! وحق عاهرتي ! صبيان كانوا امس في سن الرضاع !. ولو ان امرءا عصر انوفهم ، اذن لجرى اللبن منها ! ولسوف يتذاكرون ظهر غد ! الى اين نحن صائرون ؟ الى اين نحن صائرون ؟ واضح انا صائرون الى الهاوية ! فالى هناك تسوقنا جماعة اللا قمصان ! مدفعية المواطنين ! يتذاكرون في امر مدفعية المواطنين ! يخرجون ويثرثرون في الهواء الطلق عن ضراط الحرس الوطني المتواصل ! ومع من سوف يجدون انفسهم هناك ؟ انظر قليلا الى اين تقودنا البعقوبية . اني اراهن على ما تشاء ، على مايون مقابل قشة ، انه لن يجتمع هناك غير سجناء سابقين ومحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ان الجمهوريين والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لينسجمون مثل انف ومنديل . »

فقال تيبودول : « هذا صحيح . »

والتفت مسيو جيلنورمان نصف التفاتة ، فرأى تيبودول ، واضاف : « حسبك ان تفكر ان هذا الحقير كان شريرا الى درجة جعلته يصبح عضوا في جمعية سرية. لماذا ترك بيتي ؟ لكي يذهب ويعتنق المذهب الجمهوري ! بش ! قبل كل شيء ، الناس لا يريدون جمهوريتك ، انهم لا يريدونها ، انهم عاقلون . انهم يعرفون جيدا انه كان ثمة ملوك دائما وانه سوف يكون ثمة ملوك دائما ، وهم يعرفون جيدا ان الشعب على اية حال هو الشعب ، انهم يسخرون من جمهوريتك ، اسامع انت ، ايها المعتوه ؟ »

فقال تيبودول : « انت على صواب ، يا عماه . »

وتابع مسيو جيلنورمان حديثه : « انه مثل سيييس قاتل ملك ينتهي الى أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ ! تلك هي الطريقة التي ينتهون اليها دائما. انهم يجلدون انفسهم بضمير المفرد وبلفظة «مواطن» لكي يصلوا آخر الامر الى ان يدعوهم الناس السيد الكونت،السيد الكونت بطول ذراعي! يا لسفاحي ايلول هؤلاء! الفيلسوف سيييس! انا سعيد بان اقول انيلم اكترث في يوم من الايام لفلسفات هؤلاء الفلاسفة جميعا اكثر مما اكترثت لنظارتي مهرج التريفولي . ايها المواطنون ، اني اقول لكم ان تقدمكم جنون ، وان انسانيتكم حلم ، وان ثورتكم جريمة ، وان جمهوريتكم هولة ، وان فرنساكم الفتاة منبثقة من الماخور ! اني اؤكد ذلك لكم جميعا ، سواء اكنتم صحافيين،امعلماء اقتصاد ، ام فقهاء ، ام كنتم جهابذة في الحرية والمساواة ، والاخاء ، اكثر من ساطور المقصلة ! اقول لكم ذلك ، ايها الرجال الطيبون ! »

فصاح الملازم الاول : « وحق الاله ! هذا صحيح على نحو رائع . »

وعدل مسيو جيلنورمان عن ايماءة كان قد بدأ بها ، واستدار ، وحدق الى ما بين عيني تيبودول الرماح ، وقال : « انت معتوه ! »

التقاء نجمين

١

في تلك الحقبة، كان ماريوس شابا جميلا ، ربعة، ذا شعر كثيف فاحم ، وجبين عال ذكي ، وسيماء مخلصة هادئة ، وكان يطفو على محياه كله شيء شامخ ، متفكر ، بريء . كانت عيناه صغيرتين ، وكانت نظرته عظيمة .

وفي الفترات التي انتهى فيها الى الدرك الاسفل من الفقر لاحظ ان الفتيات كن يشحن عنه بوجوههن حين يمر ، فكان يفر او يختبىء وفي صدره شعور قاتل . كان يحسب انهن ينظرن اليه بسبب من ملابسه البالية ، وانهن كن يسخرن منه. والواقع انهن نظرن اليه بسبب من ملاحته ، وانهن اشتهينه . وكان سوء التفاهم الابكم هذا ، بينه وبين عابرات السبيل المليحات، قد اورثه نفرة من المجتمع . انه لم يختر ايا منهن ، لسبب وجيه هو انه كان يفر من وجوههن جميعا .

وفي احدى المناسبات لقيه كورفيراك فقال له : « مرحبا ، ايها السيد الراهب . »

بيد انه كانت ثمة من بين خلق الله جميعا ، امرأتان لم يفر ماريوس منهما قط ، ولم يتجنبهما البتة . والحق انه كان جديرا بان يدهش لو ان احدا قال له انهما امرأتان . فاما اولاهما فالعجوز ذات اللحية التي كانت تكنس غرفته ، واما الاخرى فكانت فتاة صغيرة كان كثيرا ما يراها ولكنه لم ينظر أليها قط .

فمنذ اكثر من عام لاحظ ماريوس في مجاز منعزل من حديقة اللوكسومبورغ رجلا وفتاة صغيرة كانا يجلسان جنبا الى جنب على المقعد نفسه في طرف المجاز الاقصى ، قرب «شارع الغرب.» وكلما قادت الصدفة ماريوس الى هذا المجاز وجد هذين المخلوقين هناك . كان الرجل في نحو

الستين ، وكان يبدو محزونا رصينا . وما كان يدع عينه تقع على عين امرىء ما . كان يرتدي بنطلونا ازرق ، وسترة طويلة زرقاء، وقبعة عريضة الحاشية بدت جديدة دائما ، وعقدة عنق سوداء ، وقميصا ابيض ناصعا ولكنه مخيط من قماش غليظ .

واول مرة جلست فيها الفتاة الصغيرة التي رافقته على المقعد الذي بدا وكأنهما قد تبنياه ظهرت اشبه بفتاة في الثالثةعشرة او الرابعةعشرة، مهزولة حتى البشاعة تقريبا ، ومع ذلك فقد كان من المتوقع ان تنعم في المستقبل بعينين ساحرتين. كانت ترتدي ثوبا عجائزيا واطفاليا في آن معا ، كذلك الذي تلبسه الفتيات في مدرسة الدير . كانت تبدو عليهما سيماء اب وابنته .

وطوال يومين او ثلاثة ايام ، تأمل ماريوس هذا الرجل العجوز الذي لم يصبح بعد هرما ، وهذه الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعد مبلغ المراة ، ثم لم يلق اليهما بالا بعد ذلك قط . اما هما فقد بدا وكأنهما لم يرياه ولو مجرد رؤية . كانت الضلة تثرثر في غير انقطاع ، وفي ابتهاج ، اما الرجل العجوز فكان يتكلم قليلا ، ويتطلع اليها بين الفينة والفينة بعينين مفعمتين بابوة لا سبيل الى وصفها .

كان من داب ماريوس ان يقبل من طرف المجاز الذي يواجه مقعدهما ، فيتمشى على طول ذلك المجاز ، مارا امامهما ، ثم يرتد الى الطرف الاقصى الذي اقبل منه وهكذا . كان يقوم بحركة الذهاب والاياب هذه خمس مرات او ست مرات في كل نزهة من نزهاته ، وكان يقوم بكل نزهة من نزهاته تلك خمس مرات او ست مرات في الاسبوع ولكن من غير آن يتبادل ، هو وهذين المخلوقين ، تحية ما وكذلك لاحظهما كورفيراك في وقت ما ، ولكنه سارع الى اجتنابهما بعد ان وجد الفتاة قبيحة . واذ بدهه ثوب الفتاة وشعر الرجل العجوز فقد سمى البنت مدموزيل لونوار (السوداء) وسمى الأب مسيو لو بلان (الابيض) .

وهكذا رآهما ماريوس ، كل يوم تقريبا ، وفي الساعة نفسها ، خلال العام الاول . لقد وقع الرجل في نفسه موقعا حسنا ، ولكنه وجد الفتاة بغيضة بعض الشيء .

٢

وفي السنة الثانية ، عند مطلع هذا التاريخ الذي بلغه القارىء تماما ، اتفق ان اقلع ماريوس عما الفه من عادة الذهاب الى حديقة اللوكسومبرغ فانقضت ستة اشهر تقريبا لم تطأ قدماه في خلالها مجازه ذاك. واخيرا انقلب

الى هناك، ذات يوم ، كرة اخرى. وانما كان ذلك في صباح يوم صاح من ايام الصيف ، وكان ماريوس مبتهج النفس شأن المرء حين يكون الجو رائقا .

ومضى الى « مجازه » مباشرة . ولم يكد يبلغه حتى رأى ، على المقعد نفسه ايضا ، هذين المخلوقين المعروفين . حتى اذا اقترب منهما وجد ان الرجل كان هو نفسه من غير شك، على حين بدا له ان الفتاة لم تعد تلك التي كانت تصحبه من قبل . كانت الفتاة التي رآها الان جميلة تتمتع بجميع ملامح المرأة الاكثر فتنة : شعر كستنائي تظلله عروق من الذهب ، وجبين بدا وكأنه منحوت من رخام ، ووجنتان كأنهما مصنوعتان من ورد ، ولون ارجواني شاحب ، وبياض مشرب بالاحمرار ، وفم تنبثق منه ابتسامة كالضياء وصوت كالموسيقى .

وحين مر ماريوس على مقربة منها ، لم يستطع ان يرى عينيها اللتين كانتا مطرقتين دائما . انه لم ير غير اهدابها الكستنائية الراشحة ، بالظلال والحياء .

ولكن ذلك لم يمنع الطفلة الجميلة من الابتسام فيما اصغت الى الرجل الاشيب الذي كان يتحدث اليها . ولم يكن ثمة شيء اشد سحرا من هذه الابتسامة الطريئة بعينين مطرقتين .

وحسبها ماريوس للوهلة الاولى ، بنتا ثانية للرجل نفسه ، اختا لاريب فيها للفتاة التي رآها من قبل . ولكن حين قادته نزهاته المعتادة التي لا تتغير الى قريب من مقعدها ، مرة ثانية ، ونظر اليها في انتباه ، ادرك انها تلك الفتاة عينها . ففي مدى ستة اشهر امست الفتاة الصغيرة شابة فتية ، ذلك كل ما هنالك ...

ثم انها لم تعد تلك الطالبة الداخلية بقبعتها المصنوعة من نسيج ذي وبر ، وثوبها المخيط من صوف الضأن المريني ، وحذائها التلمذي ، ويديها الحمراوين . كان الذوق قد وفد عليها مع الجمال . وكانت قد امست حسنة البزة تزينها اناقة بسيطة خلو من التكلف . كانت ترتدي ثوبا من دمقس اسود ، وصدرة من النسيج نفسه ، وقبعة من «كريب» ابيض. وكان قفازاها الابيضان يكشفان عن نعومة يدها العابثة بمقبض مظلتها المصنوع من العاج الصيني ، وكانت زينتها كلها تتنفس باريج الشباب النافذ ، كلما مر المرء على مقربة منها .

وحين انتهى ماريوس الى قريب منها ، للمرة الثانية ، رفعت الفتاة الشابة جفنيها . لقد نظرت الى ماريوس في لا مبالاة كما كان خليقا بها ان تنظر الى القرد الصغير الذي يعدو تحت شجرات الجميز ، او الى الزهرية الرخامية

التي تلقي ظلها على المقعد . وواصل ماريوس نزهته وهو يفكر في شيء آخر .
ومر اربع مرات او خمس مرات اخرى على مقربة من المقعد الذي جلست عليه الفتاة الشابة ، ولكن من غير ان يدير عينيه نحوه مجرد ادارة . .
وذات يوم ، كان الهواء معتدلا ، وكانت حديقة اللوكسومبورغ مغمورة باشعة الشمس وبالظلال ، وكان ماريوس قد فتح روحه كلها للطبيعة ، ولم يعد يفكر في شيء . لقد عاش وتنفس ، ولقد مر بحذاء ذلك المقعد ، فرفعت الفتاة الشابة عينيها نحوه ، فالتقى نظراهما . ولكن اي شيء كان في نظرة الفتاة الشابة ؟ لقد عجز ماريوس عن الاجابة ، لم يكن ثمة شيء ، وكان ثمة كل شيء . لقد كان ذلك ضياء غريبا .

وغضت من بصرها ، وواصل هو سبيله . ان ما رآه لم يكن عين طفل ساذجة سليمة الطوية . كان هاوية محاطة بالاسرار ، هاوية فتحت فاها نصف فتحة ثم اغلقته فجأة . فثمة فترة تنظر فيها كل فتاة شابة هذه النظرة . والويل لمن يتفق أن يكون هناك !
وفي المساء ، عندما رجع ماريوس الى عليته ، القى نظرة على ملابسه . ولاول مرة ادرك باية قذارة ، وقلة لياقة كان يتنزه في حديقة اللوكسومبورغ مرتديا « بذلته اليومية » تلك ، وقبعة محطمة قرب العروة ، وحذاء غليظا من احذية سائقي العربات ، وبنطلونا اسود تلتمع ركبتاه ، وسترة سوداء شحبت خيوط مرفقيها .

وفي اليوم التالي، في الساعة المعتادة، اخرج ماريوس من خزانته سترته الجديدة ، وقبعته الجديدة، وحذاءه الجديد ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ.
وفيما هو في بعض الطريق ، التقى بكورفيراك وتظاهر بانه لم يره. حتى اذا انقلب كورفيراك الى غرفته قال لاصدقائه : « لقد التقيت اللحظة بقبعة ماريوس الجديدة وسترته الجديدة ، وماريوس في داخلهما. وليس من شك بي انه كان ذاهبا الى امتحان . لقد بدت على وجهه سيماء بلاهة كاملة . »
حتى اذا وصل الى حديقة اللوكسومبورغ دار دورة حول الحوض ونظر الى الاوز السابح فيه . واخيرا مضى الى « مجازه » ، في اناة، وكانما يمضي اليه في اسف . حتى اذا انتهى الى المجاز رأى مسيو لوبلان والفتاة الشابة جالسين ، في الطرف الاخر ، «على مقعدهما» . وزرر سترته ، وشدها الى ادنى لكي يزيل ما قد يشينها من تغضن ، وتأمل في زهو رونق بنطلونه وبهاءه ، وزحف الى المقعد .
كان كلما ازداد من المقعد قربا ازدادت خطواته تباطؤا حتى اذا انتهى الى مسافة ما من المقعد ، وقبل ان يصل الى اقصى المجاز بكثير، كف عن المسير ،

وتراجع من غير ان يدري لذلك سببا . وليس من ريب في انه كان من العسير على الفتاة الشابة ان تلمحه من بعيد وترى هيئته البديعة في سترته الجديدة. وايا ما كان ، فقد وقف منتصب القامة لكي يبدو حسن السمت اذا ما اتفق لاحد خلفه ان يرى اليه .

وبلغ الطرف المقابل ثم رجع . وهذه المرة اقترب ، اكثر بعض الشيء ، من مقعدها ، بل لقد انتهى الى نقطة تقع على مسافة ثلاث شجرات منه، ولكنه استشعر هناك بعجز عن مواصلة التقدم لا سبيل الى وصفه ، فتردد . لقد خيل اليه ان وجه الفتاة الشابة انحنى نحوه . ومع ذلك فقد بذل جهدا رجوليا عظيما ، فقهر تردده ، وواصل تقدمه . وبعد بضع ثوان مر امام المقعد ، محمر الوجه حتى الاذنين ، من غير ان يجرؤ على ان يلقي نظرة ما الى اليمين او الى الشمال ، واضعا يده في سترته مثل رجل من رجال الدولة . ولحظة مر بالفتاة خفق قلبه خفقانا مروعا . وسمع صوتا يمتنع على الوصف كان «صوتها» من غير ريب. كانت تتحدث في سكينة. وكانت بارعة الجمال .

واجتاز بالمقعد، ومضى الى اقصى المجاز الذي كان بالغ القرب، ثم استدار ومر كرة اخرى امام الفتاة الجميلة . وهذه المرة كان شديد الشحوب .

ولم يقم باية محاولة جديدة للاقتراب من المقعد، لقد وقف عند منتصف المجاز تقريبا ، وجلس هناك ملقيا كثيرا من النظرات الجانبية، ومفكرا في اعماق عقله ان من العسير على اية حال ان تكون الفتاة ذات القبعة البيضاء والثوب الاسود خالية الذهن تماما من بنطلونه الثقيل وسترته الجديدة .

وبعد ربع ساعة ، نهض وكأنما يريد ان يستأنف سيره نحو ذلك المقعد المطوق بهالة . بيد انه ظل واقفا لا يتحرك . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر شهرا ، قال في ذات نفسه ان هذا السيد المتعود ان يجلس هناك مع ابنته كل يوم قد لاحظه، هو ايضا ، من غير شك ، ولعله وجد في مواظبته شيئا غريبا.

وظل هكذا بضع دقائق مطرق الرأس، راسما بعض الاشكال على التراب، بواسطة عصا صغيرة كانت في يده. ثم انه استدار فجأة واعرض بجانبه عن المقعد مبتعدا عن مسيو لوبلان ، وعن ابنته ، وانقلب الى غرفته .

وذلك اليوم نسي ان يتناول عشاءه . ولم يأو الى فراشه الا بعد ان فرش سترته جيدا وطواها في عناية. وفي اليوم التالي لاحظت «مدام بوغون» البوابة الموكول اليها امر العناية ببيت غوربو العتيق في انشداه ، ان مسيو ماريوس غادر غرفته كرة اخرى وهو لابس بذلته الجديدة .

لقد مضى كرة ثانية الى حديقة اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يذهب الى ابعد من مقعده القائم عند منتصف المجاز . وجلس هناك ، كما جلس امس ،

منعما النظر من بعيد ، لامحا على نحو واضح القبعة البيضاء، والثوب الاسود ، وبخاصة الضياء الازرق . ولم يتحرك من مجلسه ذاك ، ولم ينقلب الى غرفته الا بعد ان اوصدت ابواب اللوكسومبورغ . انه لم ير مسيو لوبلان وابنته ينصرفان فاستنتج من هنا انهما غادرا الحديقة من الباب المؤدي الى « شارع الغرب » .

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك للمرة الثالثة ، صعقت « مدام بوغون » ايضا . لقد خرج ماريوس وهو لابس بذلته الجديدة . وصاحت « ثلاثة ايام على التعاقب . » وحاولت ان تلحق به ، ولكن ماريوس مشى برشاقة وفي خطى واسعة جدا ، فارتدت لاهثة ، ساخطة . كان ماريوس قد ذهب الى حديقة اللوكسومبورغ .

وانقضى اسبوعان على هذا النحو . ولم يعد ماريوس يقصد الى اللوكسومبورغ ابتغاء النزهة ، ولكن ليجلس في المكان نفسه دائما ، ومن غير ان يدري لماذا . . .

٣

وفي اواخر الاسبوع الثاني ، كان ماريوس جالسا كالعادة على مقعده ، ممسكا بيده كتابا لم يقلب صفحة من صفحاته منذ ساعتين . وفجأة ، سرت في اوصاله رعدة . كان حدث خطير قد وقع في اقصى المجاز . لقد غادر مسيو لوبلان وابنته مقعدهما ، بعد ان اخذت البنت بذراع الاب، ومضياً في اناة نحو منتصف المجاز حيث جلس ماريوس. واغلق ماريوس كتابه ، ثم اعاد فتحه ، ثم حاول ان يقرأ . وارتعد . كانت الهالة تتقدم نحوه مباشرة . وقال في ذات نفسه : « آه يا الهي ! لن يكون لدي متسع من الوقت لكي اتخذ موقفا . » وفي غضون ذلك كان الرجل الاشيب والفتاة الشابة يتقدمان . لقد بدا له ان هذا سوف يستمر قرنا من الزمان وان هذا لم يكن غير ثانية واحدة . وسأل نفسه : « ما الذي حملهما على المجيء الى هنا ؟ كيف ؟ انها سوف تمر من هنا . ان قدميها سوف تطآن هذا التراب على بعد خطوتين مني ليس غير ! » واضطرب اضطرابا شديدا ، وتمنى لو كان وسيما جدا ، ولو كان يحمل صليب جوقة الشرف . لقد سمع وقع خطواتها الرفيقة الموزونة يقترب . ومرت الفتاة الشابة ونظرت اليه نظرا موصولا جعله يرتجف من قمة رأسه الى اخمص قدميه . لقد بدا وكأنها تؤنبه لتخلفه هذه المدة كلها عن المجيء اليها وانها قالت : « اني انا القادمة . »

واستشعر وكأن دماغه يغلي على نار . كانت قد اقبلت نحوه . يا

للسعادة ! وبعد ، فما كان اروع نظراتها اليه!لقد بدت اجمل مما بدت في ايما وقت من الاوقات ، وكان جمالها من ذلك الضرب الانثوي الملائكي في آن معا ، والجدير بان يغري بترارك بالغناء ، ودانتي بالركوع .

واتبعها بصره حتى غابت عن النظر، ثم شرع يمشي في حديقة اللوكسومبورغ مثل رجل معتوه . واغلب الظن انه انشأ يضحك في بعض الاحيان ، متوحدا ويتحدث في صوت مرتفع . وكان موزع الفكر ، امام جماعة من مربيات الاطفال، الى درجة جعلت كلا منهن تعتقد انه متيم بها . . . وغادر الحديقة ليبحث عنها في شارع من الشوارع . . . وقضي الامر . لقد احب ماريوس امراة . كان قدره يتخذ سبيله نحو المجهول .

٤

وتصرم شهر كامل قصد ماريوس ، خلاله الى حديقة اللوكسومبورغ كل يوم . فما ان تحين تلك الساعة حتى يعجز كل شيء عن ابقائه بعيدا عن ذلك المكان.

وكان قد امسى اكثر جراة ، فهو يقترب من المقعد اكثر من ذي قبل . بيد انه لم يمر بذلك المقعد بعد ، على الاطلاق، مطيعا في آن معا غريزة الخوف وغريزة الفطنة اللتين يتميز بهما العشاق . لقد قدر ان من الخير له ان لا يلفت «انتباه الاب» . وفي بعض الاحيان، كان يقف جامدا خلف تمثال لـ «ليونيداس» او لـ «سبارتاكوس» او غيرهما ، وفي يده كتاب كانت عيناه ترتفعان من فوقه على مهل ، وتبحثان عن الفتاة الجميلة، فيما كانت هي بدورها تدير نحوه جانبا من وجهها الفاتن ، في ابتسامة غامضة . وفيما هي تتحدث باكثر ما يكون من الطبيعة والسكينة مع الرجل الاشيب، سددت الى ماريوس عينا عذراء مغرمة مستغرقة في الاحلام . كان لسانها يجيب احدهما، وكانت عينها تجيب الاخر .

ويجب ان نفترض ، مع ذلك ، ان مسيو لوبلان ادرك شيئا من هذا اخر الامر اذ كان ينهض في كثير من الاحيان ويتمشى حالما يجيء ماريوس . كان قد ترك مكانهما المألوف ، واتخذ المقعد القائم عند الطرف الاخر من المجاز ، قرب تمثال «المقاتل» وكأنما كان يريد ان يرى ايتبعه ماريوس ام لا . ولم يفهم ماريوس شيئا من هذا ، وارتكب تلك الغلطة . وامسى «الاب» اقل محافظة على المواعيد، ولم يعد يصطحب «ابنته» كل يوم . كان يفد في بعض الاحيان وحده . وفي مثل هذه الحال، كان ماريوس يسارع الى مغادرة الحديقة . غلطة اخرى .

ولم يحترس ماريوس من هذه الاعراض قط . كان قد انتقل من مرحلة الخوف الى مرحلة العمى . كان حبه قد نما . لقد امسى يراها كل يوم في ما يرى النائم . والى ذلك ، فقد المت به سعادة غير مرتقبة ، فكان هذا اشبه بالزيت

صب على النار ، ومن ثم ضربت على بصره غشاوة مزدوجة . فذات مساء ، عند الغسق ، وجد على المقعد الذي فارقه «مسيو لوبلان وابنته»، منذ لحظة، منديلا ــ منديلا بسيطا غير مطرز ، ولكنه ابيض، رقيق، بدا لماريوس وكأنه يتنفس باطياب تمتنع عن الوصف . وامسك به في تهلل. وكان ذلك المنديل معلما بحرفي U.F. ولم يكن ماريوس يعرف شيئا عن هذه الطفلة الجميلة ، لم يكن يعرف اسرتها ، او اسمها ، او بيتها . كان هــذان الحرفان اول شيء عثر عليه ماريوس منها ، وكانا حرفين اولين من اسـم معبود ، شرع يشيـد فوقهما قصره. كان واضحا ان اسمها الصغير يبدأ ب U . وقال في ذات نفسه: «اورسول، يا له من اسم حلو!» وقبل المنديل،وشم اريجه، ووضعه فوق قلبه، وعلى جسده في ساعات النهار ، وكان لا ينام ليلا الا وقد وضعه على شفتيه.

وصاح : « اني استشعر روحها كلها فيه ! »

وكان ذلك المنديل للرجل العجوز الذي تركه يسقط، بكل بساطة، من جيبه.

وفي الايام التي عقبت عثوره على هذه اللقية لم يظهر في اللوكسومبورغ قط الا مقبلا هذا المنديل ، واضعا اياه على فؤاده . ولم تفهم الطفلة الجميلة شيئا من هذا ، واعلمته بذلك بايماءات لم يرها .

وقال ماريوس : « يا للحياء ! »

٥

وبعد ايام اراد ماريوس ان يعرف اين تسكن اورسول هذه .

كان قد ارتكب خطيئة الوقوع في شرك المقعد المجاور لتمثال «المقاتل» .

وكان قد ارتكب خطأ اخر عندما احجم عن البقاء في حديقة اللوكسومبورغ كلما اقبل مسيو لوبلان وحده اليها. ولقد ارتكب الان خطأ ثالثا، خطأ هائلا «لقد سار على آثار اورسول » .

كانت تسكن في «شارع الغرب» ، بل في جزئه الاشد انعزالا ، في منزل جديد متواضع المظهر مؤلف من ثلاثة ادوار .

ومن ذلك الحين اضاف ماريوس الى سعادته برؤيتها في حديقة اللوكسمبورغ سعادة السير خلفها حتى منزلها .

وتعاظم جوعه . لقد عرف اسمها ، اسمها الاول على الاقل ، ولقد عرف اين تسكن. فهو يريد الان ان يعرف من هي . . . وذات ليلة ، بعد ان تبعهما حتى المنزل، ورآهما يتواريان خلف باب العربات ، دخل على آثارهما وسأل البواب في شجاعة: «ايكون هذا السيد الذي دخل اللحظة هو سيد الدور الاول؟»

فاجابه البواب : « لا . انه سيد الدور الثالث » .

وكانت تلك خطوة اخرى مشاها في طريق المعرفة. وضاعف هذا النجاح جراة ماريوس . وسأل البواب : «من هو هذا السيد ؟ »

ــ «انه رجل طيب كثير الاحسان الى الفقراء على الرغم من انه ليس غنيا».

فأردف ماريوس : « وما آسمه ؟ »

فرفع البواب راسه ، وقال : «ايكون سيدي رجلا من رجال المباحث؟»

وانصرف ماريوس ، وقد غلب عليه الخجل .

وفي اليوم التالي لم يقض مسيو لوبلان وابنته في حديقة اللوكسمبورغ غير برهة قصيرة . وتبعهما ماريوس الى « شارع الغرب » جريا على عادته . حتى اذا انتهيا الى باب العربات ، ادخل مسيو لوبلان ابنته امامه ، ثم توقف قبل ان يجتاز العتبة ، واستدار وحدق الى ماريوس تحديقا موصولا .

وفي اليوم الذي تلا ، لم يذهب الى حديقة اللوكسمبورغ . لقد انتظره ماريوس هنا طوال النهار ، ولكن من غير طائل . حتى اذا هبط الليل شخص الى شارع الغرب ، فرأى نورا ينبعث من نوافذ الدور الثالث . وتمشى تحت هذه النوافذ حتى اطفىء النور .

وفي اليوم التالي لم يجىء احد الى اللوكسمبورغ . لقد انتظر ماريوس طوال النهار ، ثم مضى ليقوم بواجبه الليلي تحت النوافذ. ولقد شغله ذلك حتى الساعة العاشرة مساء . ولم يتناول طعام العشاء .

وسلخ اسبوعا على هذا النحو . ولم يعاود مسيو لوبلان وابنته الظهور في حديقة اللوكسمبورغ . وراودت ماريوس ظنون كئيبة . ولم يجرؤ على مراقبة باب العربات في اثناء النهار. فاجتزا بالذهاب ليلا ليتأمل ضوء زجاج النوافذ الضارب الى الحمرة . وبين الفينة والفينة ، كان يرى ظلالا تروح وتجيء ، فيخفق فؤاده خفقانا شديدا .

وفي اليوم الثامن لم يجد ، حين وصل الى المنزل ، ايما ضوء ينبعث من النوافذ. وقال: «ماذا ؟ المصباح لم يشعل بعد . ومع ذلك فالدنيا ليل ، ام انهما قد خرجا الى مكان ما ؟ »

وانتظر . انتظر حتى الساعة العاشرة . حتى منتصف الليل . حتى الواحدة صباحا . ولكن ضوءا ما ، لم ينبعث من نوافذ الدور الثالث . ولكن شخصا ما ، لم يدخل الى المنزل . وانصرف متجهما كاسف البال .

وفي غد لم يجد احدا في حديقة اللوكسمبورغ . وانتظر. حتى اذا هبط الليل ومضى الى المنزل . لم يكن ثمة نور منبعث من النوافذ ، وكانت المصاريع الخارجية موصدة . كان الدور الثالث مظلما بالكلية .

لقد انتقل الاب وابنته من المنزل .

المعلم مينيت

ان تحت المجتمع كهفا ضخما هو كهف الشر، ولسوف يظل هذا الكهف قائما تحت المجتمع الى يوم يزول الجهل .

وانما يقع هذا الكهف تحت ذلك كله ، وانه لعدو لذلك كله . انه البغض الذي لا يقيده استثناء . وهذا الكهف لا يعرف فلاسفة البتة . ان مديته لم تبر يراعة ما ، في يوم من الايام. فليس لسواده ايما صلة بسواد المحبرة البهي. ان اصابع الليل المتشنجة تحت هذا السقف الخانق لم يقدر لها ان قلبت صفحات كتاب ، او بسطت جريدة قط . ان لذلك الكهف هدفاً ، هو انهيار كل شيء .

اجل كل شيء. انه لا ينسف، في دبيبه المخيف، نظام العصر الاجتماعي فحسب، بل انه ينسف الفلسفة، انه ينسف العلم، انه ينسف القانون، انه ينسف الفكر الانساني، انه ينسف الحضارة ، انه ينسف الثورة ، انه ينسف التقدم ايضا . وهو يسمى ، بكل بساطة ، اللصوصية والبغاء والقتل ، والاغتيال . انه مظلم ، وهو يحب الفوضى .

وكان رباعي من قطاع الطرق ـ كلاكسو ، غولوميه، بابيه، ومونبارناس ـ يهيمن على دور باريس التحتي الثالث من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ .

كان غولوميه جبارا مبعدا عن ميدانه الطبيعي. وكان جحره بالوعة «آرش ماريون » . كان طوله يبلغ ستة اقدام ، وكآن ذا صدر رخامي ، وعضلات نحاسية، ورئتين كهفيتين، وجذع تمثال فائق الضخامة ، وجمجمة عصفور .

وكانت شفافية «بابيه» تتغاير تغايرا واضحا مع لحمانية غولوميه. كان بابيه نحيلا حاذقا. وكان شفافا. ولكنه مغلق لا ينفذ المرء الى سريرته. كان في ميسورك ان ترى شيئا من خلال عينيه. كان يدعي انه كيميائي. وكان قد مثل بعض ادوار الفودفيل في سان ميهييل. كان رجلا متكلفا، ومحدثا بارعا .

اي شيء كان كلاكسو ؟ كان الليل . فقبل ان يبرز للناس كان ينتظر حتى

تتشح السماء بالسواد. وعند المساء، كان يخرج من جحره ليعاود دخوله قبل ان يرتفع الضحى. اين كان ذلك الجحر؟ ان احدا لم يعرف ذلك. وفي الظلمة الاشد حلكة ، لم يكن يخاطب شركاءه في الجريمة الا موليا اياهم ظهره .

اما مونبارناس فكان مخلوقا فاجعا . كان مونبارناس طفلا فهو لم يبلغ العشرين بعد ، وكان وسيما ذا شفتين اشبه شيء بحبتي الكرز، وغدائر فاتنة سوداء، يلتمع في عينيه الربيع. لقد جمع الرذائل كلها، وطمح الى الجرائم كلها.

وهؤلاء الرجال الاربعة لم يكونوا رجالا اربعة. كانوا ضربا من لص عجيب ذي اربعة رؤوس يعيث فسادا ، على نطاق واسع ، في باريس. كانوا اخطبوط الشر المروع ، ساكنا في سرداب المجتمع .

وبفضل فروعهم المتشعبة وشبكة صلاتهم الخفيــة ، وسيطرة بابيــه ، وغولوميه ، وكلاكسو ، ومونبارناس على صناعة المكائد العامة في مديرية السين، كان مبتدعو الافكار في هذا الحقل، وهم رجال اصحاب خيال ظلامي، يفدون اليهم التماسا للتنفيذ. كانوا يزودون الاوغاد الاربعة بالخطة المفردة فينهضون بعبء اخراجها الفني. كانوا يعملون على اساس تصميم موضوع، وكانوا دائما على استعداد لان يقدموا جماعة تتناسب مع ايما محاولة للاغتيال تحتاج الى مساعدة ، وتنطــوي على كسب . انهم يقدمون الى كل جريمة يعوزها العضل مــن يشارك فيهــا .

وكانوا يجتمعون عادة حين يهبط الليل، وهي ساعة استيقاظهم ، فــي الارض البور المجاورة لـ « لاسالبيتريير » . هناك كانوا يتذاكرون . كانت الاثنتا عشرة الساعة المظلمة امامهم ، فهم يوزعون العمل وينظمونه .

المعلم مينيت ـــ ذلك هو الاسم الذي اطلق في المجتمع تحت الارضي على هؤلاء الرجال الاربعة مجتمعين . وحين زار رئيس محكمة الجنايات السفاح لا سينير في سجنه استجوبه عن جريمة انكرها لاسينير ، فسأله: « من الذي ارتكبها ؟ » فاجابه لاسينير بهذا الجواب الذي كان ملغزا عند القاضي ، ولكنه واضح عند الشرطة : « لعله المعلم مينيت » .

الام نحتاج لكي نجعل اليرقانات تسقط مغشيا عليها ؟ الى النور . الــى فيض من النور . فليس من خفاش يستطيع ان يقاوم الفجر . انيروا اعماق المجتمــع السفلــى .

الفقير الشرير

١

وانقضى الصيف ، ثم انقضى الخريف ، واقبل الشتاء . ولم يطأ لا مسيو لوبلان ولا الفتاة الشابة ارض اللوكسمبورغ . وسيطرت على ماريوس فكرة واحدة ليس غير : ان يرى ذلك المحيا الحلو المعبود ، مرة اخرى . وبحث على نحو موصول، وبحث في كل مكان، فلم يجد شيئا. انه لم يعد ماريوس الحالم المتحمس، والرجل الحازم، المتقد الرصين ، ومتحدي القدر الجريء ، والعقل الذي يصمم ويبني مستقبلا فوق مستقبل ، والقلب الرخص المليء بالخطط ، والمشاريع ، والخيلاء ، والافكار ، والارادات . كان كلبا ضائعا . لقد سقط في لجة كآبة سوداء . وقضي الامر. أمسى العمل ينغصه ، والسير يتعبه ، والوحدة تضجره .

ووبخ نفسه مئة مرة. لماذا تبعتها؟ لقد كنت سعيدا جدا بمجرد رؤيتها ! ولقد نظرت الي ، الم يكن ذلك شيئا عظيماً ؟ كان محياها يؤذن بانها تحبني ، الم يكن ذلك كل شيء ؟ اي شيء كنت اطمع في ان انال ؟ ليس ثمة شيء وراء ذلك . لقد كنت احمق ، انها غلطتي ، الخ .

وذات يوم التقى في احد الشوارع الصغيرة المجاورة لـ «جادة الانفاليد» رجلا مرتديا ثياب العمال ، ومعتمرا بقلنسوة ذات حافة عريضة كانت تبدي بضع ذوائب من شعر ناصع البياض . وتأثر ماريوس بجمال هذا الشعر الاشيب ، وتأمل هذا الرجل الذي كان يمشي في خطى وئيدة ، وكأنه مستغرق في تفكير موجع . ومن عجب ان قد بدا له انه تبين في ذلك الرجل مسيو لوبلان . كان الشعر شعره، والصورة الجانبية صورته والمشية مشيته ولكنها احفل بالحزن. ولكن لماذا يرتدي ثياب العمال هذه ؟ ما معنى ذلك ؟ علام يدل هذا التقنع ؟

وغلب الانشداه على ماريوس ، حتى اذا تاب الى نفسه كان اول ما فعله ان لحق بذلك الرجل . فمن يدري ، لعله اهتدى اخر الامر الى الاثر الذي يبحث عنه ؟ وعلى اية حال ، فينبغي ان يرى الرجل كرة اخرى ، عن كثب ، ويحل تلك الاحجية . ولكن هذه الفكرة لم تخطر له الا بعد فوات الاوان ، كان الرجل قد مضى الان لسبيله . كان قد سلك زقاقا جانبيا ما ، فلم يعثر له ماريوس على اثر . وشغلت هذه المصادفة تفكيره بضعة ايام ، ثم اندثرت. وقال في ذات نفسه : لعله على اية حال ، مجرد شبه ليس غير .

٢

كان ماريوس لا يزال يسكن في بيت غوربو العتيق . ولم يلق بالا الى احد هناك . والواقع انه لم يكن قد بقي ، في تلك الفترة ، احد من سكان ذلك البيت غيره وغير اسرة جوندريت التي دفع عنها ذات مرة ، اجرة السكنى ، من غير ان يتحدث في يوم من الايام الى الاب ، او الى الام ، او الى اي من البنتين . كان المستأجرون الاخرون قد انتقلوا او ماتوا ، او اخرجوا لتخلفهم عن دفع الاجرة .

وذات يوم ، من ايام ذلك الشتاء ، تجلت الشمس قليلا ، عند الاصيل ، ولكنه كان اليوم الثاني من شباط ، عيد تقدمة يسوع في الهيكل . وكان ماريوس قد غادر وجاره منذ لحظة . كان الليل قد هبط . وكانت الساعة ساعة عشائه .

وصعد ماريوس في الجادة متجها نحو باب المدينة لكي ينتهي الى شارع سان جاك . كان يمشي شارد البال ، مطرقا براسه الى الارض .. وفجأة ، احس بمن يدفعه بمرفقه ، في الغسق . والتفت ، فراى فتاتين شابتين في اسمال بالية تمران به على عجل ، وقد بدت على وجهيهما سيماء الفرار . لقد التقتا به من غير ان تراياه ، ولقد صدمتاه في اندفاعهما . وتبين ماريوس وجهيهما البالغي الشحوب ، وغدائرهما المنفوشة المتطايرة ، وتنورتيهما الممزقتين ، واقدامهما الحافية . كانتا تتبادلان الحديث وهما راكضتان . وقالت اطولهما قامة ، في صوت خفيض جدا : « لقد اقبل رجال الشرطة . ولقد اخطأوا الامساك بي عند منتصف الدائرة » .

فاجابت الاخرى : « لقد رايتهم . ولقد ركضت ، وركضت ، وركضت! »

وفهم ماريوس ، من خلال هذه اللهجة المشؤومة ، ان الدرك او شرطة المدينة ، لم يوفقوا الى القاء القبض على هاتين الطفلتين .

واندفعتا تحت اشجار الجادة من خلفه ، فاحدثتا في الظلمة ضربا

من البياض القاتم ، ما لبث ان تلاشى بعد بضع ثوان . ووقف ماريوس لحظة وكان على وشك ان يستأنف سيره حين لمح رزمة صغيرة ضاربا لونهـا الى الرمادي ملقاة عند قدميه . وانحنى والتقطها . كانت شبه ظرف بدا وكأنه يحتوي على بعض الاوراق .

وقال : « حسن . لا شك في ان هذه قد سقطت من هاتين المخلوقتين البائستين » .

وارتد على آثاره ، وناداهما، فلم يهتد اليهما. واستنتج من هذا انهما قد انتهتا الى مكان بعيد، فوضع الرزمة في جيبه، ومضى لتناول طعام العشاء .

وتلك الليلة ، فيما كان ينزع ملابسه ليأوي الى الفراش ، وقعت يده في جيب سترته على الرزمة التي التقطها في الطريق . كان قد نسيها . وخطر له ان من المفيد ان يفضها ، وان تلك الرزمة قد تحتوي على عنوان تينك الفتاتين الشابتين .

وفتح الظرف . كان غير مختوم . وكان يحتوي على اربع رسائل غير مختومة ايضا ... كانت العناوين مدونة عليها . وفاحت منها جميعا رائحة تبغ فظيع ... وكانت الرسالة الاولى معنونة هكذا : **الى سيدتي ، السيدة المركيزة دو غروشبراي ، الساحة المقابلة لمجلس النواب ، رقم ...**

وقال ماريوس في ذات نفسه انه سوف يجد في هـذه الرسالـة ، المعلومات التي كان يبحث عنها . وفوق ذلك ، فما دامت الرسالة غير مختومة فاغلب الظن أن لا يكون في قراءتها بأس .

كانت تنطوي على هذه الكلمات :

« سيدتي المركيزة ، ان فضيلة الحنان والشفقة هي التي توحد المجتمع اكثر ما يكون التوحيد . ايقظي عاطفتك المسيحية، والقي نظرة رافة على هذا الاسباني الذي ذهب ضحية الولاء والتعلق بقضية «الشرعية» المقدسة التي بذل من اجلها دمه ، ووقف في سبيلها ثروته كلها ، والذي يجد نفسه اليوم في اقسى حالات العوز لكي يحتفظ بوجود بالغ الايلام لجندي ذي ثقافـة وشرف ، مفعم بالجراح ، واقبلي عواطف اجلالي التي اتشرف معها ان اكون،

سيـدتي

« دون آلفاريز ، كابيتين اسباني في سلاح الفرسان »

ولم يضف ايما عنوان الى الامضاء . ورجا ماريوس ان يجد العنوان في الرسالة الثانية المكتوب على ظاهرها : « الى سيدتي، السيدة الكونتس دو مونفيرنيه ، شارع كاسيت ، رقم ٩ . » وقرأ ماريوس ما يلي :

« سيدتي الكونتيس ، هذه ام بائسة لاسرة مؤلفة من ستة اطفال آخرهم

لا يزيد عمره على ثمانيةاشهر . انا مريضة منذ انوضعتولدي الاخير،هجرني زوجي منذ خمسة اشهر ، وليس لي مورد في العالم،فانا اعاني اشد الفقر. وعلى املها بالسيدة الكونتيس،يشرفها ان تكون،سيدتي، في احترام عميق».

« الام باليزارد »

وانتقل ماريوس الى الرسالة الثالثة ، التي كانت ، مثل الرسالتين السابقتين ، عريضة تستدر العطف . وقد جاء فيها :

« مسيو بابورجو ، ناخب ، تاجر قبعات بالجملة ،
شارع سان دونيس ، عند زاوية « رو او فير . »

« اني اسمح لنفسي بان اوجه اليك هذه الرسالة لارجوك ان تسبغ عطفك الثمين واثير اهتمامك برجل من رجال الادب ارسل ، منذ لحظة ، مسرحية الى « المسرح الفرنسي » ان الموضوع تاريخي ، والحوادث تجري في عهد الامبراطورية. والاسلوب، على ما اعتقد طبيعي، مختصر، ولعله يفوز ببعض الاعتبار .

«سيدي بابورجو،ان شهرتك الحقة كحام مستنير لاهل الادب تشجعني على ان ابعث اليك بابنتي ، التي ستشرح لك مبلغ فقرنا، وحاجتنا الى الخبز والنار في موسم الشتاء هذا. وانا اقول لك اني ارجوك ان توافق على ما ارغب فيه من رفع هذه الرواية اليك ، وذلك لكي ابرهن لك عن مدى املي في التشرف بان اضع نفسي تحت رعايتك ، وان ازين كتاباتي باسمك .

« والى سيدي ، ومدام بابورجو ، تحياتي المثقلة بالاحترام »

« جينفلو ، رجل ادب »

وفتح ماريوس ، آخر الامر ، الرسالة الرابعة. كان مكتوبا على ظاهرها: **« الى سيدي الخير رجل كنيسة سان جاك دو هوبا »** . وكانت تنطوي على هذه الاسطر القليلة :

« ايها الرجل الخير

« اذا تنازلت ، ورافقت ابنتي ، ترى بلية قاصمة للظهر ، وسوف اريك شهاداتي ... وحين ترى هذه الكتابات فان نفسك السخية سوف تتحرك بعاطفة حية من حب الانسان ، ذلك لان الفلاسفة الحقيقيين يحسون دائما بانفعالات عنيفة .

« واني انتظر حضورك ، او تقدمتك ، اذا تنازلت ووافقت على ذلك، واني اتوسل اليك ان تتكرم فتقبل عواطفي الموقرة التي اعتز معها بان اكون،

« خادمك الاكثر حقارة ،

ب. فابانتو ، فنان مسرحي . »

ولم يستشعر ماريوس ، بعد قراءة هذه الرسائل الاربع ، انه ازداد علما . ان ايا من موقعي تلك الرسائل لم يذكر عنوانه . ثم انها بدت وكأنها صادرة عن اربعة افراد مختلفين . ولكن العجيب في الامر ان هذه الرسائل كلها كانت مكتوبة بخط يد واحدة .

فما الذي يستنتج من هذا غير انها صادرة عن شخص واحد ؟ وفوق ذلك ، فان الورق الذي خطت عليه الرسائل كان واحدا في الرسائل الاربع، ورائحة التبغ كانت هي هي ، وعلى الرغم من انه كانت ثمة محاولة واضحة لتغيير الاسلوب فان الاخطاء الاملائية نفسها تكررت في جميع الرسائل .

وكانت كل محاولة للكشف عن سر هذه المسألة عملا لا طائل تحته.

وعلى اية حال ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بان هذه الرسائل قد سقطت من الفتاتين اللتين لقيهما ماريوس في الجادة . وهكذا فانها كانت مجرد اوراق ليس لها ايما فائدة او قيمة . فاعادها ماريوس الى الظرف ، وقذف بها الى احدى الزوايا ، واوى الى مضجعه .

وحوالي الساعة السابعة صباحا ، كان قد نهض من فراشه وتناول طعام الفطور ، وشرع في العمل عندما قرع باب غرفته قرعا رقيقا. واذ لم يكن يملك شيئا ، فانه ما كان ليغلق باب غرفته ، الا في بعض الاحيان حين يكون منصرفا الى عمل ملح . والواقع انه كان ، حتى في الاحوال التي يغادر فيها غرفته ، يترك مفتاحها في القفل .

وقرع الباب كرة ثانية ، وفي رفق بالغ ، كالمرة الاولى .

فقال ماريوس : « أدخلي! » .

وفتح الباب . « ماذا تريدين ، يا مدام بورغون ؟ كذلك تساءل ماريوس من غير ان يرفع عينيه عن الكتب والاوراق التي كانت على طاولته » .

واجابه صوت ، لم يكن صوت مدام بورغون : «التمس عفوك يا سيدي»

كان صوتا غائرا ، مرتعشا ، مختنقا ، مبحوحا ، صوت رجل عجوز اصدائه الخمر والعرق ... واستدار ماريوس في سرعة، فرأى فتاة شابة.

٣

كانت فتاة في ريعان الصبا واقفة بالباب نصف المفتوح . كانت مخلوقة شاحبة ليس يستر عريها المرتجف المثلوج غير قميص وتنورة .

ونهض ماريوس ، وحدق في ضرب من الدهش الى هذه المخلوقة الغريبة. لقد بدا له انه كان قد رآها قبل اليوم . وسألها : « ماذا تريدين ايتها الانسة ؟ »

ـ « هذه رسالة اليك يا مسيو ماريوس » .

وفض ماريوس هذه الرسالة ، ولاحظ ان برشامة الختم الكبيرة كانت لا تزال رطبة . ومن هنا ادرك ان الرسالة لم تأت من مكان بعيد .

وقـــرأ

« جاري المحبوب ، ايها الرجل الشاب !

لقد عرفت انك دفعت عني اجرة الغرفة منذ ستة اشهر . اني اباركك ، ايها الشاب . ان ابنتي الكبيرة سوف تخبرك انه ليس عندنا منذ يومين كسرة خبز : اربعة اشخاص،وزوجتي طريح الفراش . واذا لم يكذبني الظن فاظن ان في استطاعتي ان ارجو ان يرق قلبك الكريم لهـذا الشرح ، فتتنازل وتنفحني بعطية خفيفة . »

« جونـدريت »

هذه الرسالة كانت اشبه بشمعة في كهف. لقد امسى كل شيءواضحا لقد صدرت تلك الرسالة من حيث صدرت الرسائل الاخرى. كان خط هذه هو خط تلك ، ورائحة التبغ المنبعثة منها هي رائحة التبغ المنبعثة من تلك. لقد راى الان كل شيء ، في وضوح . لقد فهم ان صناعة جاره جوندريت، في محنته تلك ، هي استدرار عطف المحسنين، وانه قد حصل على عناوينهم، وانه كان يحرر ، باسماء مصطنعة ، رسائل يوجهها الى اولئك الناس الذين قدر انهم اغنياء تعمر الرافة قلوبهم ، فتحملها بنتاه اليهم معرضتين نفسيهما للمخـــاطر .

وفي غضون ذلك ، انشأت الفتاة تذرع العلية جيئة وذهابا، في وقاحة شبح . كانت تروح وتجيء من غير ان تفكر في عريها. وفي بعض الاحيان، كان قميصها المزق ، غير المشدود يسقط حتى خصرها... ثم نظرت الى ماريوس وغلبت على وجهها سيماء غريبة، وقالت له : « اتدري ، يا مسيو ماريوس ، انك فتى جميل جدا ؟ »

وكان ماريوس قد ارتد الى الوراء في هدوء . وقال في رصانة باردة: « ايتها الانسة ، عندي رزمة اظنها لك . فاسمحي لي بان اعيدها اليك . »

وقدم اليها الظرف ، الذي كان ينطوي على الرسائل الاربع . فشبكت يديها وصاحت : « لقد بحثنا عنه في كل مكان ! »

ثم اختطفت الرزمة ، وفتحت الظرف قائلة : « يا الهي ! كم بحثنا انا واختي عنه ! ثم كنت انت الذي وجدته ! لا بد انك وجدته في الجـادة . ترى ، ان هذه الرزمة سقطت منا ونحن نركض . وحين رجعنا الى البيت لم نوفق الى العثور عليه . لذلك قلنا لاهلنا اننا اوصلنا الرسائل لاصحابها ، وانهم اجابونا : « على الله ! »

وكانت قد نشرت ، في غضون ذلك ، الرسالة المعنونة : « الى سيدي الخير ، رجل كنيسة سان جان دو هو با » . وقالت : « هذه هي الرسالة الخاصة بذلك الرجل العجوز الذي يذهب الى القداس . وفي الحق ، لقد حان الوقت . سوف امضي واحملها اليه . ولعله ان يعطينا شيئا نأكل به طعام الصباح » .

ونظرت اليه بعين شاردة ... وبعد ان كاد مكاريوس يثقب جيوبه بحثا وتنقيبا جمع اخر الامر خمسة فرنكات وستة عشر « سو » . وكان ذلك كل ما ملكه في تلك اللحظة . وقال في ذات نفسه : «هذا مبلغ يكفي لعشائي الليلة. وغدا سنرى». واخذ الستة عشر «سو» وقدم الخمسة فرنكات الى الفتاة . فرفعت قميصها فوق كتفيها،وانحنت لماريوس ومضت نحو الباب قائلة : «طاب صباحك .سوف اذهب الان لابحث عن الرجل العجوز».

٤

كان ماريوس قد عاش، طوال خمس سنوات ، في الفقر، في الحرمان ، والضيق ، ولكنه ادرك انه لم يعرف البؤس الحقيقي في يوم من الايام . ان البؤس الحقيقي هو ما قد رآه اللحظة .

وكاد ماريوس يعنف نفسه لان استغراقه المطلق في الاحلام والاهواء ادى به الى ان لا يلقي ، حتى الان ، نظرة واحدة الى جيرانه .

وفيما هو يؤنب نفسه على هذا النحو نظر الى الجدار الذي يفصله عن اسرة جوندريت ، وكأنما كان يستطيع ان يرسل نظرته المفعمة بالرأفة ، من خلال ذلك الجدار ، الى اولئك القوم التعساء . وكان الجدار طبقة رقيقة من جص مدعومة بالواح وعوارض خشبية كان في امكان المرء ان يسمع من خلالها مختلف الكلمات والاصوات سماعا واضحا جدا . والواقع ان المرء ينبغي ان يكون ماريوس الحالم حتى لا ينتبه لهذا كله . وعلى نحو غير واع تقريبا درس ماريوس هذا الجدار،وفجأة نهض، لقد لمح في القسم الاعلى من الحجرة ، قرب السقف ، ثقبا مستطيلا ناشئا عن ثلاثة الواح خشبية تركت في ما بينها فجوة. كان الجبس الذي سدت به تلك الفجوة في يوم من الايام قد سقط ، وبامتطاء متن الخزانة ذات الادراج كان في ميسوره ان يرى من خلل هذا الثقب ، الى علية جوندريت . وهكذا تسلق تلك الخزانة ، وادنى حدقته من الثغرة ، ونظر .

لقد كان ما رآه ماريوس كوخا قذرا ، منتنا ، عفنا ، مظلما ، دنسا. وكان كل ما فيه من الاثاث كرسيا من قش ، وطاولة كسيحة،وبضعة صحون عتيقة

مهشمة ، وفراشين حقيرين . وكان النور لا يتسرب اليه الا من نافذة ذات اربعة الواح زجاجية تجللها انسجة العنكبوت . ولم يزد الضوء المتسرب من تلك النافذة على ذلك المقدار الكافي لان يجعل وجه الانسان يبدو وكأنه وجه شبح . وكان في تلك الغرفة موقد ، وكان في الموقد شيء من كل شيء: كانون، ومرجل ، واسمال تتدلى من المسامير، وبعض الرماد ، بل ونار ضئيلة ايضا.

والى الطاولة — التي راى ماريوس فوقها ريشة ، وحبرا ، وورقا — كان يجلس رجل في نحو الستين ، هزيل ، شديد الشحوب ، شرس تبــدو عليه سيماء الدهاء ، والوحشية والنذالة ... وكانت لذلك الرجل لحية طويلـة شائبة. وكان يرتدي قميصا نسائيا يكشف عن صدره الاشعث . كان واضعا في فمه غليونا ، وكان يدخن. لم يكن في الوكر بقية من خبز ، ولكن كان فيه بقيــة من تبغ .

كان يكتب . والراجح ان ما كتبه كان رسائل كالتي قراها ماريوس .

وكانت امراة ضخمة جالسة القرفصاء، قرب الموقد، على قدميها الحافيتين. كانت هي ايضا لا ترتدي غير قميص وتنورة مرقعة بقطع من الجوخ العتيق .

وعلى احدى الحشيتين لمح ماريوس شبه فتاة صغيرة مهزولة شديدة الشحوب وقد جلست ، عارية تقريبا . كانت من غير ريب الاخت الصغرى لتلك الفتاة التي وفدت على عليته .. ونظر ماريوس الى تلك الغرفة المأتمية التي كانت ادعى الى الذعر من جوف قبر . وكان على وشك ان يهبط موجع القلب، من شبه المرصد ذاك الذي ارتجله، عندما لفت انتباهه ضجة ما ، واغرتــه بالبقاء حيث هــو .

وفتح باب العلية على نحو مفاجىء . وبرزت الفتاة الكبرى عند العتبة. وكانت تلهث لهاثا شديدا، ثم صاحت وقد طفت على محياها سيما النصر والبهجة : « انه آت ! » وادار الاب عينيه وتساءل : « من ؟ »

— « محسن كنيسة سان جاك » .

— « أواثقة انت ؟ »

— « انا واثقة . انه آت في عربة اجرة » .

ونهض الاب : « كيف تقولين انك واثقة؟ اذا كان قادما في عربة اجرة فكيف جاز ان تصلي قبله ؟ هل اعطيته عنوان البيت على الاقل؟ لقد وجدته في الكنيسة اذن ؟ هل قرأ رسالتي ، ماذا قال لك ؟ »

فقالت الفتاة : « لقد ذهبت الى الكنيسة، كان في مكانه المعتاد، وقدمت اليه الرسالة ، فقرأها وقال لي : اين تسكنين ، يا طفلتي ؟ فقلت: سيدي ، سوف اقودك بنفسي . فقال لي : لا ، اعطيني عنوانك . ان ابنتي تريد ان

تشتري بعض الحاجات ، ولسوف آخذ عربة ، فاصل الى منزلك حالما تصلين. واعطيته العنوان . وحين ذكرت اسم البيت بدا وكأنه دهش ، وتردد لحظة، ثم قال : سيان ، سوف اذهب » .

وهنا وثب الرجل ، وامر زوجته بان تطفىء النار ، وامر ابنته الكبرى بأن تجرد الكرسي من القش ، وامر ابنته الصغرى بان تكسر لوحين من الواح الزجاج لكي يسيل الدم من يدها ، ثم مزق القميص الذي كان يرتديه .

وصفرت ريح مثلوجة عند النافذة، ودخلت الى الغرفة. وتسرب الضباب من الخارج ، وانتشر في جنباتها مثل قطن مندوف ضارب لونه الى البياض. ومن خلال اللوح الزجاجي المكسور رئي الثلج يتساقط . كان البرد المرتقب قبل يوم من عيد تقدمة يسوع في الهيكل قد اقبل فعلا .

واجال الاب نظره في ما حوله وكأنما كان يريد ان يتأكد انه لم ينس شيئا . لقد امسك بمجرفة عتيقة ، ونشر الرماد فوق الجمرات المبللة على نحو يخفيها اخفاء كاملا . ثم اسند ظهره الى الموقد وقال : « الان نستطيع ان نستقبل رجل الاحسان » .

وفي تلك اللحظة، قرع الباب. واندفع الرجل وفتحه منحنيا عدة مرات قائلا : «ادخل ياسيدي! تنازل وادخل ، وادخل معك آنستك الفاتنة ! »

وبرز لدى باب العلية رجل كهل ، وفتاة شابة .

ولم يكن ماريوس قد فارق مكانه . لقد استشعر في تلك اللحظة ما تعجز اللغة الانسانية عن وصفه .. كانت هي . وكل من احب ، يعرف كامل المعنى المشع الذي ينطوي عليه حرفا هذه الكلمة : « هي » .

لقد عاودت الظهور في هذه الظلمة، في هذه العلية، في هذا الوكر الشائه، في هذا الهول!.. وارتعد ماريوس ارتعادا عنيفا. ماذا؟ انها هي! وكان في خفقان قلبه ما اوقع الاضطراب في بصره.. كانت لا تزال هي هي، لكنها شاحبة بعض الشيء . كان وجهها الدقيق مطوقا بقبعة مخملية بنفسجية ، وكانت قامتها محجوبة تحت رداء حريري اسود مبطن بالفرو .

كانت قد تقدمت بضع خطوات في الغرفة، ووضعت رزمة كبيرة على الطاولة.

٥

واقترب مسيو لوبلان وقال للاب : « سيدي ، سوف تجد في هذه الصرة بعض الملابس الجديدة ، وبعض الجوارب والبطانيات الصوفية » .

فقال جوندريت، منحنيا حتى الارض: «ان محسنتا الملائكي يغمرنا بفضله» .

ـ « ارى انك تستحق الشفقة حقا ، يا مسيو ... »

فسارع جوندريت الى القول : « فابانتو » .

ـ « مسيو فابانتو . اجل ، ذلك هو ، لقد تذكرت » .

ـ « فنان مسرحي ، يا سيدي ، وفق في ما مضى الى نجاح كثير ، ثم جاء دور الشقاء الان. انظر يا سيدي المحسن، لا خبز! لا نار! انظر الى هذا الكرسي الوحيد الذي تقطع قشه! والى هذا الزجاج المكسور! وفي مثل هذا الجو العاصف! ان زوجتي في الفراش ! انها مريضة ! وانظر الى ابنتي ، انها جريحة » .

كان جوندريت يتأمل «المحسن» ، منذ بضع لحظات، تأملا غريبا. لقد بدا وكأنما كان يفحصه فحصا دقيقا ، شأن من يحاول ان يسترجع ذكرى معينة. وفجأة تقدم نحو امرأته المنطرحة في فراشها ، وقال لها في سرعة وفي صوت خفيض جدا : « تأملي هذا الرجل!» .. ثم استدار نحو مسيو لوبلان، وتابع شكواه النائحة : « حسنا يا سيدي، هل تعلم ما الذي سيقع غدا ؟ غدا هو الرابع من شباط ، اليوم المشؤوم ، المهلة الاخيرة التي اعطاني اياها مؤجري . فاذا لم ادفع اليه الاجرة هذا المساء فان ابنتي الكبرى، وانـــا ، وزوجتي وطفلتي سوف نطرد من هنا الى الشارع . تلك هي المسألة يا سيدي . انا مدين لصاحب البيت باربعة اقساط . بأجرة سنة ! يعني ستين فرنكا » .

ونزع مسيو لوبلان معطفه واخرج خمسة فرنكات من جيبه ، وطرحها على الطاولة وقال : « لست احمل غير خمسة فرنكات . ولكني سوف ارجع بابنتي الى البيت ، ثم اعود هذا المساء وسأحمل اليك الفرنكات الستين ».

فصاح جوندريت في انفعال شديد : « يا محسني ! »

وكان مسيو لوبلان قد امسك بذراع ابنته الجميلة الشابة واستـــدار نحو الباب وقال : « الى هذا المساء ، ايها الاصدقاء » .

وفي تلك اللحظة لفت المعطف الملقى على الكرسي نظر الفتاة الكبرى، فقالت:

ـ « سيدي ، لقد نسيت سترتك الطويلة » .

والتفت مسيو لوبلان ، في ابتسامة : « انا لم انسها . لقد تركتها ».

٦

لم يفت ماريوس شيء من هذا المشهد كله ، ومع ذلك فانه لم ير منه، في الواقع ، شيئا. كانت عيناه قد ركزتا على الفتاة الشابة، وكان قلبه قد طوقها تطويقا كاملا منذ وطئت قدماها ارض العلية . وطوال مقامها هناك غمرته تلك النشوة الروحية التي تحمل النفس على الاستغراق في نقطة واحدة .

وحين خرجت لم يخطر له غير خاطر واحد : ان يتبعها، ان يقتفي اثرها، ان لا يتركها من غير ان يعرف اين تسكن، وان لا يضيعها كرة اخرى، على الاقل،

بعد ان وجدها على هذا النحو الاعجوبي ! ووثب عن الخزانة ذات الادراج ، وتناول قبعته . وانطلق الى الشارع ولكنه لم يستطع اللحاق بعربة مسيو لوبلان فرجع الى البيت العتيق يائسا .

وفيما هو يصعد السلم على الجانب الاخر من الجادة لمح جوندريت مرتديا معطف «المحسن» يتحدث الى احد اولئك الرجال الخطري الملامح الذين ينامون في اثناء النهار عادة، مما يحمل على الاعتقاد بانهم يشتغلون في موهن من الليل.

ودخل ماريوس غرفته ، ودفع بابها من خلفه . ولم ينغلق . واستدار فراى يدا كانت تبقي الباب منفتحا على نحو جزئي .

وسأل : « ما هذا ؟ من هناك » .. كانت ابنة جوندريت .

وقال ماريوس في خشونة ، تقريبا : « هذا انت ؟ ماذا تريدين مني ؟ ».

لقد بدت مستغرقة في التفكير ، ولم تنظر اليه .

وقال ماريوس : « هاي ، لم لا تجيبين ؟ ماذا تريدين مني ؟ »

ــ « مسيو ماريوس ، انت تبدو حزينا . فهل تشكو شيئا ؟ »

ــ « دعيني وشأني » .

ودفع ماريوس الباب ، كرة اخرى ، ولكنها ظلت متشبثة به .

وقالت: «قف انت على خطأ. فعلى الرغم من انك قد لا تكون غنيا ، فقد كنت كريما هذا الصباح. كن هكذا الان. لقد اعطيتني شيئا آكل به، فقل لي الان ما بك. انا لن اسألك عن اسرارك، ولكني قد اكون مع ذلك ذات فائدة. استفد مني».

وخطرت لماريوس فكرة . وكلفها ان تبحث له عن عنوان مسيو لوبلان وابنته ، واعدا اياها ، مقابل ذلك باعطائها كل ما تطلب .. وبعد ان ذهبت الفتاة سمع جوندريت وهو يلفظ هذه الكلمات الحافلة باغرب ما اثار اهتمامه: « اقول لك اني واثق من ذلك ، واني قد عرفته ! »

عمن كان جوندريت يتحدث ؟ عن مسيو لوبلان ؟ والد اورسول ؟ ماذا ، هل عرفه جوندريت ؟ اكان ماريوس على وشك ان يفوز بكل المعلومات التي كان جهله بها قد جعل حياته قاتمة في عينيه ؟ آه ! يا للسماء !

ووثب الى الخزانة واستعاد موقفه قرب كوة الجدار ، واطلع على ما كان يجري في وكر جوندريت ، كرة اخرى .

ولم يكن قد تغير شيء في مظهر الاسرة ، لولا ان الزوجة والفتاتين كن قد فتحن الصرة وارتدين الجوارب والصدرات الصوفية .

وغامرت المراة فقالت له : « ماذا ، اواثق انت ؟ »

ــ « واثق! لقد انقضت ثمانية اعوام! ولكني عرفته ! آه ، لقد عرفته ! لقد عرفته في الحال ! ماذا ؟ الم يتضح ذلك في عينيك ؟ »

ـ « لا . »

ـ « مع اني قلت لك انتبهي جيدا ! ولكن القامة هي القامة ، الوجه هو الوجه ، لم يكبر الا قليلا . انه احسن بزة من ذي قبل ، هذا كل ما هنالك . آه ايها الشيطان الغامض العجوز ، لقد امسكت بك ! »

وكبح جماح نفسه وسأل بنتيه ان تخرجا شرط ان ترجعا في الساعة الخامسة .

وضاعف ماريوس انتباهه ، فسمع جوندريت يقول لزوجته : « والانسة التي معه ؟ انها هي تلك الفتاة ! »

فقالت زوجته : « مستحيل ؟ ايمكن ان تكون هي تلك الشحاذة ! اوه ، كم اتمنى ان ادوس قلبها بعقب حذائي الخشبي ! »

وبعد بضع لحظات من الصمت ، اقترب الزوج من زوجته وقال لها : « اسمعي ! لقد وقع المليونير في الفخ . لقد اعددت كل شيء . لقد اجتمعت الى الرجال ، وصاحبنا سوف يجيء الساعة السادسة . فاذا لم يقدم الي اطلبه منه حكمت عليه بالموت » . وفتح جوندريت خزانة مجاورة للموقد واخرج منها قلنسوة عتيقة ، فاعتمر بها بعد ان فرشاها بردنه . وقال : « والان انا ذاهب . هناك رجال اخرون ينبغي ان اراهم . رجال طيبون . سوف ترين كيف سيتم كل شيء . أني سأرجع في اسرع وقت ممكن . انتبهي الى البيت » . قال ذلك وخرج ليجتمع الى اولئك الرجال . وفي تلك اللحظة نفسها اعلنت ساعة سان ميدار الواحدة .

٧

كان ماريوس برغم نزعته الى الاستغراق في التأمل ذا طبيعة حازمة تنضح بالعزم . كان له عطف برهمي ، وقسوة قاض . كان يشفق على ضفدع الجبل ، ولكنه كان يسحق الافعى . وها هو ذا الان ينظر الى جحر افعى حقا . وقال : « يجب ان ادوس بقدمي هؤلاء الادنياء » .

ان ايا من الاحاجي التي رجا ان تحل لم تكن قد انجلت . على العكس ، فلعل كل شيء كان قد ازداد قتاما . انه لم يعرف شيئا اضافيا عن فتاة اللوكسمبورغ الجميلة وعن الرجل الذي كان يدعوه مسيو لوبلان، باستثناء ان جوندريت كان يعرفهما. ومن خلال الكلمات التي سمعها، لم ير على نحو واضح غير شيء واحد ، هو ان كمينا يهيأ ، وان خطرا عظيما كان يحيط بكل منهما .

ونظر لحظة الى جوندريت الانثى. كانت قد اخرجت كانونا حديديا قديما من احدى الزوايا ، وانشأت تقلب ضروبا من الحدائد العتيقة . وترجل عن

الخزانة باقصى ما يستطيع من الهدوء، محاذرا ان يحدث ضجة ما، ومضى الى شارع الـ «بيتي بانكييه» .. وكان قد انتهى ، الى منتصف ذلك الشارع قريبا من جدار منخفض جدا عدنما سمع اصواتا تتحدث على مقربة منه والتفت . كان الشارع مقفرا ليس فيه احد ، وكانت الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك فقد سمع بعض الاصوات سماعا واضحاً .

كان ثمة رجلان جالسان على الثلج ، وقد وليا الجدار ظهريهما ، وراحا يتجاذبان اطراف الحديث في صوت خفيض . ولم يكن يعرف هذين الرجلين. كان احدهما ملتحيا ، يرتدي سترة فضفاضة وكان الاخر طويل الشعر ، يرتدي اسمالا بالية . وحين خفض ماريوس رأسه من فوقهما كان في ميسوره ان يسمع . لقد وكز ذو الشعر الطويل صاحبه بمرفق يده وقال : «اذا تولى المعلم مينيت المسألة فلن تخفق ابداً » .

فقال الرجل الملتحي : « اتعتقد ذلك ؟ »

فاستأنف ذو الشعر الطويل كلامه : « سوف ينال كل منا ورقة الـف فرنك ، واسوا ما سوف يصيبنا ست سنوات، عشر سنوات على الاكثر » .

ومضى ماريوس لسبيله . لقد بدا له ان الكلمات التي فاه بها هذان الرجلان لا يبعد ان تكون ذات صلة ما بمشروعات جوندريت الرهيبة .

حتى اذا انتهى الى رقم ١٤ شارع بونتواز ، رقي السلم وسأل عن مفوض الشرطة فقال احد الخدم : «ان مفوض الشرطة ليس هنا ، ولكن ثمة مفتشا يقوم مقامه . اتحب ان تتحدث اليه ؟ هل المسألة ملحة ؟ »

فقال ماريوس : « نعـم » .

وقاده الخادم الى ذلك المفتش . فروى له ماريوس القصة كلها فسأله المفتش ان يعطيه مفتاح الشقة العمومي، في حين اعطاه هو مسدسين صغيرين مشحونين واوصاه بأن يطلق منهما رصاصة في الهواء عندما يجد ان السفاحين قد شرعوا في جريمتهم . ثم قال: «بالمناسبة اذا احتجت الي بين فينة وفينة فتعال أو ارسل احدا الى هنا ، وعندئذ اسأل عن المفتش جافير » .

٨

وحين غادر ماريوس مركز الشرطة راى جوندريت يجتاز شارع موفتارد، ثم يدخل دكانا لبيع الادوات الحديدية ، ثم يغادره وفي يده أزميل ضخم .

ورجع ماريوس الى رقم ٥٠-٥٢ في خطى واسعة . كان الباب لا يزال مفتوحا حين وصل الى البيت. وفيما كان ماريوس يمر باحد ابواب العلالي خيل اليه انه لمح في الحجرة الفارغة اربعة رؤوس لا تبدي حراكا. واذ كان

ماريوس راغبا في ان لا يراه احد ، فانه لم يحاول ان يرى. ووفق الى دخول غرفته من غير ان يلمحه احد، ومن غير ان يحدث ضجة ما. كان الوقت قد حان. وبعد لحظة سمع مدام بورغون تخرج وتغلق باب البيت .

وجلس ماريوس على سريره . لعل الساعة كانت الخامسة والنصف . وسمع شرايينه تنبض كما يسمع المرء تكتكة الساعة في الظلام .

كان الثلج قد كف عن السقوط. وكان القمر ينجو بنفسه من الضباب. وامتزج ضياؤه بالاشعة البيضاء المنعكسة عن الثلج المتراكم ، فخلع على الغرفة مظهرا غسقيا . . ونزع ماريوس نعليه ، في رفق ، ودفعهما تحت سريره .

وانقضت دقائق. وسمع ماريوس الباب الادنى يدور على رزاته. ودخل جوندريت وقال في همس: «لقد نصبت مصيدة الفيران. والقطط على اتم الاستعداد».

وخفض صوته اكثر وقال: « ضعي هذا في النار » . وسمع ماريوس حسيس فحم ، كانت يد تحركه بأداة حديدية ما .

وسأل جوندريت عن الساعة فقيل له انها السادسة تقريبا ، فأمر بنتيه بالخروج للقيام بالحراسة .

كانت غرفة جوندريت تتكشف الان عن مظهر فريد. كانت شمعة تحترق في شمعدان زنجاري اللون، وكان الوكر كله مضاء بالوهج المنبعث من كانون حديدي ضخم ملقى في الموقد ، مملوء بفحم مشتعل. وتراقصت شعلة زرقاء فوقه ، فساعدت على الكشف عن شكل الازميل الذي اشتراه جوندريت من شارع «بيير لومبار»، والذي كان يحمى وسط الجمرات. وفي زاوية قرب الباب كانت كومتان بدتا وكأن احداهما كومة حدائد عتيقة، والاخرى كومة حبال . وكان جوندريت قد اشعل غليونه، وانشأ يدخن. وفجأة سحب درج الطاولة نحوه سحبا عنيفا ، واخرج مدية مطبخ طويلة كانت مخبوءة هناك ؛ وجرب شفرتها على ظفره . حتى اذا تم له ذلك ، اعاد المدية الى الدرج ، واغلقه .

اما ماريوس فامسك بالمسدس الصغير الذي كان في جيب صدرته الايمن . واخرجه منه ، وضغط على نابضه استعدادا لاطلاق النار .

واعلنت «سان ميدار» الساعة السادسة . واتبع جوندريت كل دقة من دقاتها بايماءة من راسه. وعند الدقة السادسة ، اطفأ الشمعة بيديه. وبرز مسيو لوبلان. فرحب به جوندريت في احتفال بالغ. ووضع اربع ليرات ذهبية على الطاولة . وقال: « مسيو فابانتو ، خذ هذه واستعن بها على دفع اجرة الغرفة . وفي المستقبل ساحاول ان اقدم اليك مبلغا اخر » .

ولم يكد المقام يستقر بمسيو لوبلان حتى ادار عينيه نحو الفراشين الفارغين . وسأل عن البنت الجريح وعن امها . . .

وفيما كان جوندريت يحييه في اضطراب واضح، رفع ماريوس عينيه ، فلمح في مؤخرة الغرفة شخصا لم يره من قبل. كان رجل قد انسل الى هناك في خفة بالغة. وكان عاري العنق، عاري الذراعين موشومهما، وكان وجهه ملطخا بالسواد . وكان قد جلس في صمت ، طاويا ذراعيه على السرير الاقرب .

واتفق ان التفت مسيو لوبلان لحظة التفت ماريوس تقريبا. ولم يتمالك ان يبدي حركة تنم عن الدهش . فقال له جوندريت ان ذلك الرجل جاره ، ثم عرض عليه لوحة زيتية ، زعم انها من ريشة فنان كبير ودعاه الى شرائها .

وفي تلك الاثناء دخل الغرفة سفاح ثان وثالث ورابع، ولاحظ جوندريت ان عين مسيو لوبلان كانت مركزة على اولئك الرجال، فقال : «انهم اصدقائي. انهم سود الوجوه لانهم يعملون في الفحم . انهم دكاترة مداخن . لا تشغل بالك بهم ، واشتر لوحتي الفنية . اشفق على شقائي . بكم تقدرها ؟ »

ـ « ولكن هذه اشبه بلافتة حانة . انها تساوي ثلاثة فرنكات » .

فاجاب جوندريت : « اتحمل حافظة نقودك ؟ اني اكتفي بالف ريال » .

فنهض مسيو لوبلان واقفا ، واسند ظهره الى الجدار، واجال بصره في الغرفة. كان جوندريت الى يساره ناحية النافذة ، وزوجته والرجال الاربعة الى يمينه ناحية الباب . ولم يتحرك الرجال الاربعة، بل لم يبد عليهم ما يؤذن انهم راوه . وكان جوندريت قد عاد يتحدث في لهجة شاكية وقد عصف الاهتياج بعينيه وغلبت على صوته نبرة فاجعة . . .

لكن عينه الباهتة ما لبثتا ان اضطرمتا بتوهج فظيع، وامسى مخيفا. ثم تقدم نحو مسيو لوبلان، وصاح في وجهه بصوت راعد: «والان هل عرفتني ؟»

٩

كان باب العلية قد فتح فجأة، متكشفا عن ثلاثة رجال يرتدون ثيابا عمالية زرقاء ويتقنعون باقنعة ورقية سوداء. كان اولهم يحمل هراوة طويلة معصوبة بالحديد. واما ثانيهم فقد حمل مطرقة كالتي يصطنعها الجزارون لقتل الثيران. واما ثالثهم ، فكان يحمل مفتاحا هائلا مسروقا من باب سجن من السجون .

كان مسيو لوبلان شاحبا جدا. لقد اجال طرفه في ارجاء الغرفة مثل رجل يعرف اين وقع، ودار راسه فوق عنقه ، متجها نحو جميع الرؤوس المحيطة به ، ولكن لم يكن في سيماه ما يشبه الخوف. كان قد جعل من الطاولة متراسا مرتجلا ، وكان هذا الرجل الذي بدا ، قبل لحظة ، وكأنه مجرد رجل ساذج عجوز ، قد تحول فجأة الى ضرب من الجبار ، ووضع قبضة يده القوية على مؤخرة كرسيه في ايماءة رهيبة مذهلة .

وكان ثلاثة من الرجال الذين وصفهم جوندريت بقوله : **« انهم دكاترة مداخن »** قد فزعوا الى ركام الحدائد العتيقة. فاما احدهم فتناول مقصا ضخما من مقصات المعادن، واما الثاني فتناول قضيبا حديديا من قضبان القبابين ، واما الثالث فتناول مطرقة ، ووقفوا معترضين الباب ، وخطر لماريوس ان لحظة التدخل سوف تحين بعد ثوان ، فرفع يده اليمنى نحو السقف ، في اتجاه الرواق ، فهو على استعداد لاطلاق النار . وهنا التفت جوندريت الى مسيو لوبلان وكرر سؤاله : « انت لا تعرفني اذن ؟ »

ونظر اليه مسيو لوبلان في وجهه ، واجاب : « لا . »

ثم ان جوندريت تقدم حتى الطاولة . وانحنى فوق الشمعة ، مصالبا ذراعيه وصرخ: «ان اسمي ليس فابانتو، ان اسمي ليس جوندريت، ان اسمي تيناردييه! انا صاحب فندق مونفيرماي! هل تفهمني؟ تيناردييه! والان هل عرفتني» .

وسرى في جبين مسيو لوبلان احمرار لا يكاد يلحظ ، واجاب من غير ان يرتعش صوته : « لم ازدد معرفة بك » .

ولم يسمع ماريوس الجواب. ولو ان احدا رآه في هذه اللحظة وسط تلك الظلمة اذن لرآه شارد العين مروع القلب. فحين قال جوندريت : **« ان اسمي تيناردييه »** سرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها ، واسند نفسه الى الجدار وكأنه قد استشعر برد شفرة سيف يخترق فؤاده. وعندئذ انخفضت ذراعه اليمنى ، وكانت على وشك ان تطلق الرصاصة المتفق عليها، انخفاضا بطيئا ، حتى اذا كرر جوندريت : **«هل تفهمني ، تيناردييه ؟»** كادت اصابع ماريوس الخائرة ان تفلت المسدس الصغير. ان اماطة جوندريت اللثام عن هويته لم تحدث هزة ما في نفس مسيو لوبلان، ولكنها احدثت هزة هائلة في نفس ماريوس. وذلك الاسم، تيناردييه، الذي بدا وكأن مسيو لوبلان لم يعرفه، قد عرفه ماريوس. فلنذكر اي شيء كان ذلك الاسم عنده! لقد حمل ذلك الاسم فوق فؤاده، مكتوبا في وصية ابيه! لقد مزجه مع اسم ابيه في عبادته. ماذا؟! اهذا هو تيناردييه، اهذا هو فندقي مونفيرماي الذي بحث عنه تلك المدة الطويلة كلها ! لقد وجده اخر الامر، وكيف! ان منقذ ابيه هذا كان قاطع طريق! ان مخلص الكولونيل بونميرسي هذا كان على وشك أن يرتكب جريمة قتل! وضد من! يا الهي العظيم! اي سخرية مريرة من سخريات القضاء! لقد امره ابوه من اعماق تابوته ان يقدم الى تيناردييه كل خير يقدر عليه، ولحظة اوشك ان يمكن العدالة من القاء القبض على قاطع طريق، متلبس بجريمة ، يصيح القدر في وجهه: «هذا تيناردييه!» كان قد وطن النفس ، اذا ما وجد تيناردييه هذا ذات يوم ، ان لا يدنو منه الا منطرحا على قدميه ، وها هو ذا قد وجده الان فعلا ، ولكن ليسلمه الى الجلاد . واية

سخرية اعظم من ان يكون قد حمل فوق صدره، طوال هذه المدة كلها، امنيات ابيه الاخيرة لا لشيء الا لكي يعمل بما يناقضها على النحــو المروع الى هــذا الحد! ولكن من ناحية ثانية، ايرى الى هذا الكمين ولا يحبطه؟! ايدين الضحية ويشفق على السفاح ؟! وهل من الممكن ان يكون مدينا بجميل يجب ان يرده لمثل هذا النذل ؟ وارتعد . كــان كل شيء رهنا به . كان يمسك بيده هــذه المخلوقات التي تحركت هناك تحت بصره. فاذا اطلق النار من مسدسه الصغير نجا مسيو لوبلان وهلك تيناردييه . واذا لم يطلق النار ذهــب مسيو لوبلان ضحية، ومن يدري؟ فقد يفر تيناردييه. انه بين واحد من امرين : ان يهلــك احدهما او يدع الاخر يقع في الهاوية! وفي كلتا الحالين وخز ضمير ! ما الذي يتعين عليه ان يعمله ؟ اي الامرين يجب ان يختار ؟ لقــد بدا له من ناحية ، وكأنه يسمع اورسول تتوسل اليه ان ينقذ اباها ، ومــن ناحية ثانيــة وكأنه يسمع الكولونيل يوصيه بتيناردييه . وخذلته ركبتاه وكاد ان يغمى عليه .

وفي غضون ذلك ، كان تيناردييه يروح ويجيء امام الطاولة ، في ضرب من الانشداه وفي ضرب من الظفر المسعور. وصاح : « آه ، لقد عثرت عليك من جديد ، يا سيدي المحسن ! يا سيدي المليونير البالي الثياب ! ها ! انــت لا تعرفني ؟ لا ، لست انت ذلك الرجل الذي جاء الى مونفيرماي، الى فندقي ، منذ ثماني سنوات، ليلة عيد الميلاد عام ١٨٢٣ ! انت لم تكن ذلك الرجل الذي انتزع ابنة فانتين، القبرة ، من منزلي! انت لم تكن ذلك الرجل اللابس سترة صفراء والحامل في يده صرة من الثياب مثلما جئت الى هنا هذا الصباح تماما ! ها ! انت لا تعرفني ؟ حسن ، اما انا فقد عرفتك ! »

فاجاب مسيو لوبلان في نبرة من الكياسة كان لها في مثل تلك اللحظة ، اثر قوي وغريب : « عفوا ، يا سيدي ، اني ارى انك قاطع طريق . »

فصاح تيناردييه : « قاطع طريق ! اجل ! اجل ، انا اعلم انكم تدعوننا هكذا ، انتم الاغنياء ! اجل ! هذا صحيح ، لقد افلست ، انا لا اجد كسرة من الخبــز فانا قاطع طريق ! سيدي المليونير ، اعلم اني كنت رجلا ذا تجارة ناجحــة ، كنــت دافع ضرائب ، كنت ناخبا ، انا مواطن ! انا ! وقد لا تكون انت مواطنا ، انت ! واعلم ايضا ، يا سيدي المحسن ! انا لست رجلا مريبا ! انا ! انا لست رجلا لا يعرف احد اسمه ، رجلا يأتي الى البيوت ليخطف الاولاد ! انا جندي فرنسي قديم . لقد شهدت واترلو، انا ! وفي اثناء المعركة انقذت جنرالا يدعى الكونت لا ادري ماذا ! لقد قال لي اسمه ، ولكن صوته كان ضعيفا الى درجة جعلتني لا اسمعه . ولكن ما لنا ولهذا . يجب ان احصل على المال ، على مقدار هائل من المال ، والا قضيت على حياتك وحق رعود الله ! »

كان ماريوس قد سيطر، بعض الشيء، على قلقه البالغ، وانشأ يصغي . كان اخر احتمال من احتمالات الشك قد تلاشى . كان من غير شك تيناردييه الوصية . وتعاظم ارتباك ماريوس ، والى هذا ، فقد كان في كلمات تيناردييه هذه كلها شيء فظيع كالشر ، موجع كالحقيقة ... وحين ادار تيناردييه ظهره ليتحدث مع احد اولئك السفاكين اغتنم مسيو لوبلان الفرصة السانحة ، ودفع الكرسي بقدمه ، والطاولة بيده ، وبوثبة واحدة وقبل ان يتمكن تيناردييه من ان يستدير ، انتهى الى النافذة . ولم يستغرق فتحها ، وتسلق دعامتها ، وتخطيها غير ثانية واحدة . وما ان اصبحت احدى قدميه خارج الغرفة واحداهما داخلها ، حتى امسكت به ست ايد قوية ، وردته الى الغرفة في قوة . كان «دكاترة المداخن» الثلاثة قد وثبوا عليه . وفي الوقت نفسه ، كانت تيناردييه الزوجة قد أنشبت اظافرها في شعره .

وفي غمرة الاضطراب الذي نشأ عن ذلك ، هرع قطاع الطرق الاخرون من الرواق. ونزل العجوز عن السرير وتقدم حاملا بيده مطرقة معبد طرق . ورفع واحد من « دكاترة المداخن » نبوتا حديديا فوق راس مسيو لوبلان .

ولم يستطع ماريوس ان يحتمل المشهد . وقال في ذات نفسه : «اغفر لي ، يا ابت ! وتلمس اصبعه زناد المسدس الصغير . وكانت الرصاصة على وشك ان تنطلق حين صاح صوت تيناردييه : « لا توقعوا به اي اذى ! »

ومن غير ان يعي شيئا من ذلك كانت اولى نتائج هذه الكلمة ان اوقفت المسدس الصغير الذي كان على وشك الانطلاق ، وشلت ماريوس الذي بدا له ان الالحاح قد زال ، والذي لم يعد يرى حرجا في الانتظار فترة اخرى .

كان صراع جبار قد بدأ . وبضربة واحدة على ام الصدر ، طرح مسيو لوبلان احد السفاحين فتدحرج وسط الغرفة ، ثم بضربتين من ظاهر يده صرع معتديين اخرين وامسك بكل منهما تحت احدى ركبتيه ، ولكن الاربعة الاخرين كانوا قد امسكوا بمسيو لوبلان من ذراعيه ورقبته ، وابقوه جالسا القرفصاء فوق « دكتوري المداخن » المذعورين . وهكذا فان مسيو لوبلان اختفى تحت تلك المجموعة الرهيبة من قطاع الطرق .

ووفقوا الى طرحه على السرير الاقرب الى النافذة وتشبثوا به هناك في تهيب . كانت تيناردييه الزوجة لم تفلت شعره بعد . وقال تيناردييه : «فتشوا جيوبه !» وفتشوا جيوبه . فلم يجدوا غير كيس نقود جلدي منطو على ستة فرنكات، ومنديله، فقال تيناردييه : «اوثقوه الى مؤخر السرير. »

وحين احكموا شده الى السرير اخذ تيناردييه كرسيا ، وتقدم فجلس تجاه مسيو لوبلان تقريبا . كانت سيماه قد تغيرت تغيرا كاملا ، ففي بضع

ثوان تحولت اسارير وجهه من العنف الجامح الى الرقة الوادعة الماكرة. وكاد ماريوس لا يتبين في تلك الابتسامة الكيسة فم تيناردييه الوحشي الذي كان يرغي ويزبد قبل لحظة . لقد نظر في ذهول الى هذا التحول الغريب الموجع واستشعر ما يستشعره امرؤ يرى نمرا ينقلب الى وكيل دعاوى . وقال تيناردييه مخاطبا مسيو لوبلان : « سيدي ، لقد اخطأت في محاولة الوثوب من النافذة. كان من الجائز ان تكسر رجلك. والان ، اذا شئت فسوف نتحدث في سكينة . وقبل كل شيء ، يجب علي ان انبهك الى هذه الحقيقة التي لاحظتها ، وهي انك لم تطلق حتى الان اقل صيحة . وكان في ميسورك ان تصيح قليلا : اللص ! اللص ! ولكنك لم تفعل . هذا حسن . اني اقدم اليك تهنئتي على ذلك ، ولسوف اقول لك اي شيء استنتجه من هذا : حين يصرخ المرء من الذي يأتي ؟ البوليس . وبعد البوليس ؟ العدالة . حسن ! انت لم تصرخ . لانك لم تكن راغبا في ان ترى العدالة والبوليس يأتيان . لان لك مصلحة ما في اخفاء شيء ما . ونحن نشاركك هذه المصلحة . واذن ، ففي استطاعتنا ان نتفاهم . »

وكان الصمت الذي لزمه الاسير ، وذلك الحذر الذي اصطنعه الى حد تعريض حياته للخطر، كان هذا كله قد اقلق ماريوس وادهشه على نحو اليم . وكان في ملاحظة تيناردييه ما ضاعف في عيني ماريوس السحب التي تغلف هذا الوجه الرصين الغريب الذي اطلق عليه كورفيراك لقب مسيو لوبلان .

ونهض تيناردييه في هدوء ، ومضى الى الموقد ، وازاح الستار الحاجز كاشفا القناع بذلك عن الكانون الطافح بالجمرات المتوهجة حيث كان في استطاعة الاسير ان يرى الازميل حاميا حتى البياض . ثم تراجع تيناردييه ، وجلس الى جانب مسيو لوبلان . وقال : « اتابع الحديث . دعنا نسوي هذه المسألة وديا. لقد اخطأت انا ايضا عندما طلبت منك مبلغا كبيرا . انا لا اطلب الان غير مئتي الف فرنك . ستقول لي ليس في جيبي مئتا الف فرنك . فتلطف اذن واكتب ما سأمليه عليك . . . » ودفع تيناردييه الطاولة حتى حاذت مسيو لوبلان ، واخرج من درجها دواة ، وقلما ، وورقة مبقيا الدرج مفتوحا نصف فتحة ، وقد اومضت فيه شفرة المدية الطويلة . ووضع الورقة امام مسيو لوبلان ، قال : « اكتب ! »

وتكلم الاسير اخر الامر : « وكيف تريد مني ان اكتب ؟ انا مقيد . »

فقال تيناردييه : « هذا صحيح ، اعذرني ! انت على حق . »

والتفت الى احد السفاحين وقال : « فك ذراع السيد اليمنى . »

ونفذ بانشو امر تيناردييه . حتى اذا اطلقت يد الاسير اليمنى من

وثاقها غمس تيناردييه الريشة في الحبر ، وقدمها اليه ، قائلا : « تذكر ، يا سيدي انك سوف تبقى موثقا حتى يعود الشخص المكلف بنقل الرسالة التي توشك ان تكتبها . والان تلطف واكتب . »

وتناول مسيو لوبلان الريشة . وبدأ تيناردييه يملي : « ابنتي .. تعالي في الحال . . . انا في حاجة ماسة اليك . ان الشخص الذي سيقدم اليك هذه المذكرة مكلف بان يقودك الي . انآ في انتظارك . تعالي في ثقة . »

وكان مسيو لوبلان قد كتب ذلك كله وهو يرتعد فاضاف تيناردييه : « والان وقع . ما اسمك ؟ »

فقال الاسير : « اوربان فابر . »

وبحركة مثل حركة الهرة اقحم تيناردييه يده في جيبه ، واخرج منها المنديل الذي انتزعه من مسيو لوبلان . وبحث عن العلامة التي يحملها ، وقربهما من الشمعة وقال: «أ. ف ذلك هو ، اوربان فابر. حسنا، وقع: أ. ف»

ووقع الاسير . وعندئذ طوى تيناردييه الرسالة وقال : «ضع العنوان»

واعتصم الاسير بالتأمل لحظة، ثم تناول الريشة وكتب: « الانسة فابر ، شارع سان دومنيك دانفير ، رقم ١٧ » .

وامسك تيناردييه بالرسالة في تشنج محموم، وصاح: « ايتها الزوجة ! هي ذي الرسالة. اركبي عربة اجرة. اذهبي في الحال ، وارجعي في الحال. » ووجه الخطاب الى الرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران، قائلا: « اسمع ! سوف تركب انت خلف عربة اجرة . وحذار ان تضيعا الرسالة! تذكرا انكما تحملان مئتي الف فرنك . »

فاجابه صوت زوجته الاجش: «كن مطمئنا. لقد وضعتها في صدري. »

وانتظر ماريوس في قلق . كان كل شيء يزيده حدة . كانت الاحجية ممتنعة على التفسير اكثر منها في ايما وقت مضى. من كانت هذه «الصغيرة» التي دعاها تيناردييه « القبرة » ايضا؟اهي فتاته « اورسول » ؟ ومن ناحية ثانية ، فقد فسر الحرفان أ. ف. كانا يرمزان الى «اوربان فابر» ، ولم تكن اورسول تدعى اورسول . وقال بينه وبين نفسه : «على اية حال ، اذا كانت القبرة هي اياها ، فسوف اراها ، من غير شك ، لان تيناردييه الزوجة سوف تجيء بها الى هنا . وعندئذ يصبح كل شيء واضحا . اني مستعد لان ابذل دمي وحياتي ، ولكني سوف انقذها ! لن يحول بيني وبين ذلك شيء ابدا . »

وتصرمت على هذا النحو ثلاثون دقيقة . وبدا تيناردييه مستغرقا في تأمل مظلم . ولم يتحرك الاسير . ومع ذلك ، فقد حسب ماريوس انه سمع بين الفينة والفينة ، ضجة صغيرة بكماء مقبلة من ناحية الاسير

وفي غمرة هذا الصمت اندفعت تيناردييه الزوجة الى الغرفة ، حمراء لاهثة، ملتهبة العينين، وصاحت لاطمة شفتيها بكلتا يديها في آن معا : «عنوان كاذب ! في شارع سان دومنيك ، رقم سبعة عشر ، لا يوجد شخص اسمه اوربان فابر ! لم يعرف احد من هو هذا الرجل!» وصمتت وقد غصت بريقها ثم استأنفت كلامها: «مسيو تيناردييه! ان هذا الرجل العجوز قد خدعك ! »

وتنفس ماريوس الصعداء. كانت هي ــ اورسول او القبرة ــ قد نجت .

وفيما كانت الزوجة الساخطة تصيح ، جلس تيناردييه على الطاولة . لقد جلس بضع ثوان غير ناطق بكلمة، محدقا في الكانون وقد طفت على وجهه سيما وحشية من الاستغراق في التفكير ، واخيرا قال للاسير : « عنوان كاذب ! ما الذي كنت ترجوه من وراء ذلك ؟ »

فصاح الاسير في صوت مجلجل : « ان اكسب الوقت ! »

وهز ، في الوقت نفسه ، القيود المكبل بها . كانت قد قطعت ولم يعد الاسير موثقا الى السرير الا برجل واحدة .

وقبل ان يجد الرجال السبعة متسعا من الوقت يصحون فيه من الدهش، ويثبون على الاسير كان هو قد انحنى نحو الموقد، وبسط يده في اتجاه الكانون ، ثم نهض، فاذا بتيناردييه، وزوجته، وقطاع الطرق، يحدقون اليه في انشداه ، رافعا فوق راسه الازميل المتقد متمتعا بحريته تقريبا في وضع رهيب .

وكان قطاع الطرق قد استفاقوا من ذهولهم الاول .

وقال احدهم لتيناردييه: «لا تجزع. ان احدى رجليه لا تزال موثوقة بالحبال . انا واثق من ذلك . لقد ربطت انا ساقه هذه » .

وهنا رفع الاسير صوته: « انتم مساكين ، ولكن حياتي لا تستحق عناء دفاع طويل . اما تخيلكم انه في امكانكم ان تحملوني على الكلام او ان تحملوني على كتابة ما لا اريد كتابته» . . . ورفع ردن ذراعه اليسرى، واضاف: «انظروا!»

وفي الوقت نفسه ، بسط ذراعه ، ووضع الازميل المضطرم على لحمه العاري ، وقد امسك بذلك الازميل ، من مقبضه الخشبي ، بيده اليمنى .

وسمع فحيح اللحم المحترق. وانتشرت في ارجاء الوكر الرائحة الخاصة بغرف التعذيب. وترنح ماريوس وقد ذهب الذعر بصوابه. وسرت الرعدة في اوصال قطاع الطرق انفسهم. ولم ينقبض وجه الرجل العجوز الغريب الا قليلا. وفيما كان الحديد الاحمر الحامي يغوص في الجرح الداخن، المتمنع على الوجع، ادار نحو تيناردييه وجهه الجميل حيث لم يكن ثمة كره، وحيث كان الألم قد تلاشى في غمرة من الجلال المشرق. وقال: «ايها الاوغاد، لاتخافوا مني اكثر مما خفت منكم» وسحب الازميل من الجرح، وقذف به الى الخارج من خلال النافذة التي

كانت لا تزال مفتوحة . واختفت الاداة الرهيبة المتوهجة ، مدومةفي الظلام .
واستأنف الاسير كلامه : « افعلوا بي ما تشاؤون ! »
كان اعزل . وقال تيناردييه : « امسكوا به ! »
ووضع اثنان من قطاع الطرق ايديهما على منكبيه، ووقف ثالث تجاهه ، مستعدا لان يطيح راسه بضربة واحدة اذا ما قام بحركة ما .
وفي خطى بطيئة تقدم تيناردييه نحو الطاولة وفتح الدرج، واخرج المدية.
ودغدغ ماريوس زناد المسدس الصغير . ارتباك لم يسمع بمثله من قبل! فطوال ساعة كان صوتان ينطلقان في ضميره، الاول يدعوه الى احترام وصية ابيه، والاخر يهيب به الى انجاد الاسير . وكان قد رجا ، حتى تلك اللحظة، ان يجد وسيلة الى التوفيق بين هذين الواجبين، ولكن ايما طريقة ممكنة لم تنشأ. كان الخطر قد امسى الان ملحا، وكان هو قد تخطى اخر تخم من تخوم الرجاء.
واجال ماريوس في ما حوله نظرا شاردا، وذلك اخر سهم في كنانة الياس. وفجأة ارتعدت اوصاله. فعند قدميه، فوق الطاولة، التمع شعاع مشرق من بدر كامل، وبدا وكأنما يدله على قصاصة من ورق. وعلى هذه الورقة قرا هذا السطر وكانت بنت تيناردييه قد كتبته بخطها عندما دخلت غرفته ذلك الصباح:
« لقد اقبلت الشرطة ! »
واخترقت عقل ماريوس فكرة، او قل ضياء. تلك كانت الوسيلة التي يبحث عنها ، الحل لهذه المشكلة الرهيبة التي كانت تعذبه تعذيبا: ان يبقي على السفاح وينقذ الضحية . وركع على الخزانة ، ومد ذراعه ، والتقط قصاصة الورق . وفي سكون انتزع من الجدار قطعة جص ، ولفها بالورقة ، وطرحها من خلال الثغرة الى منتصف الوكر .
وكان ذلك الوقت المناسب. ذلك ان تيناردييه كان قد قهر اخر مخاوفه ، وتقدم نحو الاسير . . . وصاحت تيناردييه الزوجة : « لقد سقط شيء ! »
فقال الزوج : « مـا هو ؟ »
كانت المراة قد وثبت الى امام والتقطت قطعة الجص المغلفة بالورق . وقدمتها الى زوجها . وسألها تيناردييه : « كيف جاءت هذه الى هنا ؟ »
وسارع تيناردييه الى نشر الورقة ، ورفعها الى قريب من الشمعة .
فقالت المراة : « من اين تريد ان تجيء ؟ لقد جاءت من النافذة » .
ــ « انها بخط ايبونين . يا للشيطان ! عجلوا ! هاتوا السلم ! دعوا اللحم في الشرك ، وولوا الادبار ! »
فسألته تيناردييه الزوجة : « من غير ان تحتز حنجرة الرجل ؟ »
ــ « ليس لدينا متسع من الوقت » .

وخلى قطاع الطرق المسكون بالاسير سبيله . وفي ومضة عين كانت السلم المصنوعة من حبال قد طرح طرفها الى خارج النافذة، ثم احكم تثبيتها الى حافة تلك النافذة بالكلابين الحديديين .

ولم يلق الاسير بالا الى ما كان يجري من حوله. لقد بدا وكأنه كان يحلم او يصلي .. وما ان ثبت السلم حتى صاح تيناردييه: «تعآلي ايتها الزوجة! »

واندفع نحو النافذة . وفيما كان يحاول القفز من النافذة ، اخذ احد السفاحين بخناقه وقال له: « لا، لا، ايها الماجن العجوز! لن تخرج الا بعدنا» .

وقال تيناردييه : « اننا نضيع الوقت . ان البوليس يكاد يدركنا » .

فقال احد قطاع الطرق: «حسن ، فلنسحب قرعة على من يخرج اولا» .

فصاح تيناردييه: «هل انتم مجانين؟هل انتم مختلو العقل؟ سحب قرعة، اليس كذلك ؟ نكتب اسماءنا ! نضعها في قلنسوة ... ! »

وصاح صوت من عتبة الباب : « اتريدون قبعتي ؟ »

واستداروا جميعا . كان جافير .

كانت قبعته في يده ، وكأن يبسط ذراعه بها وهو يبتسم .

١٠

كان جافير قد عهد الى رجاله في مراقبة المنزل، واختبأ خلف اشجار شارع « لا باريير دو غوبلين » الذي يواجه بيت غوربو العتيق على الجانب الاخر من الجادة . لقد بدأ بأن القى القبض على آزيلما . اما ايبونين فكانت قد اختفت، فلم يتمكن من اعتقالها. ثم ان جافير اصغى منتظرا الاشارة المتفق عليها. واخيرا نفد صبره. واذ كان واثقا من انه كان ثمة وكر لصوص فقد عزم اخر الامر على ان يرتقي السلم من غير ان ينتظر اطلاق النار .

ونحن نذكر انه كان يحمل مفتاح ماريوس العمومي .

كان قد وصل في الوقت المناسب. واندفع قطاع الطرق المروعون التماسا للاسلحة التي كانوا قد طرحوها كيفما اتفق حين حاولوا الفرار. وفي اقل من ثانية ، كان هؤلاء الرجال السبعة قد تجمعوا في موقف دفاع : احدهم يحمل مطرقة ثيرانه ، والاخر يحمل مفتاحه ، والثالث يحمل هراوته ، وسائرهم يحملون المقصات ، والكلاليب ، والمطارق ، وتيناردييه يتشبث بمديته . وامسكت تيناردييه الزوجة بلاطة ضخمة كانت في زاوية النافذة .

واعتمر جافير بقبعته من جديد ، ودخل الغرفة ، طاويا ذراعيه ، وعصاه تحت ابطه ، وسيفه في قرابه . وقال : « قفوا مكانكم !! انكم لن تفروا من النافذة . انكم لن تفروا من الباب . انتم سبعة ، ونحن خمسة عشر . فلا

تكرهونا على ان نمسك بخناقكم . فلنكن لطافا » .

واستسلم المجرمون . وكبلوا بالاغلال .

كان قطاع الطرق الستة المكبلون ، واقفين على اقدامهم. بيد انهم ظلوا محتفظين بمظهرهم الاشباحي : ثلاثة كانوا ملطخي الوجوه بالسواد ، وثلاثة كانوا مقنعي الوجوه . وقال جافير : « احتفظوا باقنعتكم » .

واستعرضهم بمثل عين فريدريك الثاني وهو يستعرض قوات الجيش في بوتسدام ، وخاطب « دكاترة المداخن » الثلاثة قائلا : « طاب نهارك ، يا بيغروناي ، طاب نهارك ، يا بروجون ! طاب نهارك ، يا دو ميبار ! » ثم التفت الى المقنعين الثلاثة ، وقال للرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران : « طاب نهارك ، يا غولوميه ! » وقال للرجل ذي الهراوة : « طاب نهارك يا بابيه ! » وقال لصاحب الصوت البطني : « تحياتي ، يا كلاكسو ! »

وفي تلك اللحظة فقط لمح اسير قطاع الطرق ، الذي كان قد اعتصم بالصمت منذ دخول البوليس ، وخفض راسه .

وقال جافير : « فكوا وثاق السيد ولا تدعوا احدا يخرج » .

نطق بذلك وجلس، في سلطان، امام الطاولة التي كانت الشمعة وادوات الكتابة ما تزال فوقها ، وسحب من جيبه ورقة تحمل طابعا وشرع يدون محضره . حتى اذا خط الاسطر الاولى التي لا تعدو ان تكون صيغة مألوفة لا تتغير ابدا ، رفع عينيه وقال : « قربوا مني هذا السيد » .

واجال رجال الشرطة طرفهم فيما حولهم . وسألهم جافير : «اين هو الان؟»

كان اسير قطاع الطرق، مسيو لوبلان، مسيو اوربان فابر ، ابو اورسولا ، او القبرة ، قد اختفى .

كان الباب محروسا ، ولكن النافذة لم تكن محروسة . فما كاد يرى نفسه محلول الوثاق ، وفيما كان جافير يكتب ، حتى اغتنم فرصة الاضطراب والجلبة ، والاختلاط ، والظلمة لكي يثب من النافذة .

واندفع شرطي الى النافذة ، والقى نظرة منها. بيد ان عينه لم تقع على احد في الخارج . . كانت السلم الحبالية لا تزال ترتعش . وقال جافير ، من بين اسنانه : « يا للشيطان ! ينبغي ان يكون هذا هو احسنهم جميعا ! »

١١

وبعد اليوم الذي تلا وقوع هذه الاحداث في المنزل القائم عند « جادة المستشفى» صعد طفل،بدا وكأنه قادم من ناحية جسر اوسترليتز، في الزقاق الضيق الايمن ، باتجاه حاجز فونتانبلو . كان الليل قد هبط ، وكان هذا

الطفل شاحبا مهزولا ، رث الثياب، وكان يغني باقصى ما يستطيع من قوة .
وعند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » ، كانت عجوز تنقب في ركام من القاذورات على ضوء مصباح الشارع . واصطدم الطفل بها في طريقه ، ثم انقلب على عقبيه صائحا : «عجيب ، لقد حسبت هذه كلبا هائلا ، هائلا ! »
وغصت العجوز بالسخط ، وانتصبت لتوها ، وقد اضاء وهج الفانوس الاحمر ، اضاءة كاملة ، وجهها الشديد الشحوب . كان جسدها محتجبا في غمرة الدجنة ، وكان راسها وحده باديا للعيان . وانعم الطفل النظر اليها وقال: « ان سيدتي ليس لها ذلك الطراز من الجمال الذي يلائمني » .
ومضى لسبيله ، وشرع يغني من جديد. حتى اذا بلغ رقم ٥٠-٥٢، كف عن الغناء . واذ وجد الباب موصدا ، انشأ يرفسه بقدمه رفسا قويا .
وفي غضون ذلك كانت المراة العجوز نفسها، التي التقاها عند زاوية شارع الـ «بيتي بانكييه» تعدو خلفه مرسلة صيحات استقباح، ومسرفة في الايماءات المخبولة: «ما المسألة؟ ما المسألة؟ انهم يخترقون الباب! انهم يقتحمون المنزل» .
وتواصلت الرفسات . واستبد اللهاث بالعجوز وقالت : « ابهذه الطريقة يستعملون البيوت في هذه الايام ؟ »
وفجأة كفت عن الكلام . كانت قد عرفت « المتشرد » .
وقال الطفل: «طاب نهارك يا «بورغون موش» لقد جئت لارى اسلافي».
واجابت العجوز في تكشيرة هائلة: «لا يوجد احد هنا، ايها الولد الفظ» .
فقال الطفل : « عجبا ! اين ابي اذن ؟ »
- « في سجن الرجال » .
- « يا للشيطان ! وامي ؟ »
- « في سجن النساء » .
- « حسن ، وشقيقتاي ؟ »
- « في السجن ايضا » .
وحك الطفل مؤخرة اذنه ، ونظر الى مدام بورغون وقال : « آه ! »
ثم اطلق ساقيه للريح وهو ينشد :

« الملك كو دو سابو
ذهب الى الصيد ،
الى صيد الغربان ،
متباهيا متفاخرا ،
وحين يمر الناس به ،
يدفعون اليه فلسين ... »

القسم الرابع

قصيدة شارع پلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز

بضع صفحات من التاريخ

١

ان سنتي ١٨٣١ – ١٨٣٢ ، المتصلتين اتصالا مباشرا بثورة تموز ، من اغرب حقب التاريخ وادعاها الى الذهول . فهاتان السنتان هما،بين السنوات التي سبقتهما والسنوات التي تلتهما ، اشبه شيء بجبلين . ان هالة من العظمة الثورية تجللهما . اننا نتبين فيهما هاوية عميقة ونرى الكتل الاجتماعية وقد اخذت تظهر وتغيب كل لحظة من خلال غيوم النظم ، والاهواء ، والنظريات العاصفة . وهذا الظهور والغياب دعيا المقاومة والحركة . فبين الفينة والفينة نرى الحق ، ذلك الفجر الذي تشرق فيه النفس الانسانية ، يلتمع ويومض .

وهذه الحقبة الرائعة قصيرة جدا ، ولقد شرعت تبتعد عنا بعدا كافيا بحيث امسى في ميسورنا ان نتبين خطوطها الرئيسية .

كان عهد عودة آل بوربون الى العرش من تلك المراحل الانتقالية ، العسير تحديدها ، حيث نجد التعب والازيز ، والدمدمة ، والسبات ، والضجيج ، والتي لا تفيد غير بلوغ الامة الكبيرة محطة تقف عندها. وهذه العهود فريدة ، وهي تخدع رجال السياسة الذين يبدون الرغبة في استغلالها . ففي بادىء الامر ، لا تتطلب الامة غير الراحة ، ولا يظمأ الناس الا الى السلام .

ولكن في الوقت الذي يلتمس فيه الناس المرهقون الراحة ، تتطلب الوقائع ضمانات . فالضمانات هي للوقائع بمثابة الراحة للناس .

وهذه الضمانات ضرورة من ضرورات العصر . وينبغي ان لا يبخل بها . ان الامراء يمنحونها ، ولكن الواقع ان قوة الاحداث هي التي تعطيها . حقيقة راسخة لم يحزرها آل ستيوارت عام ١٦٦٢ ، ولم يلمحها آل بوربون عام

١٨١٤،والواقع ان الاسرة التي قدر لها ان ترجع الى عرش فرنسة عند سقوط نابوليون كانت من السذاجة بحيث اعتقدت انها هي التي اعطت ، وان ما اعطته تستطيع ان تسترده ، وان اسرة بوربون تملك الحق الالهي ، وان فرنسة لا تملك شيئا . فحين بدا للعهد البوربوني الجديد ان الاوان قد حان وطن النفس على القيام بمغامراته . فانكر الحق الجماعي والحق الفردي : انكر السيادة على الامة ، وانكر الحرية على المواطن .

وسقط العهد البوربوني الجديد. ولقد سقط بحق . بيد انه يتعين علينا ان ننص على انه لم يكن معاديا على نحو مطلق لكل شكل من اشكال التقدم . ان بعض الاشياء العظيمة قد انجزت في ظله .

ففي ظل العهد البوربوني الجديد تعودت الامة المناقشة في هدوء ، وهو ما كان يعوز الجمهورية ، وتعودت العظمة في السلم وهو ما كان يعوز الامبراطورية . لقد قالت الثورة كلمتها في ظل روبسبيير ، وقال المدفع كلمته في ظل بونابرت ، ولكن العقل لم يجيء دوره في الكلام الا عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر .

وسرعان ما وجدت ثورة تموز اصدقاء واعداء في ارجاء العالم كله. لقد اندفع الاولون نحوها في حماسة وابتهاج ، وولاها الاخرون ظهورهم ، كل وفق طبيعته الخاصة . والواقع ان هذه الثورة العجيبة كادت ان لا تكون صدمة . فهي لم تذهب الى حد تشريف الملكية المغلوبة بمعاملتها كعدو وهدر دمها . وفي اعين الحكومات الاستبدادية ، الراغبة دائما في ان تفتري الحرية على نفسها ، كانت خطيئة ثورة تموز انها برغم هولها ظلت رقيقة . ومع ذلك فقد انحنى لها اكثر الناس نقمة عليها ، وخوفا منها .

ان ثورة تموز هي انتصار الحق المعفر لوجه الواقع. شيء مفعم بالسناء.

الحق المعفر لوجه الواقع . من هنا بهاء ثورة ١٨٣٠ ، ومن هنا وداعتها ايضا . ان الحق لا يحتاج ، اذا ما انتصر ، الى ان يكون عنيفا .

ولكن ثورة ١٨٣٠ ثورة اوقفت في منتصف الطريق .

من الذي يوقف الثورات في منتصف الطريق ؟ البورجوازية .

لماذا ؟ لان البورجوازية هي المصلحة مشبعة. امس كانت شهوة ، وهي اليوم امتلاء ولسوف تكون غدا اكتظاظا . ان ظاهرة عام ١٨١٤ بعد نابوليون اعادت نفسها عام ١٨٣٠ بعد شارل العاشر .

لقد جرت محاولة الى جعل البورجوازية طبقة . ان البورجوازية لا تعدو ان تكون الجزء الراضي من الشعب . والبورجوازي هو الرجل الذي يجد الان متسعا من الوقت للجلوس . والكرسي ليس طبقة اجتماعية .

ولكننا بسبب من رغبتنا في الجلوس ، قد نوقف تقدم الجنس البشري نفسه . وكثيرا ما ارتكبت البورجوازية هذه الغلطة .

وفوق هذا ، فينبغي ان نكون منصفين ، حتى للانانية . فالدولة التي طمحت البورجوازية اليها ، بعد صدمة ١٨٣٠ لم تكن قوة الاستمرار ، التي تتألف من لا مبالاة وكسل . لقد كانت هي الوقوف .

والوقوف هو استعادة القوى . انه السكون المسلح اليقظ . الوقوف يفترض نشوب المعركة امس ، ونشوبها غدا .

تلك هي الفترة التي امتدت ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ .

وما ندعوه هنا المعركة يمكن ان يدعى ايضا التقدم .

لقد استشعرت البورجوازية ، أذن، كما استشعر رجال الدولة، الحاجة الى رجل ينطق بهذه الكلمة : قف ! شخصية مركبة تعني الثورة ، وتعني الاستقرار . لقد وجد هذا الرجل « في متناول اليد » . كان اسمه لويس فيليب دورليان .

ونصب لويس فيليب ملكاً . وكانت هذه الاستعاضة عن العرش الكامل بنصف عرش هي « صنيع عام ١٨٣٠ » . وانما تم ذلك كله من غير اشارة الى الحق المطلق . وصرخ الحق المطلق : « اني احتج ! » ثم ما لبث ان ارتد الى الظلام .

٢

ان للثورات ذراعا رهيبة ويدا ميمونة . انها تضرب في قوة ، وتتخير جيدا . وحتى عندما تكون ناقصة ، وحتى عندما تكون متفسخة فاسدة ، وساقطة الى مرتبة ثورة طفلة ، مثل ثورة ١٨٣٠ ، فانها تحتفظ دائما تقريبا بقدر كاف من نور العناية الالهية يعصمها من سقوط مهلك .

فلنعد الى عام ١٨٣٠ . لقد كان عام ١٨٣٠ ميمونا في انحرافه . لقد حمل الى العرش ملكا كان خيرا من الملكية . لقد كان لويس فيليب رجلا نادر المثال .

ان الساعة التي يتحدث فيها التاريخ بنبرته الحرة الجليلة ، لم تحن بعد بالنسبة اليه . ان الاوان لم يئن لاطلاق الحكم الاخير على هذا الملك . كان لويس فيليب هو الشخص الذي اختاره هذان الشيئان التقريبيان اللذان ندعوهما الـ ٢٢١ ، و ١٨٣٠ ، يعني نصف برلمان ، ونصف ثورة . وعلى اية حال ، فمن وجهة النظر التي ينبغي ان تسمو اليها الفلسفة لا نستطيع ان

نحكم عليه هنا الا مع بعض التحفظات باسم المبدأ الديمقراطي المطلق . ان كل شيء خارج نطاق هذين الحقين ، حق الانسان اولا ، وحق الشعب بعد ذلك ، هو في عيني المطلق اغتصاب . ولكن ما نستطيع ان نقوله منذ الان ، بعد ابداء تلك التحفظات ، هو ان لويس فيليب سوف يظل ، اذا نظر اليه في ذات نفسه ومن وجهة نظر الطيبة الانسانية ، واحدا من افضل الملوك الذين قدر لهم ان يتربعوا على عرش .

اي مأخذ يؤخذ عليه ؟ ذلك العرش نفسه . جرد فيليب من صفة الملك يبق الرجل . والرجل صالح . وانه لمن الصلاح في بعض الاحيان بحيث يصبح رائعا . فكثيرا ما كان يرجع في موهن من الليل الى منزله ، مثقل الكاهل بالمهام البالغة الخطورة ، وبعد نهار كامل من الصراع ضد دبلوماسية القارة كلها ، ما الذي كان يعمله ؟ كان يمسك برزمة وثائق ، وينفق الليل في مراجعة دعوى جنائية ، شاعرا بان الصمود في وجه اوروبة شيء عظيم ، ولكن انقاذ رجل من بين يدي الجلاد اعظم من ذلك بكثير .

٣

ان حكومة ١٨٣٠ قد عرفت ، منذ البدء ، حياة قاسية . لقد اضطرت ، وهي التي ولدت امس ، الى ان تقاتل اليوم .

فما انقضت فترة يسيرة على اقامتها حتى شعرت في كل مكان بحركات غامضة موجهة ضد ملكية تموز ، وكانت ما تزال حديثة عهد بالعرش ، وغير راسخة الدعائم على الاطلاق .

ومن شهر الى شهر تعاظمت الاعمال العدائية ، وبعد ان كانت بكماء ، غدت صريحة واضحة .

ولم يكد ينقضي على ثورة تموز عشرون شهرا حتى استهلت سنة١٨٣٢ بمظهر مداهم متهدد . فشقاء الشعب ، وافتقاد العمال للخبز ، وطرد بروكسل لآل ناسوس كما طردت باريس آل بوربون ، وتسديد النظرات الغضبى الى فرنسة تسديدا موصولا من مختلف ارجاء اوروبة ، وتمثيل انكلترة دور الحليف المريب المستعد لان يدفع كل من ينحني ، وينقض على كل من يسقط ، ونشوب الحرب الاهلية في باريس وحرب الرق في ليون ، والدسائس ، والمؤامرات والانتفاضات ، والكوليرا — كل هذا اضاف الى ضجيج الافكار الكالح هدير الاحداث المظلم .

وحوالي نهاية نيسان كان كل شيء قد امسى اسوأ مما كان . كان

الاختمار قد امسى غليانا . ومنذ سنة ١٨٣٠ كانت ثمة ههنا وههناك فتن صغيرة جزئية سرعان ما اخمدت ، ولكن لتعاود الاندلاع من جديد. كان شيء فظيع في سبيله الى ان يرى النور . وكان في ميسور المرء ان يلمح اسارير ثورة ممكنة الوقوع . وتطلعت فرنسة الى باريس ، وتطلعت باريس الى حي سان انطوان .

وكان حي سان انطوان ، الذي حمي خفية ، قد شرع يغلي .

وكانت حانات شارع شارون رصينة وعاصفة في وقت واحد .

ففيها كان مجرد وجود الحكومة موضع التساؤل . لقد تناقشوا هناك على نحو علني ، في ما اذا كان يتعين عليهم ان يقاتلوا او ان يلتزموا الهدوء . وكانت هناك حوانيت خلفية حيث اخذ على العمال عهد بان ينفروا الى الشوارع عند الصيحة الاولى ، وان يقاتلوا مهما تكن قوى العدو عظيمة .

وهناك كانت تسمع كلمات مثل هذه «انا لا اعرف اسماء الرؤساء . اما نحن فلن نعرف اليوم المضروب الا قبل ساعتين .» وقال احد العمال : نحن ثلاثمئة فليضع كل منا عشرة سو يجتمع لدينا مئة وخمسون فرنكا لصنع القذائف والبارود . وقال اخر : انا لا آوي الى الفراش ، لاني اصنع الخراطيش طوال الليل .

وكانت الاجتماعات دورية احيانا. وفي بعض تلك الاجتماعات لم يكن يجتمع اكثر من ثمانية نفر او عشرة نفر بحال من الاحوال ، وكان هؤلاء هم هم ابدا . وفي بعضها الاخر كان في ميسور كل امرىء ان يدخل اذا شاء ، وكانت الغرفة تغص بالوافدين حتى انهم كانوا يضطرون الى الوقوف على الاقدام .

وتفرعت الجمعيات الباريسية الى المدن الرئيسية . فكانت لليون ، ونانت ، وليل ، ومرسيليا جمعياتها الحاملة اسماء « حقوق الانسان » ، و « الكاربوناري » و « الرجال الاحرار » . وكانت لـ « ايكس » جمعية ثورية دعيت « جماعة الكوغورد » .

وفي باريس لم تكن ضاحية سان مارسو اقل صخباً من ضاحية سانت انطوان ولم تكن المدارس اقل اهتياجا من الضواحي . وكانت جمعية اصدقاء الالفباء تجتمع ، كما رأينا في مقهى موزين . وكان هؤلاء الشبان انفسهم يجتمعون ايضا في مطعم ــ حانة قرب شارع مونديتور يحمل اسم كورينت . وكانت هذه الاجتماعات سرية . وكانت غيرها عامة جهد الطاقة .

وكان الجيش في الوقت نفسه مرهقا وناقما مثل افراد الشعب ، كما اثبتت في ما بعد تلك الحركات التي شهدتها بيلفور ، ولونيفيل ، وايبينال .

٤

وحوالي هذه الفترة اجرى آنجولراس ضربا من الاحصاء العجيب .

كانوا كلهم يشهدون ذلك الاجتماع السري فى مقهى الموزين .

وقال آنجولراس : « من الخير ان نعرف أين نحن ، وعلى من نستطيع ان نعتمد . كم عددنا ؟ نحن لا نستطيع ان نؤجل هذا العمل الى غـد . فالثوريون يجب ان يكونوا دائما على استعداد ، وليس لدى التقدم وقـت يضيعه . حذار المفاجآت ، حذار ان نؤخذ على حين غرة . كورفيراك ، يتعين عليك ان تتولى امر الخبراء الفنيين . فويي ، انت سوف تـرى رجال الـ « غلاسيير » . وكومبوفير قد وعدني بالذهاب الى بيكبوس . وباهوريـل سوف يزور الـ « ايستراباد » . وجولي سوف يمضي ويجس لنـا نبض مدرسة الطب . وبوسوويه سوف يقوم بجولة قصيرة صغيرة فى قصر العدل ويتحدث مع المحامين المتدرجين . اما انا فسأتولى امر الكوغورد . »

فقال كورفيراك : « واذن فقد سوي كل شيء . »

ـ « لا . لقد بقي باب مين . »

وبدا انجولراس لحظة وكأنه مستغرق فى التفكير ، ثم استأنف الكلام : «ان في باب مين نأحتين ، ورسامين ، انها اسرة شديدة الحماسة ، ولكني لا ادري ما الذي اصاب افرادها منذ فترة قصيرة . انهم يذبلون . انهـم ينفقون اوقاتهم في لعب الدومينـو . يجب ان يقصد اليهـم شخص ما ، ويتحدث اليهم فى حزم . انهم يلتقون فى محل ريشفو . يجب ان ننفخ هذه الجمرات . وكنت قد اعتمدت فى هذا على ماريوس الشارد الذهن ذاك ولكنه لم يعد يأتي البتة . اني فى حاجة الى من ارسله الى باب مين . لم يبق عندي احـد . »

فقال غرانتير : « انا اذهب ! »

ونظر اليه آنجولراس ساخرا ، ولكن غرانتير الح فنزل آنجولراس عند رغبته بعد ان اوصاه بالتزام الجد .

ابونين

١

كان ماريوس قد شهد الخاتمة غير المتوقعة التي انتهى اليها الكمين الذي اعلم جافير بنبأه . ولكن ما كاد جافير يغادر البيت العتيق ، ناقلا اسراه فى ثلاث عربات ، حتى انسل ماريوس ، بدوره الى الخارج . لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء . فمضى ماريوس الى غرفة كوفيراك . وقال له : « افد جئت لانام عندك . »

وفى اليوم التالي ، حوالي الساعة السابعة صباحا ، رجع ماريوس الى البيت العتيق ، فدفع اجرة الغرفة وما كان لمدام بورغون فى ذمته . حتى اذا رجع جافير بعد الظهر ليستجوب ماريوس عن احداث الليلة البارحة لم يجد غير مدام بورغون التي اجابته بقولها : « لقد انتقل ! »

وظن جافير ان الشاب ، الذي كان قد نسي اسمه ، اخذه الذعر فولى هاربا ، أو لعله لم يعد الى غرفته لحظة وقع الكمين ، ومع ذلك فقد بذل بعض الجهد فى البحث عنه ، ولكنه لم يوفق ... وتصرم شهر ، ثم تبعه اخر . كان ماريوس لا يزال يحيا مع كورفيراك . ولقد علم من محام متدرج يتردد دائما الى اروقة قصر العدل ان تيناردييه كان اسير السجن الانفرادي . وكل يوم اثنين ، كان ماريوس يرسل الى كاتب سجن لافورس خمسة فرنكات لكي يسلمها الى تيناردييه .

واذ لم يبق مع ماريوس ايما مال ، فقد داب على استعارة الفرنكات الخمسة من كورفيراك . كانت هي اول مرة يستدين بها ، فى حياته .

والى هذا ، فقد كان ماريوس محزونا كسير الفؤاد . كان كل شيء قد غرق ، فى الظلام ، كرة اخرى . انه لم يعد يرى ايما شيء امامه. ولم تنطلق

ايما شرارة يقين او حقيقة حتى من تلك الصدمة الرهيبة الى ابعد الحدود . ولم يكن ايما حدس ممكنا . فهو لم يعرف حتى الاسم الذي كان قد ظن انه عرفه . فليس من ريب انه لم يعد اورسولا . والقبرة كانت مجرد لقب . وما الذي ينبغي ان يقوله فى الرجل العجوز ؟ اكآن يتهرب حقا من وجه البوليس ؟ ما الذي جعله لا يلتمس النجدة ؟ لم فر ؟ واخيرا ، هل كان حقا ذلك الرجل الذي حسب تيناردييه انه عرفه ؟ اسئلة كثيرة ولا منفذ .

وزاد الطين بلة ان الفاقة الت به من جديد . لقد استشعر تلك الريح المثلوجة على مقربة منه ، من امامه ومن ورائه . وخلال هذه الالام كلهـا ، وطوال فترة امست الان مديدة ، انقطع عن العمل ... ولم يبق له غير فكرة عذبة مفردة هي ان كوزيت احبته ، ان عينيها انبأتاه بذلك ، انها لم تعرف اسمه ولكنها عرفت روحه ، وانها قد تكون ، حيثما وجدت وايا كـان ذلك الموطن الخفي ، ما تزال تحبه . ومن يدري ؟ فلعلها كانت تحلم به كما كان يحلم بها .

٢

كان انتصار جافير فى بيت غوربو العتيق قد بدا كاملا ، ولكنه لم يكن كذلك . انه ، قبل كل شيء ، لم يوفق الى جعل الاسير اسيرا . والمعتدى‌عليه الذي يولي فرارا يثير الريبة اكثر من القاتل ... والى هذا، فان مونبارناس ، كان قد افلت من جافير ... لقد تعين عليه ان ينتظر فرصة اخرى ليضـع يده على‌ذلك الشاب الابليسي المتأنق . والحق ان مونبارناس التقى بايبونين فذهب بها . كان مطلق السراح . اما ايبونين فان جافير كان قد القى القبض عليها ، فالتحقت باختها آزيلما فى السجن .

واخيرا ، ففي الرحلة من بيت غوربو العتيق الى سجن «لافورس» فر كلاكسو احد المعتقلين الرئيسيين . ولم يدر احد كيف وقع ذلك . ولم يفهم الضباط والجنود هذا الحادث . لقد تحول الى بخار ، لقد انسل من بـين الاغلال ، لقد سال من خلال شقوق العربة .

وبدات المحاكمة . واستنسب قاضي التحقيق ان لا يضع احد افراد عصابة « المعلم مينيت » فى الحجرة المنفردة . وكان ذلك الرجل هو بروجون لقد وضعوه فى سجن اخر . وعهد الى الحرس فى مراقبته جيدا ... وكان بروجون فتى قوي البنية ، واسع الحيلة ، ذا مظهر منذهل نائح . وبسبب من هذا المظهر المنذهل استنسب قاضي التحقيق ان لا يضعه مع سائر افراد العصابة ... ولكن اللصوص لا يكفون عن ممارسة اللصوصية لمجرد انهم فى

قبضة العدالة . انهم فنانون لهم لوحة معروضة فی الصالون ومع ذلك فهم ينصرفون بكليتهم الى انجاز اثر جديد فی مقر عملهم الفني .

لقد بدا وكأن السجن اوقع الذهول فی نفس بورجون . كان يرى ساعات كاملة احيانا واقفا قرب نافذة البائع ، محدقا كالابله الى لائحة الاسعار القذرة . وفی بعض الاحيان كان يمضي وقته فی الارتجاف قائلا انه محموم .

وحوالي النصف الثاني من شباط ، ١٨٣٢ ، اكتشف أن بروجون قد وجه بواسطة السعاة الرسميين ، لا باسمه هو ولكن باسم ثلاثة من رفاقه ، ثلاث رسائل مختلفة كلفته خمسين « سو » ، وهو مبلغ هائل لفت انتباه مدير السجن . ودرست المسألة . وبمراجعة لائحة النفقات الخاصة بالرسائل والمعلقة فی غرفة استقبال المحكوم عليهم ، تبين ان الخمسين سو قد انفقت على الوجه التالي : ثلاثة مرسلين ، واحد الى البانتيون ، عشرة سو ، وواحد الى « وادي النعمة » خمسة عشر سو ، وواحد الى « باب غرونيل » خمسة وعشرون سو . وكانت هذه اغلى نفقة مدونة فی اللائحة كلها . واتفق انه فی البانتييون ، ووادي النعمة ، وباب غرونيل كانت تقوم بيوت ثلاثة من السفاحين الاشد خطرا في تلك المنطقة ، كرويدونييه، وغلوريو، وباركاروس . لقد حسبوا انهم حزروا ان هؤلاء الرجال على صلة بعصابة « المعلم مينيت » التي القي القبض على اثنين من زعمائها : بابيه وغولوميه . ولقد قدروا ان رسائل بروجون ينبغي ان تكون اشعارات بجريمة مبيتة .

وبعد اسبوع داهم الحرس بروجون قاعدا فی فراشه يكتب شيئا ، والقي بروجون فی المحبس المظلم شهرا ، ولكنهم لم يعثروا على ما كان قد كتبه . ولم يعرف البوليس شيئا اضافيا ... بيد ان الامر الثابت هو ان « كرة خبز » قد قذفت فی اليوم التالي ، من السجن الى « حفرة الاسود » من فوق البناية ذات الادوار الخمسة الفاصلة ما بين الساحتين .

ان السجناء يخلعون على كرة الخبز المجبولة في فن ، اسم « سائق العربة» وهذه الكرة تقع في الفناء ، ومن يلتقطها يفتحها، فيجد فيها رسالة موجهة الى سجين ما الفناء . فاذا اتفق ان عثر عليها احد السجناء حملها الى من وجهت اليه . واذا اتفق ان وقعت فی يد احد الحراس ، سلمت الى الشرطة .

وهذه المرة بلغ « سائق العربة » المكان الذي وجه اليه ، على الرغم من ان الشخص الذي حملت اسمه كان انذاك في المحبس المنفرد . ولم يكن المرسل اليه غير بابيه ، احد زعماء المعلم مينيت الاربعة .

وكان « سائق العربة » ينطوي على ورقة مكورة لم يخط عليها غير

هذين السطرين : بابيه ، هناك مهمة ينبغي ان تتم فى شارع بلوميه . سياج من قضبان في حديقة . » . . . ذلك هو الشيء الذي كان بروجون قد كتبه فى الليل .

وعلى الرغم من الجواسيس فقد وجد بابيه وسيلة مكنته من ارسال الرقعة من « لافورس » الى « لاسالبيتريير » الى «صديقة حميمة » له كانت سجينة هناك . وهذه الفتاة سلمت الرقعة، بدورها، الى فتاة تدعى مانيون. وكانت لمانيون هذه صلات بتناردييه وزوجته ، وكان فى ميسورها ، من طريق الاجتماع بايبونين ، ان تؤلف جسرا يصل ما بين « لاسالبيتريير » وسجن النساء .

واتفق فى تلك اللحظة ذاتها ان اطلق سراح ايبونين وآزيلما بعد ان وجد القاضي الذي استنطق تيناردييه ان ليس ثمة ما يدعو الى ابقائهما فى السجن.

وحين غادرت ايبونين السجن قدمت اليها مانيون التي كانت تنتظرها عند باب السجن رسالة بروجون الى ابيه ، وكلفتها ان تستطلع المسألة .

وشخصت ايبونين الى شارع بلوميه ، واهتدت الى السياج والحديقة ، فنظرت الى المنزل ، وتجسست . وبعد بضعة ايام حملت الى مانيون قطعة بسكويت نقلتها مانيون الى خليلة بابيه فى « لاسالبيتريير » ، والبسكويتة ، فى لغة السجون القائمة ، تعني : « مشروع خاسر » .

ولم ينقض على ذلك اقل من اسبوع حتى تبادل بروجون وبابيه هذه الكلمات وقد التقيا فى الطريق من « لافورس » ، بينا كان احدهما ذاهبا الى الاستنطاق والاخر عائدا منه : «حسنا ؟ شارع ب ؟ »كذلك تساءل بروجون.

فاجابه بابيه : « بسكويتة . »

تلك كانت خاتمة جنين الجريمة الذي وضعه بروجون فى سجن لافورس . بيد ان ذلك الاجهاض ادى الى نتائج غريبة بالكلية عن برنامج بروجون . ولسوف نرى هذه النتائج .

٣

لم يعد ماريوس يزور احدا ، ولكن كان يتفق له فى بعض الاحيان ان يلتقي بالاب مابوف . . . ففيما كان ماريوس يهبط درجات البؤس والشقاء التي تقود الى مواطن لا نور فيها ، كان مسيو مابوف يهبط بدوره ايضا. كان كتابه قد كسد كسادا كاملا . وكانت تجاربه فى النباتات قد اخفقت فى حديقة اوسترليتز الصغيرة. كان قد قصر فطور صباحه على بيضتين ، وكان يترك احداهما لخادمته العجوز . وكثيرا ما كان فطوره ذاك هو وجبة الطعام

الوحيدة التي يصيبها فى اليوم .

وذات ليلة ، تبدى لمابوف شبح غريب ... كان قد انقلب الى منزله قبيل المغيب . وكانت الام بلوتارك مريضة طريحة الفراش . وكان قد جلس على شبه مقعد حجري فى حديقته ... وكان قد شرع يتصفح ويقرأ كتابين اثيرين عنده . وفيما هو يقرأ ، ومن فوق الكتاب الذي امسك به فى يده ، راح يتأمل نباتاته . كانت قد تصرمت اربعة ايام من القيظ ، والريح ، والشمس ، من غير ان تسقط خلالها قطرة مطر . لقد التوت سوق النباتات، وانحنت براعمها ، وتساقطت اوراقها . وكانت نباتات الدفلى ، على الخصوص كئيبة الفؤاد ، فنهض ووضع الكتاب على المقعد وتقدم نحو البئر . ولكنه ما ان امسك بالسلسلة حتى عجز عن ان يسحبها . وعندئذ رفع عينا تنضح بالالم المرير نحو السماء وتمتم : « قطرة من ندى ! قليلا من الرحمة ! »

وفى تلك اللحظة سمع صوتاً يقول : « ايها الاب مابوف ، اتحب ان اروي حديقتك ؟ » ... وفى الوقت نفسه ، سمع جلبة اشبه بجلبة ظبي يجتاز السياج وبصر بضرب من الفتاة الطويلة الهزيلة تنبثق من وسط العليق ، وتنتصب امامه ناظرة اليه من غير حياء . وقبل ان يوفق الاب مابوف الى ان يجيب بكلمة ، كانت تلك المخلوقة قد حلت سلسلة البئر ، وغطست الدلو فى الماء وسحبته منه ، وملأت المرشة . ورای الرجل العجوز هذا الشبح حافي القدمين ممزق الثوب يعدو بين المساكب ويوزع الحياة من حوله .

حتى اذا انجزت تلك المخلوقة سقاية الحديقة ، تقدم الاب مابوف نحوها ، والدمع يترقرق في عينيه ، وقال : « فليباركك الله . انت ملاك . »

فاجابت : « لا . انا الشيطان ، ولكن سيان عندي ! »

وصاح العجوز : « ما اعظم اسفي لان اكون فى غاية البؤس ، وفى غاية الفقر ، وان اكون عاجزا عن عمل شيء من اجلك . »

فقالت : « فى استطاعتك ان تقول لي اين يسكن مسيو ماريوس . »

ــ « اذهبي الى شارع كرولبارب . حقل القبرة . اسلكي تلك الطريق ، فليس من العسير ان تهتدي اليه . »

وحين نهض مسيو مابوف لم يكن ثمة احد . كانت الفتاة قد اختفت.

وبعد بضعة ايام انقضت على ذلك ، وفيما كان ماريوس يتنزه ذات صباح قبل ان يذهب لتقديم المئة « سو » الى تيناردييه سمع صوتا كان يعرفه يقول : « آه ! ها هو ذا ! »

ورفع عينيه فرای الطفلة البائسة ايبونين . كانت قد امست اكثر فقرا واكثر جمالا : كانت قد حققت تقدما مزدوجا نحو الضياء ، ونحو الشقاء .

لقد وقفت امام ماريوس ، وعلى وجهها انطباعة ابتهاج ، وشيء يشبه الابتسامة . واخيرا قالت : «لقد وجدتك اذن ! كم قد بحثت عنك! ليتك فقط تدري ، لقد كنت فى الحبس . خمسة عشر يوما ! لقد اطلقوا سراحي ! بعد ان رأوا انه ليس هناك شيء ضدي. انت ما عدت تسكن هناكعلى الاطلاق ؟ »

فقال ماريوس : « لا . »

ـ « اوه ! فهمت . لقد انتقلت من هناك . ولكن اين تسكن الان ؟ »

وامتنع ماريوس عن الجواب . وتابعت : « آه ، ان قميصك ممزق . يجب ان ارتقه لك . يبدو انك غير مبتهج برؤيتي ؟ »

ولم يقل ماريوس شيئا . واعتصمت هي نفسها بالصمت لحظة ، ثم صاحت : « ومع ذلك فلو اردت انا لكان بامكاني ان اجعلك سعيدا . »

فتساءل ماريوس : « ماذا ؟ اي شيء تريدين ان تقولي ؟ »

فقالت : « اتدري ؟ لقد وعدتني بان تعطيني كل ما ارغب فيه » ...

ـ « نعم ! ولكن تكلمي اذن . »

ونظرت الى عيني ماريوس ، وقالت : « عندي العنوان . »

فتلجلج ماريوس : « العنوان آه ، صحيح . تعالي دليني على الطريق ! قولي لي ! اطلبي ما تشائين ، ما هو العنوان ؟ »

فاجابت : « تعال معي . انه هناك فى الناحية المقابلة تماما . »

وعبرت بجبين ماريوس سحابة . وامسك ايبونين من يدها ، قائلا : « احلفي لي انك لن تعطي هذا العنوان لابيك ! »

ـ « ابي ؟ آه ، نعم ، ابي ! لا تقلق من هذه الناحية . انه فى الحبس المنفرد ، وثق اني لن اعطيه العنوان . »

فقال ماريوس : « والان ، دليني على الطريق . »

فقالت : « تعال . اوه ، ما اعظم سروري ! »

وبعد بضع خطى ، وقفت ، وقالت : « انت تتبعني مبالغا فى الاقتراب مني ، يا مسيو ماريوس . دعني امضي الى امام ، واتبعني هكذا ، من غير ان يبدو انك تفعل ذلك. فليس من الخير لشاب راق مثلك ان يرى مع امرأة مثلي . »

وتقدمت بضع خطى ، ووقفت ثانية وتبعها ماريوس . وخاطبته من غير ان تلتفت : « بالمناسبة ، اتدري انك وعدتني بشيء ؟ »

وبحث ماريوس فى جيبه . ولم يكن يملك غير خمسة فرنكات مخصصة لتيناردييه . فاخذها ، ووضعها في يد ايبونين ...

وفتحت اصابعها ، وتركت القطعة النقدية تسقط على الارض ، ونظرت اليه فى سيماء قاتمة وقالت : « انا لا اريد دراهمك !.. »

المنزل الذي في شارع بلوميه

١

كان يقوم في ضاحية سان جرمان ، في شارع بلوميه المهجور ، منزل متهدم يتألف من دورين ، في مقدمته حديقة ذات باب حديدي كبير ذي قضبان ينفتح على الشارع ، وكان في مؤخرة ذلك البيت فناء ضيق ، في اقصاه بناء منخفض يتألف من غرفتين ليس غير وسرداب . وكان لهذا البيت باب خفي لا تقع عليه العين ، يؤدي هو ايضا الى باب خفي اخر قائم في حي ثان تقريبا في الطرف الاقصى غير المعمور من شارع بابل .

وحوالي نهاية العهد البوربوني الجديد فتحتنوافذ الدور الاعلى منهذا البيت ، فأدرك المارة القلائل ان المنزل المهجور امسى آهلا .

كان قد برز في تشرين الاول عام ١٨٢٩ رجل في سن ما، واستأجرالمنزل على حاله تلك ، ومعه طبعا البناء الذي في المؤخرة والمجاز الممتد الى شارع بابل . كان قد اصلح المدخلين السريين والمؤديين الى بابي هذا المجاز . ثم اقبل على المنزل واستقر فيه مع فتاة شابة وخادم مسنة .

وكان هذا المستأجر هو جان فالجان. وكانت الفتاة الشابة هي كوزيت. وكانت الخادمة عانسا تدعى توسين . لقد استأجر المنزل تحت اسم مسيو فوشلوفان . وفي جميع ما روي من قبل ، لا شك في ان القارىء قد تبين جان فالجان حتى قبل ان يتبينه تيناردييه نفسه .

لماذا غادر جان فالجان دير بيكبوس الصغير ؟ ما الذي كان قد حدث ؟

لا شيء . فقد كان جان فالجان ، كما نذكر ، سعيدا في الدير ، سعيدا الى درجة جعلت ضميره قلقا اخر الامر . لقد راى كوزيت كل يوم ، لقد استشعر الابوة تولد وتنمو في ذات نفسه اكثر فاكثر . ولقد قال في ذات نفسه انها ابنته ، وان شيئا ما لا يستطيع ان ينتزعها منه . وفيما هو يفكر في ذلك

شرع يجد اخر الامر بعض المصاعب . لقد ساءل نفسه هل كانت هذه السعادة كلها سعادته فعلاً؟ اليست مصنوعة من سعادةهذه الطفلةالتي صادرهاوسلبها؟ اليست هذه سرقة ؟ اليس لهذه الطفلة الحق في ان تعرف الحياةقبل ان تتخلى عنها ؟ ومن يدري ، فقد تفكر فى ذلك كله ذات يوم ، وتأسف لكونها راهبة ، وعندئذ تنتهي الى ان تبغضه ، وهكذا وطن العزم على مغادرة الدير .

وراح يرقب فرصة . وما عتمت هذه الفرصة ان نشأت . لقد مات فوشاوفان العجوز .

والتمس جان فالجان مقابلة رئيسة الدير وقال لها انه وقد عادت عليه وفاة اخيه بأرث يساعده على أن يحيا منذ اليوم من غير ان يعمل فهو يعتزم ترك خدمة الدير والانصراف مع ابنته .

ولدن مغادرته الدير اخذ ذلك الصندوق الصغير الذي كان يحمله دائما . واذهل هذا الصندوق كوزيت ، بسبب من عبق الطيب الذي انبعث منه .

ولنسارع الى القول ان هذا الصندوق لم يفارقه قط ، منذ اليوم . كان فى غرفته دائما . كان الشيء الاول الذي كان يحمله كلما غير مسكنه .

ومع ذلك فان جان فالجان لم يعاود الظهور فى الهواء الطلق من غير ان يستشعر قلقا عميقا . لقد اكتشف البيت الذي فى شارع بآوميه ، ودفن نفسه فيه . وكان منذ ذلك الحين يحمل اسم اولتيموس فوشلوفان .

وفى الوقت نفسه استأجر مسكنين اخرين فى باريس لكي يكون فى ميسوره ان يغير منزله عند الحاجة ، وعند اقل قلق قد يستشعره . وكان هذان المسكنان متواضعين جدا قائمين فى حيين جد متباعدين ، احدهما فى « شارع الغرب » والاخر فى « شارع الرجل المسلح » .

وبين الفينة والفينة ، كان يمضي الى « شارع الرجل المسلح » حينا ، والى « شارع الغرب » حينا ، لكي يقضي شهرا او ستة أسابيع مع كوزيت من غير ان يصحب توسين .

وكل يوم ، كان جان فالجان يأخذ بذراع كوزيت ، ويخرج فيتمشى معها. ويوم الاحد من كل اسبوع كانا يشهدان القداس، في كنيسة « سان جاك دو هو با » دائما ، لانها كانت نائية جدا . واذ كان ذلك الحي حيا فقيرا جدا ، فقد كان يعطي كثيرا من الصدقات هناك. وكان مولعا باصطحاب كوزيت لزيارة المعوزين والمرضى .

وكان في الباب المؤدي الى شارع بابل صندوق بريد للرسائل والصحف . وقد اقتصرت فائدة ذلك الصندوق على استقبال اخطارات جابي الضرائب وانذارات الحرس. ذلك ان مسيو فوشلوفان كان قد انتمى الى الحرس الوطني.

٢

ولم يكن فى ميسور كوزيت ان تجد ، عند مغادرتها الدير ، شيئا ابهج واخطر من المنزل الذي فى شارع بلوميه . كان هو استمرار العزلة مع بدء الحرية ، حديقة مقفلة ، ولكنها مغرية ، ذات ارج . الاحلام نفسها التي راتها فى الدير ولكن مع لمحات من شبان يافعين . باب حديدي ذو قضبان ، ولكنه يطل على الشارع .

ومع ذلك فنحن نكرر انها حين وفدت الى هناك لم تكن اكثر من طفلة. لقد اعطاها جان فالجان هذه الحديقة المحروثة . قال لهـا « افعلي بها مـا تشائين » . وابهجها ذلك . لقد تنقلت فيها من بقعة معشوشبة الى بقعـة معشوشبة ، وقلبت كل حجر من الاحجار . لقد لعبت فيما هي تحلم .

ثم انها احبت اباها ، يعني جان فالجان ، من صميم قلبها ، بعـاطفة بنوية صادقة جعلت الرجل الطيب رفيقا لها فاتنا ومرغوبا فيه .

كانت كوزيت تعبد هذا الرجل . كانت تعدو ابدا فى اثره . فحيث كان جان فالجان كانت السعادة . واذ لم يكن جان فالجان يحيـا في المنزل ذي الدورين او في الحديقة فقد كانت تجد فى الفناء الخلفي المرصوف بالحجارة متعة اكثر من تلك التي تجدها فى الحديقة الحافلة بالزهور ، وتجد فى حجرة نومه الصغيرة ذات الكراسي القشية متعة اكثر من تلك التي تجدها فى غرفتها الكبيرة المزينة جدرانها بالسجاد ، حيث كان فى استطاعتها ان تتكيء علـى كراسي حريرية ذوات اذرع .

ولم تكن لكوزيت غير ذكرى غامضة عن طفولتها . لقد صلت صباحا ومساء من اجل امها ، التي لم تعرفها قط . كان تيناردييه وزوجته لا يزالان عندها اشبه بصورتين مروعتين من صور الاحلام. لقد ذكرت انها قد ارسلت ذات يوم ، فى موهن من الليل ، الى الغابة التماسا للماء . ولقد حسبت ان ذلك كان فى مكان بعيد جدا عن باريس . لقد بدا انها استهلت الحياة فى هوة، وان جان فالجان قد انتشلها منها .

وكانت اذا ما جلس تريح خدها على شعره الاشيب ، وتسفح دمعة فى صمت ، قائلة لنفسها : « لعله . .؟ لعل هذا الرجل امي ! »

واتفق لكوزيت ان نظرت ، ذات يوم ، فى مرآتها ، فقالت فى ذات نفسها: « ماذا ! » لقد بدا لها انها كانت جميلة . وقذف ذلك في فؤادها قلقا غريبا . فحتى تلك اللحظة ، لم تكن قد فكرت بوجهها . كانت قد رات نفسها في مرآتها ، ولكنها لم تكن قد رات الى نفسها . والى هذا فكثيرا ما كان يقال لها انها قبيحة .

وفى مناسبة اخرى ، كانت تجتاز بالشارع فبدا لها ان شخصا لم تره كان سائرا خلفها وانه قال: «امراةجميلة ولكنهاردیئة البزة!» فقالت فى ذات نفسها : « لا ، لا . لست انا المقصودة . انا حسنة البزة وقبيحة الصورة . »

واخيرا ، كانت فى الحديقة ذات يوم ، فسمعت توسين العجوز تقول : « سيدي اتلاحظ الى اي حد غدت الانسة جميلة ؟ » فاوقعت كلمات توسين فى اوصالها شبه هزة . فغادرت الحديقة راكضة ، واسرعت الى المرآة واطلقت صيحة . لقد بهرتها نفسها .

كانت جميلة ومليحة . ولم يكن فى وسعها الا ان تقر توسين ومرآتها على رايهما . كان قوامها كاملا ، وكانت بشرتها قد اصبحت بيضاء ، وكان شعرها قد غدا صقيلا ، وكان بهاء مجهول يضيء فى عينيها الزرقاوين .

اما جان فالجان فاستشعر ، من ناحيته ، حصرافى الفؤاد عميقامستغلقا. كان قد شرع يفكر فى رعب بذلك الجمال الذي بدا وكأنه يزداد اشراقا ، يوما بعد يوم ، على وجه كوزيت العذب . كان ذلك الفجر ، الضاحك فى وجوه الناس جميعا ، مأتميا فى نظره .

لقد خشي ان يفقد هذه الطفلة التي يعبدها . فكان يقول فى ذات نفسه « ما اجملها ! ولكن ! ما الذي سيحل بي ؟ »

ههنا فى الواقع كان الفرق بين حنانه وحنان الام . ان ما راى اليه فى غصة مريرة كان خليقا بالام ان ترى اليه فى جذل .

واول مرة خرجت فيها كوزيت بفستانها وردائها القصير المصنوعين من الدمقس الاسود وبقبعتها المصنوعة من « كريب » ابيض ، اقبلت على جان فالجان لتأخذ بذراعه ، بهيجة النفس ، مشرقة المحيا ، وقالت : « ابي ، كيف تراني الان ؟ » فاجابها جان فالجان بصوت كان اشبه بصوت الحسد المرير : « فاتنة ! » وحين انقلبا الى المنزل سأل كوزيت : « الن ترتدي فستانك وقبعتك بعد الان ؟ »

وكان ذلك في غرفة كوزيت . واستدارت كوزيت نحو خزانة الملابس حيث كان فستانها المدرسي معلقا وقالت: « هذا القناع ! ابي ، ماذا تريد مني ان افعل به ؟ اوه ، لا ، انا لن ارتدي هذه الاشياء المروعة بعد الان » .

واطلق جان فالجان زفرة عميقة .

ومنذ ذلك الحين لاحظ ان كوزيت التي كانت من قبل تطلب دائما ان تلزم بيتها امست الان تسأله دائما ان ينطلقا الى الخارج .

وفي هذه الفترة بالذات ، رآها ماريوس من جديد ، بعد انقضاء ستة اشهر ، في حديقة اللوكسومبورغ .

٣

كانت كوزيت ، في عزلتها ، مثـل ماريوس في عزلتـه ، علـى اتـم الاستعداد للاشتعال . وكان القدر ، بأناته الخفية المحتومة ، يقرب شيئا بعد شيء ما بين هذين الكائنين المشحونين كل الشحن الواهنين كل الوهن بكهرباء الهـوى العاصفة .

وذلك اليوم اثارت نظرة كوزيت جنون ماريوس ، واثارت نظرة ماريوس الرعدة في اوصال كوزيت . ومضى ماريوس لسبيله واثقا من نفسه ، ومضت كوزيت لسبيلها قلقة . ومنذ ذلك الحين عبد كل منهما الاخر .

كان اول ما استشعرته كوزيت حزنا غامضا ولكنه عميق . لقد بدا لها ان نفسها قد امست ـ منذ البارحة ـ سوداء . انها لم تعد تعرف نفسها . فبياض نفوس الفتيـات ، المؤلف من برودة وبهجة ، اشبه بالثلج . انه يذوب امـام الحب ، الذي هو شمسه .

ولم تكن كوزيت تدري ما الحب . انها لم تسمع قط هذه الكلمة تلفظ في معناها الارضي . واذن ، فما كانت لتدري اي اسم ينبغي ان تخلعه على خبرتها الجديدة هذه . ايكون المرء اقل مرضا لمجرد جهله اسم مرضه ؟

كانت تنتظر موعد النزهة كل يوم ، في نفـاد صبر ، فتجـد هنـاك ماريوس ، وتستشعر انها سعيدة على نحو لا يوصف .

وكان ماريوس وكوزيت يعيشان في ظلام متبادل . انهمـا لم يتطارحا الكلام ، ولم يتبادلا الانحناء ، ولـم يتعارفا . لقـد رأى احدهمـا الاخر ليس غير . وكنجوم السمـاء التي يفصل ما بينها ملايين الفراسخ ، عـاشا علـى تبـادل النظرات .

* * *

والحق ان لكل حال غريزتها . ومن هنا فان الام العجـوز السرمديـة ـ الطبيعة ـ انذرت جان فالجان بوجود ماريوس . وارتعد جان فالجان في اعماق تفكيره . انه لم ير شيئا ، ولم يعرف شيئا ، ومع ذلك فقد حدق في انتباه موصول الى الظلام الذي احاط بـه ، وكأنما كان يلمح في ناحية شيئا يشيد ، وفي ناحية شيئا ينهار . وانذرت الطبيعة ماريوس ايضا ، فبذل غاية جهده للاحتجاب عن « الاب » . ومع ذلك ، فقد كان يتفق ان يلمحه جـان فالجان في بعض الاحيان . ولم تعد مسالك ماريوس طبيعية البتة . لقد كف عن الاقتراب منهما كعادته من قبل ، امسى يجلس على مسافة ما ، ويستغرق

في نشوة روحية . وكان يحمل كتابا ، فهو يتظاهر بالقراءة فيه . لمن كان يتظاهر بالقراءة ؟ كان من قبل يفد ببذلته العتيقة ، اما الان فقد غدا من دابه ان يرتدي بذلته الجديدة كل يوم . وعلى الجملة فقد كره جان فالجان هذا الشاب في ود .

وكان بين الرغبة في التبرج التي نشأت عند كوزيت وبين عادة ارتداء البذلات الجديدة التي نشأت عند هذا الرجل المجهول تواز اوقع القلق في نفس جان فالجان . وقد تكون مجرد مصادفة ، ولكنها مصادفة تنذر بخطر .

ولم ينبس قط ببنت شفة ، امام كوزيت ، عن هذا الرجل المجهول . بيد انه لم يملك نفسه ، ذات يوم ، فقال لها : « اي سيماء مدعية تبدو على وجه هذا الشاب ! »

ومع ذلك فقد كانت في فؤاده رعدة اليمة . فالدقيقة التي ستقع فيها كوزيت في الحب قد تأتي بين لحظة ولحظة. اليس يبدا كل شيء باللامبالاة ؟

ولم يكن جان فالجان قد اقلع عن التنزه في اللوكسمبورغ ، لكي لا يثير ارتياب كوزيت . ولكن خلال هذه الساعات البالغة العذوبة عند العشاق ، فيما كانت كوزيت ترسل بابتسامتها الى ماريوس المدله ، كان جان فالجان يسمر على ماريوس عينين متوهجتين فظيعتين . كان يقول في ذات نفسه : « ماذا ؟ ذلك المخلوق هناك ؟ لاي غرض اقبل ؟ لقد اقبل ليسترق السمع ، ليستروح ، ليدرس ، ليجرب ! لقد اقبل ليطوف حول سعادتي ، لكي يخطفها ويسلبني اياها ! »

ثم ان عينيه حفلتا بضياء غريب حدادي . انه لم يعد رجلا ينظر الى رجل . انه لم يكن عدوا ينظر الى عدو ، كان اشبه بكلب ينظر الى لص .

ونحن نعرف البقية . وتواصل جنون ماريوس . وذات يوم لحق بكوزيت الى شارع الغرب . وفي يوم اخر تحدث الى البواب . وبعد اسبوع، كان جان فالجان قد انتقل من منزله . لقد وطن العزم على ان لا يطأ منذ اليوم لا حديقة اللوكسمبورغ ولا شارع الغرب . ورجع الى شارع بلوميه .

ولم تقل كوزيت شيئا . انها لم تسأل ايما سؤال ، ولم تحاول ان تعرف السبب البتة . كانت قد انتهت الى تلك المرحلة التي يخشى المرء فيها الانكشاف والانفضاح. ولم تكن لجان فالجان خبرة بهذا الشقاء ، وهو الشقاء الوحيد الفاتن ، والشقاء الوحيد الذي لم يعرفه . ومن اجل ذلك لم يفهم المغزى العميق الذي انطوى عليه صمت كوزيت . لقد لاحظ انها امست حزينة ، ليس غير ، فاظلمت الدنيا في عينيه .

ووهنت كوزيت وذبلت . كان ماريوس قد اختفى . وكان كل شيء

قد انتهى . ومع ذلك ، فلم تدع جان فالجان يرى أي شيء ما خلا شحوبها . ان ابتسامتها له لم تفارق محياها .

٤

وهكذا اظلمت حياتهما شيئا بعد شيء .

لم يبق لهما غير الهية واحدة ، وكانت من قبل متعـة : وهي ان يحملا الخبز الى الجائعين ، والملابس الى المقرورين . وفي هذه الفتـرة بالـذات ، قاما بزيارتهما الى وكر جوندريت .

وفي اليوم الذي تلا تلك الزيارة بدا جان فالجـان في البيت الصغير ، صباحا ، بمثل هدوئه المألوف . ولكن كان في ذراعه اليسرى جرح كبير . كان ذلك الجرح يبدو وكأنه حرق ، وكان جان فالجان يفسره على نحو ما . وحجزه جرحه ضمن الجدران اكثر من اشهر ، استبدت به الحمى خلاله . ولم يرغب في استدعاء طبيب .

وكانت كوزيت قد هجرت البيت ذا الدورين واستعادت انسها بالبيت الصغير والفناء الخلفي . كانت تنفق وقتها كله تقريبا مع جان فالجان ، وتقرا له الكتب التي يحبها . لقد ولد جان فالجان من جديد . وانبعثت سعادته في اشراق يمتنع علـى الوصف .

واقبل الربيع . وكانت الحديقة في ذلك الفصل جميلة الى حد بالغ جعل جان فالجان يقول : « انت لا تخرجين الى هناك البتة . انا اريـد ان تتمشي فيها » . فاجابته : « كما تريد ، يا ابت ! »

وما ان التأم جرحه حتى استأنف نزهاته المتوحدة الغسقية . وانـــه لمن الخطأ ان نعتقد ان في ميسور المرء ان يسير على هذه الشاكلة وحده في مناطق باريس غير الآهلة بالسكان من غير ان يلقى حادثا غير منتظر .

* * *

وذات مساء لم يكن غافروش الصغير قد اصاب طعاما . وتذكر انه لم يتبلغ البارحة بشيء ايضا . وهكذا راح يتسكع وراء « لا سالبيتريير » ، في المناطق المهجورة . وانتهى الى قرية اوسترليتز .

ففي احد تسكعاته الماضية كان قد لاحظ هناك حديقة قديمة يألفها رجل عجوز وامراة عجوز ، ولاحظ في تلك الحديقة شجرة تفاح لا بأس بها . والى جانب شجرة التفاح ، كان شبه مستودع للفاكهة مسيج على نحو غير محكم ،

حيث كان في امكان المرء ان يغزو تفاحة ما . التفاحة عشاء ، التفاحة حياة. ان ما اهلك آدم قد ينقذ غافروش .

وجه غافروش خطاه نحو الحديقة . لقد عرف شجرة التفاح ، وتبين مستودع الفاكهة . كان الليل قد هبط ، ولم يكن في الزقاق هرة واحدة . ورسم غافروش خطة الوثوب ، ثم وقف فجأة . كان شخص ما ، يتكلم في الحديقة . ونظر غافروش من خلال فتحة في السياج .

وعلى خطوتين منه ، عند ادنى السياج من الناحية الاخرى ، انتصب حجر اتخذ منه اصحاب المنزل مقعدا . وعلى هذا الحجر كان الرجل العجوز جالسا وقد وقفت المراة امامه . كانت المراة العجوز تغمغم. واصغى غافروش، في قليل من الترصن .

قالت المراة : « مسيو مابوف ! »

ــ « ماذا ايتها الام بلوتارك ؟ »

ــ « ان صاحب البيت غاضب . نحن مدينون له بثلاثة اقساط » .

ــ « وبعد ثلاثة اشهر ستصبح اربعة » .

ــ « هو يقول انه سوف يخرجك فتنام في الشارع » .

ــ « سوف اخرج » .

ــ « والقصاب يرفض ان يبيعنا . انه لن يعطينا لحما بعد اليوم » .

ــ « هذا حسن . انا لا اهضم اللحم جيدا . انه ثقيل » .

ــ « ما سيكون عشاؤنا الليلة ؟ »

ــ « عندنا تفاحات الشجرة » .

ومضت العجوز لسبيلها ، وظل الرجل العجوز وحده . وشرع يفكر ، وكان غافروش يفكر هو الاخر . كان الليل قد ارخى سدوله .

وكانت اولى نتائج تفكير غافروش انه زحف تحت السياج الشائك بدلا من ان يثب فوقه . وافترقت الاغصان قليلا عند ادنى الدغل .

وفجأة ، بدا شكلان باهتان . كان احدهما في المقدمة ، وكان الثاني على مسافة قصيرة منه .

ودمدم غافروش : « هذان مخلوقان ! »

لقد بدا الشكل الاول بورجوازيا عجوزا مستغرقا في التفكير . وكان يمشي هائما على وجهه ليلا في ظل النجوم ، واما الشكل الثاني فكان مستقيما مهزولا . لقد عدل خطاه وفقا لخطى الاول . ولكن اللدانة والرشاقة كانتا باديتين من خلال بطء المشية الارادي . وكان لهذا الشكل كامل تلك السيما التي غلبت على من عرف آنذاك بالشاب الانيق . كانت القبعة على احدث زي،

وكانت السترة سوداء حسنة التفصيل . وكان غافروش يعرف الشكل الثاني معرفة جيدة . لقد كان مونبارناس .

اما الشكل الاخر فلم يعرف عنه ألا شيئا واحدا هوانه رجل عجوز طيب.

وفي الحال استغرق غافروش في المراقبة .

كان واضحا ان واحدا من هذين الساريين قد بيت امرا ضد الاخر . وكان غافروش في موقع يمكنه من مشاهدة النتيجة .

وكان في ترصد مونبارناس ، في مثل تلك الساعة ، شيء يتهدد بخطر. واستشعر غافروش شفقة على الرجل العجوز .

وفيما كان غافروش يتساءل ما الذي يتعين عليه ان يفعله وقع الهجوم مفاجئا رهيبا . هجوم نمر على حمار وحشي ، او هجوم عنكبوت على ذبابة . فعلى حين غرة وثب مونبارناس على الرجل العجوز، وامسك بتلابيبه ، وتشبث به . وبعد لحظة ، كان احد هذين الرجلين تحت الاخر ، لاهثا ، محاولا التملص . بيد ان كل شيء لم يكن كما توقع غافروش . كان الرجل الملاصق للارض هو مونبارناس . وكان الذي يعلوه هو الرجل الطيب . لقد حدث ذلك كله على بضع خطوات من غافروش .

كان الرجل العجوز قد تلقى الصدمة، وردها في قوة بالغة جعلت المهاجم والمهاجَم يتبادلان دوريهما في لمحة عين .

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « ها هنا كسيح شجاع ! »

وران الصمت . وكف مونبارناس عن النضال . وتساءل غافروش : « هل مات ؟ »

ولم يكن العجوز قد نطق بكلمة ، ولم يكن قد اطلق صيحة. لقد نهض . وسمعه غافروش يقول لمونبارناس : « انهض » .

ونهض مونبارناس ، ولكن الرجل العجوز امسك به . كانت تبدو على مونبارناس تلك السيما الذليلة التي تبدو على وجه ذئب اختطفه خروف .

ونظر غافروش وإصغى ، محاولا ان يضاعف عينيه باذنيه. لقد وجد في ذلك متعة كبيرة. كان الرجل يستجوب، وكان مونبارناس يجيب: « ما سنك ؟ »

— « تسعة عشر عاما » .

— « انت قوي الجسم ، فلماذا لا تشتغل ؟ »

— « الشغل يتعبني » .

— « ما صناعتك ؟ »

— « متسكع » .

وران صمت. وبدا الرجل العجوز وكأنه مستغرق في تفكير عميق. كان

جامدا من غير حراك ، ومع ذلك فانه لم يطلق وثاق مونبارناس .

وبين الفينة والفينة كان قاطع الطرق الصغير يبذل مثل جهود بهيمة وقعت في الشرك . لقد حاول ان يثب ، وان يقوم بحركة رشيقة بقدمه . ولوى اوصاله في يأس ، مجربا ان يهرب . وبدا الرجل العجوز وكأنه لم يلحظ ذلك . وبيد واحدة امسك بذراعي مونبارناس بلا مبالاة .

وواصل العجوز تفكيره الحالم فترة ما ، ثم حدق الى مونبارناس ، ورفع صوته في رفق ، ووجه اليه — وسط تلك الظلمة التي كانت تكتنفهما — شبه خطبة فخيمة لم يفت غافروش مقطع واحد منها على الاطلاق . لقد حذره في تلك الخطبة من التسكع واللصوصية لان هذين خليق بهما ان يقوداه الى السجن . ثم انه اطلق سراحه ووضع حافظة نقوده في يده، فما كان من مونبارناس الا ان وضعها ، بخفة في جيب سترته الخلفي ، وكأنما قد سرقها .

وعندئذ ، ادار الرجل الطيب ظهره ، واستأنف سيره في اناة .

من كان هذا الرجل الطيب ؟ انه جان فالجان . وفي ذهول ، راقبه مونبارناس حتى احتفى في الغسق .

وفيما كان الرجل العجوز يمضي لسبيله، كان غافروش يقترب. وبنظرة جانبية تأكد غافروش من ان الاب مابوف كان نائما على المقعد . ثم انه انطلق من بين الادغال، وشرع يدب في الظل خلف مونبارناس الجامد في مكانه. وهكذا انتهى الى مونبارناس ودس يده في الجيب الخلفية من سترته ، واخذ حافظة النقود، وعاود الزحف منسلا مثل حنش في غمرة الظلام. ولم يلمح مونبارناس شيئا من ذلك . حتى اذا وصل غافروش الى حيث كان الاب مابوف ، طرح حافظة النقود من فوق السياج الشائك ، واطلق ساقيه للريح .

وسقطت حافظة النقود على قدم الاب مابوف . وايقظته هذه الصدمة. فانحنى والتقط الحافظة . ولم يفهم شيئا ، وفتحها . فوجد فيها بعض القطع النقدية الصغيرة ، وست ليرات ذهبية .

واستبد الذهول بمسيو مابوف ، وحمل الحافظة الى خادمته .

وقالت الام بلوتارك : « لقد سقطت هذه من السماء » .

حيث النهاية لا تشبه البداية

١

كان اسى كوزيت، قد دخل من غير ان تدري هي بذلك، في دور النقاهة. كانت الطبيعة ، والربيع ، وشبابها ، وحبها لابيها ، وبهجة الطير والازهار ، قد شرعت تنضح، في تلك الروح الطاهرة، الغضة، شيئا يشبه النسيان. اكانت النار قد شرعت في الخمود بالكلية؟ ام انها كانت على وشك ان تصبح مجرد طبقة من رماد؟

وذات يوم فكرت بماريوس ، فقالت : « ماذا ؟ انا لا افكر فيه الان » .

وفي خلال ذلك الاسبوع نفسه لاحظت ، اذ مرت بباب الحديقة المقضب ، ضابطا وسيما جدا من ضباط الرماحة . وفي اليوم التالي راته يمر من هناك كرة ثانية. لقد لاحظت الساعة. ومنذ ذلك الحين اصبحت تراه كل يوم تقريبا .

ولاحظ رفاق الضابط انه كانت ، في تلك الحديقة المهملة ، خلف ذلك الباب الحديدي ، مخلوقة جميلة كانت ترى دائماً عند مرور الضابط الجميل الذي لم يكن غير تيبودول جيلنورمان. وقالوا له: « قف! ههنا فتاة تسمر عينيها عليك ! لم لا تنظر اليها ؟ » فاجابهم الرماح : « اتحسبون أن لدي متسعا من الوقت للنظر الى جميع الفتيات اللواتي ينظرن الي ؟ »

وكان هذا في ذلك الوقت بالذات الذي كان ماريوس ينحدر خلاله في جهامة نحو الالم النفسي المرير قائلا : « ليتني استطيع أن اراها قبل ان اموت!» ولو تحققت امنيته ، لو راى كوزيت في تلك اللحظة تنظر الى الرماح ، اذن لفاضت روحه حزنا واسى .

اي شيء كان يجري في نفس كوزيت ؟ عاطفة ملطفة او هاجعة ، حب في حالة متذبذبة ، شيء كان رائعا ، وساطعاً ، كدرا على عمق معين ، مظلما في القاع . كانت تنعكس من السطح صورة ضابط جميل . اكانت ثمة ذكرى في القعر ؟ ــ في القعر نفسه ؟ ربما . ان كوزيت لم تعرف .

وتبعت ذلك حادثة غريبة .. ففي النصف الاول من شهر نيسان قام جان فالجان برحلة . وكان ذلك يتفق له في فترات متباعدة جدا . الى اين كان يذهب ؟ ان احدا ما كان يدري ، حتى كوزيت نفسها . وعلى العموم ، فقد كان جان فالجان يقوم بهذه الرحلات الصغيرات كلما اعوزهم مال يفطون به نفقاتهم المنزلية. وكان جان فالجان قد قال: «سوف ارجع في مدى ثلاثة ايام».

وفي المساء ، كانت كوزيت وحدها في حجرة الاستقبال تغني. وفجأة بدا لها انها سمعت وقع اقدام في الحديقة. لم يكن ممكنا ان يكون اباها ، فقد كان غائبا . ولم يكن ممكنا ان تكون توسين فقد كانت في فراشها . كانت الساعة العاشرة ليلا . ومضت الى نافذة الحجرة التي كان مصراعها مغلقا والصقت اذنها به. لقد بدا لها انه وقع اقدام رجل، وان ذلك الرجل يمشي في اناة بالغة .

وفي الحال هرعت الى الدور الاول ، فدخلت غرفتها ، وفتحت كوة في مصراع نافذتها ، والقت نظرة الى الحديقة . ولم يكن هناك احد . وحسبت كوزيت انها قد خدعت عن نفسها .

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، كانت تمشي في الحديقة . فخيل اليها انها سمعت صوتا كصوت الليلة البارحة ، وكأن امرءا كان يمشي في الظلام ، تحت الاشجار ولكن بصرها لم يقع على شيء .

وغادرت « الدغل » ، وكان قد بقي عليها ان تجتاز الرقعة الصغيرة المعشوشبة الخضراء حتى تصل الى السلم . والقى القمر ظلها امامها على تلك الرقعة المخضوضرة. والى جانب ظلها رسم القمر ظلا ذا قبعة مستديرة. كان اشبه بخيال رجل من الجائز ان يكون واقفا عند حافة الدغل، على بضع خطى وراء كوزيت.

وانقضت لحظة عجزت خلالها عن ان تصرخ او تتحرك . واخيرا حشدت كامل شجاعتها ، واستدارت في عزم . لم يكن ثمة احد .

لقد نظرت الى الارض . كان الظل قد اختفى . واستشعرت دمها مثلوجا حقا . أكان ذلك وهما ايضا ؟ ماذا ! في يومين متعاقبين ؟ ان وهما واحدا قد يحتمل، اما اذا كانا وهمين؟ والذي اوقع في نفسها القلق اكثر ما يكون ان الظل لم يكن طيفا على وجه التأكيد. فالاطياف لا ترتدي قبعات مستديرة البتة .

وفي اليوم التالي، رجع جان فالجان. وقصت عليه كوزيت ما اعتقدت انها سمعته ورأته . وساور القلق جان فالجان . وقال لها : «قد لا يكون ذلك شيئا » . وفارقها بذريعة ما ، ومضى الى الحديقة . ورآته يفحص الباب في كثير من العنايـة .

وفي الليلة الثالثة كان النقصان قد الم بالقمر ، وكان قد ارتفع في ساعة متأخرة عندما سمعت ضحكة مدوية ، وصوت ابيها يناديها: «كوزيت!» فوثبت

من سريرها ، وطرحت مبذلها على جسمها ، وفتحت نافذتها . كان ابوها في الرفعة المعشوشبة. وقال: «لقد ايقظتك لكي ادخل الطمأنينة الى نفسك. انظري. هو ذا ظلك ذو القبعة المستديرة». واشار الى ظل بسطه القمر على العشب ، ظل كان يشبه رجلا ذا قبعة مستديرة شبها بعيدا جدا. كانت صورة احدثتها مدخنة موقد ذات غطاء ، صنعت من صفائح الحديد وارتفعت فوق سطح مجاور .

ومع ذلك ، فقد وقعت بعد بضعة ايام حادثة جديدة .

٢

وكان في الحديقة ، قرب الباب الحديدي المؤدي الى الشارع ، مقعد حجري يحجبه عن اعين الفضوليين سياج شائك ، ولكن في استطاعة يد عابر السبيل ان تبلغه ببعض الجهد، من خلال الباب الحديدي والسياج الشائك .

وذات مساء من نيسان نفسه ، غادر جان فالجان المنزل ايضا. وكانت كوزيت قد جلست ، بعد غروب الشمس ، على هذا المقعد. كانت الريح تشتد في الاشجار وكانت كوزيت مستغرقة في التفكير .

ونهضت كوزيت، ودارت حول الحديقة في اناة، حتى اذا رجعت الى المقعد لاحظت في المكان الذي فارقته حجرا ضخما لم يكن هناك من قبل .

وتأملت هذا الحجر ، سائلة نفسها عن المعنى الذي ينطوي عليه. وفجأة خطر لها ان هذا الحجر لم يجيء بنفسه الى ذلك المقعد، وان شخصا قد وضعه هناك، وان ذراعا قد مرت من خلال الباب الحديدي. وعصف بها الذعر. وولت هاربة من غير ان تجرؤ على النظر الى الوراء. وفي الحال اوصدت باب السلم الزجاجي بالمصراع الخشبي، وبالمتراس وسألت توسين: « هل رجع ابي ؟ »

— « لا ، انه لم يرجع بعد ، يا آنسة » .

واضافت كوزيت : « توسين ، اهتمي كل مساء باغلاق المصاريع جيدا بالحديد ، فوق الحديقة على الاقل » .

— « اوه ، لا تخافي ، يا آنسة » .

وعند شروق الشمس نهضت كوزيت ، ناظرة الى ذعرها وكأنه كابوس من الكوابيس ، وقالت في ذات نفسها : «ما الذي رايته في الحلم؟ انها مثل تلك الخطى التي اعتقدت انني سمعت وقعها ليلا ، خلال الاسبوع الماضي ، في الحديقة ! انه مثل خيال مدخنة الموقد ! هل سأغدو جبانة منذ اليوم ؟ »

واشرقت اشعة الشمس من خلال فروج النافذة الخشبية، وخلعت على الستائر الدمقسية لون الارجوان، فاعادت الطمأنينة الى نفس كوزيت ونسيت الحجر. وارتدت ثيابها ، ونزلت الى الحديقة ، ومضت الى المقعد ، واحست

بالعرق البارد يتصبب منها . كان الحجر هناك. ولكن ذلك لم يدم غير لحظة. فما هو ذعر في الليل يصبح فضولا في النهار. وقالت: «عجيب! دعني ارى!» . ورفعت الحجر ، فاذا تحته شيء اشبه ما يكون برسالة .

كان ظرفا ورقيا ابيض . وامسكت به كوزيت. لم يكن يحمل عنوانا ولم يكون مختوما. ومع ذلك، فالظرف على الرغم من انه كان مفتوحا لم يكن فارغا .

واخرجت كوزيت ما في الظرف، كان دفترا مرقمة صفحاته كلها، وقد انطوى كل منها على بضعة اسطر كتبت بخط جميل بعض الشيء ، ودقيق جدا. وبحثت كوزيت عن اسم، فلم تجد شيئا. وعن توقيع، فلم تجد شيئا. الى من كانت هذه الرسالة موجهة؟ اليها في اغلب الظن، ما دامت يد قد وضعت الرزمة على مقعدها . من الذي ارسلها ؟ وحاولت ان تشيح ببصرها عن تلك الاوراق التي ارتعشت في يدها، ونظرت الى السماء، الى الشارع، الى شجرات الطلح الندية بالضياء ، ثم انخفض بصرها ، فجأة ، ملتمسا المخطوطة ، وقالت في ذات نفسها ان عليها ان تعرف ما الذي كان فيها . واليك بعض ما قرأت :

« اختصار الكون الى كائن فرد ، وبسط الكائن الفرد حتى الآله . . ذلك هو الحب .

*

« الحب تحية الملاك للنجوم .

*

« ما اعظم حزن الروح حين تكون محرومة من الحب !

*

« بعض الافكار صلوات . هناك لحظات تكون فيها النفس جاثية على ركبتيها مهما كان وضع الجسد .

*

« ما يبداه الحب فليس في ميسور احد غير الله ان ينهيه .

*

« يا من تتألمون لانكم تحبون ، احبوا اكثر . فالموت حبا هو الحياة به .

*

« يا لابتهاج الطيور ! ان لها تغريدها لان لها اعشاشها » .

٣

وخلال تلك التلاوة انخرطت كوزيت، تدريجيا، في دنيا الاحلام. ولم تكد ترفع عينيها عن السطر الاخير من الصفحة الاخيرة حتى اقبل الضابط الوسيم ومر بالباب الحديدي مظفرا . ووجدته كوزيت بشعا مخيفا .

وعاودت تأملها في الرسالة . كانت مرقومة بخط فاتن ، كذلك فكرت كوزيت . ولقد تركت اثرا في نفسها مماثلا لاثر معبد نصف مفتوح. كان كل من هذه الاسطر العجيبة يتألق امام عينيها، ويغمر فؤادها بضياء غريب. وكانت التربية التي اخضعت لها قد حدثتها عن الروح دائما ، ولم تحدثها قط عن الحب، فهي اشبه ما تكون بشخص يتكلم عن الجذوة ولا يتكلم عن الشعلة البتة. اي شيء كانت تلك المخطوطة ؟ رسالة . رسالة من غير عنوان ، من غير اسم ، من غير تاريخ ، من غير توقيع . رسالة حب جعلت لكي ينقلها ملاك وتقراها عذراء ، موعد مضروب وراء الارض ، رسالة غرام من طيف الى ظل .

والان ، عمن يمكن ان تكون هذه الصفحات قد صدرت ؟

ولم تتردد كوزيت لحظة . رجل واحد ليس غير ... هو !

كان الضياء قد بعث في ذهنها ، وتبدى لها كل شيء كرة اخرى . لقد شعر بابتهاج رائع. كان هو ! هو الذي كتب اليها ! هو الذي كان هناك ! هو الذي مرت ذراعه عبر ذلك الباب الحديدي المقضب! ففيما كانت هي تنساه، عثر هو عليها من جديد ! ولكن هل نسيته حقا ؟ لا ، على الاطلاق ! كانت مخبولة اذ ظنت ذلك لحظة واحدة . لقد احبته دائما ، وتدلهت به دائما . كانت النار مغطاة بالرماد، وكانت قد خنقت فترة من الزمان ، ولكنها كانت تراها جيدا . انها لم تزد على ان غاصت الى الاعماق ، وها هي ذي الان تنفجر من جديد وتلهب كيانها كله . كانت تلك الرسائل اشبه بشرارة سقطت من تلك الروح الاخرى الى روحها . واحست بالحريق تضطرم نيرانه كرة اخرى .

وانقلبت الى المنزل ، واوصدت على نفسها باب غرفتها لكي تعيد تلاوة المخطوطة ، وتحفظها عن ظهر قلب ، وتستسلم الى التأمل . حتى اذا قراتها قراءة جيدة ، قبلتها ووضعتها في صدرها . وقالت في ما بينها وبين نفسها ان تدخلا من جانب الملائكة ، ان حظا سماويا قد اعاد ماريوس اليها .

يا لتجلي الحب ! يا للاحلام ! ان هذا الحظ السماوي، ان تدخل الملائكة هذا ، كان كرية الخبز التي القاها لص الى لص فوق سطوح سجن لا فورس !

* * *

وحين هبط المساء ، غادر جان فالجان المنزل ، وارتدت كوزيت فسطانها ، ورجلت شعرها على النحو الذي كان يلائمها اكثر ملاءمة .

اكانت تعتزم مغادرة المنزل ؟ لا . اكانت تنتظر ان يزورها احد ؟ لا .
وعند الزوال ، هبطت الى الحديقة . وشرعت تمشي تحت الاغصان ، مقصية اياها جانبا ، لان بعضها كان خفيضا جدا . وهكذا انتهت الى المقعد . كان الحجر ما يزال هناك . وقعدت ، ووضعت يدها على ذلك الحجر وكأنما كانت تلاطفه وتشكره .

وفجأة ، استشعرت ذلك الاحساس الغامض الذي نستشعره – على الرغم من عدم رؤيتنا – حين يكون شخص ما ، واقفا خلفنا . وادارت راسها ، ونهضت . كان هو ...

كان حاسر الراس. وكان يبدو شبحا مهزولا. ولم تتبين بذلته السوداء الا بشق النفس. فقد ابهت الغسق جبينه الوسيم، وغطى عينيه بالظلام. كان فيه شيء من الموت ومن الليل. وكان وجهه مضاء بنور يوم محتضر، وبتفكير نفس مفارقة.

كانت قبعته مطروحة على بضع خطوات، في وسط الادغال... واشرفت كوزيت على الاغماء ، فلم تطلق صيحة واحدة. لقد ارتدت الى الوراء في مهل، اذ احست وكأن شيئا يجذبها الى امام ... والتقت كوزيت، في تراجعها ، بشجرة ما ، فاستندت اليها. ولولا هذه الشجرة لسقطت على الارض. ثم انها سمعت صوته، مرتفعا ، وما كاد، فوق حفيف الاغصان : « عفوا ، انا هنا . ان قلبي ليتفطر، ولم يكن في ميسوري ان احيا كما كنت احيا، ومن اجل ذلك اقبلت . هل قرات ما وضعته هناك، على هذا المقعد؟ هل عرفتني ولو معرفة بسيطة؟ لا تخافي مني. لقد انقضت على ذلك فترة طويلة ، فهل تذكرين يوم نظرت الي ؟ كان ذلك في حديقة اللوكسمبورغ . ويوم مررت بي ؟ كان ذلك في السادس عشر من حزيران ، والثاني من تموز . وبعد فترة قصيرة يكون قد انقضى على ذلك عام كامل . انا لم ارك منذ زمن طويل . فدعيني اجيء في بعض الاحيان ، انا اعتقد اني سوف اموت . ليتك فقط تعرفين ! اعذريني ، انا اخاطبك ، انا لا ادري ما الذي اقوله لك . جائز ان يكون في صنيعي هذا ما يغضبك . هل اغضبك حقا ؟ »

وقالت : « اوه ! » وتمايلت خائرة القوى ، وكأنما كانت تحتضر .

وامسك بها ، وسقطت على الارض ، فضمها بين ذراعيه ، وهصرها في شدة ، غير واع ما الذي كان يعمله . واسندها فيما كان هو نفسه يتمايل . فقد استشعر وكأن راسه مليء بالدخان .

وامسكت بيده ، ووضعتها على فؤادها . واحس بالورقة هناك ، وتمتم: « انت تحبينني ، اذن ؟ » .. فاجابته بصوت خفيض جدا ، فهو لا يعدو ان يكون نفسا ما يكاد يسمع : « انت تعرف ذلك ! » وارتمى على المقعد ، وهي

الى جانبه . وتعطلت لغة الكلام . كانت النجوم قد شرعت تشع . كيف اتفق ان التقت شفتاهما ؟ كيف يتفق للعصفـــور ان يغرد ، وللثلــج ان يذوب ، وللوردة ان تنور ، ولنوار ان تتفتح اكمامه ، وللفجر ان يبيض خلف الاشجار السوداء على قمة التلال المرتعدة ؟

قبلة واحدة ، ذلك كان كل شيء .

وارتعدا ، ونظر كل منهما الى الاخر وسط الظلام بعينين ملتمعتين ... ولم يحسا لا بالليل المعتدل البرودة ، ولا بالحجر البارد، ولا بالارض الرطبة ، ولا بالعشب الندي. لقد تبادلا النظرات وفؤاد كلمنهما طافح بالافكار. وكانا قد شبكا يديهما ، من غير ان يدريا . ولم تسأله كيف وبأيما طريقة استطـاع الدخول الى الحديقة . لقد بدا لها من الطبيعي جدا ان يكون هناك !

ومن حين الى حين كانت ركبة ماريوس تمس ركبة كوزيت. وبين الفينة والفينة كانت تتلجلج بكلمة. وارتجفت روحها على شفتيها، كما ترتجف قطرة من ندى على ريحانة من الرياحين . وشيئا بعد شيء ، شرعا يتكلمان . كان الليل رائعا سنيا فوق رأسيهما . وتناجى هذان الكائنان الطاهران بكل شيء : باحلامهما ونشواتهما ، واوهامهما ، وقنوطهما ، وكيف عبد كل منهما الاخر عن بعـــد ، كم قد تاق كل منهما الى الاخر ، واليـــأس الذي غلب عليهما حين فرقت ما بينهما الايـــام .

وحين انتهيا ، حين فرغا من قول كل شيء ، وضعت راسها على كتفه وسألته : « ما اسمك ؟ » فقال : « اسمي ماريوس . وانت ؟ »

ــ « اسمي كوزيت » .

غافروش الصغير

١

منذ عام ١٨٢٣ ، فيما كان فندق مونفيرماي يغرق في بالوعة من الديون الصغيرة ، رزق تيناردييه وزوجته ولدين اضافيين ، كلاهما ذكـر ، وهكذا امسى عدد اولادهما خمسة : بنتين وثلاثة صبيان . وكان ذلك كثيرا .

وكانت تيناردييه الزوجة قد تخلصت من هذين الاخيرين ، وهمـا بعد صغيران جدا ، بمصادفة سعيدة فريدة .

فنحن نذكر تلك الفتاة ، مانيون ، التي تحدثنا عنها في صفحات سابقة ، والتي وفقت الى حمل جيلنورمان الطيب على ان يكفل ولديها ويجري عليهما رزقا. وكثير من الناس يذكرون وباء الذبحة الذي احزن، منذ خمسة وثلاثين عاما ، تلك الاحياء القائمة على ضفاف السين في باريس. في ذلك الوباء فقدت مانيون ولديها وهما بعد صغيران ، في يوم واحد. وكانت تلك ضربة. فقد كان لهذين الطفلين قيمة بالنسبة الى امهما. كانا يمثلان ثمانين فرنكا كل شهر. وكانت هذه الفرنكات الثمانون تدفع بكثير من الدقة، باسم مسيو جيلنورمان، من قبل وكيل املاكه، مسيو بارج. واذ مات الولدان ، فقد دفن الدخل . والتمست مانيون وسيلة جديدة . لقد احتاجت مانيون الى ولدين ! وكان عند تيناردييه وزوجته اثنان . اثنان من الجنس نفسه، والعمر نفسه. وهكذا امسى الصغيران تيناردييه ، الصغيرين مانيون . وانتقلت مانيون الى حي اخر .

وانتهز تيناردييه ، الذي كان التجسد سهلا عليه ، الفرصة لكي يصبح جوندريت . وما كادت ابنتاه وغافروش يجدون متسعا من الوقت ليدركوا ان لهم اخوين صغيريـن .

وكان لمانيون ضرب من التأنق في الجريمة . كانت تتخذ زينتها . وكانت تقاسمها بيتها ، المؤثث على نحو مزخرف ولكنه بائس، لصة انكليزية متفرنسة

ذكية كانت تدعى « الانسة مس » .

وذات يوم داهم رجال الشرطة بيت مانيون، واعتقلوها هي والانسة مس. وعلق سائر افراد البيت ، وكانوا موضع الريبة ، في الشرك . وكان الصبيان الصغيران يلعبان ، آنذاك، في الفناء الخلفي، فلم يريا شيئا من الغزوة . حتى اذا رغبا في الدخول الى المنزل، وجدا الباب موصدا، والمنزل فارغا. وناداهما اسكاف ، تقع دكانه تجاه المنزل ، وسلمهما ورقة كانت « امهما » قد تركتها لهما وعلى الورقة كان هذا العنوان: «مسيو بارج، وكيل ممتلكات، شارع ملك صقلية رقم ٨».وقال صاحب الدكان لهما: «انتما لن تقطنا هنا بعد اليوم . اذهبا الى هناك. انه قريب جدا . اهتديا الى المنزل بمعونة هذه الورقة » .

ومضى الولدان، وقد امسك كبيرهما تلك الورقة التي كان عليها ان تهديه سواء السبيل. كان مقرورا ، وكانت اصابعه الصغيرة تنطبق في عسر، وتمسك بالورقة في غير احكام . وفيما هما ينعطفان حول شارع كلوشبيرس ، انتزعتها منه ريح عاصفة. واذ كان الليل قد اخذ يهبط فقد عجز الطفل عن العثور عليها . وشرعا يتيهان ، كما شاءت المصادفة ، في الشوارع .

* * *

في ذلك المساء كان غافروش الصغير واقفا قرب دكان من دكاكين الشعر المستعار بجوار الـ «اورم سان جيرفيه». كان مزدانا بشال صوفي نسوي، لا يدري احد من اين التقطه ، متخذا منه لثاما . وبدا غافروش الصغير وكأنه معجب اشد الاعجاب بعروس من الشمع، كانت تدور خلف الزجاج ، عارضة ابتسامتها على عابري السبيل—ولكنه في الواقع كان يراقب الدكان لكي يرى ما اذا كان في استطاعته ان يسرق قطعة صابون من الواجهة، لكي يبيعها بعد بفلس واحد لحلاق في الضاحية. وفيما كان غافروش يراقب العروس وصابون ونَدسور تقدم ولدان يرتديان ثيابا ، نظيفة، ويصغرانه هو نفسه سنا ، فاحدهما على ما يبدو في السابعة والاخر في الخامسة ، ودخلا الى الدكان ، ملتمسين شيئا ، لعله الصدقة. فما كان من الحلاق الا ان رد اكبرهما الى الوراء بيده اليسرى، واصغرهما بركبته وقذف بهما الى الشارع .

ومضى الولدان لسبيلهما باكيين . وفي غضون ذلك انتشرت في السماء سحابة . وشرع المطر يهطل .

ولحق بهما غافروش الصغير، وقال: «ما قصتكما، ايها الصبيان الصغيران؟»

فاجابه الاكبر : « نحن لا ندري اين ننام ؟ »

فقال غافروش : « اهذا كل شيء ؟ تعالا معي ! »

وتبعه الولدان وكأنهما يتبعان رئيس اساقفة . كانا قد كفا عن البكاء .

وصعد غافروش بهما في شارع سان انطوان باتجاه الباستيل . وفيما هم يجتازون بواحد من تلك الشبابيك الكثيفة المقضبة التي تؤذن بوجود فرن من الافران، لان الخبز كالذهب يحفظ خلف قضبان حديدية، التفت غافروش وقال : « آه ، ها ، ايها الولدان الصغيران ، هل تعشيتما ؟ »

فاجاب اكبرهما: «سيدي ، اننا لم نذق الطعام منذ الصباح الباكر» .

واستأنف غافروش كلامه، في جلال: «اذن فليس لكما لا اب ولا ام؟»

ــ « عفوا ، يا سيدي . ان لنا ابا واما ، ولكننا لا نعرف اين هما » .

فقال غافروش : « في بعض الاحيان يكون هذا خيرا من المعرفة » .

وكف غافروش عن السير . وراح يجس مختلف زوايا اسماله ويبحث فيها . واخيرا قال : « فلنعتصم بالهدوء ، ايها الطفلان. هو ذا ما نتعشى به ثلاثتنا » . واخرج من احد جيوبه فلسا .

ومن غير ان يترك للطفلين مجالا للدهش دفعهما امامه الى المخبز، ووضع فلسه على منضدة الخباز قائلا: «ايها الولد! اعطني خبزا بخمسة سنتيمات» .

فما كان من الرجل ، الذي كان هو صاحب المخبز نفسه ، الا ان تناول رغيفا وسكينا .

واستأنف غافروش الكلام : « اجعله ثلاث قطع ، ايها الولد ! »

ثم اضاف في وقار : « نحن ثلاثة » .

واعطى غافروش القطعة الكبرى الى الولد الاكبر ، واحتفظ لنفسه باصغر القطعتين الباقيتين . وتابع سبيله مع رفيقيه .

حتى اذا انتهوا الى زاوية «شارع باليه» المظلم قال بعضهم : « هالو ، هذا انت يا غافروش ؟ »

فقال غافروش : « هالو ، هذا انت يا مونبارناس ؟ »

ــ « صه ! لا ترفع صوتك هكذا ! »

وسارع الى سحب غافروش بعيدا عن ضوء الدكاكين .

وتبعهما الطفلان الصغيران وقد امسك كل منهما بيد الاخر .

حتى اذا انتهوا الى قوس باب العربات الاسود ، وامسوا في نجوة من النظر ومن المطر قال مونبارناس : « اتعرف الى اين انا ذاهب ؟ »

فقال غافروش : « الى المشنقة ! »

ــ « يا لك من مهرج ! »

قال مونبارناس ذلك، ثم استأنف كلامه: « انا ذاهب ابحث عن بابيه» .

فقال غافروش : « آه ! اسمها بابيه ! »

فخفض مونبارناس صوته : « ليس اسمها . ولكن اسمه » .

ـ « آه ، بابيه ! لقد ظننته سجينا » .
فاجابه غافروش : « قل ما الذي ستعمله الليلة ؟ »
ـ « اشياء متعددة » .
وغير الحديث فجأة : « بالمناسبة ؟ »
ـ « مــاذا ؟ »
ـ « احدى القصص التي وقعت لي في يوم ماض . فكر فيهذا مجرد تفكير . تخيل اني التقيت باحد البورجوازيين ، فقدم الي هدية : عظة دينية ومحفظة دراهمه . ووضعت ذلك فــي جيبي . وبعد دقيقــة جسست جيبي فلــم اجد فيه شيئــا » .
فقال غافروش : « غير العظة الدينية » .
واضاف مونبارناس : « ولكن انت .. الى اين انت ذاهب الان ؟ »
واشار غافروش الى الولدين ، وقال:«انا ذاهب لارقد هذين الطفلين».
ـ « وايــن ذلــك ؟ »
ـ « فــي منــزلي » .
ـ « ان عنــدك غرفة اذن ؟ »
ـ « اجل ، ان عندي غرفــة » .
ـ « واين غرفتك ؟ »
فقال غافروش : « في الفيل » .
ـ « آه ، اجل ، الفيل ... وهل انت سعيد هناك ؟ »
فقال غافروش: «سعيد جدا. هنا يعيش الانسان عيشا ممتازا حقا. وليس هنا رياح متسربة من الثقوب كما هي الحال تحت الجسور » .
قبل عشرين عاما كان لا يزال يرى، فيزاوية «ساحة الباستيل» الجنوبية الشرقية،قرب حوض القناة الذيحفر في الخندق القديم من «السجن القلعة» نصب غريب كان من بنات افكار عضو الاكاديمية ، القائد الاعلى لجيش مصر.
وانما نقول «نصب» على الرغم من انه كان تصميما ليس غير. ولكن هذا التصميم نفسه، تلك الجثة الضخمة لفكرة من فكرات نابوليون التي لم تنفذ ، امسى اليوم شيئا تاريخيا. كان فيلا ، طوله اربعون قدما ، وله هيكل وبنــاء ، وكان يحمل برجه على ظهره ، وهو برج اشبه ببيت . ولم يكن احد ليدري ما الذي عناه ذلك النصب . كان شبه رمز لقوة الشعب .
نحو هذه الزاوية من الساحة ، المضاءة على نحو باهت بانعكاس اشعــة مصباح قصي ، ساق « المتشرد » الطفلين الصغيرين .
واذ اقتربوا من التمثال الهائل ، ادرك غافروش الاثر الذي قد يحدثه ما

هو ضخم الى ابعد الحدود في نفس ما هو صغير الى ابعد الحدود ، وقـال : « ايها الطفلان الصغيران لا تخافا ! »

ثم دخل من خلال ثغرة في السياج الى سور الفيل ، وساعد الطفلين على اجتياز الثغرة . وتبع الصبيان الصغيران غافروش ، مروعين بعض الشيء ، من غير ان ينطقا ببنت شفة ، وفوضا امرهما الى تلك العنـاية الصغيرة ذات الاسمال ، والتي قدمت اليهما الخبز ووعدتهما بمأوى .

وكانت قد انطرحت الى جانب السياج سلم كان العمال يستعملونها نهارا، في مستودع الخشب المجاور. فرفعها غافروش في قوة عجيبة، ونصبها مسندا اياها على احدى قائمتي الفيل الاماميتين . وفي النقطة التي انتهت عنـدهـا السلم، كان في استطاعة المرء ان يتبين شبه ثقب اسود في جوف التمثال الهائل .

ولفت غافروش نظر ضيفيه الى السلم والثقب، وقال لهما: «اصعدا وادخلا».

وتبادل الصبيان الصغيران النظرات في ذعر .

وصاح غافروش : « انتما خائفان ، ايها الصغيران ؟ سوف تريان » .

وربت على قدم الفيل المتغضنة. وفي لمحة عين، ومن غير ان يتنازلا للافادة من السلم، انتهى الى الثغرة. ودخلها كما يدب حنش الى جحر، واختفى. وبعد لحظة رأى الطفلان وجهه الشاحب يبدو على نحو غامض مثل شكل باهت عند حافة الثقب المليء بالظلام .

وصاح : « لماذا لا تصعدان ؟ سوف تريان ما اجمل هذا المكان » .

قال ذلك وساعد الولدين على الدخول . واجال ضيفا غافروش بصرهما في ما حولهما. والتصق اصغر الولدين بأخيه وقال في صوت خفيض: «المكان مظلم!»

فقال غافروش: «ايهما الاحمق، الظلمة هي في الخارج. هناك، في الخارج، يهطل المطر ، اما هنا فلا يهطل المطر . وهناك ، في الخارج ، يشعر الانسان بالبرد ، اما هنا فلا توجد كسرة من ريح. في الخارج حشود من الناس ، اما هنا فلا يوجد شخص ما . وفي الخارج لا يوجد حتى القمر ، اما هنا فتوجد شمعتي ، وحق الشيطان ! »

وحوالي نهاية الساعة التي تسبق الفجر مباشرة، انطلق رجل من شارع سان انطوان راكضا ، واجتاز الساحة ، وانسل بين اشجار السياج الى ما تحت جوف الفيل. حتى اذا انتهى الى الفيل اطلق نداء غريبا لا يمت بنسب الى ايما لغة بشرية، وليس في استطاعة احد غير الببغاء ان يحاكيه : « كيريكيكيو ! »

فاجابه صوت واضح بهيج من بطن الفيل : « نعم ! »

وفي الحال تقريبـا ، انزاح اللوح الخشبي الذي يسـد الثقب ، وفتح الطريق لطفل هبط على طول قدم الفيل ووثب في خفة قرب الرجل . كان

هو غافروش . وكان الرجل هو مونبارناس .
وعرف كل من الرجل والطفل صاحبه ، في صمت ، وسـط الظلام .
واجتزأ مونبارناس بالقول: «نحن في حاجة اليك. تعال ومد الينا يد المساعدة».
ولم يطلب « المتشرد ». ايما ايضاح . وقال : « حاضر » .
واتجها نحو شارع سانت انطوان الذي اقبل منه مونبارناس .

٢

ودونك ما كان قد جرى، في تلك الليلة نفسها، في سجن لا فورس: كان بابيه و «بروجون» و «غولوميه» قد دبروا امر الفرار ، على الرغم من ان تيناردييه كان في المحبس الانفرادي . وكان « بابيه » قد قام بذلك لحسابه ، في وضح النهار وكان على مونبارناس ان يساعدهم من الخارج .

وكان بروجون قد وجد متسعاً من الوقت لان يبرم حبلا ، اولا ، ولان يضع خطة كاملة ، ثانيا . اجل ، لقد فكر بروجون ، وغادر غرفة العقوبة بحبل من الحبال . واذ اشتهر في السجن بشدة الخطر فقد وضع في « البنـاية الجديدة». وكان اول ما وجده في البناية الجديدة غولوميه ، وكان ثاني مـا وجده مسمارا . غولوميه ، يعني الجريمة . ومسمارا يعني الحرية .

كانت البناية الجديدة ، تنتظم اربعة مهاجع احدها فوق الاخر ، وعلية كانت تدعى «الهواء العليل». وكانت مدخنة كبيرة تنطلق من الدور الارضي ، وتخترق الطوابق الاربعة قاسمة الى قسمين جميع المهاجع التي بدت فيهـا وكأنها ضرب من عمود مسطح ، ومضت ثاقبة السطح .

وكان غولوميه وبروجون في مهجع واحد. كانا قد وضعا في الدور السفلي حذرا واحتياطا . واتفق ان مقدمي سريرهما استندا الى مدخنة الموقد .

وكان تيناردييه فوقهما مباشرة، في العلية المعروفة ب «الهواء العليل».

وهكذا ففي الليلة نفسها ، ليلة تلقف غافروش الصغير الولدين التائهين، نهض بروجون وغولوميه في رفق ــ وقد عرفا أن بابيه الذي سبقهما الى الهرب ذلك الصباح نفسه كان ينتظرهما هو ومونبارناس في الشارع ــ وشرعا يثقبان بالمسمار الذي وجده بروجون مدخنة الموقد التي كان سريراهما يمسانها . وسقط النثار على سرير بروجون ، فلم يسمع احد له صوتا . وتظاهر السجناء الذين افاقوا بانهم قد استسلموا للرقاد من جديد، وتركوا غولوميه وبروجون وشأنهما . وقبل ان ينتهي ايما صوت الى الحارس ، كان الجدار قد ثقب ، والمدخنة قد تسلقت ، وكان قاطعا الطريق الرهيبـان قـد بلغا السطح .

وتضاعف المطر والريح شدة وكان السطح زلقا .

وقال بروجون : « يا لها من ليلة ملائمة للفرار ! »

كانت هوة عرضها ستة اقدام وعمقها ثمانون قدما تفصلهما عن السور المطوق . وفي قعر هذه الهوة رايا بندقية احد الحراس تلتمع في الظلام . وشدا احد طرفي الحبل الذي ابرمه بروجون في حجيرته الى فلذ قضبان المدخنة التي سبق لهما ان لوياها منذ لحظة، وطرحا الطرف الاخر من فوق الجدار المطوق ، وعبرا الهوة بوثبة ، وتعلقا بالعوارض المنحدرة التي تعلو الجدار ، ووثبا الى فناء الحمام ، واجتازاه ، وفتحا باب العربات ، فاذا هما في الشارع .

وبعد لحظات قليلة ، التحقا ببابيه ومونبارناس اللذين كانا يطوفان في المنطقة المجاورة .

وكانا قد قطعا حبلهما فيما هما يجذبانه ، وكانت قطعة منه قد بقيت معلقة بالمدخنة على السطح .

وفي تلك الليلة ، كان تيناردييه قد تلقى تحذيرا ليس في امكان احد ان يؤكد كيف انتهى اليه ، فلم يغمض له جفن .

وحوالي الساعة الواحدة صباحا راى شبحين يجتازان السطح ، تحت المطر ، وفي وجه العاصفة ، امام الكوة المواجهة لقفصه . ووقف احدهما عند النافذة فترة كافية لالقاء نظرة . كان ذلك هو بروجون . وعرفه تيناردييه وفهم .

كان تيناردييه قد استصدر اذنا بالاحتفاظ برزة حديدية كان يستعملها لكي يسمر رغيفه الاسود في ثقب الجدار لكي يصونه، ـ كما قال ـ من الجرذان. واذ كان تيناردييه موضوعا تحت حراسة موصولة فان القيمين على السجن لم يجدوا في احتفاظه بتلك الرزة ايما بأس .

وفي الثانية صباحا استعيض عن الحارس ، الذي كان جنديا عجوزا ، برجل حديث عهد بالجندية . وفي الساعة الرابعة ، حين اقبل من يحل محل الجندي الحدث ، وجد هذا الجندي نائما قرب قفص تيناردييه. اما تيناردييه فلم يكن هناك . كانت اغلاله المحطمة على الارض . وكان ثمة ثقب في سقف قفصه ، وفوقه كان ثقب اخر على السطح . كان لوح قد انتزع من سريره ، وذهب به من غير شك ، ذلك لانهم لم يعثروا عليه بعد . وعثروا في الحجيرة ايضا على زجاجة نصف فارغة ، تحتوي على بقية الخمر المخدرة التي اكره بها الجندي على النوم .

وحين تم هذا الكشف ، اعتقد القوم ان تيناردييه بعيد عن متناولهم . والواقع انه لم يكن في البناية الجديدة ، ولكنه لا يزال في خطر عظيم .

ولم يكد تيناردييه يبلغ سطح البناية الجديدة ، حتى وجد بقية حبل

بروجون معلقا بقضبان باب المدخنة الافقي الاعلى ، ولكن هذا الطرف الابتر كان قصيرا اكثر مما ينبغي ، فلم يستطع الفرار من فوق مجاز الحرس ، كما فعل بروجون وغولوميه .

إنك حين تنعطف من شارع الـ « باليه » الى شارع « ملك صقلية » تجد الى اليمين ، وفي الحال تقريبا ، حفرة قذرة. هناك، كان في القرن الماضي منزل لم يبق منه غير الجدار الخلفي ، وهو جدار متهدم حقا ينهض الى ارتفاع الدور الثالث بين الابنية المجاورة . والفراغ الذي تركه في الشارع ذلك المنزل المقوض مليء على نحو جزئي بسياج ذي الواح خشبية نخرة تدعمها انصاب حجرية خمسة . وخلف هذا السياج احتجب كوخ صغير مستند الى ذلك الجزء الذي لا يزال ناهضا من البناء الخرب . وكان للسياج باب لم يكن يوصد ، قبل بضعة اعوام ، الا بمزلاج ليس غير .

وكان تيناردييه قد انتهى الى قمة هذه الخرائب بعد الساعة الثالثة ، صباحا بقليل . اما كيف استطاع الوصول الى هناك فذلك ما لم يوفق احد قط الى فهمه .

وايا ما كان فقد انتهى تيناردييه ـ وقد سال منه العرق ، ونقع بالمطر ومزقت ملابسه ، وجرى الدم من مرفقيه ، ـ انتهى الى حافة جدار المنزل الخرب ، وتمدد على طوله فوقه ، وهناك خانته قواه. كان منحدر وعر يبلغ ارتفاعه ثلاثة ادوار يفصله عن حصباء الطريق .

كان الحبل الذي معه اقصر مما ينبغي .

كان ينتظر هناك، شاحبا فاقدا كل امل، متلفعا بحجاب الليل ، مذعورا لتفكيره بانه سوف يسمع بعد بضع لحظات دقات « ساعة القديس بولس » المجاورة تعلن الرابعة، وهو موعد مجيئهم لاستبدال الحارس،وعندئذ يجدونه نائما تحت السطح المثقوب، محدقا في انشداه الى حصباء الطريق الندية السوداء هذه الحصباء التي كانت رغيبة ورهيبة ، والتي كانت الموت وكانت الحرية .

وفي غمرة من هذا الالم النفسي المرير راى رجلا ينزلق على الجدران ويقف فوق الحفرة التي كان تيناردييه شبه معلق فوقها . وكان يتبع هذا الرجل رجل ثان، ثم ثالث فرابع. حتى اذا التقى هؤلاء الرجال دخلوا الى الفناء المنطوي على الكوخ . كانوا تحت تيناردييه تماما . وواضح انهم اختاروا تلك الحفرة لكي يكونوا في ميسورهم ان يتحدثوا من غير ان يراهم عابرو السبيل، او الخفير الذي يحرس باب سجن لا فورس على بضع خطوات من هناك .

وطاف بعيني تيناردييه شيء كالامل. كان هؤلاء الرجال يتكلمون لغة السوقة.

واخيرا ادرك تيناردييه ان اولئك الرجـــال لم يكونوا غير بروجون ، وبابيه ومونبارناس ، وغولوميه .

وقال بابيه : « ان صاحبنا الفندقي لا بد ان يكون قد قبض عليه وهـــو يحاول الفرار . يجب ان يكون الواحد منا عفريتا . اما هو فليس غير تلميذ في هذه الصناعة . انتبه ، يا مونبارناس . هل تسمع هذه الصيحات فـــي السجن ؟ هل ترى هذه الاضواء كلها ؟ لقد قبضوا عليه ، هيا ! لقد اعـــادوه ليقضي سنواته العشرين في السجن » .

فغمغم مونبارناس : « الانسان لا يتخلى عن اصدقائه في الشدة » .

فاجابه بروجون : « اقول لكم انهم قد عاودوا القبض عليه. ففي اللحظة الحاضرة لا يساوي الفندقي فلسا. نحن لا نستطيع ان نفعل شيئا هنا. فلنذهب. انا اتوقع ، في كل لحظة ، ان يقبض علي رجل من رجال الشرطة ! »

ولم يجرؤ على ان يناديهم . فان صيحة مسموعة قد تفسد كل شيء . وخطرت له فكرة اخيرة . واخرج من جيبه بقية حبل بروجون ، وكـــان قد انتزعه من مدخنة البناية الجديدة ، وطرحه الى السياج .

وقال بابيه : « حبل » .

وقال بروجـــون : « حبلـــي ! »

وقال مونبارناس : « هو ذا الفندقي » .

ورفعوا اعينهم . واتلع تيناردييه راسه .

فقال مونبارناس: «عجل! اتحمل الطرف الاخر من الحبل،يا بروجون؟»

ــ « نعـــم » .

ــ « اربط الطرفين معا . سوف نقذف اليه بالحبل . ولسوف يشده الى الجدار وسيكون لديه مقدار كاف يمكنه من الهبوط » .

وحاول تيناردييه ان يتكلم : « ان فرائصي ترتعد » .

ــ « سوف ندفئك . شد الحبل الى الجدار ليس غير » .

ــ « لا استطيـــع » .

فقال مونبارناس : « يجب على واحد منا ان يصعد » .

فقال بروجون : « ثلاثة طوابق ! »

كانت ثمة مدخنة عتيقة من جص ، استخدمت مـــن قبل لموقـــد كـــان يستعمل في الكوخ . وكانت هذه المدخنة تزحف على طول الجدار مرتفعة الى النقطة التي راوا تيناردييه عندها تقريبا . وكانـــت آنذاك متصدعة كـــل التصدع متشققة كل التشقق .

وقال مونبارناس : « في استطاعتنا ان نصعد من هنا » .
فصاح بابيه:«من خلال هذه المدخنة؟رجل؟ مطلقا!انها تحتاج الى طفل».
فقال غولوميه : « اين نستطيع ان نجد طفلا ؟ »
فقال مونبارناس : « انتظروا . عندي هذا الشيء » .
وفتح باب السياج ، في رفق ، وركض في اتجاه الباستيل .
وتصرمت ثماني دقائق كانت ثمانية الاف قرن بالنسبة الى تيناردييه .
واحكم بابيه، وبروجون، وغولوميه اطباق اسنآنهم بعضها على بعض . واخيرا فتح الباب وبرز مونبارناس ، لاهثا ، مع غافروش .
ودخل غافروش الصغير السياج،والقى نظرة على وجوه اولئكاللصوص في سيما هادئة. كانت المياه تقطر من شعره. ووجه غولوميهالخطاب اليه قائلا:
ــ « ايها الطفل ، هل انت رجل ؟ »
وهز غافروش كتفيه واجاب : « ان طفلا مثلي هو رجـــل . وان رجالا مثلك هم اطفال . ما الذي تريده مني ؟ »
فاجابه مونبارناس : « ان تتسلق الجدار من خلال هذه المدخنة » .
وقال بابيه : « ومعك هذا الحبل » .
وتابع بروجون : « وان تعلق الحبل باعلى الجدار » .
وتأمل «المتشرد» الحبل ، والمدخنة ، والجدار ، والنوافذ ، وتســاءل : « ولم ذاك ؟ » فاجابه مونبارناس : «ان هناك رجلا سوف تنقذه انت» .
ونزع غافروش حذاءه. وامسك به غولوميه من احدى ذراعيه، ووضعه على سطح الكوخ ، وناوله الحبل الذي كان بروجون قد وصله خـلال غيبة مونبارناس. ومضى «المتشرد» نحو المدخنة، التي كان من اليسير دخولها بفضل ثقب كبير في السقف. ولحظة شرع يصعد انحنىتيناردييه فوقحافة الجدار. واضاءت اشعة الفجر الاولى جبينه الغارق في العرق، ولحيته الشائكة، وعرفه غافروش فقال: « عجيب! هذا ابي! حسنآ ، ذلك لا يحول بيني وبين العمل ! »
واخذ بالحبل باسنانه ، وبدا الصعود في عزم .
وانتهى الى اعلى المنزل وامتطى الجدار وكأنه جواد ، وشد الحبل الى قضيب النافذة الاعلى . وبعد لحظة كان تيناردييه في الشارع .
ولم يكد يمس حصباء الطريق حتى زايله التعب ، والخدر ، والارتعاد جميعا. وكانتاولى كلماتهذا الرجل هيالتالية:«والان،من الذي سوف نأكله؟»
ومن غير المجدي ان نفسر معنىالكلمةالشفافة الىحد مروع،والتي تعنيفي آنمعا القتل،والاغتيال، والسلب. ان «اكل»تفيد فيمعناها الحقيقي: «التهم».
فقالبروجون: «دعنا نختبىءاولا. فلنقل ثلاثكلمات،ولنفترق فيالحال».

كانت ثمة صفقة تبدو عليها دلائل الجودة في شارع بلوميه: شارع مهجور، ومنزل منعزل، وباب حديدي عتيق صدىء على الشارع، وبعض النسوة المتوحدات .

وتساءل تيناردييه : « حسنا ، ولم لا ؟ »

فاجابه بابيه : « ان ابنتك ايبونين ذهبت لترى المسألة » .

واضاف غولوميه: «وحملت الى مانيون قطعة بسكويت. المشروع خاسر».

فقال تيناردييه : « البنت ليست بلهاء. ومع ذلك فيجب ان نرى » .

فقال بروجون : « اجل ، اجل ، يجب ان نرى » .

ومضى غافروش ليوقظ ، كما قال ، طفليه الصغيرين .

ومضى الرجال الخمسة ، من السياج واحدا بعد واحد .

وحين اختفى غافروش عند منعطف شارع ال «باليه» انتحى بابيه بتناردييه جانبا. وسأله: «هل رايت الطفل الذي تسلق الجدار وحمل اليك الحبل؟ »

ـ « لم اره جيدا » .

ـ « حسنا . لست ادري ، ولكن يبدو لي انه ابنك » .

ـ « عجيب ! هل تظن ذلك ؟ »

رُقىً وأطـلال

لقد عرف القارىء ان ايبونين ، وقد رات من خلال الباب الحديدي ذلك الرجل القاطن في شارع بلوميه والذي وجهتها مانيون اليه ، كانت قد بدات بابعاد قطاع الطرق عن شارع بلوميه ثم قادت ماريوس الى هناك، وان ماريوس، بعد عدة ايام من النشوة الروحية امام ذلك الباب الحديدي قد دخل اخيرا الى حديقة كوزيت كما دخل روميو حديقة جولييت. ومن تلك الساعة المباركة المقدسة التي ربطت فيها القبلة ما بين هاتين النفسين انشأ ماريوس يفد كل مساء. وطوال شهر نوار من ذلك العام ، ١٨٣٢، كان هناك، كل ليلة، في تلك الحديقة الحقيرة المهملة، كائنان اثنان مؤلفان من جميع الطهارات وجميع البراءات، فائضان بكل سعادات السماء ، ثملان، مشعان، يتألق كل منهما امام الاخر في الظلام. ومس كل منهما الاخر ، ونظر كل منهما الى الاخر، واقترب كل منهما اشد ما يكون الاقتراب الى الاخر ، ولكن كانت ثمة مسافة لم يتجاوزاها. لقد استشعر ماريوس حاجزا ، هو طهارة كوزيت ، واستشعرت كوزيت سنادا ، هو وفاء ماريوس. كانت القبلة الاولى هي الاخيرة ايضا. ومنذ ذلك الحين، لم يذهب ماريوس الى ابعد من مس يد كوزيت، او منديلها، او احدى غدائرها بشفتيه. كانت كوزيت عنده عبيرا ، لا امراة .

في ساعة الحب تلك ، كان ماريوس الطاهر الملائكي ، اقدر على زيارة بنت من بنات الهوى ، منه على رفع ثوب كوزيت حتى كعب قدمها . وذات ليلة قمراء ، انحنت كوزيت لتلتقط شيئا عن الارض فتراخى ثوبها كاشفـا عـن اعلى صدرها . فما كان من ماريوس الا ان اشاح ببصره عنها .

كانا يعيشان على نحو غامض مدله بالسعادة. انهما لم ينتبها الى الكوليرا التي حصدت ارواح كثير من اهل باريس في ذلك الشهر. لقد تناجيا اكثر ما

وجدا الى التناجي سبيلا،ولكن ذلك لم يذهب الى ابعد جدا من اسميهما. كان ماريوس قد اخبر كوزيت انه يتيم،وان اسمه ماريوس بونميرسي،وانه محام، وان والده كولونيل ، وانه كان بطلا،وانه هو -ماريوس- قد تشاجر مع جده الغني. وكان قد قال شيئا ما عن كونه بارونا،ولكن ذلك لم يخلف ايما أثر في نفس كوزيت. وكانت هي قد اخبرته،بدورها، انها نشأت في دير بيكبوس الصغير وان امها ميتة مثل امه،وان اسم ابيها مسيو فوشلوفان،وانه كان عطوفا جدا، وانه يتصدق كثيرا على الفقراء،ولكنه هو نفسه فقير، وانه يحرم نفسه كل شيء في حين لا يحرمها هي شيئا .

ومن عجب ان الماضي المغالي في القرب ، كان قد امسى مختلطا جدا في ذهنه ، قصيا جدا بالنسبة اليه ، فاذا بذلك الذي قالته كوزيت يرضيه كل الرضا . انه لم يفكر حتى في ان يحدثها حديث تلك المغامرة الليلية في بيت غوربو العتيق ، وحديث تيناردييه وزوجته ، ومسلك ابيها العجيب وفراره الغريب . كان قد نسي ذلك موقتا .

٢

ولم يشك جان فالجان في شيء .. فقد كانت كوزيت بهيجة النفس، وكان ذلك كافيا لايقاع السعادة في قلب جان فالجان. واذ كان يأوي الى فراشه في الساعة العاشرة دائما، فقد كان ماريوس لا يجيء الى الحديقة، في تلك الاحوال، الا بعد تلك الساعة . ولسنا بحاجة الى القول ان ماريوس ما كان يأتي في النهار ابدا . بل ان جان فالجان لم يعد يحسب ان ماريوس موجود .

ولم يطأ ماريوس ارض المنزل البتة. كان اذا التقى بكوزيت احتجبا في حفرة قرب السلم ، لكي لا يراهما او يسمعهما من الشارع احد .

كانت الحديقة كلها تفصل ما بينهما وبين الشارع. وكلما دخل ماريوس او خرج اعاد قضيب الباب الحديدي الى موضعه في عناية بالغة .

وذات مساء، كان ماريوس يتخذ سبيله في جادة الانفاليد الى لقاء الحبيبة. وفيما هو ينعطف عند زاوية شارع بلوميه سمع صوتا على مقربة دانية منه : « مساء الخير ، يا مسيو ماريوس » . ورفع رأسه فرأى ايبونين ... وترك ذلك اثرا فريدا في نفسه . انه لم يفكر مرة بهذه الفتاة منذ اليوم الذي قادته فيه الى شارع بلوميه . انه لم يرها كرة ثانية قط ، وكانت قد امحت من ذهنه بالكلية . كان لا يحمل لها الا عاطفة اعتراف بالجميل ، فقد كان مدينا لها بسعادته الحاضرة ، ومع ذلك فقد ازعجه لقاؤها .

وفي اليوم التالي ـ وكان اليوم الثالث من حزيران عام ١٨٣٢ وهو تاريخ

ينبغي ان ننص عليه بسبب من الحوادث الخطيرة التي كانت تتدلى فوق افق باريس كالسحب المشحونة بالرعد ـ كان ماريوس يتخذ بعد هبوط الليل تلك الطريق نفسها التي اتخذها البارحة، وقد اعتلجت في فؤاده الافكار الجذلى نفسها، عندما لاحظ ، بين اشجار الجادة ، ان ايبونين تقترب منه. فاستدار مسرعا قاصدا الى شارع بلوميه من خلال شارع لومسيو. فما كان من ايبونين الا ان لحقت به الى شارع بلوميه ، وهو شيء لم تقم به قط من قبل. كانت تكتفي حتى ذلك الحين بان تراه يتخذ طريقه في الجادة من غير ان تسعى حتى الى الاجتماع به. وفي الليلة البارحة ، فحسب، كانت قد حاولت ان تتحدث اليه.

لقد تبعته ايبونين اذن ، من غير ان يشعر هو بذلك. وراته يدفع قضيب الباب الحديدي جانبا ، وينسل الى الحديقة. وقالت : « ولكن ... انه يدخل المنزل » . واقتربت من الباب الحديدي ، ومست القضبان واحدا بعد اخر، وفي سهولة اكتشفت ذلك القضيب الذي سبق لماريوس ان ازاحه .

وجلست على اساس الباب الحديدي، قريبا جدا من ذلك القضيب، وكأنما كانت تحرسه . وظلت على هذه الحال اكثر من ساعة، من غير ان تتحرك، او تتنفس ، فريسة لافكارها الخاصة. وحوالي الساعة العاشرة مساء دخل شارع بلوميه ستة رجال كانوا يسيرون على انفراد في محاذاة الجدار . وحتى اذا انتهى اولهم الى باب الحديقة الحديدي وقف وانتظر سائر الجماعة. وما هي الا ثانية حتى كان الستة كلهم قد اجتمعوا. وشرع هؤلاء الرجال يتحدثون في صوت خفيض . وقال واحد منهم : « انه هنا » .

وقال اخر ، وكأن ذا صوت اشبه بصوت المتكلم من بطنه: «الباب الحديدي عتيق». فقال الذي سبق له ان تكلم: «هذا افضل. انه لن يصرخ تحت المنشار ».

وشرع ثالث يفحص الباب الحديدي كما فعلت ايبونين قبل ساعة ، ممسكا بكل قضيب من قضبانه على التعاقب . ولم يكد يمسك بالقضيب الذي كان ماريوس قد اقتلعه حتى سقطت على ذراعه يد انبثقت فجأة من الظلام، واستشعر ان شيئا يدفعه دفعا عنيفا الى الوراء . وفي الوقت نفسه راى فتاة شاحبة الوجه واقفة امامه .

واستشعر الرجل ذلك الارتجاج الذي تبعثه الاشياء غير المتوقعة دائما . واستأسد على نحو مروع ، وغمغم : « من هذه المخلوقة ؟ »

ــ « ابنتك » .

وفي الحق ان ايبونين هي التي كانت تتحدث مع تيناردييه .

وعند ظهور ايبونين اقترب الخمسة الاخرون، يعني كلاكسو، وغولوميه، وبابيه ، ومونبارناس ، وبروجون ، من غير ضجة ، ومن غير ان يقولوا كلمة

واحدة . لقد اقتربوا بذلك البطء المشؤوم المميز لرجال الليل هؤلاء .

وهتف تيناردييه على قدر ما يستطيع امرؤ ان يهتف في همس: «آي، هاي ، ماذا تفعلين هناك؟ اي شيء تريدينه منا؟» وشرعت ايبونين تضحك ، ووثبت الى عنقه قائلة : « انا هنا ، يا ابي الحبيب ، لاني هنا. هل ثمة قانون يحرم الجلوس على الحجارة في هذه الايام ؟ انك انت الذي ما كان ينبغي ان تكون هنا ما دامت المسألة «بسكويتة» ؟ لقد قلت ذلك لمانيون. ليس هنا شيء يستحق العناء . ولكن عانقني الان ، يا ابي الطيب العزيز ! ما اطول المـــدة التي حرمت فيها النظر اليك ! لقد اطلق سراحك اذن ؟ »

وحاول تيناردييه ان يتحرر من ذراعي ايبونين ، وغمغم: «اجل. انا لم اعد داخل الجدران . والان ، اذهبي » .

ولكن ايبونين لم تدع اباها يفلت من بين ذراعيها، وضاعفت ملاطفتها له.

وقال غولوميه : « فلنسرع ! ان رجال الشرطة قد يمرون » .

وقالت ايبونين : « لقد جمعت كافة المعلومات عن هذه المسألة . وانتم تعرضون انفسكم للخطر على غير طائل . اقسم لكم انه ليس في هذا البيت ما يستحق اهتمامكم » . فقال غولوميه : « هناك نسوة متوحدات » .

ــ « لا . ا ن ساكنيه قد انتقلوا » .

فقال بابيه : «ولكن الشموع لم تنتقل على كل حال.» ولفت نظر ايبونين ، من خلال رؤوس الاشجار ، الى ضوء كان يتحرك في علية البيت الصغير .

وبذلت ايبونين جهدا اخيرا . وقالت : « حسنا، انهم قوم فقراء جدا. وانه لكوخ ليس فيه فلس واحد » .

وصاح تيناردييه : « اذهبي الى الجحيم . اغربي ايتها البنت ، ودعي الرجال يقومون بعملهم ! »

عندئذ اسندت ايبونين ظهرها الى الباب الحديدي ، وواجهت قطـاع الطرق الستة المدججين بالسلاح ، والذين خلع عليهم الليل وجوها كوجـوه الابالسة ، وقالت في صوت خفيض ثابت : « حسن. انا لا اريد ذلك. وقبل كل شيء اذا دخلتم الحديقة ، اذا لمستم هذا الـباب الحـديدي ، فسوف اصرخ ، سوف ادعو السلطة الى اعتقالكم » .

وفي صوت خفيض قال تيناردييه لبروجون : «انها لن تتورع عن ذلك».

وهزت راسها ، واضافت : « سابدا بابي ! صيحة واحـدة اطلقهـــا وعندئذ يجيئون في الحال ! انتم ستة ، اما انا فالناس جميعا » .

وتشاور السفاحون الستة في الامر وهم يهزون اكتافهم هزة ذليلـة وضارية ... وراقبتهم ، خلال ذلك ، في سيماء هادئة ولكنها رهيبة.. ثم

انهم مضوا لسبيلهم .. وعند زاوية الشارع، وقفوا وتبادلوا هذا الحوار الملغز في صوت مخنوق : « اين سننام هذه الليلة ؟ »

ـ « تحت باريس . »

ـ « هل مفتاح الباب الحديدي معك ، يا تيناردييه ؟. »

ـ « اجل . »

ورأتهم يرجعون من حيث جاءوا . وشرعت تزحف في محاذاة الجدران والبيوت من خلفهم . لقد لحقت بهم حتى الجادة . وهناك افترقوا، وذابوا في الظلام .

٣

فيما كانت ايبونين تقوم بعبء الحراسة امام الباب الحديدي ، وفيما كان قطاع الطرق الستة يولون الادبار ، كان ماريوس مع كوزيت .

ولم يكن ماريوس في ايما وقت مضى ابعد هياما ، واكثر سعادة، واعمق نشوة روحية . ولكنه كان قد وجد كوزيت محزونة . كانت كوزيت تبكي. وكانت عيناها حمراوين . وكان اول كلمة فاه بها ماريوس : « مابك ؟ »

ـ « انـظر . »

ثم جلست على المقعد المجاور للسلم وقالت : « لقد انبأني ابي هـذا الصباح ان اكون على استعداد، وان لديه اشغالا، واننا قد نضطر الى الرحيل. »

وارتجف ماريوس من قمة راسه الى اخمص قدميه .

واضافت كوزيت : « هذا الصباح قال لي والدي انه مضطر للسفر ، واننا سوف نرحل ، في مدى اسبوع ، واننا قد نذهب الى انكلترة . »

فصاح ماريوس : « ان هذا شيء رهيب ! ومتى ستنطلقان ؟ »

ـ « انه لم يقل متى . »

ونهض ماريوس ، وقال في برود : « كوزيت وهل تذهبين ؟ »

فقالت وهي تشبك يديها : « وماذا تريدني ان افعل ؟ »

ـ « اذا فسوف تذهبين » ؟

وامسكت كوزيت بيد ماريوس ، وضغطت عليها من غير ان تجيب .

وقال ماريوس : « حسن جدا . اذن . فسوف اذهب الى مكان اخر. »

لقد استشعرت كوزيت معنى هذه الكلمة اكثر ممـا فهمتـهـا . وران الشحوب على وجهها حتى غدا ابيض في الظلام . وتمتمت : « ماذا تعني ؟»

ونظر ماريوس اليها ، ثم رفع عينيه نحو السماء واجاب : «لاشيء .»

حتى اذا خفض عينيه ، راى كوزيت تبتسم له .

ـ « ما اشد بلاهتنا ! ماريوس ، عندي فكرة . »
ـ « مـــاذا ؟ »
ـ «اذهب اذا ذهبنا!سوف اقول لك الى اين ولسوف تتبعني حيث اذهب.»
كان ماريوس ، الان ، رجلا كامل اليقظة . كان قد ارتد الى الحقيقة. وصاح قائلا لكوزيت: «اذهب معك؟امجنونة انت؟ ولكن ذلك يحتاج الى مال، وليس معي شيء منه ! اذهب الى انكلترة ؟ ولكني مدين الان باكثر من عشرة ذهبيات لكورفيراك ، ولكن عندي قبعة عتيقة لا تساوي ثلاث فرنكات،عندي سترة ذهبت بعض الازرار من صدرها،وحذائي ينفذ اليه الماء. كوزيت ! انـا رجل بائس ! انت لا ترينني الا تحت جنح الظلام،وانت تمنحينني حبك.ولو رايتني في النهار لما اعطيتني فلسا واحدا . اذهب الى انكلترة ؟ آه ، انا لا املك ما ادفع به نفقات الجواز ! »
وطرح نفسه على شجرة مجاورة ، واقفا وذراعه فوق راسه ، وجبينه الى لحاء الشجرة وكأنه تمثال اليأس . كانت كوزيت تنتحب . لقد سلخت اكثر من ساعتين وهي تبكي . فيما كان ماريوس مستغرقا في التفكير .. واقبل نحوها ، وانحنى على ركبتيها ، ثم خر وئيدا وامسك بمقدم حذائهـا المنبثق من تحت ثوبها . وطبع عليه قبلة وقال : « لا تبكي . »
« اني افعل لاني قد ارحل ، وليس في استطاعتك ان تذهب معي» .
واضاف : « اتحبينني ؟ »
ـ « انا اعبـــدك ! »
وامسك بيدها وقال : « كوزيت ، لم يسبق لي قط ان اعطيت كلمـة الشرف الى امرىء ما ، لان كلمة الشرف توقع الرعب في قلبي.اني استشعر ان ابي الى جانبي . والان ، لا تتوقعي ان اجيء غدا . سوف اجيء بعد غد.»
ـ « اوه ، ولم لا ؟ »
ـ « سوف ترين » .
ـ « اينقضي يوم لا اراك فيه ؟ ولكن ، ان هذا مستحيل . »
ـ « دعينا نضحي بيوم واحد ، فقد نكسب حياة كاملة . »
واضاف ماريوس في همس ، وعلى انفراد : « انه رجل لا يغير ايا من ثيابه ، ولم يستقبل قط ايما امرىء قبل هبوط الظلام » .
وتساءلت كوزيت : « عن اي رجل تتكلم ؟ »
ـ « انا ؟ انا لم اقل شيئا . وعلى اية حال فيتعين عـلي ان اعطيـك عنواني . ان شيئا قد يحدث ، ولسنا ندري . انا احيا مع صديق يـدعى كورفيراك ، شارع دو لا فيريري ، رقم ١٦ . »

وفي غضون ذلك ، شرعت كوزيت تنظر الى عينيه وقالت : « قل لي ما هي فكرتك . ماريوس ، قل لي . اوه ! قل لي لكي اقضي ليلة سعيدة ! »
ـ « ان فكرتي هي هذه . من المستحيل ان يرغب الله في تفريقنا . انتظريني بعد غد » .

٤

كان جيلنورمان الجد قد اتم ، في تلك الفترة، سنه الحادية والتسعين. وكان لا يزال يحيا مع الانسة جيلنورمان ـ شارع فتيات كالفير ، رقم ٦ ـ في ذلك البيت العتيق الذي كان ملكا له .

لقد سلخ اربع سنوات وهو ينتظر ماريوس، وملء نفسه ايمان بان هذا الشقي الصغير لا بد ان يقرع بابه عاجلا او آجلا . وعلى اية حال ، فقد كان مسيو جيلنورمان ، او خيل اليه انه كان ، عاجزا عن أن يخطو خطوة نحو حفيده . » لقد قال : « اني اوثر ان اموت قبل هذا » . ولم يجد في موقفه من ماريوس موضعا للوم ، ولكنه فكر في ماريوس بحنان عميق وبذلك اليأس الابكم الذي يرين على رجل عجوز طيب يتخذ سبيله في الظلام .

والواقع ان مسيو جيلنورمان لم يحب قط خليلة بقدر ما احب ماريوس . وذات مرة ، فيما كان جالسا ، وركبتاه متلاصقتان وعيناه مغمضتان او تكادان ، غامرت ابنته وقالت له : «ابي، او تزال غاضبا عليه ؟ »

وسألها : « على من ؟ »

ـ « على ماريوس المسكين . »

ورفع راسه العجوز ، ووضع قبضة يده المهزولة المتغضنة على الطاولة، وصاح في نبرة ليس اكثر منها اهتياجا وارتعاشا : «تقولين ماريوس المسكين! ان ذلك السيد شخص حقير ، وغد شرير ، من غير قلب، من غير روح . »

واشاح بوجهه لكي لا تتمكن ابنته من ان ترى الدمع المترقرق في عينيه.

وذات مساء ، وكان ذلك في الرابع من حزيران ، فيما كان الجد جيلنورمان يفكر بماريوس ويتمنى لو تراه عيناه دخل عليه خادمه العجوز، باسك ، وقال : « هل يستطيع سيدي ان يستقبل مسيو ماريوس ؟ »

وتصدر الرجل العجوز ، شاحب الوجه مثل جثة تنهض بتأثير صدمة كهربائية . كان دمه كله قد ارتد الى فؤاده . وغمغم : « ادخله . »

ووقف ماريوس لدى الباب ، وكأنما كان ينتظر ان يدعى الى الدخول. ولم تظهر ملابسه ، البائسة او تكاد، في تلك الظلمة التي احدثتها عاكسة النور

الخضراء . ولم يكن في ميسور العجوز ان يتبين غير وجهه الهادىء الصارم ، المحزون على نحو غريب .

وظل مسيو جيلنورمان بعض لحظات لا يرى شيئا غير نور ، شأن المرء امام رؤيا . كان على وشك ان يغمى عليه ...

واخيرا ! بعد اربع سنوات ! لقد امسك به كله في لمحة عين . ولقد وجده جميلا نبيلا ، رائعا ، ناميا . ولقد كان خليقا به ان يفتح ذراعيه ، ويدعوه ، ويندفع نحوه، ولقد ذاب فؤاده جذلا، وانبجست الكلمات وفاضت في صدره. واخيرا برز ذلك الحنان كله وبلغ شفتيه. ومن خلال المغايرة التي كانت اساس طبيعته انطلقت كلمة جافية . لقد قال فجأة : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

فاجاب ماريوس في ارتباك : ـ « مسيو ... »

كان جيلنورمان يتمنى لو يلقي ماريوس بنفسه بين ذراعيه. وكان غاضبا على ماريوس وعلى نفسه . لقد استشعر انه كان جافيا ، وان ماريوس كان باردا. ولقد استبد القلق بالرجل الطيب على نحو مثير وغير محتمل لاستشعاره انه شديد الحزن عظيم الحنان ، باطنيا ، على حين لم يكن في استطاعته الا ان يكون قاسيا خارجيا . وعاودته المرارة . وقاطع ماريوس في نبرة حادة : «هل جئت تلتمس عفوي ؟ هل رايت غلطتك ؟ »

وخطر له ان يرشد ماريوس الى الطريق، وان «الولد» سوف ينحني. وارتعد ماريوس . كان مطلوبا منه ان ينكر اباه. وخفض عينيه واجاب: « لا، يا سيدي . » فهتف العجوز ، بعنف ، وقد عصف به الم ممض وغضب عارم : « واذن ، فما الذي تريده مني ؟ »

وشبك ماريوس يديه وقال في صوت مرتعش: «ارحمني ، يا سيدي !»

واثارت هذه الكلمة مسيو جيلنورمان . ولو انها قيلت قبل ذلك بقليل اذن لكانت خليقة بان تعطف فؤاده. ولكنها جاءت متأخرة جدا. ونهض الجد، واتكأ بكلتا يديه على عصاه، ابيض الشفتين، مرتعد الجبين ، وقال : «ارحمك، يا سيدي ! الشاب يطلب الرحمة من عجوز في الحادية والتسعين! انت تتخذ سبيلك الى الحياة ، وانا اتخذ سبيلي الى مغادرتها . انت تذهب الى المسرح، الى المرقص ، الى المقهى . انك ذكي ، انك فتى وسيم ، على حين لا استطيع انا ان افارق زاوية موقدتي في صميم الصيف . ومع ذلك فانت تسألني الرحمة ؟ ماذا تريد مني ؟ »

فقال ماريوس : « سيدي ، انا اعلم ان وجودي يسوءك ، ولكني جئت لكي اسألك امرا واحدا ، ومن ثم امضي لسبيلي في الحال . »

فقال العجوز : « انت ابله ! من الذي يقول لك ان تمضي لسبيلك ؟ »

واستشعر مسيو جيلنورمان ان ماريوس يعتزم ان يفارقه بعد لحظات، وان قسوته كانت تطرده . فتعاظم المه . واذ انقلب المه في الحال الى غضب، فقد تعاظمت قسوته. كان يود لو ان ماريوس قد فهم، ولكن ماريوس لم يفهم، وهذا ما اثار ثائرة العجوز . واردف : «ماذا ؟ لقد هجرتني، انا ، جدك. لقد فارقت بيتي لتذهب الى مكان لا احد يعرفه. لقد كنت تحيا حياة الفتى الغر، وتمثل دور الشاب المعجب بذاته ، وتستمتع بالحياة. انك لم تبعث الي بعلامة واحدة تدل على انك ما تزال حيا ، ولقد اثقلت نفسك بالديون من غير ان تتصل بي لوفائها عنك ، ولقد جعلت من نفسك مشاغبا ومحطم نوافذ ، وفي نهاية سنوات اربع تجيء الى بيتي وليس عندك ما تقوله غير هذا ! »

هذه الطريقة العنيفة في دفع الحفيد الى المحبة والرقة لم تؤد الى غير صمت ماريوس . وطوى مسيو جيلنورمان ذراعيه ، وهو وضع كان عنده متفطرسا الى حد بعيد ، وقال لماريوس في صرامة وفي مرارة : « فلنضع حدا لذلك . لقد قلت انك جئت تطلب مني شيئا ؟ حسن ، ما هو ؟ تكلم ! »

فقال ماريوس : « سيدي ، لقد جئت اطلب اذنك في الزواج . »

ـ « تتزوج ! في الحادية والعشرين ! لقد رتبت هذا ولم يبق عليك غير الاذن تطلبه ! شيء شكلي . اجلس ، يا سيدي . حسنا ، انت تريد ان تتزوج ؟ وممن ؟ هل نستطيع ان نطرح هذا السؤال من غير ان يكون في ذلك قلة لياقة ؟ »

وسكت . وقبل ان يجد ماريوس متسعا من الوقت للاجابة اضاف في عنف : « آه ، ان عندك صناعة ؟ ولقد جمعت ثروة ؟ كم تكسب من عملك في المحاماة ؟ »

فقال ماريوس في ضرب من الرصانة يكاد يكون ضاريا : « لا شيء . »

ـ « واذن ، فهل افهم من هذا ان الفتاة غنية ؟ »

ـ « مثلي . »

ـ « وهل ثمة ميراث منتظر ؟ »

ـ « لست أعتقد . »

ـ « عارية تماما ! وماذا يعمل ابوها ؟ »

ـ « لست ادري . »

ـ « وما اسمها ؟ »

ـ « الانسة فوشلوفان . »

ـ « هكذا اذن . ابدا . ابدا . »

ـ « ابي ! »

ـ « مستحيـــل ! »

ولم يكد ماريوس يسمع النبرة التي انطلقت بها لفظة «مستحيل» هذه حتى فقد الرجاء كله وانسحب مطأطىء الراس متمايلا اشبه برجل يحتضر منه برجل يمضي لسبيله . وتبعه مسيو جيلنورمان بعينيه ، ولحظـة فتح الباب وغادر ماريوس الغرفة او كاد ، اندفع واخذ بخناق ماريوس ، ورده في عنف الى الغرفة ، وطرحه على احدى الارائك ، وقال له : « حدثني عن ذلك ! »

كانت تلك الكلمة المفردة ، ابي ، التي ندت من ماريوس، هي التي احدثت هذا الانقلاب . . . ونظر ماريوس اليه في ذهول . ان سيما مسيو جيلنورمان ما عادت لتعبر عن غير طيبة جافية لا سبيل الى التعبير عنها . وقال الجـد : « تعال ، دعنا نرى ، تكلم ، حدثني احاديث غرامك ، ثرثر ، اخبرنـي كـل شيء . يا الهي ! ما اشد حماقة هؤلاء الشباب ! »

واستأنف ماريوس : « ابي ! »

واضاء وجه العجوز كله باشراق يعز على الوصف وقال : « اجل ، هو ذاك ! ناديني يا ابي ، ولسوف ترى ! »

وقال ماريوس : « حسنا ، يا ابي ! . . . »

وقاطعه مسيو جيلنورمان : « تعال الان . واذن فانت لا تملك اي فلس حقا ؟ انت تلبس مثل ملابس اللصوص . »

وبحث في احد الادراج ، واخرج محفظة نقود ووضعها على الطاولة : « خذ . هذه مئة ذهبية لويسية . اشتر لنفسك قبعة . »

فاردف ماريوس : « ابي ، يا ابي الطيب ، ليتك تعلم . انا احبهـا . ان اباها لا يعرف ذلك . اننا نجتمع في الحديقة مساء وابوها يريد ان يـأخذها الى انكلترة ، اني سوف اقذف بنفسي في النهر . يجب ان اتزوجها . انها تسكن في حديقة ذات سياج مقضب، في شارع بلوميه. انها تقع قرب الانفاليد» .

وكان جيلنورمان الجد قد جلس، مشرقا بالابتهاج، الى جانب ماريوس وفيما كان يستمع اليه مبتهجا بنغمة صوته استمتع في الوقت نفسه بنشقة طويلة من سعوط. حتى اذا سمع تلك الكلمة، شارع بلوميه، قطع استنشاقه ، وترك بقية سعوطه تسقط على ركبتيه ، وقال: « شارع بلوميه ! تقول شارع بلوميه ؟ ـ دعنا نرى اذن ، هل توجد ثكنة هناك ؟ ولكن اجل ، ذلك هو . ان ابن عمك تيبودول اخبرني عنها. بنت صغيرة، يا صديقي الطيب، لقد سمعت احاديث عن فتاة السياج الصغيرة تلك . ان ذوقك ليس رديئا . يقولون انها جميلة. وبيني وبينك، اعتقد ان ذلك الرماح الابله قد حاول ان يغازلها قليلا . ولست ادري الى اي حد ذهب في مغازلته تلك . وعلى اية حال ، فليس لهذا

اهمية . ثم اننا يجب ان لا نصدقه . ماريوس ! احسب ان من المستحسن لفتى مثلك ان يقع في الحب . انا احبك عاشقا اكثر مما احبك يعقوبيا . انا احبك مغرما بتنورة بل بعشرين تنورة ، اكثر مما احبك مدلها بمسيو دو روبسبيير ! لقد عرفت انا نفسي مغامرات مثل هذه. اكثر من واحدة. اتدري كيف نفعل ؟ انا لا نقذف انفسنا في المأساة . انا لا نختم الامر بالزواج ، وبالسيد العمدة ووشاحه ، ولكن ذلك لا يعوقنا . هل تفهمني ؟ »

وهز ماريوس راسه ، متحجرا عاجزا عن ان ينطق بكلمة .

وانفجر الرجل الطيب بالضحك، وربت على ركبة ماريوس، وحدق الى عينيه وعلى وجهه سيما غريبة مشرقة ، وقال له ، وهو يهز كتفيه هزة تنطوي على اكبر قدر من الحنان : « ايها الاحمق ، اجعلها خليلتك . »

وران الشحوب على ماريوس. انه لم يفهم شيئا من كل ما قاله جده . فهذا التكرير غير المفيد لشارع بلوميه ، للتكنة ، للرماح ، قد مر امام ماريوس مثل اشباح يظهرها فانوس سحري . وليس في شيء منها ما يمكن ان يتصل بكوزيت ، التي كانت زنبقة . كان الرجل الطيب يهذي . ولكن هذا الهذيان انتهى بكلمة فهمها ماريوس ، وكانت إهانة قاتلة لكوزيت . ان تلك الكلمة **اجعلها خليلتك** اخترقت قلب ذلك الفتى المتقشف وكأنها حسام . . . ونهض ورفع قبعته التي كانت على الارض ، ومضى نحو الباب في خطى واثقة راسخة . وهناك استدار ، وانحنى انحناء خفيضا امام جده ، ثم رفع راسه كرة اخرى ، وقال : « منذ خمس سنوات اهنت ابي . وها انت اليوم تهين زوجتي . انا لا اسألك بعد شيئا ، يا سيدي . وداعا ! »

وفتح جيلنورمان الجد فمه مشدوها ، وبسط ذراعيه ، غير قادر على ان يتكلم او يتنفس، واخيرا انطلق نحو الباب باسرع ما يستطيع رجل في الحادية والتسعين ان ينطلق ، وفتحه وصرخ : « النجدة النجدة ! » وبرزت ابنته ثم الخادمان . وتابع وفي صوته حشرجة تثير الرثاء : اركضوا وراءه ! امسكوا به ! ما الذي فعلته له ، انه مجنون ! انه راحل ، آه ! يا الهي آه ! هذه المرة لن يعود !. ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! »

لكن ماريوس كان قد انتهى الى نقطة لا تمكنه من ان يسمع شيئا، وكان في تلك اللحظة ذاتها ينعطف حول زاوية شارع سان لويس .

ورفع العجوز يديه الى صدغيه مرتين او ثلاث مرات ، في سيما من الجزع ، وارتد الى الوراء متمايلا ، والقى بنفسه في احدى الارائك ، فاقد النبض ، فاقد الصوت ، فاقد الدمع ، هازا راسه ، محركا شفتيه ، وقد خلت عيناه وخلا قلبه الان من كل شيء الا شيئا عميقا فاجعا يشبه الظلام .

إلى أين هما ذاهبان؟

١

في ذلك اليوم، نفسه، حوالي الساعة الرابعة بعدالظهر، كان جان فالجان وحده على كتف منحدر من اشد منحدرات الـ «شان دو مارس» انعزالا. لقد ارتدى صدرته العمالية وبنطلونا من كتان اسمر ، ولقد حجبت قبعته ذات الحافة الطويلة وجهه . كان الان مطمئنا سعيدا من ناحية كوزيت ، وكان ما روعه واقلقه فترة من الزمان قد تبدد. ولكن منذ اسبوع او اسبوعين داهمه قلق من نوع اخر. ففي ذات يوم ، كان يمشي في الجادة ، فرأى تيناردييه ، وبفضل تنكره لم يستطع تيناردييه ان يتبينه ، ولكن جان فالجان عاد فرآه منذ ذلك الحين ـ عدة مرات ، ولقد كان واثقا من ان تيناردييه كان يطوف متربصا حول الحي . وكان ذلك كافيا لحمله على القيام بخطوة جدية . تيناردييه هناك ! انها المخاطر كلها مجتمعة .

والى هذا فلم تكن باريس تنعم بالهدوء . والقلاقل السياسية لا تلائم كل من تنطوي حياته على شيء يريد أن يخبئه. ذلك ان رجال الشرطة يكونون ناشطين جدا ، مرتابين جدا . وهكذا قرر ان يغادر باريس ، وينتقل الى انكلترة . كان جالسا على منحدر الـ «شان دو مارس» ، يقلب مختلف ضروب الافكار في ذهنه: تيناردييه، الشرطة، الرحلة، وصعوبة الفوز بجواز السفر .

وفي غمرة هذه التأملات لمح ان شخصا وقف فوق ذروةالمنحدر خلفه مباشرة . وكان على وشك ان يستدير، عندما سقطت على ركبته ورقة مطوية وتناول الورقة ، وقرا هذه الكلمة مسطورة عليها باحرف ضخمة : « انتقل من منزلك ! »

ونهض جان فالجان في خفة ، فلم يجد احدا فوق المنحدر. واجال بصره في ما حوله، ولمح مخلوقا اكبر من طفل ، واصغر من رجل ، مخلوقا وثب فوق

الحاجز وانزلق في حفرة الـ « شان دو مارس » .
وانقلب جان فالجان في الحال ، الى منزله ، والافكار تعصف في دماغه.

٢

كان ماريوس قد فارق مسيو جيلنورمان محزون النفس . لقد وفد عليه وفي صدره امل ضئيل جدا ، ثم غادره وبين جوانحه يأس هائل. وشرع يمشي في الشوارع، وتلك حيلة اولئك الذين يتألمون. ولم يفكر في شيء يستطيع ان يتذكره . وعند الساعة الثانية صباحا انقلب الى غرفة كورفيراك ، والقى بنفسه وهو في ملابسه، على فراشه. وكانت الشمس قد اشرقت عندما غلبه النوم . حتى اذا افاق وجد كورفيراك ، وانجولراس ، وفويي ، وكومبوفير ، واقفين في الغرفة مستعدين للانطلاق ، وعلى رؤوسهم قبعاتهم .

وقال له كورفيراك : « هل ستشيع جنازة الجنرال لامارك ؟ »

لقد بدا له ان كورفيراك كان يتكلم الصينية .

وغادر المنزل بعدهم بقليل . ووضع في جيبه المسدسين اللذين اودعه اياهما جافير عشية مغامرة الثالث من شباط .

وتسكع طوال النهار غير عالم الى اين تقوده قدماه . وامطرت السماء بين الفينة والفينة، ولكنه لم يلاحظ ذلك. واشترى لغدائه كعكة من عند احد الخبازين ، ودسها في جيبه ، ثم نسيها . وانتظر هبوط الليل بفروغ صبر محموم ، ولم يكن في راسه غير فكرة واضحة واحدة: ان عليه ان يرى كوزيت في الساعة التاسعة . فقد كانت هذه السعادة الاخيرة هي الان مستقبله كله ، وبعد ذلك يخيم الظلام . وبين الفينة والفينة ، فيما كان يذرع اشد الجادات انعزالا ، تبدى له انه سمع اصواتاً عجيبة في باريس . وايقظ نفسه من تفكيره الحالم وقال : اهم يتقاتلون ؟

وعند هبوط الليل ، في الساعة التاسعة تماما ، كما وعد كوزيت ، كان في شارع بلوميه . حتى اذا اقترب من الباب الحديدي نسي كل شيء . لقد انقضت على رؤيته كوزيت اخر مرة اربع وعشرون ساعة، وكان على وشك ان يراها كرة ثانية . وامحت جميع الافكار الاخرى ، ولم يستشعر الان غير ابتهاج عميق .

وازاح ماريوس الباب الحديدي،ووثب الى الحديقة. ولم تكن كوزيت حيث اعتادت ان تنتظره. واجتاز الاجمة ، ومضى الى الحفرة المجاورة للسلم. وقال: انها تنتظرني هناك. ولم تكن كوزيت هناك . ورفع عينيه ، فرأى نوافذ البيت مغلقة . وقام بجولة حول الحديقة ، فاذا بالحديقة مهجورة . ثم ارتد

الى المنزل، وراح يخفق مصراعي النافذة، وصاح: كوزيت ! فلم يسمع جوابا. لقد قضي الامر . لم يكن ثمة احد في الحديقة ، لم يكن ثمة احد في المنزل .

وفجأة سمع صوتا بدا وكأنه مقبل من الشارع ، صوتا صاح من خلال الاشجار :

ـ « مسيو ماريوس ! »

ونهض ، وقال : « هيه ؟ »

ـ « مسيو ماريوس . اصدقاؤك ينتظرونك عند المتراس ، في شارع الـ « شانفريري . »

ولم يكن ذلك الصوت غريبا عليه . كان يشبه صوت ايبونين الاجش الخشن .

٣

كانت حافظة نقود جان فالجان غير ذات جدوى لمسيو مابوف . لقد حملها الى مفوض الشرطة في الحي ، بوصفها شيئا ضائعا يضعه الذي عثر عليه تحت تصرف المطالبين به .

والى هذا ، فقد واصل مسيو مابوف انحداره . ففي العام الماضي كان مدينا لمدبرة منزله بأجورها. اما اليوم فكآن كما راينا مدينا بثلاثة ارباع ايجار ذلك المنزل . لقد تخلى عن البيضتين وقطعة لحم البقر التي اعتاد ان يأكلها بين الفينة والفينة. وامسى يجتزىء في طعامه بالخبز والبطاطس. كان قد باع اخر قطعة من اثاثه ، ثم جميع ادوات فراشه وملابسه ، واغطيته الاضافية ، ثم مجموعات نباتاته وصوره المطبوعة على الخشب، وعددا من كتبه النفيسة .

وذات يوم فيما كان جالسا على النصب المنكوس في حديقته ، مسمر العين في ذهول على مساكب النبات الذابلة انفجرت في باريس اصوات خارقة للعادة. كانت تلك الاصوات تشبه طلقات البنادق ، وصيحات الجماهير .

ورفع الاب مابوف راسه . لقد راى بستانيا يعبر السبيل ، فسأله : « ما هذا ؟ »

واجابه البستاني ، ومعزقته على كتفه ، في نبرة ليس اهدا منها : « انهم يتقاتلون . »

ـ « في اية ناحية ؟ »

ـ « قرب مصنع السلاح . »

وانقلب الاب مابوف الى منزله ، واخذ قبعته ، ومضى لسبيله وعلى وجهه سيما ذاهلة .

اليوم الخامس من حزيران ١٨٣٢

١

مم كانت تلك الفتنة مؤلفة ؟ من لا شيء ومن كل شيء . من كهربـاء انعتقت شيئا فشيئا ، من لهب اندلع على نحو فجائي، من قوة تائهة ، من ريح عابرة . وهـذه الريح تلتقي برؤوس تفكر ، وعقـول تحلم ، ونفوس تتألم ، واهواء تضطرم ، وضروب من الشقاء تعوي ، ـ تلتقي بها وتجرفها .

ان المعتقدات المهتاجة ، والحماسة المغيظة ، والسخـط المثار ، وغرائز الحرب المكبوتة ، والحوافز النبيلة ، والفضول ، وحب التغيير ، والظمأ الى غير المتوقع ، والاحقاد الغامضة ، والضغائن ، وخيبات الامل ، وضروب القلق ، والاحلام الفارغة وكل من يرجو مخرجا من انهيار، واخيرا ، في اعمق الاعماق، اخلاط الناس ، ذلك الوحل الذي يشتعل ـ تلك هي عناصر الفتنة .

كل ما هنالك من عظيم مغال في العظمة وكل ما هنالك من وضيع ممعن في الضعة. ان اولئك المخلوقات الذين يطوفون بالليل خارج كل شيء، منتظرين فرصة ، متشردين ، متسكعين حول زوايا الشارع ، اولئك الذين ينامون في الليل في بادية من البيوت سقوفها سحب السماء الباردة، اولئك الذين يتلمسون خبزهم كل يوم من المصادفة لا من العمل، ابناء الشقاء والعدم المجهولين ، ذوي الاذرع العارية ، والاقدام العارية ـ ان هؤلاء جميعا هم طوع يمين الفتنة .

الفتنة ضرب من الاعصار في الجو الاجتماعي يتشكل فجأة في بعـض حالات الحرارة ، اعصار ما ان ينطلق مزمجرا حتى يصعد ، ويعدو ، ويرعد ، ويمزق ، ويهدم ، ويسحق ، ويخرب ، ويقتلع ، ويجرف معه الطبائع الرفيعة والخسيسـة ، الرجل القوي والعقل الضعيف ، جذع الشجرة والقشة .

والويل لمن تجرفه ، والويل لمن تصطدم به على حد سواء ! انها تضرب احدهما بالاخر فتحطمهما جميعا .

وينبغي ان نميز دائما بين الفتنة والثورة . فهذان غضبان اثنان . الاول على ضلال ، والثاني على صواب .

ليس ثمة ثورة الا الى الامام. وكل تمرد اخر هو شر. وكل خطوة عنيفة الى الوراء هي فتنة . والارتداد عمل من اعمال العنف ضد الجنس البشري. والثورة هي فورة غيظ الحقيقة ، وحصباء الطرق التي تنتزعها الثورة تطلق شرارة الحق . وهذه الحجارة لا تترك للفتنة غير وحلها . دانتون ضد لويس السادس عشر ــ تلك ثورة . اما هيبير ضد دانتون ــ فتلك فتنة .

وفي الاعم الاغلب تنبثق الفتنة من واقعة مادية . اما الثورة فهي ظاهرة اخلاقية دائما . الثورة تتاخم العقل ، والفتنة المعِدة .

والان ما هي ، في نظر التاريخ ، حركة حزيران ، ١٨٣٢ ؟ فتنة ام ثورة؟

انها ثورة ... لقد كان لحركة ١٨٣٢ ، في انفجارها السريع وخمودها المأتمي ، عظمة بالغة تجعل حتى اولئك الــــذين لا يرون فيها غـــير فتنـــة لا يتحدثون عنها الا بالاحترام انها عندهم اشبه ببقية من عام ١٨٣٠ .

٢

في ربيع عام ١٨٣٢، وعلى الرغم من ان الكوليرا كانت قد اوقعت القشعريرة في جميع القلوب ، كانت باريس مستعدة منذ زمن طويل لهزة عنيفة. والواقع ان المدينة الكبيرة تشبه مدفعا ، فما ان يشحن بالمتفجرات حتى تكفي شرارة ساقطة لاندلاع النار، وفي حزيران، ١٨٣٢، كانت الشرارة وفاة الجنرال لامارك.

كان لامارك ، رجل صيت وعمل . وكان قد جمع ، في ظل الامبراطورية والعهد البوربوني الجديد ، ما بين الشجاعتين الضروريتين للعهدين : بسالة الميدان ، وبسالة المنبر. كان بليغا بقدر ما كان باسلا ، ولقد استشعر الناس سيفا في كلامه . لقد رفع لواء الحرية بعد ان رفع لواء القيادة ، وكان حبيبا الى الجماهير لانه اخلص في خدمة الامبراطور .

وكان موته موضع رهبة الشعب بوصفه خسارة، وموضع رهبة الحكومة بوصفه فرصة . لقد كانت تلك الميتة حدادا . وككل ما هو مرير ، قد ينقلب الحداد الى ثورة . وهذا ما حدث .

وعشية الخامس من حزيران وصباحه، وهو اليوم المعين لدفن لامارك ، اتخذت ضاحية سان انطوان ــ وكان مقدرا للموكب ان يمسها مسا رفيقا ــ مظهرا رهيبا . كانت شبكة الشوارع الصاخبة تلك ملأى بالشائعات . وتسلح الناس على النحو الذي وفقوا اليه .

واخترقت الجنازة شوارع باريس بالابهة العسكرية الرسمية المألوفة ،

وقد بولغ بها بعض الشيء على سبيل الحذر. لقد واكب النعش فرقتان من الجند ، وطبول مجللة بالسواد ، وبنادق منكسة ، وعشرة الاف من رجـال الحرس الوطني وسيوفهم الى جوانبهم ، ومدفعية الحرس الوطني . وجر الشباب مركبة الموتى . ثم اقبلت جماعات لا تحصى ، غريبة مهتاجة ، واطفال يلوحون بأغصان خضر ، وحجارون ونجارون كانوا مضربين في تلك اللحظة بالذات ، وطابعون متميزون بقبعاتهم الورقية ، يمشون اثنـين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، مطلقـين الصيحات ، هازين العصي كلها تقريبا ، وبضعة سيوف ، في غـير ما نظـام .

والحكومة من ناحيتها،كانتتراقب. لقد راقبت،ويدها علىمقبضالسيف.

وانتشرت اشاعات مختلفة في الموكب. واعلنت شخصية لا تزال مجهولة ان اثنين من كبار المستخدمين الذين كسبتهم القضية سوف يفتحان ، فـي الميقات المحدد ، ابواب مصنع من مصانع السلاح .

واتخذ الموكب سبيله ، في بطء محموم، من دار الميت، مجتازا الجادات حتى الباستيل . وهطل المطر بين الفينة والفينة . وعند الباستيل التحقت بالموكب صفوف طويلة من الفضوليين المروعين الهابطين من ضاحية سـان انطوان ، وشرع غليان فظيع يثير الجماهير .

واجتازت عربةالموتى الباستيل، وسايرت القناة، وعبرت الجسر الصغير وانتهت الى ساحة جسر اوسترليتز .

وفجأت اطلقت ثلاثة عيارات نارية اولها صرع رئيس كوكبة الفرسان ، شوليه ، وثانيها صرع عجوزا صماء كانتتغلق نافذتها فيشارع كونترسكارب، وثالثها احرق كتافة احد الضباط .

وما هي الا لحظة حتى انقضت الجمـوع الثائرة على مصانع الاسلحـة ومحلات بيعها ، وجردت الحراس والجنود من اسلحتهم ، وفي اقل من ساعة انبثق من الارض سبعة وعشرون متراسا في منطقة الاسواق وحدها .

في هذه اللحظة كان طفل رث الثياب يهبط شارع مينيلمونتان وفي يده غصن منور كانقد قطعه من فوقمرتفعات بيلفيل، فوقع نظرهفي مقدمة احدى دكاكين السلع المستعملة على غدارة عتيقة من غدارات الخيل. وعندئذ طرح غصنه على حصباء الطريق ، وصاح : يا الهي ، سوف استعير هذا السلاح .

وانطلق هاربا بالغدارة .

كان هو غافروش الصغير ذاهبا الى ميدان القتال .

وفي الجادة لاحظ ان الغدارة لم يكن لها زناد .

وبعد فترة يسيرة التحق غافروش بعصبة كان يقودهـا آنجولراس ،

وكورفيراك ، وكومبوفير ، وفويي . كانوا مسلحين تقريباً . وكان باهوريل وجان بروفير قد التحقا بهم وضخما الجمع .

لقد اقبلوا من الـ«كي مورلان» ، من غير اربطة عنق، ومن غير قبعات ، لاهثين ، مشبعين بالمطر ، وقد اومض البرق في اعينهم . واقترب غافروش منهم في هدوء وقال : « الى اين نحن ذاهبون ؟ »

فقال كورفيراك : « تعال . »

ورافقهم موكب صاخب: طلاب، وفنانون ، وشباب ينتسبون الى جماعة الـ«كوغورد ديكس» ، عمال ، وشغيلة مرافىء مسلحون بالعصي والحراب. وكان قليل منهم ، مثل كومبوفير، يحملون غدارات مقحمة في احزمتهم. وكان يمشي مع هذه العصبة رجل عجوز بدا هرما جدا . ولم يكن يحمل سلاحا البتة ، وكان يغذ الخطى خشية ان يخلفوه وراءهم ، على الرغم من انه كانت تبدو على وجهه امارات الاستغراق في التفكير . ولمحه غافروش ، وقال لكورفيراك من هذا ؟

ــ « هذا رجل عجوز . » ... كان هو مسيو مابوف .

وتعاظمت العصبة لحظة اثر لحظة . وقريبا من شارع بيليت التحق بالقوم رجل طويل القامة ، وخط الشيب شعره ، رجل لاحظ كورفيراك وانجولراس ، وكومبوفير سيماه الخشنة المقدامة، ولكن ايا منهم لم يعرفه .

واتفق ان اجتازوا ، في شارع الـ «فيريري» بباب كورفيراك . وقال كورفيراك : « هذه مصادفة حسنة . لقد نسيت حافظة نقودي ، وخسرت قبعتي . »

وفارق الجمع، وصعد الى غرفته، وتناول قبعة قديمة وحافظة نقوده. واخذ ايضا صندوقا كبيرا مربعا كان مخبوءا بين ملابسه المتسخة . وفيما هو يهبط السلم كرة اخرى تقدم نحوه شخص نحيل شاحب الوجه يرتدي بنطلونا مخمليا ويبدو وكأنه فتاة في ثوب صبي . وسأله عن ماريوس فأجاب كورفيراك : « انه ليس هنا . »

ــ « هل سيرجع هذا المساء ؟ »

ــ « لست ادري . اما انا فلن ارجع الى البيت . »

ــ « هل تريد ان احمل لك صندوقك ؟ »

ــ « انا ذاهب الى المتاريس . »

ــ « اتريد ان اذهب معك ؟ »

فأجابه كورفيراك : « اذا شئت . الطريق مفتوحة . والشوارع ملك للناس جميعا . »

كورنث

١

كان عابر السبيل الوافد من شارع سان‌دونيز الى شارع الـ«شانفريري» يرى الطريق تضيق تدريجيا ، امامه ، وكأنما قد دخل في قمع متطاول . وعند نهاية الشارع كان يجد الشارع مسدودا من ناحية السوق، فيحسب نفسه في زقاق غير نافذ، اذا لم يسبق له ان يلاحظ عن يمينه وعن شماله فتحتين سوداوين يستطيع ان يفر خلالهما . وعند نهاية الزقاق غير النافذ ، عند زاوية الفتحة التي الى اليمين،كان يبدو بيت‌اكثر انخفاضا من سائر البيوت .

في هذا المنزل المؤلف من دورين ليس غير ، استقرت منذ ثلاثمئة عام حانة شهيرة . وكانت هذه الحانة تدعى من قبل اناء الورد . ثم عرفت بعد ذلك باسم « حانة كورنث » .

كانت الحانة مظلمة ، وكانت سحب ضخام تتمم تعطيل ضوء النهار . ولم يكن ثمة احد في الحانة غير غرانتير وبوسوويه وجولي. . . وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت الطاولة التي اتكأوا عليها مغطاة بالزجاجات الفارغة. كان غرانتير قد اغرى جولي وبوسوويه بالشراب ، وكان بوسوويه وجولي قد اغريا غرانتير بالمرح . . . وفجأة ، سمعوا جلبة وصيحات « الى السلاح ! » والتفتوا فرأوا انجولراس يجتاز بشارع سان دونيز ، عند طرف شارع الـ« شانفريري » ، والبندقية في يده ورأوا غافروش حاملا غدارته ، وفويي شاهرا حسامه ، وكورفيراك شاهرا سيفه ، وجان بروفير مسددا بندقيته القصيرة ، وكومبوفير بندقيته ، وباهوريل بندقيته القصيرة الخفيفة .

وصاح بوسوويه : « كورفيراك ! الى اين انت ذاهب ؟ »

ــ « اريد ان اقيم متراسا . »

ــ « حسن . هنا ! هذا مكان ممتاز . اقمه هنا ! »

فقال كورفيراك : « هذا صحيح ، يا بوسوويه . »

وباشارة من كورفيراك هجمت العصبة الى شارع الـ «شانفريري » . فاستبد الذعر بالشارع كله ، ولم يبق عابر سبيل الا ولى الادبار . وفي مثل لمح البصر ، اغلقت الدكاكين ، وابواب الازقة ، والنوافذ وكانت الحانة هي الدكان الوحيدة التي ظلت مشرعة الابواب ، وذلك لسبب وجيه ، وهو ان العصبة كانت قد انقضت عليها . وتنهدت مدام هوشلو ، صاحبة الحانة : « آه يا الهي ! »

وفي غضون ذلك اقتلع عشرون قضيبا حديديا من واجهة الحانة المقضبة ، وانتزع البلاط من جزء من رصيف الشارع . وكان غافروش وباهوريل قد استوليا ، على عربة نقل لتاجر كلس وقلباها ، راسا على عقب ، وكانت تلك العجلة تحتوي على ثلاثة براميل ملأى بالكلس كانا قد وضعاها تحت ركام بلاط الرصيف . وكان فويي قد رفد البراميل وعجلة النقل بركامين هائلين من حجارة ، وحين استدار بوسوويه وكورفيراك كان نصف الشارع قد سد بسور اعلى من قامة الرجل ...

وكانت خادمتا الحانة ، ماتولوت وجيبولوت ، قد انضمتا الى العاملين . وانشأت جيبولوت تروح وتغدو مثقلة بسقط المتاع ... واجتازت اقصى الشارع مركبة عامة ذات جوادين ابيضين ... ووثب بوسوويه فوق الرصيف وركض وسرح السائق ، ورجع بالمركبة يقود جواديها بالعنان . وبعد لحظة كان الجوادان قد حررا من المركبة وانطلقا على هواهما في شارع مونديتور وكانت العربة قد اضطجعت على جانبها متممة سد الشارع .

وطبع جولي قبلة على عنق مدام هوشلو الخشن ، المتجعد وقال لغرانتير : «يا صديقي العزيز ، لقد كنت دائما اعتبر عنق المراة شيئا ناعما الى ما لا نهاية . »

وحين انتهت ماتولوت الى الدور الاول امسك غرانتير بها من خصرها وجذبها نحو النافذة منفجرا بضحكات طويلة وقال : « ماتولوت ، عانقيني ! ان لك وجنتين تتطلبان قبلة من اخت ، وشفتين تتطلبان قبلة من محب . »

فصاح كورفيراك « غرانتير ، اذهب ونم مخمورا بعيدا عن هذا المكان . لا تسربل المتراس بالعار ! »

٢

وفي نشوات المتراس الروحية : صاح باهوريل : « هو ذا الشارع مرتديا ثوبا كاشفا عن العنق واعلى الصدر ! ما اجمل منظره ! »

وكف المطر عن التهطال ، وكانت الامداد قد اقبلت . وكان بعض العمال

قد حملوا برميلا صغيرا من البارود ، وسلة تحتوي على زجاجات من الزاج او الكبريتات ، وشعلتين او ثلاث من شعل الكرنفال .

وادار انجولراس ، وكومبوفير ، وكورفيراك كل شيء. كانثمة متراسان ينشآن في آن معا ، وكل منهما يستند الى حانة كورنث ويشكل معها زاوية قائمة. لقد سد اكبرهما شارع الـ«شانفريري»، وسد الثاني شارع مونتيدور من ناحية شارع دو سيني .

وكان الرجل الفارع الطول الذيلاحظه كورفيراك وكومبوفير وانجولراس لحظة التحق بالجماعة عند زاوية شارع دي بيليت يشتغل فيالمتراس الصغير ويقدم خدماته هناك. واشتغل غافروش في المتراس الكبير، اما الشاب الذي انتظر كورفيراك في غرفته ، وسأله عن مسيو ماريوس ، فكان قد اختفى بعد ان قلبت العربة العامة بقليل .

وكان غافروش يروح ، ويجيء ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود ، ويدوي ويتوقد ذكاء . لقد بدا وكأنه وجد هناك لتشجيع الجميع. والى هذا، فقد كان محتدما غيظا على غدارته التي لا زناد لها. ومضى من واحد الى اخر مطالبا : « بندقية ! لماذا لا تعطونني بندقية ! »

وتم العمل كله من غير عائق ، في اقلمن ساعة. وعندئذ رفعت الراية الحمراء على عريش العربة العامة وسحبتمن الحانة مائدة. وارتقى كورفيراك تلك المائدة وجاء انجولراس بالصندوق المربع ، وفتحه كورفيراك وكان هذا الصندوق مليئا بالخراطيش. وحين بدت الخراطيش للعيان سرت في اوصال اشجع القوم رعدة وران الصمت لحظة .

ووزعها كورفيراك في ابتسامة. وتلقى كل امرىء ثلاثين خرطوشة. وكان مع كثير منهم بارود ، فراحوا يعملون خراطيش اخرى بالكرات التي كانوا يصبونها . اما برميل البارود الصغير ، فكان وحده فوق طاولة ، مجاورة للباب ، وكان مدخرا الى وقت الحاجة .

لقد شحنوا بنادقهم وبنادقهم القصيرة الخفيفة ، في آن معا ، من غير اضطراب وفي رصانة بالغة . ووضع انجولراس ثلاثة حراسخارج المتراسين. وحين اكمل انشاء المتراسين ، وعينت مراكز الجند ، وشحنت البنادق ، وسمي الحراس ، راحوا ينتظرون رابطي الجأش ، في تلك الشوارع المظلمة المقفرة .

وبين الفينة والفينة كانت تسمع طلقات بنادق ، ولكنها طلقات نادرة ، متقطعة نائية . وكانت هذه الاستراحة ، المتطاولة على هذا الشكل، دليلا على

ان الحكومة كانت تفيد من الوقت وتحشد قواها . لقد كان هؤلاء الرجال الخمسون ينتظرون ستين الف رجل .

واستبد بانجولراس فروغ صبر شديد . ومضى يبحث عن غافروش الذي كان قد انصرف الى صنع الخراطيش في الحجرة السفلى ... وكان الرجل المقبل من شارع الـ « بيليت » قد دخل اللحظة الى الحجرة السفلى ، وكان معه بندقية مشاة من طراز ضخم . وحتى تلك اللحظة ، لم يكن غافروش قد راى هذا الرجل .

وحين دخل ، اتبعه غافروش ناظريه على نحو ميكانيكي ، معجبا ببندقيته . ولم يكد الرجل يجلس حتى نهض « المتشرد » فجاة وقال في ذات نفسه : « مستحيل ! هل هذا ممكن ؟ لا . انه غير ممكن ! »

ونادى انجولراس غافروش وقال له: «انت صغير. ان احدا لن يراك . اخرج والق نظرة سريعة الى الشوارع ، ثم ارجع واخبرني ما الذي يجري هناك.» فرفع غافروش راسه وقال مشيرا الى الرجل الذي اقبل من شارع بيليت : « اترى الرجل الذي هناك ؟ انه جاسوس ! »

وفي سرعة انطلق انجولراس وهمس بضع كلمات في اذن عامل من عمال المرافىء فغادر العامل الغرفة ، ورجع في الحال يصحبه ثلاثة اخرون. ومضى الرجال الاربعة وجلسوا خلف الطاولة التي كان الرجل المقبل من شارع بيليت متكئا عليها. ثم ان انجولراس اقترب من الرجل وقال له : «انت جاسوس ! »

ــ « انا من رجال السلطة . انا جافير . »

وفي لمح البصر . وقبل ان يجد جافير متسعا من الوقت للالتفات ، كان الرجال قد اخذوا بخناقه ، وطرحوه ارضا وفتشوه ، واوثقوا ذراعيه خلف ظهره وشدوه وسط الحجرة السفلى الى احد الاوتاد . والتفت انجولراس الى جافير قائلا : « سوف تقتل رميا بالرصاص قبل ان يؤخذ المتراس بعشر دقائق . »

واجاب جافير بنبرته الاكثر صلفا : « ولم لا يكون ذلك في الحال ؟ »

ــ « نحن نقتصد في البارود . »

ــ « اذن فاقتلوني بمدية . »

فقال انجولراس : « ايها الجاسوس . نحن قضاة ، ولسنا سفاحين . »

ثم نادى غافروش : « انت ! افعل ما قلته لك . »

فصاح غافروش: « سوف اذهب. وبالمناسبة سوف تعطيني بندقية ! »

ماريوس يدخل في الظلام

١

كان ذلك الصوت الذي دعا ماريوس الى متراس شارع الـ «شانفريري» قد بدا له اشبه شيء بصوت القدر . لقد اراد ان يموت، وها هي ذي الفرصة سانحة . كان يقرع باب القبر ، فاذا بيد في الظلام تقدم اليه المفتاح .

وشرع يمشي على عجل . واتفق ان كان مسلحا ، فقد كان يحمل مسدسي جافير .

وبعد ان اخترق طوق الحشود واجتاز تخوم الجند ، وجد نفسه وسط شيء فظيع . لم يبق ثمة عابر سبيل ، لم يبق ثمة جندي ، لم يبق ثمة ضوء ، لم يبق ثمة احد . وتابع تقدمه ، حتى اذا بلغ شارع الـ « شانفريري » لمح ضياء على الرصيف ورأى جزءا من حانة ، ومصباحا صغيرا يغمز بعينيه ، ورجالا جاثمين على الارض والبنادق على ركبهم . وكان كل ذلك على مبعدة ستين قدما منه . كان ذلك هو الجزء الداخلي من المتراس .

كانت البيوت المحاذية للزقاق الذي الى يمينه قد حجبت عنه سائر الحانة ، والمتراس الكبير ، والراية .

ولم يبق على ماريوس غير خطوة واحدة يخطوها .

ثم ان الشاب التعس قعد على حجر . وطوى ذراعيه ، وفكر في ابيه .

فكر في الكولونيل بونميرسي الباسل ذاك ، الذي خلف فوق كل ميدان من ميادين النصر في اوروبا قطرات من ذلك الدم نفسه الذي يجري في عروقه، هو ماريوس . وقال في ذات نفسه ان يومه قد حان ايضا ، وانه بعد ابيه يجب ان يكون ايضا شجاعا ، وان يقتحم ميدان المعركة ، وان ميدان المعركة الذي يوشك ان يقتحمه هو الشارع ، وان الحرب التي يوشك ان يشنها كانت الحرب الاهلية !

وراى الحرب الاهلية تغفر فاها مثل الهاوية ، وادرك انه سوف يسقط فى تلك الهاوية .

وعندئذ اصابته رعدة . وشرع يبكي بكاء مريرا .

٢

ولم يكن احد قد اقبل . كانت ساعة سان ميري قد اعلنت العاشرة ، وكان آنجولراس وكومبوفير قد جلسا ، قرب فتحة المتراس الكبير يصغيان.

وفجأة انبعث صوت واضح مرح يتغنى بلحن شعبي قديم .

وشبك كل منهما يده بيد الاخر . وقال آنجولراس : «انه غافروش.»

فاجابه كومبوفير : « انه ينذرنا . »

وما هي الا لحظة حتى راى القوم غافروش يثب الى المتراس لاهثا وهو يقول : « بندقيتي ! ها هم ! »

وسرت رعدة كهربائية فى اوصال المتراس كله ، وسمعت حركة ايد تتلمس البنادق . واخذ غافروش بندقية جافير .

واتخذ كل امرىء موقعه للقتال .

وتصرمت بضع لحظات اخرى، ثم سمعفي وضوح من ناحية «سان ليو» وقع اقدام ، موزونة ثقيلة . واقترب هذا الوقع شيئا فشيئا من غير توقف. ولم يسمع شيء غير هذا .

وفجأة ، من اعماق ذلك الظلام ، صاح صوت : « من هناك ؟ »

وفى الوقت نفسه سمعت قرقعة البنادق المسددة . واجاب آنجولراس فى نبرة مرنانة : « الثورة الفرنسية ! »

وقال الصوت : « النار ! »

وانفجر دوي رهيب فوق المتراس . وسقطت الراية الحمراء . كان وابل الطلقاتثقيلا جدا بحيثكسر ساريتها،يعني طرف عريش العربة العامة.

وصاح كورفيراك : « ايها الرفاق ، لا تفرطوا فى البارود . فلنرجىء الاجابة الى حين يدخلون الشارع . »

وقال آنجولراس : « وقبل كل شيء ، فلنرفع الراية مرة اخرى ! من يملك قلبا شجاعاهنا؟ منالذي سوفينصب الرايةمنجديد، فوق المتراس؟»

ولم يجب احد . واستشعر انجولراس نفسه رعدة . وكرر : « اليس هناك متطوع واحد ؟ »

٣

ان احدا لم يكد يلقي ايما انتباه الى الاب مابوف منذوصلوا الى كورنث وبداوا فى اقامة المتراس . ومع ذلك ، فان مسيو مابوف لم يفارق الجماعة. كان قد دخل الدور الارضي من الحانة وجلس خلف منضدة المحاسبة. وهناك كان قد فني فى ذاته . لقد بدا وكأنه لم يعد ينظر او يفكر . ولحظة الهجوم ، حين انفجر وابل الطلقات ، نهض الاب مابوف فجأة ، واجتاز الغرفة . وفى اللحظة التي كرر آنجولراس فيها نداءه : اليس هناك متطوع واحد ؟ شوهد العجوز على عتبة الحانة . لقد مضى قدما نحو آنجولراس ، وتراجع المتمردون امامه فى اجلال ، وانتزع الراية من آنجولراس الذي انكفأ متحجرا ، وعندئذ شرع يرتقي فى بطء تلك السلم المبنية من حجارة الارصفة والمؤدية الى المتراس.

وحين انتهى الى اعلى الدرجة الاخيرة ، اتخذ المتراس مظهرا خارقا هائلا . وران صمت من تلك الصموت التي لا ترين الا في حضرة المعجزات. ووسط هذا الصمت لوح العجوز بالراية الحمراء وصاح :

ــ « فلتحي الثورة ! فلتحي الجمهورية ! الاخاء ، المساواة ! والموت ! »

وفى هذه اللحظة سمع صوت يصيح : « تراجعوا ! »

ورفع مسيو مابوف الراية فوق راسه وكرر : « فلتحي الجمهورية ! »

وقال الصوت : « النار ! »

وانقض على المتراس وابل جديد اشبه ما يكون بوابل قذائف المدفعية.

وخر العجوز على ركبتيه ، ثم نهض ، وترك الراية تقع ، وسقط الى الوراء فوق الرصيف ، مثل لوح خشبي .

وانحنى كورفيراك فوق آنجولراس وقال : «هذا الرجل انا اعرفه . انه يدعى مسيو مابوف . »

فما كان من آنجولراس الا ان رفع صوته وقال : « ايها المواطنون ! هذا هو المثل الذي يضربه الشيوخ للشبان. لقد ترددنا ، اما هو فتقدم. وتراجعنا اما هو فاقدم ! فلنحم الان جثمانه ! وليدافع كل امرىء عن هذا العجوز الميت كما يدافع عن ابيه الحي ، وليكن فى وجوده بيننا ما يجعل المتراس امنع من عقاب الجو ! »

وفى اثناء ذلك اعتقد غافروش ــ وكان الوحيد الذي لم يفارق مركزه ــ انه شاهد نفرا من الرجال يقتربون من المتراس خلسة. وفجاة صاح: «احذروا!»

وفى صخب ، فارق الحانة كل من كورفيراك ، وآنجولراس ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وجولي وباهوريل وبوسوويه . وبعد ثانية ليس غير ،

كان المتراس قد سقط في ايدي الحرس الوطني الذين تسللوا اليه .

ووثب باهوريل على اول متسلل من رجال الحرس، وقتلهبانبوب غدارته نفسه . فما كان من الثاني الا ان قتل باهوريل بحربته . وكان اخر قد هزم كورفيراك الذي راح يصيح : « النجدة ! » . واندفع اضخم الجماعة ، نحو غافروش مسددا حربته اليه . فتناول « المتشرد » بندقية جافير الضخمة وسددها الى العملاق ، وضغط على الزناد.ولم ينطلق شيء.ذلك ان جافير لم يكن قد شحن بندقيته.وانفجر الحرس الوطني في ضحكة مدوية، ورفع حربته فوق راس الطفل . وقبل ان تمس الحربة راس غافروش سقطت البندقية من يدي الجندي ، فقد اصابت الحرس الوطني قذيفة في وسط الجبين ، وخر على ظهره . واصابت قذيفة اخرى الحرس الوطني الاخر ، الذي كان قد انقض على كورفيراك ــ اصابته في صميم صدره ، وطرحته على الرصيف .

كان ذلك هو ماريوس ، الذي دخل المتراس منذ لحظة .

وفيما كان ماريوس يستدير نصف استدارة ، ناظرا الى برميل البارود الصغير سدد جندي سلاحه اليه . ولحظة اتخذ الجندي من ماريوس هدفا له ، انقضت يد على انبوب البندقية ، وسدته . كان شخصا وثب الى امام ، هو الشاب ذو البنطلون المخملي . وانطلقت الرصاصة ، واخترقت اليد ، ولعلها ان تكون قد اخترقت الشاب ايضا، فقد خر على الارض ، ولكن الرصاصة لم تبلغ ماريوس .

واشتبك المتمردون ورجال الجيش في معركة ضارية قتل فيها كثيرون. وفجأة سمع صوت راعد ، يصيح « انصرفوا ، والا نسفت المتراس ! »

والتفتوا جميعا نحو الجهة التي اقبل منها الصوت .

كان ماريوس قد دخل الحجرة السفلى ، وكان قد اخذ برميل البارود الصغير ، واقتلع الشعلة من مكانها وادناها من البرميل مطلقا الصيحة المروعة : « انصرفوا ، والا نسفت المتراس ! »

وقال رقيب من الجند : « انسف المتراس ! وانسف نفسك ايضاً ! »

فاجاب ماريوس : « وسأنسف نفسي ايضا ! »

وهكذا تراجع المغيرون ، مخلفين قتلاهم وجرحاهم ، تراجعا فوضويا نحو طرف الشارع ، واختفوا كرة اخرى في الظلام . كان ذلك فرارا . لقد انقذ المتراس .

واحاطوا كلهم بماريوس وراحوا كلهم يهنئونه .

وسمع ماريوس اسمه يلفظ في خفوت، وسط الدجنة: «مسيو ماريوس»

وارتعد ، ذلك انه تبين الصوت الذي كان قد ناداه قبل ساعتين من خلال الباب الحديدي في شارع بلوميه .

واجال طرفه في ما حوله ، فلم ير احدا .

وقال الصوت : « عند قدميك . »

وانحنى ، فراى شكلا ، في الظلام ، كان يجر نفسه نحوه . كان يزحف على الرصيف . وتبين ماريوس بلوزة ، وبنطلونا ممزقا من مخمل خشن ، وقدمين حافيتين ، وشيئا كان يشبه بركة دم . ولمح وجها شاحبا ارتفع نحوه وقال له :

ــ « الا تعرفني ؟ »

ــ « لا . »

ــ « ايبونين . »

وانحنى في الحال . كانت هي تلك الطفلة التعسة . وكانت ترتدي ملابس الرجال .

وحاول ان يمر ذراعه تحتها لكي يرفعها . واذ كان يرفعها لمس يدها . فاطلقت صرخة واهنة .

وسألها ماريوس : « هل اوجعتك ؟ »

ــ « قليلا . »

ــ « ولكني لم امس غير يدك . »

ورفعت يدها نحو عيني ماريوس ، فراى ماريوس في وسط تلك اليد ثقبا اسود وقال : « ما بال يدك ؟ »

ــ « انها مثقوبة بالرصاص . »

ــ « كيف ؟ »

ــ « هل رايت بندقية مسددة نحوك ؟ »

ــ « نعم ، ويدا سدتها . »

ــ « تلك كانت يدي . »

وارتعد ماريوس : اي جنون ؟ يا لك من طفلة بائسة ! دعيني احملك الى سرير . انهم سوف يعتنون بك. ان الناس لا يموتون بسبب يد مثقوبة». وغمغمت : « لقد اخترقت الرصاصة يدي ، ولكنها خرجت من ظهري. لا فائدة من نقلك اياي من هنا . سوف اقول لك كيف تضمد جراحي خيرا مما تضمدها الطبيب الجراح . اجلس قربي على ذلك الحجر » .

وامتثل امرها . ووضعت راسها على ركبتي ماريوس. ومن غير ان تنظر اليه قالت : « اوه ! ما احسن ذلك ! انظر ، اني لم اعد احس بالالم ! »

واعتصمت بالصمت لحظة، ثم ادارت راسها في جهد ونظرت الى ماريوس «اتدري يامسيو ماريوس ؟ لقد ازعجني دخولك الى تلك الحديقة. كان ذلك حمقا ، لانني انا الذي دللتك على ذلك المنزل. لقد احببتك حبا عظيما، وآلمني عدم مبالاتك بي فدعوتك الى المتراس لكي تموت . حتى اذا رايت ذلك الجندي يصوب النار اليك انقذتك بوضع يدي على انبوب البندقية . »

وحدق ماريوس الى هذه المخلوقة التعسة في حنان عميق .

كانت جالسة على نحو منتصب تقريبا، ولكن صوتها كان خفيضا جدا ، تقطعه الشهقات . وبين الفينة والفينة كانت الحشرجة تقاطعها . وقربت وجهها من وجه ماريوس . واضافت في انطباعة عجيبة : «اسمع، انا لا اريد ان اخدعك . ان في جيبي رسالة اليك . منذ امس. لقد كلفوني ان اضعها في البريد . ولقد احتفظت بها . انا لم ارد ان تصل اليك . خذ رسالتك».

وفي تشنج ، امسكت يد ماريوس بيدها الجريح، ووضعتها في جيب بلوزتها . واحس ماريوس بان ثمة ورقة حقا .

واخذ ماريوس الرسالة . وقامت ايبونين بحركة تؤذن بالارتياح والرضا ، وقالت : « والان اكراما لالامي ، عدني بأن تطبع قبلة على جبيني حين اموت . سوف اشعر بذلك » .

وتركت راسها يسقط على ركبتي ماريوس ، واطبقت اجفانها واسلمت الروح .

واوفى ماريوس بعهده . لقد طبع قبلة على ذلك الجبين الشاحب .

ولم يكن قد تناول الرسالة التي اعطته كوزيت اياها من غير رعشة . كان قد استشعر في الحال انه امام حدث ذي شأن . وكان شديد التوق الى تلاوتها واقترب من شمعة في الحجرة السفلية . كانت مذكرة صغيرة هذا نصها : « يا حبيبي ، واأسفاه ! ان والدي يريد ان يسافر في الحال. سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترا . كوزيت ٤ حزيران . »

ان ما حدث يمكن ان يروى في بضع كلمات . كانت ايبونين قد فعلت ذلك كله . فبعد مساء الثالث من حزيران ، راودتها فكرة مزدوجة: ان تحبط مؤامرة ابيها وقطاع الطرق على المنزل القائم في شارع بلوميه ، وان تفصل ماريوس عن كوزيت . وكانت قد تبادلت الاسمال البالية مع اول افاق رأى من المسلي ان يرتدي ثياب امراة ، وقدمت الى جان فالجان ، تحذيرا يقول: « انتقل من منزلك ! »

ورجع جان فالجان الى المنزل ، وقال لكوزيت انه اعتزم الرحيل الى لندن.

وسارعت كوزيت الى كتابة سطرين الى ماريوس . ولكن كيف تستطيع ان تضع الرسالة في البريد ؟ وفي غمرة من هذا القلق رات ايبونين في ملابس الرجال . ونادت كوزيت «هذا العامل الشاب» ، وقدمت اليه خمسة فرنكات والرسالة قائلة له : « احمل هذه الرسالة الى عنوانها في الحال . »ووضعت ايبونين الرسالة في جيبها . وفي اليوم التالي، ٥ حزيران ، مضت الى غرفة كورفيراك تسأل عن ماريوس ، لا لكي تعطيه الرسالة ، ولكن — وهذا شيء تستطيع ان تفهمه كل نفس غيور وعاشقة — «لكي ترى» . وهناك انتظرت ماريوس ، او على الاقل انتظرت كورفيراك — «لكي ترى» ايضا . وحين قال لها كورفيراك : « نحن ذاهبون الى المتاريس » ، اومضت في ذهنها فكرة . ان تقذف بنفسها في اشداق ذلك الموت ، وان تدفع ماريوس الى مثل ذلك. وتبعت كورفيراك ، واستيقنت من الموقع الذي اقاموا المتراس فيه . ثم قصدت الى شارع بلوميه ، وانتظرت ماريوس هناك ، وحملت اليه باسم اصدقائه ، نداء يدعوه الى المتراس .

وامطر ماريوس رسالة كوزيت بالقبل . لقد احبته اذن ؟ وراودته لحظة فكرة تقول بانه لم يعد واجبا عليه الان ان يموت .

وعندئذ فكر انه لا يزال ثمة واجبان يتعين عليه ان يؤديهما : ان يخبر كوزيت بموته ، وان ينقذ من الكارثة ذلك الطفل البائس ، اخا ايبونين، وابن تيناردييه .

وكانت في جيبه حافظة اوراق فانتزع ورقة، وكتب هذه الاسطر القليلة: « أن زواجنا مستحيل . لقد سألت جدي ، فرفض. انا لا املك ثروة، كذلك انت . لقد هرعت الى منزلك ، فلم اجدك ، انت تعرفين ما عاهدتك عليه . سوف انفذه ، سوف اموت ، انا احبك . وحين تقراين هذه الكلمات ستكون روحي قريبا منك ، وستبتسم لك » .

وكتب عليها هذا العنوان : « الى الانسة كوزيت فوشلوفان ، منزل مسيو فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح رقم ٧ » .

وظل لحظة يفكر ، والرسالة مطوية، ثم اخرج حافظة اوراقه من جديد، وفتحها ، وكتب على الصفحة الاولى ، وبالقلم الرصاصي نفسه، هذه الاسطر: « ان اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي الى منزل جدي ، مسيو جيلنورمان شارع فتيات كالفير ، رقم ٦ ، في الـ « ماريه » .

واعاد الدفتر الى جيب سترته، ثم نادى غافروش. وكلفه بنقل الرسالة الى «الانسة كوزيت، منزل مسيو فوشلوفان، شارع الرجل المسلح رقم ٧ .»

شارع الرجل المسلح

١

في تلك اللحظة بالذات كان جان فالجان فريسة لغليان نفسي رهيب.

كان قد استقر ، عشية ذلك اليوم نفسه ، الخامس من حزيران، تصحبه كوزيت وتوسين ، في شارع الرجل المسلح. وكانت كوزيت محزونة جدا .

وفي هذه المغادرة لشارع بلوميه ، التي كادت ان تكون فرارا ، لم يحمل جان فالجان شيئا غير الحقيبة الصغيرة المعطرة التي خلعت كوزيت عليها اسم « ممتنعة الانفصال » . اما كوزيت فلم تصحب غير ادواتها المكتبية وورقها النشاف ، وكانت قد وجدت متسعا من الوقت لتكتب الى ماريوس مذكرتها.

ونام ماريوس تلك الليلة نوما عميقا. وفي اليوم التالي لم تغادر كوزيت حجرة نومها متذرعة بصداع شديد، فتناول جان فالجان طعام العشاء وحده.

وفيما هو يتناول عشاءه ، انتبه الى تمتمة توسين التي قالت له : « سيدي هناك ضوضاء . انهم يتقاتلون في باريس » . ولكنه ، وقد استغرق في جمهرة من التفاعلات الداخلية ، لم يلق اليها بالا .

ونهض ، وبدأ يمشي من النافذة الى الباب ، وبالعكس ، مستعيدا طمأنينته شيئا بعد شيء .

وفيما هو لا يزال يذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، في خطى وئيدة ، وقعت عينه فجأة على شيء غريب .

لقد رأى في المرآة المنحنية التي تعلو المائدة، الاسطر التالية: «ياحبيبي، وااسفاه ! ان والدي يريد ان يسافر في الحال . سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترة . كوزيت . ٤ حزيران . »

ووقف جان فالجان شارد اللب .

كانت كوزيت قد وضعت ورقها النشاف ، حال وصولها ، على المائدة امام المرآة ، وكانت قد نسيته هناك ، منشورا على مداه ، عند الصفحة نفسها التي نشف بها الاسطر الاربعة التي خطتها . لقد عكست المرآة تلك الكتابة.

ومضى جان فالجان الى المرآة . وقرأ تلك الاسطر الاربعة كرة اخرى. ولكنه لم يصدقها قط . كان ذلك وهما . ان ذلك لم يكن .

وشيئا بعد شيء امسى ادراكه اكثر دقة . لقد نظر الى ورق كوزيت النشاف ، وعاوده وعي الحقيقة الواقعة . وتناول الورق النشاف وقال : « انما يجيء ذلك من هنا . » وتأمل على نحو محموم في الاسطر الاربعة المنطبعة على الورق النشاف ، وتمايل جان فالجان ، وافلت الورق النشاف، وارتمى على الكرسي العتيق ذاهل اللب . وقال فيذات نفسه ان الامر واضح ، وان كوزيت قد كتبت ذلك الى شخص ما .

حتى ذلك اليوم ، لم يسبق للمحنة ان قهرت جان فالجان قط . كان قد اخضع لتجارب رهيبة ، ولم تكن قد وفرته ايما ضربة من ضربات الشقاء. ولكنه لم يتراجع قط ولم يستسلم قط امام اي شيء . ومع ذلك فلو قدر لامرىء ان يطلع على دخيلة نفسه في تلك اللحظة اذن لاضطر الى التسليم بأن الوهن قد اتخذ سبيله اليه .

ذلك ان هذا العذاب كان من بين جميع ضروب النكال التي اخضعه لها ديوان تفتيش القدر — اشدها فظاعة وترويعا . لقد استشعر الرعدةالغريبة التي تلازم كل انفعال خفي . استشعر قرص الانفعال المجهول . واأسفاه ، ان المحنة العظمى او على الاصح ، المحنة الوحيدة ، هي خسارتنا الكائنالذي نحب .

لقد احب كوزيت وكأنها ابنته ، واحبها وكأنها امه ، واحبها وكأنها اخته . لقد عبدها ، وكانت له ضياء ، وكانت بيتا ، وكانت اسرة ، وكانت وطنا ، وكانت فردوسا .

وهكذا عندما رأى ان ذلك قد انتهى ، وان شخصا اخر قد استولىعلى قلبها ، تجاوز الالم الذي اصابه حد الاحتمال . ايكون قد عمل كل ما قد عمله لينتهي الى هذا ؟ وماذا ! ان يصبح لا شيء ! عندئذ ، احس برعدة تعصف به من رأسه الى اخمص قدميه . لقد احس حتى جذور شعرهبيقظة الانانية الهائلة ، وعوت « الانا » في اعماق ذلك الرجل .

ولم تتردد غريزته . وادرك بحدسه ان غريمه هو ماريوس .

وبعد ان قرر على نحو يقيني ان ذلك الفتى كان وراء هذه الورطة ، نظر الى ذات نفسه ، وهناك رأى شبحا : الضغينة .

وفيما هو يفكر ، دخلت توسين . ونهض جان فالجان ، وسألها : «في اي اتجاه هو ؟ هل تعرفين ؟ »

فاجابت توسين : « انه في ناحية سان ميري . »

وبعد خمس دقائق وجد جان فالجان نفسه في الشارع .

٢

كان الشارع مقفرا . ولم يلمحه غير بضعة اشخاص قلقين،عائدين الى بيوتهم على جناح السرعة . وفي تلك اللحظة نفسها تقريبا،وقعانفجار عنيف في ناحية الاسواق ، وتبعه ثان ، اشد عنفا . ولعله كان ذلكالهجومالذيشن على متراس شارع الـ « شانفريري » . ولدن سماع هذا الانفجار المزدوج، اجفل جان فالجان.لقد نهض في الاتجاه الذي اقبل منه الصوت.ثم ارتمى علىالحجر منجديد،وطوى ذراعيه . وسقط راسه فوق صدره في بطء .

وفجأة رفع عينيه . لقد لمح ، وجها شاحبا ، فتيا ، مشعا .

كان غافروش قد وصل منذ لحظة الى شارع الرجل المسلح . وكان ينظر الى الفضاء ، ولقد بدأ وكأنه يبحث عن شيء . لقد رأى جان فالجان في وضوح كامل ، ولكنه لم يلق بالا اليه .

وقال جان فالجان : « ايها الصبي الصغير ، ما خطبك ؟ »

فاجابه غافروش في لذع : « خطبي اني جائع. ولكنالصغير هو انت!»

قال ذلك والتقط حجرا . وقذف به مصباح الشارع ، فتمايلالمصباح وسقط على الارض فاذا الشارع مظلم الى حد بعيد .

واقترب جان فالجان من غافروش ووضع في يده خمسة فرنكات .

ورفع غافروش انفه ، وقد استولى عليه الدهش لضخامةهذه القطعة النقدية ثم التفت الى جان فالجان واعادها اليه ، وقال في عظمة : « ايها البرجوازي ، انا افضل ان اكسر المصابيح . انت لا تستطيع ان تفسدني بفرنكاتك هذه » .

فقال له جان فالجان : « حسنا ، احتفظ بها لامك اذا كانت لك ام ، وحطم من المصابيح قدر ما تريد ! »

عندئذ وثق غافروش من الرجل وسأله : « هل تستطيع ان تدلنيعلى رقم ٧ ؟ »

ــ « ماذا تريد من رقم ٧ ؟ »

وهنا كف الطفل عن الكلام . لقد خشي أن يكون قد قال اكثر مما ينبغي. واقحم اظافره في شعره . واكتفى بان اجاب : « آه ! هو ذاك . »

وخطرت لجان فالجان فكرة . وقال للطفل : « أأنت الذي يحمل الي الرسالة التي انتظرها ؟ »

فقال غافروش : « انت ؟ انت لست امراة ؟ »

– « الرسالة موجهة الى الانسة كوزيت ، اليس كذلك ؟ »

– « كوزيت ؟ اجل،اظن انها موجهة الى صاحبة ذلك الاسم المضحك. »

– « حسناً ، انا الذي ينبغي ان اسلمها تلك الرسالة . اعطني اياها. »

فسحب غافروش الرسالة من جيبه وقال : « خذها ! »

. . .

وهكذا رجع جان فالجان حاملا رسالة ماريوس .

وارتقى السلم سعيدا بالظلمة مثل بومة تمسك بفريستها ، وفتح الباب واغلقه في لطف ، واصغى ليرى ما اذا كان قد سمع صوتاً ما ، وقرر ان كوزيت وتوسين كانتا نائمتين . ثم اضاء شمعة وشرع يقرأ « انا اموت . وحين تقرأين هذه الاسطر ، سوف تكون روحي على مقربة منك . »

وامام هذين السطرين ، استبد به انذهال رهيب . ونظر الى مذكرة ماريوس في ضرب من الدهش الثمل . كانت امام عينيه تلك الروعة : موت الكائن البغيض .

واطلق صيحة رهيبة من الابتهاج الباطني . واذن ، فقد قضي الامر . لقد اقبلت النهاية بأسرع مما جرؤ على ان يرجو . كان ذلك المخلوق في طريقه الى الزوال . كان ذاهبا بارادته ، عن رضا ، وعن طيب نفس . ومن غير ما تدخل من جانب جان فالجان . كان « هذا الرجل » على وشك ان يموت في المتراس . يا للسعادة !

حتى اذا قال ذلك كله في ما بينه وبين نفسه استشعر الكآبة والغم .

وبعد ساعة تقريبا ، خرج جان فالجان في لباس الحرس الوطني الكامل متنكبا سلاحه . كان البواب قد جاءه بسلاح كامل . كانت معه بندقية مشحونة وجعبة ملأى بالخراطيش . ومضى في اتجاه الاسواق .

القسم الخامس

جان ڤالجان

الحرب بين أربعة جدران

١

واستفاد المتمردون من الليل . انهم لم يرمموا المتراس فحسب، ولكنهم كبروه ايضا... وركموا الموتى بعضهم فوق بعض في زقاق موندیتور، وكانوا لا يزالون سادته . وبين القتلى كان اربعة من رجال حرس الضواحي الوطني. وكان آنجولراس قد رغب في ان توضع ملابسهم العسكرية جانبا .

ولم يكن قد بقي في الحجرة السفلى غير مابوف، تحت غطائه الاسود، وجافير موثقا الى الوتد ... وكان عريش العربة العمومية لا يزال عاليا لدرجة تمكنهم من ان يرفعوا عليه احدى الرايات . وعلق آنجولراس سترة العجوز القتيل ، المخزوقة الدامية ، بهذا العريش .

ولم يكن في ميسورهم الان ان يتناولوا ايما وجبة من وجبات الطعام. واذ لم يجدوا شيئا يأكلونه ، فقد حظر آنجولراس الشراب... ووجدوا في القبو خمس عشرة زجاجة خمر مختومة ختما محكما . ولكي لا يمسها احد امر آنجولراس بان توضع تحت المائدة التي سجي عليها الاب مابوف .

كان آنجولراس قد مضى للقيام باستكشاف ، سالكا زقاق شارع موندیتور حتى اذا عاود الظهور من جديد قال : ان جيش باريس كله يقاتل. ان ثلث ذلك الجيش يضغط على المتراس الذي انتم فيه . ولسوف يشن عليكم الهجوم خلال ساعة . اما الشعب ، فقد تخلى عنكم .

وصاح من اعماق الجموع صوت يخاطب آنجولراس : « ليكن ذلك . فلنظهر للملأ انه اذا تخلى الشعب عن الجمهوريين فان الجمهوريين لا يتخلون عن الشعب » .

وبعد ان تكلم ذلك الرجل المجهول ارتفعت من جميع الشفاه صيحة راضية ورهيبة على نحو غريب : « فليحي الموت ! فلنبق كلنا هنا ! »

فقال آنجولراس : « ولماذا كلنا ؟ المركز منيع . والمتراس جيد. ثلاثون رجلا يكفون . لماذا نضحي باربعين ؟ »

فاجابوا : « لان ايا منا لا يريد ان يغادر المكان » .

ومضى آنجولراس مع كومبوفير الى الحجرة السفلى . ثم رجعا بعد لحظة . كان آنجولراس يحمل بين يديه البذلات العسكرية الاربع التي كان محتفظا بها . وقال : « بهذه الملابس العسكرية يستطيع احدكم ان يختلط بالجنود ويهرب . ان معي ما يكفي اربعة » .

ولم تستبد بالحشد الباسل هزة ما . وتولى كومبوفير الكلام فقال : « من منكم له اولاد ؟ من منكم له زوجة ؟ من منكم له ام تهز المهد بقدمها ويتراكم من حولها عدد من الصغار . آه انتم تريدون ان تموتوا . ليكن لكم ذلك ، ولكن لا تميتوا الاخرين . فكروا في الرؤوس الصغيرة الشقراء ، وفكروا في الشعور البيضاء ! »

يا لمتناقضات القلب البشري الغريبة في اسمى لحظاته ، ان كومبوفير، الذي تكلم هكذا ، لم يكن يتيما . لقد تذكر امهات الاخرين ، ونسي امه . كان قد اختار الموت . كان انانيا .

واصر كل منهم على ان يكون هو الشخص الذي ينبغي ان يبقى . واخيرا تقدم آنجولراس ليختار بنفسه اولئك الاشخاص . وفي تلك اللحظة سقطت بذلة خامسة وكأنما كان سقوطها من السماء فوق الاربع الاخر .

وهكذا نجا الرجل الخامس ... ورفع ماريوس عينيه فرأى مسيو فوشلوفان .

كان جان فالجان قد دخل اللحظة الى المتراس مرتديا ملابسه الخاصة بالحرس الوطني . ولم يلحظه احد عند دخوله . كانت الاعين كلها مركزة على الرجال الخمسة المختارين وعلى البذلات العسكرية الاربع . ورأى جان فالجان، وفهم . وفي صمت نزع ملابسه، وطرحها على ركام البذلات الاخرى. وتساءل بوسوويه : من هذا الرجل ؟ فاجابه كومبوفير : « انه رجل ينقذ الاخرين .»

وقال ماريوس في صوت رصين : « انا اعرفه . »

وكان هذا التوكيد كافيا للجميع .

وبعد ذلك هتف آنجولراس : « ايها المواطنون !هل تتصورون المستقبل؟ الدول متآخية ، المفكرون يتمتعون بحرية كاملة ، المؤمنون ينعمون بالمساواة، العمل للجميع ، القانون في خدمة الجميع ، السلم فوق الجميع ، نحن ماضون نحو اتحاد الشعوب ، نحن ماضون نحو وحدة الانسان . ايها المواطنون ان القرن التاسع عشر عظيم ، ولكن القرن العشرين سيكون سعيدا » .

٢

وهنا فكر آنجولراس في الجاسوس الذي حكموا عليه بالموت. ومضى الى الحجرة السفلية . كان جافير ، بمستغرقا في التفكير. وسأله آنجولراس: «هل تحتاج الى شيء ؟ » فقال جافير : «ان شدي الى هذا الوتد يؤذيني . شدوا وثاقي كما تريدون ، ولكن في استطاعتكم من غير ريب ان تمددوني على طاولة. مثل الرجل الاخر » .

وبحركة من راسه ، اشار الى جثمان مسيو مابوف .

ونزولا عند امر آنجولراس ، فك اربعة متمردين وثاق جافير . وقادوه الى المائدة في اقصى الغرفة، فمددوه فوقها، وشدوا جذعه اليها شدا محكما. وفي اثناء ذلك حدق اليه رجل، عند عتبة الباب، في انتباه فريد. وكان في الظل الذي احدثه ذلك الرجل ما جعل جافير يدير راسه. لقد رفع عينيه وعرف جان فالجان.

وتنفس الصبح فى سرعة. لم يكن في ميسور المرء ان يرى شيئا. ولكن كان في ميسوره ان يسمع. كانت ثمة حركة خفيفة على مسافة ما . وكان واضحا ان اللحظة الحرجة قد حانت. وامر آنجولراس كل رجل من رجاله بالعودة الى موقعه المحدد له . ووزعت على القوم جميعا انصبة من الخمر.

ولم يكد آنجولراس يحمل بندقيته القصيرة الخفيفة ويرتقي شبه مرتفع كان قد احتفظ به لنفسه ، حتى ران الصمت على الجميع. وسمعت على طول الجدار المشيدة من حجارة الارصفة ضجة جافة . كانوا يشحنون بنادقهم.

ولم يطل انتظارهم . واستؤنف النشاط استئنافا ملحوظا في ناحية سان لو . وكان تحديق المقاتلين جميعا الى اقصى الشارع قد غدا ضاريا .

وبدا مدفع . وصاح آنجولراس : « النار ! »

واطلق المتراس كله النار ، وكان الانفجار رهيبا . وبعد لحظة ، كان المدفع قد وضع في منتصف الشارع ، مستعدا لاطلاق النار .

وصاح آنجولراس : « اعيدوا شحن الاسلحة ! »

وصاح صوت مبتهج : « حاضر ! »

ومع انطلاق القذيفة انقض غافروش على المتراس .

واحاطوا بغافروش . فحذر « المتشرد » رفاقه كما كان يدعوهم، قائلا ان المتراس مطوق . وانه وجد صعوبة كبيرة في الوصول اليه . . . وفي غضون ذلك كان آنجولراس فوق مرتفعه يراقب ويصغي في انتباه بالغ. كانت سرية من المشاة قد اقبلت واحتلت اقصى الشارع ، خلف المدفع . واقتلع الجند حجارة الرصيف ، واقاموا منها جدارا منخفضا تجاه المتراس .

وصاح آنجولراس : « اخفضوا رؤوسكم ، الزموا الجدار ! واركعوا على ركبكم جميعا على طول المتراس ! »

وكيفما اتفق اندفعت نحو المتراس جموع المتمردين الذين كانوا متناثرين تجاه الحانة . ولكن قبل ان ينفذ امر آنجولراس انطلقت النيران من المدفع.

كانت النار مصوبة الى مدخل المتراس ، ولقد ارتدت عن الجدار . وهذا الارتداد الفظيع قتل رجلين وجرح ثلاثة ... ولو تواصل هذا لما كان في الامكان الدفاع عن المتراس . لقد كان غير ممتنع على القذائف المدفعية .

وسدد آنجولراس بندقية الى قائد المدفعيين فأرداه قتيلا .

وتعارضت الاراء في المتراس. كان المدفع على وشك ان يطلق ناره من جديد . وما كان في مقدور المتمردين ان يصمدوا ربع ساعة تحت وابل من تلك النيران . كان ضروريا ان يوهنوا تلك الضربات .

واصدر آنجولراس امره : « يجب ان نضع حشية او فراشا هناك».

فقال كومبوفير : «ليس عندنا شيء من ذلك. ان الجرحى ممددون فوقها».

ولم يكن جان فالجان حتى تلك اللحظة قد اشترك في الاحداث الجارية. فلما سمع امر آنجولراس انتصب واقفا، وسدد بندقيته الى فراش كانت امراة عجوز قد وضعته امام نافذتها في اعلى منزل ذي ستة ادوار قائم على مسافة غير بعيدة من المتراس . وكان ذلك الفراش مشدودا بحبلين ظهرا وكأنهما شعرتان ... واطلق جان فالجان النار ، فقطع واحدا من حبلي الفراش... وتدلى الفراش من خيط واحد ليس غير ... ثم اطلق الطلقة الثانية. واصاب الحبل الثاني زجاج النافذة وانزلق الفراش بين الوتدين وسقط في الشارع.

وصفق المتراس . وصاح الجميع : « هو ذا فراش » .

وقال آنجولراس لجان فالجان : «ايها المواطن ، الجمهورية تشكرك . لقد انقذت المتراس » .

٣

في تلك اللحظة استيقظت كوزيت .

ولم تعرف كوزيت شيئا مما يجري في باريس . كانت قد نامت بضع ساعات . ولقد رات في ما يرى النائم شخصا هو ماريوس وكأنه مطوق بهالة . واستيقظت والشمس في عينيها ، وقالت في ذات نفسها « لقد انقضت ثلاثة ايام لم ار فيها ماريوس . ولكن لا ريب انه تلقى رسالتي وانه سوف يجد وسيلة للوصول الى هنا .

ونهضت وارتدت ملابسها في عجل بالغ، ورجلت شعرها وسوته، ثم فتحت

النافذة،واجالتطرفها فيما حولها راجيةانتكتشفشيئا فيالشارع،وانتوفق الى ترقبماريوسهناك.ولكنها لم تستطع انترى شيئا فيالشارع . واخيرا، شرعت تنظر الىالسماء،اذ خيلاليها انماريوسقد يجيء منتلك الطريقايضا.

...

وتواصل اطلاق من جانب المهاجمين . كانت البنادق تعمـل حينا ، والمدافع تعمل حينا ، من غير انتحدث اذى، وكانالمهاجمون يقصدونمنوراء ذلك الى استدراج المتمردين لاطلاق النار كي تنفد ذخيرتهم،ولكن آنجولراس لم يقع في هذا الشرك . ان المتراس لم يرد البتة .

وبعد بضع لحظات ، شرع المدفعيون يطلقون النار علىالمتراسمباشرة. وكانت نار قوات المشاة وجند الضواحي تدعم المدفعية .

وصاح آنجولراس : « اطلقوا النار على المدفعيين ! »

كانوا كلهم مستعدين . واطلق المتراس النار في يأس.وقالآنجولراس في لهجة كئيبة : « اذا استمرت الحال هكذا ربع ساعة اخرى فعندئذ لـن تبقى في المتراس عشر خراطيش » .

ويبدو ان غافروش قد سمع هذه الملاحظة ، فـوثب تحت الرصاص الى الشارع .

كان نحو من عشرين قتيلا منثورين فوق الرصيف، علىطول الشارع. وكان ثمة عشرون صندوق خرطوش لغافروش .

كان الدخان في الشارع كالضباب . وبفضل ضآلة جسمه ، استطاع ان يبعد في الشارع من غير ان يراه احد . لقد افرغ صناديق الخـرطوش السبعة او الثمانية الاولى دونما كبير خطر .

لقد زحف على بطنه . وراح يعدو على يديه ورجليه ، حاملا سلته بين اسنانه . وتلوى ، وانزلق ، وتمعج من جثة الى جثة ، وافرغ احد صناديق الخرطوش كما يفتح قرد جوزة .

ولحظة كان غافروش يجرد رقيبا من خراطيشه اصابت الجثة قذيفة مدفع فقال : « يا للشيطان ! انهم يقتلون امواتي ! »

وفتتت قذيفة اخرى الرصيف المجاور . وقلبت ثالثة سلتهراسا على عقب . ونهض منتصبا على قدميه وتناول سلته،ووضعفيها الخراطيشالتي سقطت منها من غير ان يضيع ايا منها،وتقدمنحو وابل الرصاص،وشرعيفرغ صندوقخرطوشاخر. وهناكاخطأتهقذيفة رابعة ايضا،وما كادت. وراحيغني.

بيد ان رصاصة ما لبثت ان اصابته اخر الامر فترنح ، ثم وقع. واطلق المتراس كله صيحة . كانت تلك الروح العظيمة الصغيرة قد فاضت .

٤

وثب ماريوس الى خارج المتراس . وتبعه كومبوفير. ولكن كان الاوان قد فات . لقد مات غافروش . ورجع كومبوفير حاملا سلة الخرطوش ، ورجع ماريوس حاملا الطفل .

وحين انقلب ماريوس الى المتراس وغافروش بين ذراعيه ، كان وجهه مثل وجه الطفل مخضبا بالدم. فلحظة انحنى لكي ينتشل غافروش كانت رصاصة قد مست جمجمته مسا رفيقا . انه لم ينتبه اليها . ونزع كورفيراك رباط رقبته وعصب به جبين ماريوس .

وسجي غافروش الى جانب مابوف. ونشر الشال الاسود فوق الجثمانين معا.

وفجأة سمعوا صوت ساعة نائية تدق. وقال كومبوفير : «انه الظهر» .

وصاح انجولراس : « انقلوا بعض حجارة الارصفة الى المنزل. حصنوا النوافذ بها . ليتسلح نصف الرجال بالبنادق ، ونصفهم بالحجارة » .

كانت مفرزة من الجند قد برزت عند نهاية الشارع .

وامر انجولراس رجاله بان يحملوا الى الطابق الاول تلك الزجاجات التي كان قد وضعها تحت المائدة المدد عليها جثمان مابوف . وسأله بوسوويه : « من الذي سيشرب هذا ؟ » فاجابه انجولراس : « هم » .

ثم انهم مترسوا نافذة الحجرة السفلية، وهيأوا على مقربة منهم العوارض الحديدية التي كانت تساعد على ايصاد باب الحانة، من الداخل، اثناء الليل .

وقال انجولراس لماريوس : « نحن الزعيمان . سوف اصدر الاوامر الاخيرة في الداخل . ولسوف تبقى انت في الخارج ، وتراقب » .

واتخذ ماريوس من ذروة المتراس مقر المراقبة . والتفت انجولراس الى جافير وقال له: «انا لن انساك» . . . ووضع مسدسا على الطاولة ، واضاف : «ان اخر رجل يغادر هذه الغرفة سوف يحطم جمجمة هذا الجاسوس » .

وهنا برز جان فالجان وقال لانجولراس: «هل تظن اني استحق مكافأة؟»

ــ « طبعا » .

ــ « حسنا ، انا اسألك مكافأة. ان احرق انا دماغ هذا الرجل » .

والتفت انجولراس نحو جان فالجان وقال : « خذ الجاسوس » .

واستولى جان فالجان على جافير بأن جلس على اقصى المائدة . وامسك بالمسدس. وفي اللحظة نفسها تقريبا سمعت ابواق . وصاح ماريوس من اعلى المتراس : « احذروا ! »

ووثب المتمردون الى امام . وفيما هم يخرجون تلقوا في ظهورهم هذه الكلمة من جافير : « الى اللقاء القريب ! »

وحين خلا جان فالجان بجافير فك الحبل الذي كان يوثقه وسأله ان ينهض.
وامسك جان فالجان بجافير من سيره الجلدي وجره خلفه، وغادر الحانة.
وهكذا اجتاز مربع المتراس الداخلي المنحرف . وكان المتمردون ، المترقبون الهجوم الوشيك ، قد اداروا ظهورهم .
وضع جان فالجان المسدس تحت ذراعه ، وسدد الى جافير نظرة لم تكن في حاجة الى كلمات لكي تقول : « جافير ، هذا انا » .
وساعد جان فالجان اسيره على تسور متراس زقاق مونتيدور الصغير ولكن من غير أن يفلته لحظة. حتى اذا تسلقا الجدار، وجدا نفسيهما وحيدين في الزقاق.
واجاب جافير : « خذ بثأرك » . وفتح جان فالجان مدية وقطع السير الجلدي الذي كان يطوق عنق جافير ، والحبال المطوقة لمعصميه والحبل المكبل لقدميه . ثم انتصب وقال له : « انت طليق السراح » .
وذهل جافير . وظل فاغر الفم جامدا لا حراك فيه . . . وتابع جان فالجان: «انا لا اتوقع ان اغادر هذا المكان. ومع ذلك فاذا اتفق لي، بالمصادفة ان افعل، فاني اعيش، تحت اسم فوشلوفان، في شارع الرجل المسلح، رقم ٧» .
وغضن جافير وجهه وغمغم من بين اسنانه : « خذ حذرك » .
وقال جان فالجان : « اذهب » . وحين توارى جافير عن العيان ، اطلق جان فالجان نار المسدس في الهواء . ثم عاود الدخول الى المتراس ، وقال : « لقد قضي الامر » .

٥

كانت حشرجة المتراس على وشك ان تبدأ . . .
وتلاقت الاشياء كلها في جلال تلك اللحظة العليا التراجيدي، الف قرقعة غريبة في الهواء، وانفاس الجماعات المسلحة المندفعة في الشوارع، وخبب الفرسان المتقطع ، وزلزلة المشاة الثقيلة وهم يزحفون ، وصيحات خفية قصية فظيعة على نحو غامض ، وبروق الخطر في كل مكان ، وصمت البيوت الرهيب .
وفجأة اعلنت الطبول بدء العمليات الحربية . . . كان الهجوم اشبه بالزوبعة . ففي المساء ، تحت جنح الظلام، كانت القوات الحكومية قد اقتربت من المتراس ، في صمت . اما الان ، في وضح النهار ، وعلى قارعة الطريق العريضة ، فقد كانت المباغتة مستحيلة . وفوق هذا فقد كان المدفع قد شرع في التهدار ، وكانت قوى ضخمة قد انقضت على المتراس بمثل ثقل عمود برونزي ينقض على جدار .
وصمد الجدار . . واطلق المتمردون النار في حماسة . وكان المتراس

وقد تسوره المغيرون اشبه بعفرة من بروق . وكان الهجوم خاطفا الى درجة جعلت المتراس يغص لحظة بالمغيرين .

وكانت خراطيش المتمردين على وشك ان تنفد ، ولكن سخرياتهم لم تكن كذلك . ففي زوبعة الموت التي احاطت بهم كانوا يضحكون .

وتعاقبت الهجمات وتعاظم الهول على نحو موصول .

ثم نشب، فوق ركام حجارة الارصفة هذا صراع جدير باسوار طروادة . لقد غدا هؤلاء الرجال الشاحبو الوجوه ، الممزقو الثياب ، الذين لم يأكلوا منذ اربع وعشرين ساعة ، والذين لم يذوقوا طعم النوم ، والذين لم يبق لديهم غير بضع رصاصات يطلقونها ، والذين كانوا كلهم جرحى تقريبا — لقد غدا هؤلاء الرجال عمالقة . لقد هوجم المتراس ، وتسوره المهاجمون عشر مرات ، ولكنه لم يسقط قط .

لقد قاتلوا صدرا لصدر ، وقدما لقدم ، بالغدارات ، بالسيوف ، بجمع الكف ، عن بعد ، وعن كثب ، من فوق ، ومن تحت ، من كل مكان ، من سطوح المنازل ، من نوافذ الحانة ، من كوى الاقبية التي كان بعضهم قد انزلق اليها . كانوا واحدا ضد ستين . كانت واجهة كورنث ، نصف المدمرة ، رهيبة جدا . وكان بوسوويه قد قتل ، وكان فويي قد قتل ، وكان كورفيراك قد قتل، وكان جولي قد قتل ، ولم يكن امام كومبوفير ، الذي اخترقت صدره طعنات حراب ثلاث غير متسع من الوقت نظر فيه الى السماء ، ولفظ انفاسه .

وكان ماريوس مثخنا بالجراح ، وبخاصة حول راسه ، الى درجة جعلت محياه يضيع في الدم ، والى درجة كانت تخيل الى المرء ان وجهه قد غطي بمنديل احمر .

وكان انجولراس وحده سليماً لم يمس . وحين اعوزه السلاح بسط يده يمينا وشمالا ، وقد وضع احد المتمردين ايما سلاح وفق اليه في قبضته. لم يكن قد بقي لديه ، من اصل اربعة سيوف غير فلذة من سيف .

وحين لم يبق احد من الزعماء حيا ، باستثناء انجولراس وماريوس ، اللذين كانا في طرفي المتراس ، تداعى الوسط الذي كان كورفيراك ، وجولي ، وبوسوويه وفويي ، وكومبوفير قد دافعوا عنه طويلا .

وقام المغيرون بهجوم اخير ، وتكلل ذلك الهجوم بالنجاح . لقد تراجع جميع المتمردين المدافع عن الوسط تراجعا فوضويا .

ثم استيقظ حب الحياة الكالح في بعضهم . ان كثيرا منهم انتهوا الان ، وقد سددت اليهم البنادق تلك ، الى ان ينفروا من الموت . تلك لحظة تعوي فيها غريزة حفظ الذات ويعود الحيوان الى الظهور في الانسان. فاندفعوا الى

البيت العالي ذي الادوار الستة وشرعوا يقرعون بابه باعقاب بنادقهم، صائحين ، متوسلين. ولم يفتح احد ، ومن نافذة الدور الثالث اطل عليهم راس الموت .

ولكن انجولراس وماريوس ، وسبعة او ثمانية متحلقين حولهما ، وثبوا الى الامام واخذوا يحمونهم . وصاح انجولراس في وجه الجنود المهاجمين : « لا تتقدموا ! » حتى اذا امتنع احد الضباط عن الاذعان ، قتله انجولراس . كان الان في فناء المتراس الداخلي الصغير، شاهرا سيفه باحدى يديه، مسددا بندقيته بالاخرى مبقيا باب الحانة مفتوحا ، سادا اياه في الوقت نفسه في وجه المغيرين . وصاح مخاطبا اليائسين: «ليس ثمة غير باب واحد مفتوح وهو هذا» . وغطاهم بجسده ، مواجها بمفرده كتيبة بكاملها ، ومكنهم من المرور خلفه . واندفعوا كلهم الى هناك . وكان انجولراس اخر الداخلين .

وظل ماريوس في الخارج . واستشعر انه على وشك الاغماء . وفي تلك اللحظة ، احس وكأن يدا قوية تمسك به ، ولم يبق له اغماؤه غير متسع من الوقت لهذه الفكرة ممزوجة بآخر ذكرى لكوزيت : « لقد وقعت في الاسر. سوف يقتلونني رميا بالرصاص . »

ودعم انجولراس رتاج الباب بالحديد وقال لرفاقه : « فلنبع انفسنا بثمن غال . »

ثم تقدم نحو المائدة التي سجي عليها مابوف وغافروش . لقد نتأت يد من تحت الكف ، وتدلت نحو ارض الغرفة . كانت يد الرجل العجوز. وانحنى انجولراس وقبل تلك اليد الجليلة ، كما قد قبل البارحة جبين الرجل .

واقتحم المغيرون الباب ، واندفعوا الى الحانة فلم يجدوا ايما مقاتل هناك . فقد كان جميع المتمردين الذين لم يصرعوا معتصمين في الدور الاول.

وهكذا شنت الحملة علي حجرة الدور الاول ، شنها نحو من عشرين جنديا وثب بعضهم على اكتاف بعض ، مستعينين بهيكل السلم ، متسورين الجدران ، متعلقين بالسقف ، مقطعين اخر المقاومين اربا اربا ، متفرقين في هرج ومرج ، وقد انقلبوا الى وحوش ضارية . لم يكن ثمة ، الان غير رجل واحد قائم على قدميه : انجولراس . واذ اعوزه الخرطوش ، واعوزه سيف يقاتل به ، فلم يبق في يده غير انبوب بندقيته القصيرة التي كان قد كسر القسم المعوج من خشبتها فوق رؤوس الداخلين. وكان قد ارتد الى زاوية الغرفة ، وهناك ، بعين فخور ، وراس شامخ ، كان لا يزال رهيبا الى درجة تركت من حوله فسحة واسعة . وارتفعت صيحة : « هو ذا الزعيم ! انه هو الذي قتل المدفعي . لنطلق عليه الرصاص . »

وقال انجولراس : «اطلقوا النار علي !» وطرح البقية الباقية من بندقيته

الخفيفة القصيرة ، وطوى ذراعيه ، وفتح لهم صدره . وتقدم اثنا عشر رجلا نحو انجولراس وسددوا اليه بنادقهم ... وسأله ضابط : « هل تريد ان تعصب عيناك ؟ »

ـ « لا . »

وكان غرانتير قد افاق من سكره ، فصاح : « فلتحي الجمهورية ! انا انتسب اليها ! واجتاز الغرفة في خطى ثابتة ، ووقف امام البنادق الى جانب انجولراس وقال : « اقتلوا اثنين بطلقة واحدة . »

والتفت الى انجولراس ، في رفق ، وقال له : « هل تسمح بذلك ؟ »

وضغط انجولراس على يده في ابتسامة. وفي الحال سمع دوي الانفجار.

وظل انجولراس ، بعد ان مزقته ثماني رصاصات ، مستندا الى الجدار وكأن تلك الرصاصات قد سمرته هناك. كل ما في الامر انه حنى راسه.

وصعق غرانتير ، وخر على قدميه .

٦

كان ماريوس اسيرا في الواقع . اسير جان فالجان .

كانت اليد التي امسكت به من خلاف حين سقط ، والتي استشعر قبضتها وهو يفقد الوعي ، هي يد جان فالجان .

ولم يقم جان فالجان بايما دور في المعركة غير تعريض نفسه للخطر . ولولاه لما فكر احد بالجرحى . ولم يبد جان فالجان ، في سحابة الصراع الكثيفة، وكأنه راى ماريوس ، ولكن الواقع انه لم يرفع عينيه عنه. حتى اذا طوح بماريوس طلق ناري ، وثب جان فالجان برشاقة نمر ، وانقض عليه كما ينقض وحش على فريسة ، وحمله الى بعيد .

كانت زوبعة الهجوم قد تركزت في تلك اللحظة تركزا ضاريا حول انجولراس وباب الحانة حتى لقد غفل القوم عن رؤية جان فالجان يجتاز حقل المتراس غير المعبد ، حاملا ماريوس بين ذراعيه ، ويختفي خلف زاوية بيت كورنث .

هناك وقف جان فالجان . لقد ترك ماريوس ينزلق الى الارض ، واسند ظهره الى الجدار ، واجال بصره في ما حوله .

وطوال لحظة ، او ربما طوال دقيقتين او ثلاث ، كانت شقة الحائط تلك ملجأ وملاذا . ولكن كيف السبيل الى النجاة من هذه المجزرة ؟ فامامه كان ذلك المنزل الحقود الاصم ذو الطوابق الستة ، والى يمينه ، كان المتراس المنخفض الذي سد شارع الـ « بيتيت تروواندري » . لقد بدا اجتياز هذه

العقبة يسيرا ، ولكن كان في ميسور المرء ان يرى فوق قمة الجدار صفا من رؤوس الحراب . والى يساره ، كان ميدان المعركة . كان الموت خلف زاوية الجدار .

ما الذي ينبغي ان يفعله ؟ كان في ميسور العصفور وحده ان يفلت من هناك .

وكان عليه ان يقرر في الحال، وان يجد وسيلة ما، وان يتخذ موقفا. كانوا يتقاتلون على بضع خطوات منه . ولحسن الطالع ، كان الجميع ملتحمين التحاما ضاريا عند نقطة واحدة : «باب الحانة» . ولكن لو خطر لجندي واحد ان يستدير حول المنزل ، او ان يهاجمه على نحو جانبي، اذن لانتهى كل شيء.

ونظر جان فالجان الى المنزل المواجه له ، ونظر الى المتراس القائم الى جانبه، ثم نظر الى الارض في يأس، وكأنه كان يريد ان يحدث فيها، بعينيه ثقبا.

وعلى بضع خطوات منه ، لمح شبكة حديدية منطرحة على الارض . وكانت مساحة هذه الشبكة تبلغ نحوا من قدمين مربعين. كان الاطار الحجري المحيط بها منزوعا من مكانه ، وكأنما قد اقتلع . ومن خلال القضبان كان في ميسور المرء ان يلمح فتحة غامضة ، شيئا مثل انبوب مدخنة ، او اسطوانة صهريج . ووثب جان فالجان الى امام . ونزع الحجارة ، ورفع الشبكة الحديدية ، وحمل ماريوس على منكبيه ، وهبط — وذلك الحمل على ظهره — مستعينا بمرفقيه وركبتيه الى ذلك الضرب من البئر ، غير العميقة لحسن الحظ، وترك ذلك الباب القوي الذي ردت الحجارة فوقه الى مكانها كرة اخرى — تركه يسقط على راسه ، ووجدى موطىء قدم فوق سطح مبلط يقع على عمق عشرة اقدام تحت الارض . وانما تم ذلك كله ، كما تتم الاشياء في الهذيان ، بقوة عملاق وسرعة نسر .

ووجد جان فالجان نفسه ، وماريوس ما يزال غائبا عن الوعي، في شبه مجاز نفقي طويل . وهناك كان امن عميق ، وصمت مطلق ، وليل .

وعاوده مثل الشعور الذي احس به من قبل يوم هبط من الشارع الى الدير . الا ان ما كان يحمل الان لم يكن كوزيت ، ولكن ماريوس .

وامسى الان يسمع فوقه ، مثل همس غامض — وما يكاد — صخب الحانة الرهيب وقد اقتحمها الجند .

وَحَل ، ولكن رُوح

١

كان جان فالجان قد وجد نفسه في بواليع باريس التي تنصب فيها اقذارها ، والتي كانت تشكل شبكة لا نهاية لها من الشوارع والمفارق والساحات والدروب غير النافذة .

كان قد انتقل من وضح النهار الى الظلمة الكاملة ، من الضوضاء الى الصمت ، من اقصى حدود الخطر الى اقصى حدود الامن .

وظل بضع ثوان ذاهلا . وانشأ يصغي منشدها .

كان احساسه الاول هو العمى . انه لم يعد يرى شيئا ، فجأة . وبدا له ايضا انه قد امسى اصم — في دقيقة واحدة . انه لم يعد يسمع شيئا . لقد استشعر ان الارض صلبة تحت قدميه . ذلك كان كل شيء ، ولكنه كان كافيا . وبسط احدى يديه ثم بسط الاخرى، ومس الجدار من الجانبين، وادرك ان المجاز كان ضيقا . وزلت قدمه ، وادرك ان البلاط مبلل . وقدم رجلا في حذر ، خائفا ان تصادف ثقبا ، او هوة . واستيقن ان البلاط متصل . وانبأته هبة من نتانة اين كان .

وبعد بضع لحظات عاودته القدرة على الابصار .لقد سقط ضياء قليل من المنفذ الذي انزلق منه، واخذت عينه تألف هذا الكهف.وبدأ يتبين شيئا. كان المجاز الذي ووري فيه موصدا خلفه بجدار . كان دربا غير نافذ . وامامه كان جدار اخر ، جدار الليل . لقد تلاشى الضياء الوافد من المنفذ على بعد عشر خطوات من النقطة التي كان جان فالجان واقفا فيها . ووراء ذلك المكان كانت الظلمة كثيفة . وبدا اختراقها رهيبا ، ولكنه لم يتراجع . لقد دخل تلك الظلمة في عزم .

وعند نهاية الخطوات الخمسين اضطر الى التوقف . لقد برز سؤال : « كان المجاز ينتهي الى معبر اخر يلتقي به بالعرض . » وهكذا كان امامه طريقان فايهما يسلك ؟ ايجب عليه ان يستدير الى الشمال ام الى اليمين ؟ كيف يتجه في هذا التيه الاسود ؟ وكان لهذا التيه مفتاح هو منحدره . وكان التزام المنحدر يعني الذهاب الى النهر .

وفهم جان فالجان ذلك في الحال . واختا رالاتجاه الى اليمين ، وراح يصعد في المرتقى .

حتى اذا انعطف حول زاوية وراء الدهليز ، اختفى ضوء المنفذ الضئيل القصي ، وغدا اعمى كرة اخرى . ومع ذلك فقد واصل تقدمه ، وباقصى ما استطاع من السرعة. كانت ذراعا ماريوس تحيطان بعنقه وكانت قدماه تتدليان خلفه . وامسك ذراعي ماريوس باحدى يديه ، وتحسس الجدار بالاخرى . ومس خد ماريوس خده والتصق به . لقد احس بسيل حار ، منبثق من ماريوس ، يجري فوقه ويخترق ثيابه . ومع ذلك ، فان دفئا رطبا عند اذنه ، التي مست فم الرجل الجريح، كأن يؤذن بالتنفس ، ويؤذن من ثم بالحياة .

وشيئا بعد شيء ، عاودته القدرة على بعض الابصار الغامض وبدا يلم الماما غامضا بالجدار الذي يمسه ، حينا ، وبالعقد الذي كان يمشي تحته ، حينا اخر .

وكان اهتداؤه الى السبيل عسيرا .

ان تخطيط البواليع ليردد تخطيط الشوارع القائمة فوقها . كان في باريس ذلك العهد الفان ومئتا شارع . فليتخيل كل امرىء ، تحتها ، تلك الغابة من التشعبات المظلمة التي ندعوها البالوعة .

وتقدم الى امام في قلق ، ولكن في هدوء ، غير مبصر شيئا ، غير عارف شيئا ، غائصا في المصادفة ، يعني مغمورا بالعناية الالهية .

وشيئا بعد شيء ساوره شيء من الرعب . كان يمشي في احجية . ان قناة البالوعة هذه لرهيبة ، انها تتشابك على نحو يوقع الدوار في الراس .

وفجأة استبد به الدهش . لقد اكتشف انه لم يعد يصعد البتة . لقد اخذت مياه الجدول تصدم عقبيه بدلا من ان تصدمه عند اعلى قدميه . لقد انخفضت البالوعة ، الان . ماذا ؟ هل يصل قريبا الى الـ « سين » ؟ كان هذا الخطر عظيما ، ولكن خطر الارتداد كان اعظم . وواصل تقدمه .

كان كلما انتهى الى تشعب جديد تلمس الزوايا ، فاذا وجد الفتحة اقل عرضا من الرواق الذي كان فيه لم يدخل ، وتابع طريقه ، مقدرا بحق ان كل

طريق اضيق لا بد ان تنتهي الى زقاق غير نافذ ، وان تبعده عن الهدف ، يعني عـن المخـرج .

وفي احدى اللحظات، استشعر انه يبتعد عن باريس التي حجرتها الفتنة، حيث عطلت المتاريس حركة المواصلات ، وانه كان يعاود الدخول الى ما تحت باريس الناشطة السوية . وفجأة ، سمع فوق راسه صوتا نائيا ، تلك كانت اصداء العربات المنطلقـة .

كان قد سلخ نحوا من نصف ساعة وهو يمشي ، ولم يكن قد فكر بعد في الراحة . كل ما في الامر انه غير اليد التي كانت تحمل ماريوس . كانت الظلمة احلك منها في اي لحظة مضت ، ولكن هذا العمق اعاد الثقة الى نفسه.

وفجأة رأى خياله امامه . لقد برز احمرار واهن يكاد يكون غير واضح، خضب الارض عند قدميه والعقد فوق راسه بالارجوان ، وانزلق الى يمينـه والى يساره على جداري الرواق الدبقين . واستدار في ذهول .

ووراءه ، في ذلك الجزء من الدهليز الذي اجتازه ، وعلى مسافة بدت له هائلة ، توهج شبه كوكب رهيب بدا وكأنه ينظر اليه .

كانت نجمة البوليس القائمة هي التي اخذت تطلع في البالوعة .

والخلف هذه النجمة كان يتحرك ، في غير نظام ، ثمانية او عشرة اشكال سوداء ، مستقيمة ، غير واضحـة .

٢

في اليوم السادس من حزيران كانت السلطة قد اصدرت اوامرها بتفتيش البواليع . خشية ان يفزع اليها المغلوبون .

وكان الذي وجه في هذه اللحظة الى جان فالجان هو فانوس العسس المطوفين في الضفة اليمنى .

ولكن اذا كان قد رأى الفانوس جيدا ، فأن الفانوس لم يره ، لحسن حظه، الا على نحو رديء . كان الفانوس ضياء ، وكان هو ظلاما . كان بعيدا جدا ، يغمره سواد المكان . وانزوى في جانب الجدار ، ووقف .

واصغى العسس ، فلم يسمعوا شيئـا ، ونظروا ، فلم يـروا شيئا . وانصـرفـوا .

وينبغي ان نعترف لشرطـة ذلك العهد بأنها كانت تـؤدي واجبـاتهـا الحراسية والصحية، حتى في اشد الازمات الشعبية خطرا، في هدوء ورباطة جأش . كان ضباط الشرطة يطاردون اللصوص في تربص ، غير مجيزيـن للفتنة وللمتراس ان يصرفاهم عن مهمتهم .

ان شيئا مثل ذلك بالضبط حدث بعد ظهر اليوم السادس من حزيران على شاطيء الـ «سين» عند منحدر الضفةاليمنى،وراء جسر الانفاليد بقليل.

لقد بدا وكأن رجلين،تفصل ما بينهما مسافة ما، كانا يتخالسان النظر ، عند ذلك المنحدر ، ويحاول كل منهما ان يجتنب الاخر . كان الرجل المتقدم يحاول ان يوسع الشقة الفاصلة ، وكان الرجل المتخلف يحاول ان ينقصها .

كان في ميسور المرء ان يقول انها شهوة الى الطعام تطارد فريسة ما ، من غير ان يبدو وكأنها تفعل ذلك عن عمد . وكانت الفريسة تخادع ، وكانت تلتزم الحــذر .

كان الشاطيء مهجورا . لم يكن ثمة احد من عابري السبيل .

لم يكن في الامكان رؤية هذين الرجلين في يسر ألا من رصيف النهر المقابل. وكان الرجل الماشي في المقدمة، ممزق الثياب ذليلا،مرتعدا تحت دراعة بالية ، وكان الرجل الاخر يرتدي معطف السلطة مزررا حتى الذقن .

ولمح صاحب السترة المحكمة التزرير ، عجلة كراء تمر بالرصيف ، فأشار الى السائق . وفهم السائق ، مدركا من غير شك أن الذي يخاطبه رجل من رجال الامن فادار حصانه وشرع يتبع الرجلين في القسم الاعلى من الرصيف بأكثر ما تستطيعه العربة من بطء..

وفي غضون ذلك اقترب الرجلان من احد منحدرات الرصيف الهابط حتى الشاطىء ، والتي كانت تساعد سائقي العربات القادمة من « باسي » على الذهاب الى النهر لاطفاء ظمأ خيولهم .

وما هي الا لحظات حتى اختفى الرجل الرث الثياب بعد ان فتح احدى الشبكات الحديدية بمفتاح ...

ووقف رجل الامن على قدم الحذر . اما عجلة الكراء ، التي تابعت حركاته جميعا ، فكانت قد وقفت قرب الحاجز . واذ توقع السائق انتظارا طويلا فقد قدم الى فرسيه علفة من الشوفان الرطب .

٣

كان جان فالجان قد استأنف تقدمه ، من غير ان يقف كرة اخرى .

وغدا هذا التقدم اكثر اجهادا.ان مستويات هذه العقود لتتفاوت . وان ارتفاعها المتوسط ليبلغ نحوا من خمسة اقدام وست بوصات . واضطر جان فالجان الى الانحناء لكي لا يصيب ماريوس من العقد اذى ما . كان عليه ان يطأطيء راسه كل لحظة،ثم يتصدر من جديد، ويتلمس الجدار من غير انقطاع.

كان جان فالجان جائعا وظمآن.وكانت قوته الاعجوبية قد بدات تضعف

وتراخى . واستشعر انسلال الجرذان السريع بين رجله. وكان احدها قد ذعر الى حد جعله يقدم على عضه .

ولعلها كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما وصل الى البالوعة العظمى. وسلك جان فالجان هذه السبيل . ولكن السؤال ما لبث ان نشأ ، ههنا ، من جديد : ايهبط،ام يصعد؟ وفكر ان الوضع حرج، وان عليه ان يبلغ الـ «سين» مهما تكن المخاطر. وبكلمة اخرى ، كان عليه ان يهبط ، وانعطف الى اليسار .

لقد خدمته غريزته . كان الهبوط ، في الواقع هو السبيل الوحيد الى الخــلاص .

وبعد قليل كف عن المسير . كان متعبا جدا . وتسرب نور يكاد يكــون ناضرا من احدى نوافذ الضوء . ووضع جان فالجان ماريوس على حافــة البالوعة . وبدا وجه ماريوس المضرج بالدماء ، على ضوء النافذة الابيض ، وكأنه في قعر قبر . وازاح جان فالجان الملابس باطراف اصابعه ووضع يده على صدر ماريوس . كان القلب لا يزال يخفــق . ومــزق قميصه ، وضمد الجراح ، واوقف الدم المتدفــق .

وكان قد وجد، حين فتح ثياب ماريوس، شيئين اثنين في بعض جيوبه: قطعة خبز، وحافظة اوراق ماريوس. فأكل قطعة الخبز، وفتح حافظة الاوراق، وعلى الصفحة الاولى ، وجد الاسطر الاربعة التي خطها ماريوس والتــي يتذكرها القــارىء .

وعلى ضوء منفذ النور ، قرأ جان فالجان هذه الاسطر الاربعة ، ووقف لحظة وكأنه مستغرق في ذات نفسه، مكررا في همس : « شارع بنات كالفير، رقم ٦ ، مسيو جيلنورمان . » واعاد حافظة الاوراق الى جيب ماريوس. كان قد اكل ، وكانت القوة قد عاودته . وحمل ماريوس على ظهره كرة اخــرى ، واضعا راسه في عناية فوق كتفه اليمنى ، واستأنف هبوط البالوعة .

ومن جري العربات فوق راسه ، جريا متقطعا استنتج انه لم يعد تحت باريس المركزية، وانه يقترب من احدى المناطق المنعزلة. وتكاثفت الظلمة حول جان فالجان . ومع ذلك ، فقد واصل تقدمه ، متلمسا سبيله في الظلمة . وفجاة ، امست هذه الظلمة فظيعة .

لقد استشعر انه يلج الماء ، وانه لم يعد تحت قدميه حجارة، ولكن وحل. فقبل ان تبدأ الاعمال الهامة عام ١٨٣٣ كانت شبكة باريس تحت الارضية عرضة لانخسافات فجائية. ولكن ما الخسف ؟ انه رمل الشواطىء المتحرك يلقاه المرء فجاة تحت الارض ، انه شاطىء في بآلوعة . ان التربة المنقوعة تكاد تكون ذائبة . وان جميع جزئياتها لتتدلى في وسط مائع . انها ليست جزءا

من اليابسة ، وانها ليست جزءا من البحر . وقد يكون عمقها عظيما جدا في بعض الاحيان .

والواقع ان جان فالجان وجد نفسه الان امام خسف رهيب .

واستشعر جآن فالجان البلاط يغور تحته . وولج هذه الحمأة . كانت ماء على السطح ، ووحلا في القعر . وتقدم جان فالجان . ولكن قدميه كانتا تمعنان في الغوص كلما امعن في التقدم. وسرعان ما وصل عمق الوحل الى منتصف ساقيه، وانتهى الماء الى اعلى من ركبتيه. وتابع سيره، حاملا ماريوس بذراعيه اعلى ما استطاع حمله فوق الماء . وانتهى الوحل الان الى ركبتيه ، وبلغ الماء الى خصره. ولم يعد في طوقه ان يرتد. وغاصت قدماه اعمق فاعمق.

وارتفعت المياه الى ابطيه ، واستشعر انه يغرق. ولم يوفق الى التحرك في اعماق الوحل الذي كان فيه الا في مشقة. كان لا يزال رافعا ماريوس . وبذل جهدا جبارا ، وتقدم الى امام ، ولكن قدميه غاصتا اكثر . كان راسه وحده ، الان ، خارج الماء ، وكذلك ذراعاه الرافعتان ماريوس .

وغاص اعمق فاعمق ، ورد وجهه الى الوراء اجتنابا للماء ، ولكي يكون في مقدوره ان يتنفس . وبذل جهدا يائسا ، ودفع قدمه الى امام ، فوقعت على شيء صلب . كانت نقطة ارتكاز . وكان ذلك في الوقت المناسب .

ونهض ، وتلوى متوجعا ، وثبت نفسه فوق هذا المرتكز .

وهذا المرتكز ، المكتشف في اللحظة الاخيرة وسط الوحل ، كان مستهل منحدر الارضية الاخر. تلك الارضية التي كانت قد التوت من غير ان تتحطم ، وتحدبت مثل لوح خشبي . وارتقى جآن فالجان هذا السطح المنحني، وانتهى الى الجانب الاخر .

وبعد ان استراح قليلا استأنف سيره كرة اخرى . لقد مشى في يأس ، طوال مئة خطوة ، من غير ان يرفع راسه ، ومن غير ان يتنفس تقريبا. وفجأة ارتطم بالجدار. كان قد انتهى الى زاوية البالوعة، ورفع عينيه. وعند اقصى الدهليز ، هناك امامه ، بعيدا بعيدا جدا ، لمح ضوءا . وهذه المرة ، لم يكن الضوء رهيبا . كان هو الضوء الاخير الابيض . كان ضوء النهار .

لقد رأى جان فالجان المخرج . ولم يعد يستشعر الاعياء ، ولم يحس بثقل مأريوس ، ووجد ركبتيه الفولاذيتين كرة اخرى ، وانطلق راكضا اكثر منه ماشيا . وفيما هو يقترب ، كان المخرج يتخذ شكلا اوضح فاوضح .

وصل جان فالجان الى المخرج . وهناك وقف .

كان هو المخرج حقا ، ولكن جان فالجان لم يستطع الخروج منه .

كان القوس موصدا بشبكة حديدية قوية . وكانت الشبكة الحديدية

مشدودة الى اطار حجري بقفل غليظ من اقفال الباستيل .

لعلها كانت الساعة الثامنة والنصف مساء . كان الليل قد هبط .

ووضع جان فالجان ماريوس على ارضية الدهليز في محاذاة الجدار ، ثم مضى الى الشبكة الحديدية ، وامسك بقضبانها بكلتا يديه . كان الهز مسعورا ، ولكن الاهتزاز كان صفرا .

لقد قضي الامر . كان كل ما فعله جان فالجان عقيما . ان الله لم يشأ.

٤

وفيما هو مستفرق في التفكير لا في نفسه ولا في ماريوس، ولكن في كوزيت، مست كتفه يد ، وخاطبه صوت مهموس قائلا : « اعطني النصف ! »

كان امامه رجل . وكان الرجل يرتدي دراعة ، كان حافي القدمين ، وكان يمسك نعليه بيده اليسرى .

ولم يتردد جان فالجان لحظة . ولئن كان ذلك اللقاء غير متوقع البتة ، فقد كان هذا الرجل معروفا عنده . كان هذا الرجل هو تيناردييه .

وحدق تيناردييه الى جان فالجان ، ولكنه لم يعرفه . وانقضت فترة صمت ما لبث تيناردييه ان قطعها قائلا: «ما الذي ستعمله من اجل الخروج ؟ »

ولم يجب جان فالجان . وتابع تيناردييه : « من المستحيل فتح القفل بكلاب. ومع ذلك فان عليك ان تخرج من هنا. اسمع لقد قتلت انت الرجل . اما انا فمعي المفتاح . »

واشار تيناردييه الى ماريوس . وتابع كلامه : « انا لا اعرفك ، ولكني اود ان اساعدك . لا شك انك صديق . »

وبدا جان فالجان يفهم . لقد حسبه تيناردييه سفاحا. وعاد تيناردييه الى القول : « اسمع ، ايها الرفيق ، انت لم تقتل هذا الرجل من غير ان تنظر الى ما في جيوبه . اعطني النصف . سوف افتح الباب لك . »

وسحب من تحت دراعته الملأى بالثقوب مفتاحا كبيرا وابرزه ابرازا نصفيا ، ثم اضاف : « اتحب ان تعرف شكل مفتاح الهرب ؟ دونك اياه . والان دعنا ننجز الصفقة . فلنقتسم . لقد رأيت مفتاحي فارني دراهمك . »

وبحث جان فالجان في جيوبه هو . لم يكن معه غير بعض القطع النقدية في جيب صدرته . وكان ذلك المبلغ نحوا من ثلاثين فرنكا . . .

ومد تيناردييه شفته السفلى ، وصعر خده على نحو ذي مغزى . وقال: « لقد قتلته بثمن بخس . »

وبدا يجس جيوب جان فالجان وماريوس في دالة بالغة . وفيما كان

تيناردييه يتحسس سترة ماريوس ، انتزع مزقة منها اخفاها تحت دراعته ، معتقدا فياغلب الظن ان مزقة القماش هذه قد تساعده في ما بعد على التعرف الى القتيل والقاتل . بيد انه لم يجد اكثر من ثلاثين فرنكا .

واخذ كل شيء ، ناسيا قوله : « اعطني النصف » .

وعاود اخراج المفتاح من تحت دراعته ، وقال : والان ، ايها الصديق ، يجب ان تخرج .

وفتح تيناردييه القفل ، ثم رفع الشبكة الحديدية على نحو جزئي لكي يمر منها جان فالجان ثم اغلقها من جديد وغاص في الظلام كرة اخرى .

وهكذا وجد جان فالجان نفسه ، هو وماريوس ، في الخارج .

* * *

كانت الابخرة الوبيئة ، والظلمة ، والهول ، خلفهما. وكان الهواء الصحي النقي، الحي، البهيج ، المستنشق في الحرية يغمره من اقطاره. وفي كل مكان حوله كان صمت، ولكنه الصمت الفاتن المرافق لغروب الشمس في سماء صاحية.

واستغرق جان فالجان في التفكير واخذ حماما من الصلاة والنشوة الروحية . وفجاة استدار .

كان رجل فارع الطول ، متصالب الذراعين ، واقفا خلف جان فالجان .

وعرف جان فالجان جافير. فقد كان جافير هو الذي طارد ثيناردييه..

ولكن جافير لم يعرف جان فالجان الذي لم يعد يشبه نفسه . لقد ظل متصالب الذراعين ، وقال في صوت هاديء موجز : « من انت ؟ »

ــ « جان فالجــان . »

ووضع جافير هراوته بين اسنانه ووضع يديه القويتين على كتفي جان فالجان وحدق اليه فاحصا . وعرفه .

وقال جان فالجان: «ايها المفتش، جافير ، لقد القيت القبض علي . والى هذا فقد اعتبرت نفسي، منذ هذا الصباح، اسيرك. انا لم اعطك عنواني لكي احاول الفرار منك . قدني حيث تشاء . ولكن ساعدني اولا على ان احمــل هذا الرجل الــى منزله . »

وانحنى جافير فوق ماريوس فعرفه ايضا . فقال لجان فالجان : « لقد حملته اذن ، من المتراس الى هنا ؟ »

ونادى جافير صاحب العربة التي كانت تتبعه . ومــدد ماريوس على المقعد الخلفي ، وجلس هو الى جانب جان فالجان في المقعد الامامي . وانطلقت العربة في الرصيف باتجاه الباستيل .

ولم تصل الى رقم ٦ في شارع فتيات كالفير الا بعد منتصف الليل .

وترجل جافير اولا ، وخفق الباب خفقا عنيفاً . وفي غضون ذلك رفع جان فالجان والسائق ماريوس ، واخرجاه من العربة . لقد حمله جان فالجان من ابطيه ، وامسك به السائق من ركبتيه. ودس جان فالجان يده تحت ثيابه وتلمس صدره ، واستيقن انه ما يزال يخفق .

واطل البواب، فاعلمه جافير انه يحمل الى مسيو جيلنورمان ابنه ماريوس فسارع البواب الى ايقاظ باسك ، وايقظ باسك نيقوليت ، وايقظت نيقوليت العمة جيلنورمان . اما الجد ، فتركوه نائما معتقدين انه سوف يعرف النبأ وشيكا ، على اية حـال .

وحملوا ماريوس الى الدور الاول ووضعوه على مقعد عتيق في غرفة الانتظار الخاصة بمسيو جيلنورمان . وذهب باسك لاستدعاء احد الاطباء. وهنا اومأ جافير لجان فالجان فهبطا الى السلم وامتطيا العربة من جديـد . فطلب جان فالجان من جافير ان يسمح له بالذهاب الى منزله بشارع الرجل المسلح ثم يعتقله بعد ذلك . فوافق جافير .

ما الذي كان يريده جان فالجان ؟ ان يخبر كوزيت ، أن يقول لها ايـن ماريوس ، وربما ان يعطيها بعض المعلومات المفيدة الاخرى .

وعند مدخل الرجل المسلح ، وقفت العربة . وترجل جافير وجان فالجان ودخلا الشارع . كان مقفرا كشأنه دائما . وتبع جافير جان فالجان . ووصلا الى رقم ٧ . وقرع جان فالجان . وفتح الباب .

وقال جافير : « حسن . اصعد . سوف انتظرك هنا . »

وفتح الباب ، ودخل المنزل . وعند وصوله الى الدور الاول ، وقف . ان لجميع الممرات الاليمة مواقفها. كانت النافذة المطلة على المنبسط مفتوحة ، وكان مصباح الشارع ، يلقي عليها شيئا من الضوء . واطل جان فالجان من هذه النافذة . واستبد الذهول به . لم يكن هناك احد . كان جافير قد مضى لسبيلـه .

٥

كان باسك والبواب قد حملا ماريوس الى حجرة الاستقبال ، وكـان الطبيب الذي استدعي قد وصل . وبعد ان قرر ان قلبه ما يزال ينبض،وان الجريح لم يكن مصابا باي جرح بليغ في صدره ، مدده على السرير ، من غير وسادة ، وقد عرى صدره ، لكي يسهل التنفس .

وفيما الطبيب يغسل وجه ماريوس بماء بارد دخـل الجد وغمغـم : « مـاريوس ! »

فقال باسك : « سيدي ، لقد جيء اللحظة بسيدي الى المنزل . كان قد ذهب ألى المتراس ، و . . . »

وصاح الرجل العجوز في صوت فظيع: «ومات ! آه» يا لقاطع الطريق !»

ومضى الى نافذة، وفتحها على مصراعيها وكأنه يختنق. لقد وقف امام الظلام ، وانشأ يتكلم موجها الخطاب الى الشارع والليل. «انه مثخن بضربات السيف ، ذبيح ، ممزق . هل رأيتموه ، المتشرد ! لقد عرف جيدا اني سوف اكون في انتظاره ، واني قد اعددت غرفته لاستقباله ، واني قد علقت رسمه الراجع الى عهد طفولته فوق سريري! لقد عرف جيدا ان ليس عليه الا ان يعود واني سلخت سنوات وانا اناديه ، واني قمدت في الليالي امام الموقد ويداي على ركبتي ، غير عارف ماذا اعمل ، واني اصبت بالجنون من اجله ! »

ثم التفت الى الطبيب وقال : « ايها الطبيب الاحمق ! تابع عملك ، انه ميت ، ميت مثل صخر . انا افهم ذلك ، انا الميت ايضاً . اجل هذه الايام شائنة ، شائنة ، شائنة ، وهذا هو رايي فيك ، وفي افكارك ، وفي انظمتك ، وفي اطبائك ، وفي فلاسفتك الشحاذين ، وفي جميع الثورات التي روعت طوال ستين عاما اسراب الغربان في التويلري ! ولما كنت انت من عدم الرحمة بحيث تعرض نفسك للقتل على هذه الشاكلة ، فلن استشعر ولو مجرد حزن على وفاتك ، افهمت ، ايها السفاح ؟ »

وفي هذه اللحظة رفع ماريوس جفنيه في بطء ، واستقر نظره على مسيو جيلنورمان .

وصاح الرجل العجوز : « ماريوس ! ماريوس ! يا صغيري ماريوس ! يا ولدي! يا بني الحبيب! انت تفتح عينيك، انت تنظر الي، انت حي، شكرا . »

وخر مغشيا عليه .

* * *

كان جافير قد ابتعد في خطى وئيدة ، عن شارع الرجل المسلح .

لقد مشى ناكس الراس ، للمرة الاولى في حياته ، ويداه خلف ظهره ، للمرة الاولى في حياته ايضا .

وغاص في الشوارع الصامتة . ومع ذلك ، فقد اتخذ اتجاها واحدا .

لقد اتخذ الطريق الاقصر نحو الـ «سين» ، وسار في محاذاة رصيف النهر ، ووقف على مسافة قصيرة من مخفر ساحة الـ « شاتيليه » ، عند زاوية جسر « نوتردام » .

واسند جافير كلا مرفقيه الى الحاجز، مطوقا ذقنه بيديه، وانشأ يفكر .

كان يحتمل في اعماق وجوده شيء جديد ، ثورة ، كارثة . وكان فيها ما يدعو الى فحص الضمير .

كانالذي جندله ان يكون مدينا بحياته لشرير، وان يرتضي ذلك الدين ويفيه، وان يكون، بالرغم منه، على مستوى واحد معهارب من العدالة ، وان يبادله خدمة بخدمة ، وان يجيز له ان يقول : « امض لسبيلك ! » ويقول له هو بدوره ، «انت مطلق السراح!» ، وان يضحي بالواجب على مذبح الدوافع الشخصية ، وان يستشعر في هذه الدوافع الشخصية شيئا عموميا ايضا ، وربما شيئا ساميا ، وان يخون المجتمع لكي يكون وفيا لضميره ، وان تتحقق هذه الاستحالات كلها ، وان تتراكم عليه هو .

كان شيء قد اثار دهشته : ان يكون جان فالجان قد غفر له ، وكان شيء قد حجره : ان يكون هو ، جافير ، قد غفر لجان فالجان .

ما الذي يتعين عليه ان يفعله الان ؟ ايسلم جان فالجان الى السلطات ؟ ان ذلك شر ايضا . وفي كلتا الحالتين عار عليه ، هو جافير .

والفى نفسه نذلا خسيسا . كانت نفسه توقع الرعب في نفسه .

لم يكن مثل جافير الاعلى ان يصبح انسانيا ، ان يصبح عظيما ، ان يصبح ساميا . كان مثله الاعلى ان يصبح خلوا من العيب .

وها هوذا الان قد اخفق .

وفجأة غادر جافير الحاجز . واتخذ طريقه نحو المخفر الذي كان احد المصابيح يشير اليهفي بعض زوايا ساحة الـ «شاتيليه» . حتى اذا بلغه ، راى من خلال النافذة شرطيا ، ودخل . وبدا يكتب ما دعاه « ملاحظات لخير المصلحة » ثم غادر المخفر واجتاز ساحة الـ «شاتيليه»» وانتهى الى رصيف النهر ، وعاد في دقة آلية الى النقطة نفسها التي غادرها قبل ربع ساعة ، واتكأ هناك ، فالفى نفسه في الوضع ذاته ، على بلاطة الحاجز نفسها . لقد بدا وكأنه لم يتحرك قط .

وحنى جافير راسه ، ونظر . كان كل شيء اسود ، ولم يكن في ميسوره ان يتبين شيئا . وسمع صوت الزبد ، ولكنه لم ير النهر . وظل هكذا بضع دقائق جامدا من غير حراك ، محدقا الى فتحة الظلام تلك . ثم انه رفع قبعته ووضعها على حافة الرصيف. وبعد لحظة ، بدا واقفا على الحافة شكل اسود كان خليقا بعابر سبيل متأخر ان يحسبه عن بعد شبحا من الأشباح . وانحنى ذلك الشكل نحو الـ «سين» ثم انتصب ، وسقط فيالظلمات على نحو عمودي.

الحفيد والجدة

١

بعد فترة وجيزة انقضت على الاحداث التي رويناها منذ لحظات استشعر السيد بولاتروويل انفعالا عارما .

ولعل القارىء يذكر ان بولاتروويل كان يكسر الحجارة وينـزل الاذى بالمسافرين على الطريق العام. وكان يؤمن بالكنوز الدفينة في غابة مونفيرماي.

وذات صباح ، لمح وسط الاغصان رجلا لم يكن في ميسور عامل الطرق ان يرى غير ظهره ، ولكن مشيته ، لم تكن غريبة عنه بالكلية .

وفيما كان يتأمل حنى راسه ، تحت وطأة ذلك التأمل نفسه. حتى اذا رفع راسه من جديد لم يعد ثمة شيء. كان الرجل قد اختفى في الغابة والغسق.

فقال بولاتروويل : « يا للشيطان ! سرف الحق به ! »

وحمل معوله الذي كان حادا جدا . وما ان تقدم نحوا من مئة خطـوة حتى ساعده الفجر الذي كان قد اخذ بالانبلاج. كانت آثار الاقدام المنطبعة على الرمل ههنا وههناك ، والافنان الملوية في الدغل تدله على طريق ما. واتبع هذه الطريق، ثم ضل عنها. وانتهى الى شبه رابية وتسلق احدى الاشجار فلمح الرجل فجاة.

ولم يكد يلمحه حتى غاب عن بصره .

ودخل الرجل الى بقعة جرداء نائية ، محجبة باشجار باسقة ، ولكـن بولاتروويل كان يعرفها جيدا، اذ كان قد لاحظ هناك، قرب ركام كبير من حجارة الرحى، شجرة كستناء جريحة ومعصوبة بصفيحة من الزنك مسمرة على لحائها .

وفي رشاقة البهجة ، سقط بولاتروويل عن الشجرة . لقد اكتشـف جحر الارنب ، وكانت المسألة تقتضيه الان الامساك بالطريدة . لعل كنـز احلامـه الشهير كان هنـاك .

ولم يكن الوصول الى تلك البقعة الجرداء امرا هينا . حتـى اذا بلغها

بعد اربعين دقيقة لم يجد احدا . وركض بولاتروويل الى ركام الحجـارة . كان الركام لا يزال في مكانه . ان احدا لم يكن قد نقله .

اما الرجل ، فكان قد اختفى في الغابة . كان قد فر .

وزاده مضاضة ان وجد خلف ركام الحجارة،امام الشجرة ذات صفيحة الزنك ، تربة نبشت منذ عهد قريب ، ومعولا منسيا او مهجورا ، وحفرة .

كانت هذه الحفرة فارغة .

وصاح بولاتروويل ، وهو يهز كلتا قبضتيه في وجه الافق : «اللص!»

٢

ظل ماريوس فترة طويلة متأرجحا بين الموت والحياة .

وكرر اسم كوزيت ليالي بطولهافي ثرثرة الحمى وعناد الحشرجة الكالح.

واخيرا ، وبعد اربعة اشهر ، اعلن الطبيب زوال الخطر عنه .

وعرف مسيو جيلنورمان باديءالامر صنوف الالم المرير جميعا،ثم صنوف الانخطاف جميعا. لقد وجدوا عسرا شديدا فيمنعه من قضاءالليل كله، يوميا ، مع الرجل الجريح. كان يطلب اليهم ان ينقلوا كرسيه الكبير ذا الذراعين الى جانب سرير ماريوس. وكان يصر علىان تتخذ ابنتهمن انفس مافي البيت من اقمشة عصائب وضمادات. ومعكل وجه جديد منوجوه التحسن،الذي ازداد تجليا يوما بعد يوم ، كان الجد يهذي. لقد قام بعشرات من الاعمال الميكانيكية المفعمة بالجذل . ولقد حاول مرة ان يقعد نيقوليت على ركبتيه . واطلق على ماريوس لقب « السيد البارون » . وهتف : « فلتحي الجمهورية ! »

وفي كل لحظة كان يسأل الطبيب : « لم يبق من خطر . اليس كذلك ؟» ونظر الى ماريوس بعين جد . كان يحضنه وهو يأكل .

اما ماريوس فكانت تستحوذ على ذهنه فكرة متسلطة : كوزيت .

انه لم يدر ما الذي حل بها . كانت قضية شارع الـ «شانفريري» كلها اشبه بسحابة في ذاكرته. كانت ظلال، غامضة تقريبا ، تطفو في ذهنه: ايبونين، غافروش ، مابوف ، تيناردييه وزوجته، وجميع اصدقائه وقد امتزجوا على نحو حدادي بدخان المتراس . وكان مرور مسيو فوشلوفان الغريب في تلك المأساة الدامية قد خلففي ذاتنفسه مثل اثر الاحجيةفي عاصفة. انه لم يفهم شيئا فيما يتصل بحياته هو. لم يدر كيف،وبفضلمن، نجا. وما كاناحد من الذين حوله يعرف ذلك. كل ما استطاعوا ان يقولوه انه حمل ليلا الى شارع فتيات كالفير فيعربة كراء. كان الماضي،والحاضر،والمستقبل لا تعني كلها، عنده

غير ضباب فكرة غامضة . ولكن كان في هذا الضباب شيء واضح دقيق ، شيء من صوان ، عزم ، ارادة : ان يجد كوزيت من جديد .

ولم يخف عن نفسه ما في ذلك من مصاعب هائلة .

وذات يوم انحنى مسيو جيلنورمان فوق ماريوس وقال له في رقة بالغة: «اترى، يا صغيري ماريوس، لو كنت مكانك لآثرت ان آكل اللحم بدلا من السمك ان سمكة موسى مقلية استهلال ممتاز لدور النقاهة . ولكن المريض يحتاج ، لكي يقف على قدميه ، الى ضلع جيد محشو » .

واستجمع ماريوس قواه وحدق الى وجه جده : وقال : « هذا يقودني الى ان اقول لك شيئا » .

ــ « ما هو ؟ »

ــ « هو اني اريد ان اتزوج » .

ــ « موافق » .

قال الجد ذلك ، وانفجر ضاحكا .

ــ « موافق ؟ كيف ؟ »

ــ « اجل ، موافق . انك سوف تفوز بفتاتك » .

وذهل ماريوس ، وغلب عليه الانشداه ، وارتعدت اوصاله جميعا .

وتابع مسيو جيلنورمان : « اجل سوف تفوز بفتاتك الصغيرة ، الحلوة الوسيمة . انها تجيء كل يوم في شكل رجل عجوز لتطمئن عنك . ومنذ ان جرحت ، وهي تنفق وقتها في البكاء وصنع الضمادات . لقد تقصيت حالها . انها تسكن في شارع الرجل المسلح ، رقم سبعة . آه ، اننا على استعداد ! حسنا . سوف تفوز بها ! »

حتى اذا قال ذلك ، عصفت بالعجوز عاصفة من النحيب. وامسك براس ماريوس ، وشده بين ذراعيه الى صدره ، وانخرط كل منهما في البكاء .

وهتف ماريوس : « ابي ! »

فقال العجوز : « آه ، انت تحبني اذن ! »

وتصرمت لحظة لا سبيل الى وصفها . وخنقتها الدموع ، ولم يستطيعا كلاما . واخيرا غمغم العجوز: «كفى لقد انحلت العقدة . لقد ناداني يا ابي ! »

وحرر ماريوس رأسه من بين ذراعي جده ، وقال في رقة : « ولكن اما وقد استعدت صحتي الان ، يا ابي ، فان في استطاعتي ان اراها » .

ــ « موافق ايضا . سوف تراها . سوف نجيء بها اليك الان » .

* * *

وكحل كل من كوزيت وماريوس عينيه، كرة اخرى،برؤية الاخر. وعندما دخلت حجرة ماريوس هتف الجد : « فاتنة ! »

كانت كوزيت نشوى ، مسلوبة الفؤاد ، ذاهلة ، كانت مذعورة بقدر ما يصاب المرء بالذعر بسبب من السعادة. وتمتمت ، شديدة الشحوب ، شديدة التودد ، راغبة في ان تلقي بنفسها بين ذراعي ماريوس ، غير متجرئة على ذلك . لقد استحيت ان تظهر حبها امام هؤلاء الناس جميعا .

ومع كوزيت دخل رجل اشيب ، وقور . كان هو «مسيو فوشلوفان» ، كان هو جان فالجان .

كان حسن البزة وكان يرتدي بذلة سوداء جديدة ، ورباط رقبة ابيض.

وكان مستحيلا على البواب ان يتبين في هذا البورجوازي القديم، حامل الجثة الرهيب الذي ترجل عند بابه ليل السابع من حزيران ، رث الثياب ، ملطخا بالوحل ، مروعا شرسا ، ملطخ الوجه بالدم والقذر .

وفي غرفة ماريوس ، ظل مسيو فوشلوفان قرب الباب ، وكأنه بمعزل. كان يتأبط رزمة شبيهة بمجلد كبير ملفوف بورقة . وكانت ورقة الظرف ضاربة الى الخضرة ، ولقد بدت عفنة .

وانحنى الجد وقال في صوت عال : « مسيو ترانشلوفان... يشرفني ان اطلب منك يد الانسة لحفيدي السيد البارون ماريوس بونميرسي » .

وانحنى جان فالجان . وقال الجد : « قضي الأمر » .

والتفت نحو ماريوس وكوزيت وهتف: « في ميسور كل منكما ان يعبد الاخر » .

ولم يتركا له مجالا لان يقولها مرتين . وبدات الزقزقة . لقد تحدثا في صوت خفيض ، وقد اتكأ ماريوس على كرسيه الطويل ، ووقفت كوزيت الى جانبه . وغمغمت : « آه ، يا الهي ! انا اراك كرة اخرى ! هذا انت ! هذا انت! وذهابك الى القتال على هذا النحو ! ولكن لماذا ؟ ذلك شيء رهيب ! الا تزال تحبني ؟ اننا نسكن في شارع الرجل المسلح . ليس هناك حديقة . انا انفق وقتي كله في وضع الضمادات . انظر يا سيدي ، انها غلطتك ، لقد تصلبت اصابعي » . فقال ماريوس : « ملاك ! »

وجلس مسيو جيلنورمان قربهما ، وامسك ايديهما الاربع بيديه العجوزين المتجعدتين وقال: « انها لذيذة ، هذه الفتاة اللطيفة. ان كوزيت هذه رائعة ! انها فتاة صغيرة جدا ، وسيدة عظيمة جدا. يا ولدي ، ليحب احدكما الاخر. الحب هو حماقة الناس، وحكمة الله. ليعبد كل منكما الاخر. ولكن يا للمصيبة! هذا ما افكر فيه ! ان اكثر من نصف ما املك هو مال لي الحق في التمتع به ما دمت حيا. فما دمت على قيد الحياة، فسوف يكون كل شيء على ما يرام. ولكن

عقب موتي، بعد عشرين عاما، آه يا ولديّ المسكينين، لن تنالا فلسا واحدا» .

ـ « ان عند الانسة اوفرازي فوشلوفان ستمئة الف فرنك » .

كان ذلك الصوت صوت جان فالجان .

ولم يكن قد نطق بعد بكلمة ، بل ان احدا لم يبد وكأنه كان يعرف انه هناك ، وانه كان واقفا من غير حراك خلف هؤلاء الناس السعداء جميعا .

وتساءل الجد ، مشدوها : « ومن هي الانسة اوفرازي هذه ؟ »

فأجابت كوزيت : « انــا » .

واضاف مسيو جيلنورمان : « ستمئة الف فرنك ! »

ـ « ناقص اربعة عشر الف فرنك او سبعة عشر الف فرنك ، ربما » .

ووضع جان فالجان على الطاولة تلك الرزمة التي حسبتها العمة جيلنورمان كتابا .

وفتح جان فالجان الرزمة بنفسه. كانت حزمة اوراق نقدية. وتصفحوها ورقة ورقة، واحصوها. كانت تتألف من خمسمئة ورقة من ذوات الالف فرنك .

وقال مسيو جيلنورمان : « هذا كتاب نفيس » .

وغمغمت العمة : « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! »

* * *

لا ريب في ان القارىء قد ادرك ان جان فالجان استطاع ، بعد قضية شانماتيو ان يشخص الى باريس ، وان يسحب امواله من مصرف لافيت في الوقت المناسب . وانه ، كان قد خبأ ذلك المال في غابة مونفيرماي ، ضمن صندوق من خشب البلوط ، مليء بنشارة الكستنا . وفي الصندوق نفسه ، كان قد وضع كنزه الاخر : شمعداني الاسقف . وكان الرجل الذي لمحه بولاترويل ذات مساء اول مرة ، هو جان فالجان . وفي ما بعد ، كان جان فالجان كلما احتاج الى مال ، قصد الى تلك البقعة الجرداء التماسا لشيء منه . ومن هنا غيابه المتكرر الذي تحدثنا عنه . وحين رأى الى ماريوس ينعم بالنقاهة ، مضى التماسا له ايضا . وكان هو الذي رآه بولاترويل آنذاك في الغابة ، ولكن صباحا هذه المرة ، لا مساء .

٣

واتخذت جميع الاستعدادات للزواج . وحين استشير الطبيب اعلن ان في الامكان عقده في شباط . وكان القوم آنذاك في كانون الاول . وتصرمت بضعة اسابيع فاتنة من السعادة الكاملة .

ولم يكن الجد اقلهم سعادة . كان يقضي بين الفينة والفينة فترة تزيد على ربع ساعة وهو يحدق الى كوزيت .

وعمل جان فالجان كل شيء ، وسوى كل شيء ، وسهل كل شيء .

واذ كان في ما مضى عمدة ، فقد عرف كيف يحل مشكلة دقيقة كان هو وحده واقفاً على سرها : مشكلة وضع كوزيت المدني. فلو انه ذكر اصلها في قساوة اذن لحال ذلك دون الزواج . لقد اخرج كوزيت من المصاعب كلها . لقد نظم لها اسرة من الموتى ، وهي وسيلة مضمونة لعدم اثارة اعتراض ما ، وكانت كوزيت هي البقية الباقية من تلك الاسرة البائدة ، ان كوزيت لم تكن بنته ، ولكن بنت فوشلوفان اخر . كان اخوان من آل فوشلوفان قد عملا بستانيين في دير بيكبوس الصغير. وذهب القوم الىهذا الدير. وكانت الادلة الفضلى والشهادات الاحفل بالاحترام موفورة هناك . فالراهبات الصالحات لم يعرفن قط على وجه الضبط ابنة اي من الفوشلوفانين كانت كوزيت . لقد قلن ما كان مطلوبا منهن ، قلن ذلك في اندفاع.وحرر محضر بهذا امام الكاتب العدل . واصبحت كوزيت ، امام القانون ، الانسة اوفرازي فوشلوفان . لقد اعتبرت يتيمة الاب والام .

اما الخمسمئة والاربعة والثمانون الف فرنك فكانت هبة بوصية ، تركها لكوزيت شخص ميت كان قد ابدى رغبته في ان يظل مجهولا . وكان لهذه الهبة، المودعة فييدي فريق ثالث، انتقدم الىكوزيتعند بلوغها سن الرشد ، او عند زواجها . وكانت ههنا وهناك ، في الواقع ، بعض الاشياء الغريبة ، ولكن احدا لم يلاحظها . كان احد المعنيين بهذا الامر معصوب العينين بالحب ، وكان الاخر معصوب العينين بالفرنكات الستمئة الف .

وعلمت كوزيت انها لم تكن ابنة ذلك العجوز الذي دعته اباها طوال فترة مديدة . لقد كان مجرد نسيب من انسبائها ، كان اباها الحقيقي فوشلوفان اخر .

وعلى كل حال ، فقد ظلت تقول لجان فالجان : « يا ابي » .

وكانت كوزيت ، في جذلها البالغ ، كلفة بالجد جيلنورمان . وبينا كان جان فالجان يبني لكوزيت وضعا سويا في المجتمع ، كان مسيو جيلنورمان يسهر على هدية العرس . وما كان ليسره شيء بقدر جعلها فخمة رائعة .

وفتح خزانته الملأى بحلى زوجاته جميعا ، وخليلاته جميعا . واخرج منها منسوجات حريرية موشاة ، ودمقسا ، ومنسوجات متموجة مزدانة بالتصاوير ، وحلى عتيقة ، وعلب ملبس عاجية اغدقها كلها على كوزيت .

وكل صباح كانت كوزيت تتلقى من الجد هدية جديدة من تلك النفائس

العريقة . ونورت ضروب الحلى على اختلافها ، من حولها ، تنويرا بهيا .

واتخذت الترتيبات لكي يسكن الزوجان في منزل الجد . واصر مسيو جيلنورمان اصرارا شديدا على اعطائهما غرفته ، وهي اجمل غرف المنزل . واعلن قائلا : « ان ذلك سوف يجدد شبابي . هذا مشروع قديم . لقد كنت دائما افكر في اقامة عرس في غرفتي . »

٤

ورأى كل من المحبين صاحبه يوميا . كانت كوزيت تفد مع مسيو فوشلوفان . ولقد اجتمع كل من ماريوس ومسيو فوشلوفان ، ولكنهما ما كانا يتبادلان الاحاديث .

وباطنيا ، وفي اعماق نفسه ، احاط ماريوس مسيو فوشلوفان هذا ، بمختلف ضروب الاسئلة الصامتة. وبين الفينة والفينة، كانت تساوره شكوك حول ذكرياته هو. كان في ذاكرته خرم، هوة جوفتها اربعة اشهر من العذاب الاليم . كانت اشياء كثيرة قد ضاعت فيها . وانتهى الى ان سأل نفسه ما اذا كان صحيحا ، انه قد رأى ، حقا ، مسيو فوشلوفان في المتراس .

وتردد ماريوس في الاعتقاد بان فوشلوفان المتراس كان هو نفسه فوشلوفان هذا ، بلحمه ودمه ، الجالس في كثير من الرصانة قرب كوزيت .

وخلال الاستعداد للزفاف اجرى ماريوس بعض المباحث الارتدادية الدقيقة .

كان مدينا بالمعروف من عدة نواح . كان ثمة تيناردييه ، وكان ثمة ذلك الرجل المجهول الذي حمله الى منزل مسيو جيلنورمان .

وحرص ماريوس على العثور على هذين الرجلين . لقد اراد ، قبل ان يدخل الى المستقبل ، ان يبرىء ذمته من الماضي .

ولم ينجح احد من الرجال الذين استخدمهم ماريوس في الاهتداء الى اثر تيناردييه . لقد بدا الامحاء كاملا من هذه الناحية . كانت تيناردييه الزوجة قد ماتت في السجن . وكان تيناردييه وابنته آزيلما قد غاصا في الظلام كرة اخرى . وكانت المحكمة قد حكمت على تيناردييه بالموت .

اما الرجل المجهول الذي انقذ ماريوس ، فقد انتهت المباحث عنه بادىء الامر الى نتيجة ما ، ثم توقفت فجأة . ولم يجد من هذا الرجل شيئا . لم يجد اثرا .

وكان ماريوس قد احتفظ بالملابس الدامية التي كان يلبسها لحظة اعيد الى منزل جده، رجاءان يستمد منها العون في مباحثه. وعند فحصه السترة لاحظ ان احد اهدابها كان ممزقا على نحو عجيب . كان يعوزها قطعة ما .

وذات مساء ، تحدث ماريوس ، امام كوزيت وجان فالجان ، عن هذه المغامرة الفريدة كلها ، وعن المباحث التي قام بها ، وعن ذهاب جهوده ادراج الرياح . فقال :

ــ اجل ، ذلك الرجل ، كائنا من كان ، كان ماجدا . هل تدري ماذا فعل يا سيدي ؟ لقد تدخل مثل ملاك اكبر . ولا ريب في انه قد القى بنفسه في غمرة المعركة ، وانتزعني منها ، وفتح البالوعة ، وحملني عبرها ! ولا بد انه سار اكثر من فرسخ ونصف خلال دهاليز رهيبة ، في الظلام ، في البواليع ، وعلى ظهره جثة ! ولاي غرض ؟ ابتغاء انقاذ تلك الجثة ليس غير . وكنت انا تلك الجثة !. . .

ولكن جان فالجان اعتصم بالصمت .

الليلة البيضاء

١

كان ليل السادس عشر من شباط ، عام ١٨٣٣ ، ليلا مباركـا . ففوق ظلمته ، كانت ابواب السماء قد فتحت. كان موعد زواج ماريوس وكوزيت.

وفي الليلة السابقة ، كان جان فالجان قد قدم الى ماريوس ، في حضرة مسيو جيلنورمان ، الخمسمئة والاربعة والثمانين الف فرنك .

وكانت في منزل جيلنورمان غرفة جميلة اثثت خصيصا من اجل جان فالجان ، وكانت كوزيت قد توسلت الى ابيها ان يحتل تلك الغرفة .

وقبل بضعة ايام من اليوم المحدد للزواج وقع حادث لجان فالجان. لقد سحق ابهام يده اليمنى بعض الشيء . فاضطر الى ان يلف يده بعصابة ، ولان يرفع ذراعــه الى صدره .

ولن نقود القارىء لا الى مقر العمدة ولا الى الكنيسة . بل سنجتزىء بحادثة لا نرى بدا من الاشارة اليها .

كانوا يجددون، في ذلك الوقت ، تعبيد الطرف الشمالي من شارع سان لويس. وكان من المتعذر على عربات العرس ان تمضي الى كنيسة القديس بولس مباشرة . كان من الضروري ان يغيروا الطريق فسلكوا طريق الجادة . وكانت اولى عربات العرس تنتظم كوزيت والعمة جيلنورمان ومسيو جيلنورمان وجان فالجان . اما ماريوس فكان يتبعهم في العربة الثانية .

وغصت الجادة بالاقنية لمناسبة ثلاثاء المرفع . وامطرت السماء ، بين الفينة والفينــة .

وتوقف مركب العرس في بعض الطريق . واتفق ان كان وقوفه امام عربة ملأى بالاشخاص الذين تقنعوا بمختلف ضروب الاقنعة الكرنفالية .

ولاحظ قناعان من اقنعة العربة نفسها موكب العرس . ودار بينهما

هذا الحوار المهموس : « هل ترين هذا الرجل العجوز ذا اليد المعلقة برباط اسود ؟ »

ـ « نعم يا ابي ! »

ـ « انا واثق من اني اعرفه . اخرجي من العربة ، يا آزيلما ، واتبعي موكب العرس . »

٢

كانت كوزيت في مقر العمدة وفي الكنيسة،ساطعة ومؤثرة.كان خليقا بكل من يراها ان يقول انها كانت عذراء توشك ان تصبح الهة .

وبعد ان انجزت جميع الطقوس رجع الموكب الى شارع فتيات كالفير. وكان عدد كبير من اصدقاء اسرة جيلنورمان القدماء قد اقبلوا وتزاحموا حول كوزيت في لهفة . وتنافسوا في دعوتها « السيدة البارونة » .

ولم تكن كوزيت في يوم من الايام اكثر رقة مع جان فالجان . وقبل بضع لحظات من جلوسهم الى مائدة الطعام قالت كوزيت لجان فالجان : « ابي هل انت راض ؟ »

ـ « حسن ، اذن فاضحك » .

وبدا جان فالجان يضحك .

ودخل القوم غرفة الطعام ، واتخذوا مقاعدهم، ووضع كرسيان كبيران عن يمين العروس وعن يسارها ، الاول لمسيو جيلنورمان ، والثاني لجان فالجان . واتخذ مسيو جيلنورمان مقعده . وظل الكرسي الاخر شاغرا .

وبحثت الاعين كلها عن جان فالجان . انه لم يكن هناك .

ونادى مسيو جيلنورمان باسك ، وسأله : « اين مسيو فوشلوفان؟»

فأجاب باسك : « السيد فوشلوفان اخبرني أن اقول لسيدي انه يتألم قليلا من يده العليلة وانه لا يستطيع ان يتناول طعام العشاء مع سيدي البارون وسيدتي البارونة ، وانه سوف يرجع غدا صباحا.لقد مضى منذ لحظة . »

كانت الليلة حية ، بهيجة ، انيسة . وكانت دماثة الجد المهيمنة قد حددت اللحن للحفلة كلها،ولقد كيف كل امرىء نفسه وفقا لمحبة الجد القلبية التي يبلغ عمرها قرنا من الزمان او يكاد . ورقصوا قليلا ، وضحكوا كثيرا.

كان ثمة صخب ، ثم صمت .

واختفى العروسان .

وبعد منتصف الليل بقليل امسى منزل مسيو جيلنورمان هيكلا .

وهنا نقف : ان ملاكا مبتسما ، واضعا اصبعه على شفته ، ليقف على عتبة ليالي الاعراس .

٣

ما الذي كان قد حل بجان فالجان ؟

لقد غادر شارع بنات كالفير ، ورجع الى شارع الرجل المسلح .

رجع الى منزله . واضاء شمعته وارتقى السلم. كانت الشقة شاغرة.

واطلق ذراعه من رباطها ، وانشأ يستعين بيده اليمنى وكأنه ما كان يتألم منها .

واقترب من سريره ، ووقعت عينه على صندوق الامتعة الصغير الذي ما كان يفارقه ابدا . فمضى الى تلك الطاولة في ضرب من الرشاقة، واخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح الحقيبة .

واخرج منها ، في بطء ، تلك الثياب التي غادرت فيها كوزيت، قبل عشر سنوات ، مونفيرماي . وكانت هذه الملابس كلها سوداء، ووضعها على السرير وانشأ ينظر اليها واحدا بعد اخر ويتذكر : ان كوزيت لم تكن اطول من هذا المقدار ، كانت تحمل دميتها الكبيرة بين ذراعيها . لقد ضحكت، ولقد سارا وقد امسك احدهما بذراع الاخر ، لم يكن لها غيره في الوجود .

ثم ان راسه الابيض الجليل سقط على السرير. وانخرط في بكاء رهيب.

فمن جديد بدأ الصراع المروع القديم ، الذي راينا عددا من وجوهه .

لقد استشعر جان فالجان انه كان يخوض ، تلك الليلة ، معركته الاخيرة.

كانت قد انفتحت امامه طريقان اثنتان : الاولى فاتنة ، والثانية راعبة. فأي الطريقين عليه ان يسلك ؟

وكان السؤال الذي واجهه هو هذا : باي طريقة يتعين على جان فالجان ان يسلك تجاه سعادة كوزيت وماريوس ؟ وهذه السعادة كان هو الذي رغب فيها ، وكان هو الذي صنعها. لقد فازت كوزيت بماريوس، ولقد امتلك ماريوس كوزيت . كانا يتمتعان بكل شيء ، حتى بالثروة ، وكان ذلك من صنعه .

ولكن ما الذي كان ينبغي ان يفعله بهذه السعادة ، بعد ان تحققت ؟ ايفرض نفسه على هذه السعادة ؟ ايعاملها وكأنها ملكه ؟ لا ريب في ان كوزيت كانت لرجل اخر ، ولكن ايتعين عليه ان يحتفظ من كوزيت بكل ما استطاع ان يحتفظ به ؟ اينبغي ان يظل ذلك الضرب من الاب ، الذي قليلا ما يقبل عليهم ولكنه ينعم بالاحترام ؟ هل يحمل ماضيه ، من غير ان يقول كلمة ، الى هذا المستقبل ؟ هل يمسك بأيدي هذين المخلوقين البريئين بيديه الفاجعتين؟هل

يجعل من نكبته رفيقا لسعادتهما ؟ هل يظل معتصما بالصمت ؟

لقد راز ، ولقد فكر ، ولقد تأمل مختلف السبل الذي يخـيره بينهـا ذلك الميزان الخفي ، ميزان النور والظلام .

وظل هناك حتى الفجر ، في الوضع نفسه، منطويا فوق السرير، متشنج الاصابع ، مبسوط الذراعين على زاوية قائمة ، مثل رجل نزع عن الصليب وطرح على وجهه فوق الارض . لقد ظل اثنتي عشر ساعة مثلوجا، من غير ان يرفع راسه . كان جامدا مثل جثة ، فيما كان فكره يتلوى على الارض ويطير، حينا كالثعبان ، وحينا كالنسر . ولو راته عين هكذا من غير حراك اذن لظنته ميتا . وفجأة ارتعش في تشنج ، وقبل فمه ثياب كوزيت ، وكان مسمرا عليها . وعندئذ كان جديرا بتلك العين ان ترى انه حي .

اية عين ؟ ما دام جان فالجان وحده ، وما دام احد لم يكن هناك ؟ « العين » التي في الظلام .

آخر قطرة في الكأس

١

وفي صباح اليوم السابع عشر من شباط كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة عندما سمع باسك قرعا خفيفا على الباب . وفتح باسك الباب . وراى مسيو فوشلوفان . وادخله الى قاعة الاستقبال ، التي كانت ما تزال مقلوبة راسا على عقب .

وسأله جان فالجان : « هل استيقظ سيدك ؟ »

فاجاب باسك : « كيف حال ذراع سيدي ؟ »

ــ « احسن . هل استيقظ مسيو بونميرسي ؟ »

ــ « سيدي البارون ؟ سوف اذهب وارى » .

وتصرمت بضع دقائق . كان جان فالجان جامدا من غير حراك في النقطة التي تركه باسك فيها . كان شاحبا جدا . وكانت عيناه غائرتين في محجريهما . وسمع ضجة لدى الباب ، ورفع عينيه .

ودخل ماريوس وهتف : « هذا انت يا ابي ! ولكنك جئت مبكرا جدا. فلم تنقض على الظهر غير ساعة واحدة . ان كوزيت لا تزال نائمة . اوه لو كنت تعرف كيف افتقدناك امس ! صباح الخير ، يا ابي . كيف يدك؟ احسن، اليس كذلك ؟ »

فقال جان فالجان : « سيدي ، ان عندي شيئا واحدا اقوله لك . انا رجل حكم عليه سابقا بالاشغال الشاقة . »

وبهت ماريوس . لقد وقف جامدا فاغر الفم .

وفك جان فالجان رباط العنق الاسود الذي كان يسند ذراعه ، ونزع القماش الملفوف حول يده واراه لماريوس . وقال : « ان يدي سليمة.ولكني

تظاهرت بهذا الجرح لكي لا اقوم بتزوير ، لكي لا ادخل البطلان على وثائق الزواج ، لكي اعفى من التوقيع . »

وتلجلج ماريوس : « ماذا تريد ان تقول ؟ »

ـ « اريد ان اقول اني سلخت تسع عشرة سنة في سجن الاشغال الشاقة بسبب السرقة . ثم حكم علي بالسجن مدى الحياة لتكرر الجرم . اني في هذه الحالة هارب من العدالة . »

ـ « قل كل شيء . قل كل شيء . انت والد كوزيت ! »

وارتد ماريوس الى الوراء في سيماء من الذعر لا سبيل الى وصفها.

واعتصم جان فالجان بالصمت ثم اضاف : « سوف تصدقني . انا والد كوزيت . اما امام الله فلست والدها . ان اسمي ليس فوشلوفان . اني ادعى جان فالجان . انا لا امت بنسب الى كوزيت . اطمئن ! »

وتمتم ماريوس : « ومن يثبت ذلك لي ؟»

ـ « انا . ما دمت اقول ذلك » .

وحنى جان فالجان رأسه وكأنه يقسم يمينا . ثم تابع كلامه قائلا:«اي صلة تربطني بكوزيت ؟ صلة عابر سبيل . قبل عشر سنوات، لم اكن اعلم انها في الوجود. انا احبها ، هذا صحيح . لقد كانت يتيمة. يتيمة من غير اب او ام. كانت في حاجة الي . ذلك هو السبب الذي من أجله بدات احبها. ولكن كوزيت تغادر اليوم حياتي. ان سبيلينا يفترقان . انا لست بقادر على ان اؤدي لها ايما خدمة اضافية ، منذ اليوم. لقد اصبحت مدام بونميرسي. اما الستمئة الف فرنك فانت لم تحدثني عنها،ولكن استطيع ان اعرف ما الذي يجول في خاطرك. انها وديعة . كيف انتهت هذه الوديعة الي يدي؟ واي اهمية لذلك؟ انا اسلم الوديعة الى اهلها. ان شيئا اكثر من ذلك لا يمكن ان يطلب مني» .

وذهل ماريوس وصاح : «ولكن لماذا تقول لي ذلك كله؟ كان في استطاعتك ان تحتفظ بالسر لنفسك . بدافع من اي شيء تدلي بهذا الاعتراف ؟ »

ـ « بدافع من اي شيء ؟ حقا . الدافع غريب . انه دافع الشرف . اجل ، ان سوء حظي حبل احمله هنا في قلبي، فهو يحكم وثاقي . لقد حاولت ان اقطع ذلك الحبل ولكنه قاوم في ثبات ، انه لم ينقطع، لقد كنت اقتلع قلبي معه. ثم قلت: اني لا استطيع ان احيا بعيدا عن هذا المكان . يجب ان ابقى. اجل ولكنك على صواب، انا مخبول ، فلماذا لا ابقى بكل بساطة ؟ انت تقدم الي غرفة في المنزل ، والسيدة بونميرسي تحبني كثيرا ، وجدك لا يطمع في اكثر من ان اكون في جانبه . ولسوف نحيا كلنا معا ، وناكل كلنا معا، تلك هي السعادة ، سوف نحيا كأسرة واحدة ، كأسرة واحدة ! »

وعند هذه الكلمة غدا جان فالجان ضاريا . وغدا صوته ثاقبا على نحو مفاجىء : « اسرة واحدة ! لا ، انا رجل بلا اسرة . انا لست من اسرتكم . انا لست من اسرة الناس . ففي البيوت التي يكون فيها الناس بين اهليهم اكون انا فضلة زائدة . انا البائس ، انا خارج النطاق . هل كان لي اب وام ؟ انا اكاد اشك في ذلك . ويوم زوجت هذه الطفلة انتهى كل شيء . لقد رايت انها سعيدة ، وانها مع الذي احبت ، فقلت لنفسي : لا تدخل . لقد كان في استطاعتي ان اكذب ، هذا صحيح ، ان اخدعكم جميعا ، ان اظل مسيو فوشلوفان . لقد كان في ميسوري ان اكذب طالما كان الكذب من اجلها ، اما وقد اصبح الكذب من اجلي انا فليس ينبغي لي ذلك . انت تسألني ما الذي يكرهني على الكلام ؟ شيء غريب : ضميري . لقد كان من اليسير جدا ، على اية حال ، ان اظل صامتا . ولو اني بقيت صامتا اذن لكنت اخفي وجهي الحقيقي ، اذن لكنت ظلمة في وجه نهاركم ، اذن لكنت ادخلت سجن الاشغال الشاقة الى منزلكم من غير ان اطلق كلمة التحذير في صراحة ، واذن لكنت مداجيا مرذولا ! ولماذا افعل ذلك ؟ لكي اكون سعيدا ! وهل لي ، انا ، الحق في ان اكون سعيدا ! انــا خارج الحياة يا سيدي » .

وتنفس في صعوبة ، وقذف هذه الكلمة الاخيرة : « لكي اعيش ، سرقت ذات يوم رغيفا . واليوم ، لكي اعيش ، لا اريد ان اسرق اسما » .

فقاطعه ماريوس : « لكي تعيش ! انت لا تحتاج الى ذلك الاسم لكي تعيش ! »

وران السكوت ، واعتصم كل منهما بالصمت . ثم اضاف جان فالجان : « ان امامك رجلا بائسا ، يا سيدي » .

وعبر ماريوس حجرة الاستقبال في تؤدة ، حتى اذا امسى على مقربة من جان فالجان بسط يده له . ولم يمانع جان فالجان . ولقد بدا ماريوس انه يصافح يــدا من رخام .

وقال ماريوس : « ان لجدي اصدقاء . ولسوف احصل لك على العفو . »

فاجاب جان فالجان : « لا فائدة . انهم يحسبونني ميتا ، وهذا كاف . الاموات غير خاضعين للمراقبة » .

وفي تلك اللحظة بالذات فتح الباب في رفق عند الطرف الاخر مــن حجرة الاستقبال ، واطل راس كوزيت . وقــالت : « انــا اراهــن انكمــا تتحدثان في السياسة . يا للحماقة ! بدلا من ان تكونا معي ! »

وارتعد جان فالجان . وتلجلج ماريوس ، وطلب اليها ان تتركهما وحدهما ، فاصرت على البقاء الى جانبهما . واخيرا غادرت الغرفة غاضبة عليهما معا.

وعندئذ غمغم ماريوس : « مسكينة كوزيت ! حين تعلم .. »

وعند هذه الكلمات ارتعدت اوصال جان فالجان كلها. وسدد الى ماريوس عينا مشدوهة وقال: «كوزيت! آه، اجل، انا اتوسل اليك يا سيدي، ان تعاهدني باقدس ما عندك ان لا تعلمها بذلك. ان ذلك خليق به ان يخيفها».

وارتمى في احد الكراسي ذوات الذراعين، وحجب وجهه بيديه وبكى.

فقال ماريوس: «كن هادئا. سوف احتفظ بسرك ولن اطلع عليه احدا.»

— «بقيت مسألة واحدة. هل استطيع ان ارى كوزيت بعد اليوم؟ ان اجيء في المساء عند هبوط الليل، فأراها؟»

فقال ماريوس: «لك ذلك. ولسوف تنتظرك كوزيت.»

٢

كان ماريوس يستشعر قلقا بالغا.

لقد وجد، الان، تفسيرا لتلك النفرة التي طالما احس بها نحو الرجل الذي رآه مع كوزيت. كان ثمة شيء غريب في هذا الشخص الذي سبق لغريزته ان حذرته منه. وكانت تلك الاحجية هي ابشع ضروب الخزي: سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. ان مسيو فوشلوفان هذا كان هو الاشغالي جان فالجان.

ان وقوع المرء فجأة، وهو في غمرة السعادة، على مثل هذا السر، اشبه باكتشاف عقرب في عش من اعشاش العنادل.

هل فرض على سعادة ماريوس وكوزيت، منذ اليوم، ان تخضع لهذا الجوار؟ اكان ذلك امرا واقعا؟ أكان قبول ذلك الرجل يشكل جزءا من الزواج الذي تم؟ ألم يكن ثمة ما يعمل؟

هل تزوج ماريوس الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ايضا؟

ايجوز بعد ذلك ان يجتمع هذا الرجل بكوزيت؟

وراح ماريوس يؤنب نفسه لانه رق لذلك الاشغالي العجوز واعطاه وعدا. ولكن أليس واجبه نحو كوزيت مقدما على واجب الوفاء بالوعد؟

ولم يكن يسيرا عليه ان يخفي اضطرابه هذا عن كوزيت، ولكن الحب موهبة، ولقد وفق ماريوس الى ذلك.

والى هذا فقد طرح بعض الاسئلة على كوزيت، التي كانت سليمة الطوية بقدر ما تكون الحمامة بيضاء، فلم يخامرها الارتياب في شيء. لقد تحدث معها عن طفولتها وعن صباها، واقنع نفسه اكثر فاكثر بان هذا الاشغالي وقف من كوزيت اطيب موقف يستطيع ان يقفه انسان، واكثره حفولا بالابوة والاجلال. كان ذلك القراص الكالح قد احب هذه الزنبقة وحماها.

شحوب الغسق

١

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، قرع جان فالجان باب العربات من منزل جيلنورمان . واستقبله باسك . ومن غير ان ينتظر وفود جان فالجان عليه ، خاطبه باسك قائلا : « لقد كلفني سيدي البارون ان اسال السيد أيرغب في الصعود الى الدور الاعلى ام في البقاء تحت ؟ »

فاجابه جان فالجان : « سوف ابقى تحت » .

وفتح باسك باب الحجرة السفلية ، وقال : «سوف اخبر السيدة .»

كانت الغرفة التي ولجها جان فالجان حجرة تحتية رطبة ذات عقود ، وكانت مفروشة ببلاط احمر ، ومضاءة على نحو قاتم بنافذة ذات شباكة حديدية . كان الغبار مستقرا فيها ، وكان يزين احد الواح النافذة الزجاجية نسيج عنكبوت . وفي اقصى الحجرة كان موقد خشبي ذو رف ضيق. كانت النار قد اضرمت مما يدل على ان شخصاً ما ، كان قد توقع جواب جان فالجان : « سوف ابقى تحت . »

كان كرسيان من الكراسي ذوات الاذرع قد وضعا عند زاويتي الموقد. وبين الكرسيين امتد ، بدلا من السجادة ، بساط صغير من بسط النوم .

وكان جان فالجان متعبا . انه لم يعرف ، منذ بضعة ايام ، لا طعاما ولا رقادا . وارتمى في واحد من الكرسيين الكبيرين . ورجع باسك ووضع شمعة مضاءة على الموقد ، وانسحب .

وفجأة اجفل جان فالجان . كانت كوزيت خلفه .

واستدار . وحدق اليها . كانت جميلة على نحو يغري بالعبادة .

وهتفت كوزيت : « آه ! ابي ، لقد كنت اعلم انك غريب الاطوار، ولكني

لم اكن اتوقع قط شيئا مثل هذا . لقد قال لي ماريوس انك تريد مني ان استقبلك هنا . »

ــ « آجل ، انا طلبت ذلك . »

ــ « لقد توقعت الجواب . حسن ، انا احذرك اني سوف ا[illegible]مك. فلنبدأ من البداية . ابي ، قبلني . »

وقدمت اليه خدها . وظل جان فالجان جامدا لا يتحرك .

ــ « انت لا تتحرك . انا ارى ذلك . انت تسلك مسلك المتهمين . ولكن لا بأس ، انا اصفح عنك. السيد المسيح قال: ادر خدك الاخر. ها هوذا. »

وادارت خدها الثاني . ولم يتحرك جان فالجان . فقالت كوزيت : « الامر اخذ يصبح جديا . ما الذي فعلته لك ؟ انا اعلن اني مرتبكة . يجب عليك ان تصالحني . سوف تتناول طعام العشاء معنا . »

ــ « لقدتعشيت . »

ــ « هذا غير صحيح . تعال اصعد معي الى حجرة الاستقبال حالا. »

ــ « مستحيل . »

ــ « تقول مستحيل ، يا ابي ؟ »

ــ «لا تناديني يا ابي بعداليوم. ناديني مسيو جان ، او جان اذا شئت. »

وذهلت كوزيت وصاحت : « انت لم تعد ابي ؟ انا لم اعد كوزيت ؟ مسيو جان ؟ ما معنى هذا كله ؟ ما الذي فعلته لك ؟ هل ثمة شيء اذن ؟ يخيل الي انك لا تريد سعادتي . »

وشحب وجه جان فالجان . واعتصم بالصمت لحظة ، ثم غمغم مخاطبا نفسه في نبرة لا سبيل الى وصفها : « لقد كانت سعادتها هي هدف حياتي. والان ، قد يومىء الله الي بالانصراف . كوزيت ، انت سعيدة ، لقد انتهت مهمتي . »

ووثبت الى عنقه . وفي وله ، ضمها جان فالجان الى صدره ، ضما محموما . لقد تراءى له انه كاد يستردها من جديد .

وقالت كوزيت له : « شكرا لك ، يا ابي ! »

وفي لطف ، انسحب جان فالجان من بين ذراعي كوزيت ، وتناول قبعته ، وقال « سوف اتركك يا سيدتي . انهم في انتظارك . »

وفي اليوم الذي تلا ، في الساعة نفسها ، اقبل جان فالجان .

ولم توجه كوزيت ايما سؤال اليه . انها لم تعد تظهر الدهش ، لم تعد تتحدث عن حجرة الاستقبال . لقد تجنبت التلفظ بـ « يا ابي » او بـ « مسيو جان » . كانت محزونة بعض الشيء .

ولعله قد جرى بينها وبين ماريوس حديث من تلك الاحاديث التي يقول فيها الرجل المحبوب كل ما يشاء، ولا يشرح شيئا، ويفوز برضا المراة المحبوبة.

وكل يوم ، كان جان فالجان يفد في الساعة نفسها . واتخذ ماريوس ترتيبات تجعله غائبا عن المنزل كلما وفد جآن فالجان اليه . واعتاد المنزل طريقة مسيو فوشلوفان الجديدة في الحياة . واصدر الجد هذا المرسوم : « انه شخص شاذ الاطوار » وكانت تلك كلمة الفصل .

وتصرمت على هذا النحو بضعة اسابيع . وشيئا فشيئا استحوذت على كوزيت حياة جديدة : العلاقات التي يخلقها الزواج، والزيارات، والعناية بالمنزل ، والمتع . ولم تكن متع كوزيت غالية الثمن ، كان قوامها شيئا واحدا: ان تكون مع ماريوس .

وفي المرة الاولى كان جان فالجان يمكث مع كوزيت بضع دقائق ليس غير ، ثم يمضي لسبيله ، وشيئا بعد شيء تعود ان يجعل زياراته اطول . وذات يوم قالت له كوزيت سهوا : « ابي ! » واضاء وجه جان فالجان القاتم وميض من الابتهاج . واجابها : « قولي جان . » فأجابته وقد انفجرت بالضحك : « آه ! صحيح ، مسيو جان . » فقال : « حسن » . واستدار لكي لا تراه يكفكف عبراته .

٢

كانت تلك هي المرة الاخيرة. وابتداء من هذه الومضة الختامية ران انطفاء كامل . لا دالة بعد اليوم ، ولا تحية صباح مع قبلة ، ولا كلمة «ابي!» العذبة الى ابعد الحدود . لقد طرد ، بطلب منه وباشتراكه هو ، من كل وجه من وجوه السعادة على نحو متعاقب . لقد تجرع هذا الشقاء : انه بعد ان فقد كوزيت برمتها في يوم واحد، اضطر في ما بعد الى ان يفقدها جزءا بعد جزء.

وكلما اراد جان فالجان ان يطيل زيارته ، ويجعل الساعات تنقضي من غير انتباه ، كان يأخذ في اطراء ماريوس ، كان يذهب الى انه وسيم ، نبيل، شجاع ، ذكي ، فصيح ، طيب. وكانت كوزيت تزايده في ذلك . انهما لم يعرفا الصمت قط . فماريوس كلمة لا يتطرق اليها النفاد . كانت ثمة مجلدات في هذه الاحرف الستة .

وذات يوم مكث اكثر من المألوف . وفي اليوم التالي لاحظ انه لم يكن في الموقد نار . وقال في ذات نفسه : «ماذا ! لا نار» . وقدم الى نفسه هذا التفسير : « هذا طبيعي جدا . نحن في شهر نيسان . لقد انصرمت الايام الباردة » .

وهتفت كوزيت عند دخولها : « يا الهي ! ما ابرد هذه الحجرة ! »
فقال جان فالجان : « ولكن لا . »
ـ « واذن فانت الذي قلت للخادم ان لا يضرم النار » ؟
ـ « نعم . لقد اشرفنا على شهر نوار . »
« ولكننا نضرم النار حتى حزيران . وفي هذا الكهف يحتاج المرء الى النار طوال السنة . »
وفي اليوم التالي كان في الموقد نار . ولكن الكرسيين كانا قد وضعا قرب الباب . وفكر جان فالجان : « ما معنى هذا ؟ »
ومع ذلك فقد شجعته هذه النار المضرمة من جديد . واطال المحادثة اكثر من المعتاد . وفيما كان ينهض للانصراف ، قالت له كوزيت : لقد قال لي زوجي شيئا مضحكا امس .
ـ « وما هو ؟ »
ـ « قال : ان لدينا دخلا مقداره ثلاثون الف فرنك . سبعة وعشرون تملكينها انت ، وثلاثة اعطاني اياها جدي . فقلت : هذا يجعلها ثلاثين . فسألني : هل تملكين الجراة على ان تعيشي على الثلاثة الالاف ؟ فاجبته : نعم ، وعلى لا شيء ، شرط ان يكون ذلك معك . ثم سألته : لماذا تقول لي هذا ؟ فاجاب : لكي اعرف . »
ولم يقل جان فالجان كلمة . وانقلب الى شارع الرجل المسلح .
كانت الظنون تنكل بعقله تنكيلا . فقد كان واضحا ان ماريوس يرتاب في اصل هذه الفرنكات الستمئة الف ، ومن يدري فلعله كان يحسب ان مصدرها غير طاهر .
وفي اليوم التالي اصيب ، عند دخوله الى الحجرة السفلية ، بشيء كالصدمة . كان الكرسيان قد اختفيا .
وهتفت كوزيت وهي داخلة : « والان ، لا كراسي ! اين الكرسيان ؟»
وتمتم جان فالجان : « لقد قلت للخادم ان يخرجهما من هنا . »
ـ « وما سبب ذلك ؟ »
ـ « انا لن ابقى غير بضع دقائق اليوم . »
ـ « ان بقاءك فترة قصيرة ليس سببا كافيا لوقوفك ما دمت هنا . »
ودمدم جان فالجان : « استودعك الله . »
ومضى لسبيله مثقلا بالغم . كان هذه المرة قد فهم .
وفي اليوم التالي لم يجيء . ولم تلاحظ كوزيت ذلك الا مساء .
وقالت : « غريب . ان مسيو جان لم يجيء اليوم . »

والم بها شيء اشبه بانقباض ضئيل في الصدر ، ولكنها لم تلحظ ذلك الا بشق النفس ، اذ شغلتها عنه ، في الحال ، قبلة من ماريوس .

وفي اليوم الذي بعده ، لم يجيء ايضا . ولم تلق كوزيت بالا الى ذلك، لقد امضت السهرة ، ونامت ليلها ذاك كالعادة، ولم تفكر في المسألة الا بعد ان استيقظت . كانت سعيدة الى ابعد الحدود ! ووجهت نيقوليت على جناح السرعة الى منزل مسيو جان لترى ما اذا كان مريضا ، ولماذا لم يأت البارحة . ورجعت نيقوليت بجواب مسيو جان . انه لم يكن مريضا . لقد كان مشغولا . ولسوف يجيء في اقرب وقت ممكن . والى هذا ، فقد كان يعتزم القيام برحلة صغيرة . فلا داعي للقلق . ولا داعي لان يشغل احد نفسه بالتفكير فيه .

ظلمة عظمى وفجر اعظم

١

ان نكون سعداء ــ ذلك شيء فظيع ! ما اشد سرورنا بهذا ! وما اكثر ما نجده كافيا ! وما اكثر ما ننسى ، حين نملك هدف الحياة الزائف، السعادة، الهدف الحقيقي منها : الواجب !

ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول أن من الظلم ان نلوم ماريوس .

ان ماريوس لم يوجه قبل زواجه ايما سؤال الى مسيو فوشلوفان، ولقد خشي ، منذ زواجه ذاك، ان يوجه ايما سؤال الى جان فالجان . كان قد ندم للوعد الذي اجاز لنفسه ان تستدرج اليه . ولقد اكتفى بالعمل لابعاد جان فالجان، شيئا بعد شيء ، عن منزله ، ولمحوه جهد الطاقة من ذهن كوزيت .

لقد عمل ماريوس ما قدر انه ضروري وصائب . لقد اعتقد انه كانت لديه ، لاقصاء جان فالجان ، اسباب جدية رأينا بعضها من قبل ، وسنرى بعضها الاخر في ما بعد. لقد اتفق له ان اجتمع، في قضية كان يترافع فيها، بموظف عجوز في مصرف لافيت، فاطلع على بعض المعلومات الغامضة التي لم يستطع ان يسبر غورها احتراما منه لذلك السر الذي وعد بصيانته، ومراعاة منه لمركز جان فالجان المحفوف بالخطر. ولقد اعتقد، في تلك اللحظات نفسها، ان عليه واجبا خطيرا يجب اداؤه، وهو اعادة الستمئة الف فرنك الى شخص ما ، راح هو ــ ماريوس ــ يبحث عنه باكثر ما يكون من الحذر . وفي غضون ذلك تفادى استعمال هذه الثروة .

اما كوزيت فلم تكن على علم باي من هذه الاسرار . ولكن من القسوة اداتنهـا ايضا .

كانت تفيض من ماريوس نحوها مغناطيسية كلية القدرة تضطرها الى ان تعمل ما يتمناه ماريوس. لقد عرفت ضغط رغباته غير الملفوظة وخضعت

له خضوعا اعمى .

واتفق لكوزيت ان تحدثت، ذات مرة، عن جان فالجان واظهرت دهشتها فما كان من ماريوس الا ان هدأ روعها قائلا: «انه غائب، في ما اظن . الم يقل انه سوف يقوم برحلة؟» فقالت كوزيت في ذات نفسها : «هذا صحيح. كان من عادته الاختفاء على هذه الشاكلة. ولكن غيابه لم يكن يطول الى هذا الحد.» ومرتين او ثلاث مرات ارسلت نيقوليت لتسأل في شارع الرجل المسلح ما اذا كان مسيو جان قد رجع من رحلته . وكان جان فالجان يجيب ان لا .

ولم تجــدد كوزيت السؤال بعد . فقد كان لها مطلب واحد في هذا الوجود : ماريوس .

وذات يوم هبط جان فالجان سلم منزله ، وخطا في الشارع ثــلاث خطوات ، وجلس على معلم من معالم الطريق ، ذلك المعلم عينه الذي وجده غافروش جالسا فوقه، ليل الخامس من حزيران ، مستغرقا في التفكــير . ومكث هناك بضع دقائق ثم عاود الصعود الى منزله من جديد . وفي غد ، لم يغادر غرفته . وفي اليوم الذي تلا ، لم يغادر فراشه .

ونظرت بوابته ــ التي قدمت اليه طعامه الهزيل : بعض الكرنب وقليلا من البطاطس مع شيء من شحم الخنزير ــ نظرت الى القصعة الفخارية السمراء، وهتفت : « ولكنك لم تأكل اي شيء امس ، ايها الرجل البائس العزيز ! »

فأجاب جان فالجان : « اجل ، لقد فعلت . »

ــ « القصعة ما تزال ملأى . »

ــ « سوف آكل غدا . »

ــ « او في عيد الثالوث الاقدس . لماذا لا تأكــل اليوم ؟ هل يقول الناس : سوف آكل غدا ! انك تترك لي قصعتي كلها من غير ان تمسها ! »

ولم ير جان فالجان قط كائنا بشريا غير هذه المراة الصالحة . ان في باريس شوارع لا يسير فيها احد ، وبيوتا لا يفد اليها احد . وكان جــان فالجان في واحد من هذه الشوارع ، وكان في واحد من تلك المنازل .

وكان قد اشترى، قبل ان ينقطع عن الخروج من منزله، صليبا نحاسيا صغيرا من عند احد النحاسين ، مقابل بضعة دريهمات ، وكان قد علق ذلك الصليب ــ وقد نحت عليه جسد المصلوب ــ تجاه سريره .

وتصرم اسبوع ، ولم يكن جان فالجان قد خطا في غرفته ايما خطوة . كان لا يزال في سريره . وقالت البوابة لزوجها : «ان الرجل الذي فوق لم يعد يقوم من فراشه ابدا ، لم يعد يأكل ابدا ، وهو لن يعيش طويلا . ان له

احزانه . وليس في استطاعة احد ان ينزع من راسي هذه الفكرة : ان ابنته لم توفـق في زواجها . »

ورات طبيبا من اطباء الحي يجتاز باقصى الشارع. فأخذت على عاتقها التوسل اليه ان يصعد. وقالت له: «انه في الدور الثاني. ليس عليك الا ان تدخل. ان المفتاح هو دائما في البابعد انعجز الرجلعن مفارقة سريره» .

ورأى الطبيب جان فالجان ، وتحدث اليه .

وحين هبط السلم استجوبته البوابة : « حسنا ، ايها الطبيب ؟ »

ــ « ان مريضك مريض جدا . »

ــ « مم يشكـو ؟ »

ــ « من كل شيء، ومن لا شيء. انه رجل يستدل من جميع المظاهر انه فقد شخصا اثيرا لديه . ان المرء ليموت بسبب من ذلك . »

ــ « مـاذا قال لك ؟ »

ــ « لقد قال ان حاله حسنة . »

ــ « هل سترجع كرة ثانية ، ايها الطبيب ؟ »

فأجاب الطبيب : « اجل . ولكن شخصا اخر غيري ينبغي ان يرجع. »

٢

وذات مساء وجد جان فالجان عسرا في رفع نفسه على مرفقيه. وبذل جهدا وجلس في فراشه ، وارتدى ملابسه . وفتح الحقيبة ، واخـرج ملابس كوزيت . ونشرها على سريره .

كان شمعدانا الاسقف في مكانهما ، على الموقد . واخرج شمعتين من احد الادراج ، ووضعهما في الشمعدانين ، ثم اشعلهما ، على الرغم من ان الشمس ما زالت مشرقة ، فقد كان الفصل صيفا. اننا نرى المشاعل مضاءة في وضح النهار ، احيانا ، في الغرف التي يستلقي فيها الاموات .

كانت كلخطوة يخطوها فيالانتقالمن احد قطع الاثاث تضنيه، وكان مضطرا الى الجلوس . وكان احد الكراسي التي ارتمى فيها قائما امام تلك المرآة ، المشؤومة جدا بالنسبة اليه ، السماوية جدا بالنسبة الى ماريوس ، التي كان قد قرا فيها مذكرة كوزيت، مقلوبة على ورق النشاف . لقد راى نفسه في هذه المرآة ، فلم يعرف نفسه . كان في الثمانين . اما قبل زواج ماريوس فكان المرء لا يحسب انه في الخمسين الا بكثير من العسر. كانتهذه السنة بمثابة ثلاثين سنة. انما ران على جبينه الانلم يكن تغضن الشيخوخة،

ولكن امارة الموت الخفية . كان خداه غائرين ، وكانت بشرة وجهه ذات لون يوحي بأن الثرى قد علاها منذ الان .

كان الليل قد هبط . وفي كثير من العناء جر احدى الطاولات وذلك الكرسي العتيق ذا الذراعين الى مقربة من الموقد، ووضع على الطاولة ريشة، وحبرا، وورقا. حتى اذا تم له ذلك اصيب باغماء. وحين ثاب الى رشده ، شعر بظمأ . واذ عجز عن رفع آنية الماء ، فقد حناها نحو فمه ، في مشقة ، وشرب جرعـــة .

ثم التفت الى سريره، ونظر الى الثوب الاسود الصغير وجميع تلك الاشياء الاثيرة لديه . وفجأة ارتعد ، واستشعر ان البرد قد اصابه . وانحنى فوق الطاولة المضاءة بشمعداني الاسقف ، وامسك الريشة .

وارتعشت يده . وفي بطء ، خط الاسطر القليلة التالية :

« كوزيت ، اني اباركك . سوف اقدم اليك تفسيرا . لقد كان زوجك على حق في اشعاري بأن علي ان انصرف. ومع ذلك فأن ثمة بعض الخطأ في ما ذهب اليه، ولكنه كان على حق. انه ممتاز. وحين اموت ، احبيه دائما حبــا جما . اسمعي جيدا ، ان هذا المال هو لك حقا. وهذه هي القصة كاملة: ان الكهرمان الابيض يجيء من نروج ، والكهرمان الاســود يجيء مــن انكلترا ، وتقليدهما الزجاجي الاسود يجيء من المانيا . والكهرمان اخف ، وانفس ، واغلى. وفي استطاعتنا ان نقلده في فرنسة كما يقلدونه في المانيا. وكان الشمع يصنع في ما مضى من صمغ الصنوبر وسواد الدخان، وكانت الاوقية تكلف اربعة فرنكات . وقد تراءى لي ان اصنعه من زجاج بنفسجي نلصقه بواسطة هذا الشمع بقطعة صغيرة مدورة من حديد اسود . والزجاج يجب ان يكون بنفسجيا للحلى الحديدية ، واسود للحلى الذهبية . واسبانية تشتري مقادير كبيرة منها . تلك هي بلاد الكهرمان . . . »

وهنا كف عن الكتابة، وسقطت الريشة من بين اصابعه. وهتف في ذات نفسه: «اوه! قضي الامر. انا لن اراها بعد اليوم. انها ابتسامة عبرت فوقي. سوف ادخل في الظلام من غير ان اراها مجرد رؤية، كرة اخرى. اوه! دقيقة! لحظة! لكي اسمع صوتها ، لكي المس ثوبها ، لكي انظر اليها ، هي، الملاك! وبعد ذلك اموت. ليس الموت شيئا ذا بال، ولكن الشيء الرهيب ان اموت من غير ان اراها».

وفي تلك اللحظة خفق شخص الباب .

٣

وفي ذلك المساء نفسه حين اوى ماريوس الى مكتبه قدم اليه باسك رسالة وقال : «أن الشخص الذي كتب هذه الرسالة هو في غرفة الانتظار » .

كانت كوزيت قد تأبطت ذراع جدها ، وراحت تتجول في الحديقة .

وتناول ماريوس الرسالة . كانت رائحة التبغ تفوح منها . وليس ثمة ما يوقظ الذكريات مثل الرائحة . وعرف ماريوس هذا التبغ . ونظر الى العنوان : « سيدي ، السيد البارون بونميرسي . في قصره » . وقادته معرفة التبغ الى ان يعرف الخط . وكسر الختم في لهفة ، وقرا :

«سيدي البارون ، لو ان الكائن الاسمى اعطاني المواهب لذلك، اذن لكان من الجائز ان اكون البارون تينار ، عضو الاكاديمية الفرنسية، ولكني لست كذلك. انا احمل الاسم نفسه ليس غير ، واني اكون سعيدا اذا ما كان في هذه الذكرى ما يدخلني رحاب جودك . والمنة التي ستشرفني بها سوف تكون متبادلة. انا املك سرا يتصل بشخص ما. وهذا الشخص يهمك. واني لاحتفظ بالسر واضعا اياه بتصرفك، راغبا في ان اتشرف بان اكون ذا فائدة لك . سوف اقدم اليك الوسيلة البسيطة لكي تطرد من اسرتك النبيلة ذلك الشخص الذي لا حق له فيها ، باعتبار ان السيدة البارونة ذات محتد رفيع . ان هيكل الفضيلة لا يستطيع ان يؤوي الجريمة اكثر مما فعل من غير ان يتخلى عن مكانته . انا انتظر في غرفة الانتظار اوامر سيدي البارون ...

مع الاحترام »

وكانت الرسالة موقعة هكذا : « تينـــار » .

وكان انفعال ماريوس عميقا . فبعد شعور المفاجأة استحـوذ عليـه شعور بالسعادة . لقد وجد احد الرجلين اللذين كان يبحث عنهما .

وفتح احد ادراج مكتبه ، واخرج بعض الاوراق النقديـة ، ووضعها في جيوبه ، واغلق درج المكتب ، وقرع الجرس . وفتح الباب نصف فتحة. وقال : « ادخلـه » .

ودخـل رجـل .

مفاجأة اخرى لماريوس . كان الرجل الذي دخل مجهولا عنده بالكلية .

وكان هذا الرجل العجوز ذا انف ضخم ، وذقن ملتصقة برباط رقبته، ونظارتين خضراوين ، وشعر مصقول ومملس. كان شعره اشيب، وكانت ثيابه سوداء كلها ، من اعلى الرأس الى اخمص القدمين ، وكانـت تلـك الثياب بالية ، ولكنها نظيفة .

ولفت نظر ماريوس ان ثوب هذا الرجل فضفاض اكثر مما ينبغي ، على الرغم من انه مزور في عناية . لقد بدا وكأنه لم يجعل له اصلا .

ولو ان ماريوس كان على معرفة بمؤسسات باريس الخفية اذن لتبين في الحال، على ظهر الزائر الذي ادخله باسك اللحظة عليه، سترة رجل دولة مستعارة

من محل من تلك المحلات التي تعير الالبسة الخاصة بكلمهنة الىمن يطلبها.
وانقلبت خيبة امل ماريوس الى كراهية للوافد الجديد . واجال بصره فيه من اعلى الراس الى اخمص القدم،وسأله في نبرة حادة : «ماذا تريد؟»
واجاب الرجل في تكشيرة انيسة: «يبدو ليمن المستحيل ان لا اكون قد حظيت حتى الان بشرفرؤية سيدي البارون فيالمجتمع.انا اعتقد فيالواقع اني لقيته على نحو خصوصي منذ بضع سنوات في قصر السيدة الاميرة باغراسيون ، وصالونات صاحب السمو الفيكونت دامبري » .
واصغى ماريوس الى صوت هذا الرجل . وترصد نبرته واشاراته في لهفة ، ولكن خيبة امله تعاظمت . كان لفظا اخن ، مختلفا كل الاختلاف عن الصوت الحاد الجاف الذي توقعه . واخذه انشداه كامل .
وقال : « لست اعرف لا مدام باغراسيون ، ولا مسيو دامبري . انا لم لم اطأ طوال عمري بيت هذه او ذاك » .
كان الجواب فظا ، ولكن الشخص اصر ، رغم ذلك ، في لطف :
ـ « اذن فينبغي ان اكون قد رايت سيدي في بيت شاتوبريان ! »
ـ « انا لم اتشرف يوماً بزيارة شاتوبريان . اختصر ! ماذا تريد ؟ »
وتجاه الصوت الاشد قسوة ، انحنى الرجل انحناءة اكبر .
ـ « سيدي البارون، تنازل واصغ الي.ان فياميركة،فيمنطقة باناما، قرية تدعى لاجويا . وهذه القرية مؤلفة من بيت واحد . بيت ضخم ، مربع، ذي ثلاثة ادوار بنيت من لبن . انه بيت في النهار ، وقلعة في الليل . ثمانمئة نسمة ، تلك هي القرية . لم هذا الحذر كله ؟ لان تلك المنطقة خطرة ، انها ملأى باكلة لحوم البشر . واذن فلماذا يذهب الناس الى هناك ؟ لان تلك المنطقة رائعة ، الذهب موجود هناك » .
ـ « ما الذي جاء بك ؟ »
ـ « من اجل هذا ، يا سيدي البارون . انا ديبلوماسي عتيق مرهق . لقد استنفدتني الحضارة القديمة . انا احب ان اجرب المتوحشين » .
ـ « ثم مـاذا ؟ »
ـ « انا ارغب في الذهاب الى « لاجويا » والاستقرار فيها . انا فـي حاجة الى شيء من المال » .
فسأله ماريوس : « وما علاقتي انا بذلك ؟ »
ـ « اذن فسيدي البارون لم يقرأ رسالتي ؟ سوف اشرح لك . ان عندي سرا اريد ان ابيعك اياه » .
ـ « سر ؟ سر يتصل بي ؟ »

ـ « بعض الشيء » .
ـ « ماذا هـذا السر ؟ »
فقال الرجل المجهول:«سوف ابدأ بالمجان.سوف ترىان حديثي ممتع».
ـ « تكلـــم » .
ـ « سيدي البارون ، ان في بيتك لصاً وسفاحا » .
وارتعد ماريوس . وقال : « في بيتي ؟ لا » .
ومسح الرجل الغريب قبعته بردنه ، وتابع كلامه رابط الجأش :
« سفاح ولص . انتبه ، يا سيدي ، الى اني لا اتحدث هنا عن وقائع قديمة يمكن ان تسقط بمرور الزمن في نظر القانون، او بالتوبة في نظرالله. انا اتحدث عن وقائع حديثة ، عن وقائع فعلية ، وقائع تجهلها العدالة حتى هذه الساعة . ان هذا الرجل قد تسلل الى اسرتك تحت اسـم زائف . سوف اقول لك اسمه الحقيقي . وسوف اقوله لك لقاء لا شيء » .
ـ « انــا مصغ اليك » .
ـ « ان اسمه جان فالجان » .
ـ « اعــرف ذلــك » .
ـ « وسوف اقول لك ، لقاء لا شيء ايضا ، من هو » .
ـ « قـــل » .
ـ « انه اشغالي قديم » .
ـ « اعــرف ذلــك » .
ـ « أنت تعرف ذلك منذ كان لي شرف اعلامك به » .
ـ « لا ، انا اعرف ذلك من قبل » .
واستأنف الرجل المجهول كلامه ، وهو يبتسم :
ـ « لست اسمح لنفسي ان اناقض سيدي البارون . وعلى اية حال ، ينبغي ان تكون حسن الاطلاع. والان، ان ما اريد ان اخبرك اياه لا يعرفه احد غيري . انه يتصل بثروة السيدة البارونة . انه سر استثنائي . سر للبيع . انا اقدمه اليك اولا . ثمن رخيص . عشرون الف فرنك » .
وقال ماريوس : « انا اعرف هذا السر كما اعرف بقية الاسرار » .
واستشعر الشخص الحاجة الى ان يخفض سعره قليلا .
ـ « سيدي ، قل عشرة الاف فرنك ، وعندئذ اتكلم » .
ـ « اكرر القول اني اعرف ما تريد اخباري اياه » .
ـ « ومع ذلك ، فينبغي ان اتعشى اليوم . انه سر استثنائي ، اقول لك . سيدي البارون ، سوف اتكلم . انا اتكلم . اعطني عشرين فرنكا » .

وثبت ماريوس نظراته عليه وقال : « انا اعرف سرك الاستثنائي ، تماما كما عرفت اسم جان فالجان ، وكما عرفت اسمك » .

ـ « اسمـي ؟ »

ـ « نعـم . »

ـ « هذا ليس عسيرا ، يا سيدي البارون . لقد تشرفت بكتابته اليك واعلامك به . تينار . »

ـ « ... دييه . »

ـ « ايـه ؟ »

ـ « تيناردييـه . »

ـ « مـن هـذا ؟ »

وتابع ماريوس : «وانت ايضا العامل جوندريت ، والكوميدي فابانتو ، والشاعر جانفلو ، والاسباني دون الفاريز ، والمراة باليزار . »

ـ « ايـة امـراة ؟ »

ـ « وكان عندك مطعم حقير في مونفيرماي . »

ـ « مطعم ؟ ابـدا . »

ـ « وانا اقول لك انـك تيناردييه . »

ـ « انا انكـر ذلك . »

ـ « وانك نذل . خذ . »

واخرج ماريوس ورقة مالية من جيبه ، وقذف بها في وجهه .

ـ « شكرا ! عفوا ! خمسمئة فرنك ! سيدي البارون ! »

وكرر في دهش:«خمسمئة فرنك جديد. حسن فليكن. فلنأخذراحتنا.» وفي رشاقة قرد خلعمحياهكما يخلعالمرء قبعته، رادا شعره الىوراء، وقال : « ان سيدي البارون معصوم عن الخطأ . انا تيناردييه . »

واستغرق ماريـوس فـي التفكير . لقد امسك اخر الامـر ، اذن ، بتيناردييه . هذا الرجل الذي طالما ود لو يعثر عليهمن جديدكان الان امامه. ان في ميسوره اذن ان ينفذ وصية الكولونيل بونميرسي . والى جانب هذا الواجب كان عليه واجب اخر: ان يلقي الضوء على مصدر ثروة كوزيت. لقد بدا وكأنه الفرصة قد سنحت لذلك.ومنيدري، فلعل تيناردييه يعرفشيئا ما . وقد يكون من المفيد سبر هذا الرجل حتى الاعماق ، وبدا من هنا .

لقد قطع ماريوس حبل الصمت وقال: « تيناردييه، لقد قلت لك اسمك. والان هل تريد مني ان اعلمك بسرك ، بذلك الذي جئت تخبرني به ؟ ان لي ايضا استعلاماتي . وسوف ترى اني اعرف عن ذلك اكثر مما تعرف انت .

ان جان فالجان كما قلت، سفاح ولص. لص، لانه سرق صناعيا غنيا ، مسيو مادلين، كان هو سبب افلاسه. وسفاح، لانه سفح دم ضابط الشرطة، جافير.»

ــ « مـــاذا تعني ؟ »

ــ « ان جافير انتحر . ومع ذلك فجان فالجان لص وسفاح . »

فقال ماريوس : « اتريد ان تتكلم عن تلك السرقة التافهة التي قام بها منذ اربعين سنة ، والتي كفرت عنها حياة كاملة من التوبة ، وانكار الـذات ، والفضيلـــة ؟ »

ــ « لقد قلت سرقة وقتلا . وانا اكرر اني اتكلم عن وقائع حقيقية . ان ما اريد ان اكشف لك النقاب عنه مجهول تماما . ان هذا السر يساوي كومة من الذهب . سيدي البارون ، في اليوم السادس من حزيران، ١٨٣٢ ، منذ سنة تقريبا ، وفي يوم الفتنة ، كان رجل في بالوعة باريس العظمى ، قرب مصب البالوعة في الـ « السين » ، بين جسر الانفاليد وجسر ايينا » .

وفجأة قرب ماريوس كرسيه الى كرسي تيناردييه. ولاحظ تيناردييه هذه الحركة،وتابع كلامه في تؤدة متحدث مسيطر على من يخاطبه، مستشعر خفقان قلب خصمه تحت كلماته:«كان هذا الرجل،المضطر الى اخفاء نفسه ، لاسباب لا صلة لها بالسياسة ، قد اتخذ من البالوعة مأوى له ، وكان يملك مفتاحا لها. ولعل الساعة كانت الثامنة مساء. وسمع الرجل صوتا في البالوعة، فاختبأ، وترصد. كان وقع خطى. ان شخصا كان يمشي في الظلام، ان شخصا كان يتقدم نحوه. شيء غريب، لقد كان ثمة في البالوعة شخص اخر غيره. ولم تكن شباكة منفذ البالوعة بعيدة. ومكنه الضوء الضئيل النافذ من خلالها من ان يتبين الوافد الجديد ، وان يرى انه كان يحمل على ظهره شيئا . لقد مشى محدودبا. وكان الرجل الماشي محدودبا رجلا حكم عليه سابقا بالأشغال الشاقة ، وكان ما يحمله على كتفيه جثة. قتل بالجرم المشهود، اذا كان ثمة شيء مثل ذلك. اما السرقة فتتبع طبعا. فالمرء لا يقتل رجلا من اجل لا شيء. وكان ذلك الاشغالي يعتزم ان يلقي الجثة في النهر. . سيدي البارون، البالوعة ليست الشان دو مارس. . ان المرء يعوزه كل شيء هناك ، حتى المجال. وحين يكون رجلان في البالوعة فلا بد لهما من ان يلتقيا. وهذا ما حدث. واضطر المقيم وعابر السبيل الى ان يتبادلا التحية، على كره منهما لذلك. وقال عابر السبيل للمقيم: «انت ترى ما احمله على ظهري. ان علي ان اخرج. ان معك المفتاح . اعطني » . وكان ذلك الاشغالي رجلا ذا قوة فظيعة . ولـم يكن الرفـض ممكنا. لقد عمد صاحب المفتاح الى المفاوضة ابتغاء كسب الوقت ليس غير . لقد فحص الرجل الميت ، ولكنه لم يستطع ان يرى شيئا، ما خلا انه كان شابا،

حسن البزة،غنيا على ما يظهر، مشوها بالدم تشويها كاملا. وفيما هو يتحدث وجد وسيلة الى ان يقطع وينتزع من وراء،دون ان يلحظ القاتل ذلك، جزءا من سترة القتيل. وثيقة مؤيدة للتهمة كما تعلم. وسيلة لتعقب آثار المسألة ، ولاقامة الدليل على جريمة المجرم . ووضع تلك الوثيقة في جيبه. وبعد ذلك فتح الشباكة الحديدية ، ومكن الرجل من الخروج والجثة على ظهره، واقفل الشباكة من جديد وفر، حريصا اقل الحرص على ان يتورط في بقية المغامرة، وغير راغب على الخصوص في ان يكون حاضرا حين يلقي القاتل القتيل في النهر . انت تفهم الان. ان ذلك الذي كان يحمل الجثة،هو جان فالجان. وذلك الذي كان يحمل المفتاح يخاطبك الان ، والقطعة المنتزعة من السترة ... »

وانهى تيناردييه العبارة بأن سحب من جيبه، ورفع الى مستوى عينيه بين ابهاميه وسبابتيه ، قطعة من جوخ اسود بال، مغطاة كلها ببقع داكنة .

ومن غير ان ينطق ماريوس بكلمة ، ومن غير ان يرفع عينيه عن هذه المزقة ، تراجع الى الجدار ، وبيده اليمنى الممدودة خلفه راح يلتمس الجدار باحثا عن مفتاح كان في قفل خزانة قائمة قرب الموقد . ووجد ذلك المفتاح، وفتح الخزانة ، واقحم ذراعه فيها من غير ان ينظر ، ومن غير ان يرفع عينيه المذعورتين عن المزقة التي كان تيناردييه يعرضها عرضا .

وفي غضون ذلك تابع تيناردييه كلامه: «سيدي البارون، ان عندي اقوى الاسباب للاعتقاد بأن القتيل الشاب كان غريبا مثريا استدرجه جان فالجان الى فخ ، وحاملا لمبلغ مالي ضخم » .

وهنا صاح ماريوس ، طارحا على السجادة سترة عتيقة سوداء ملطخة كلها بالدم : « هذا الشاب هو انا . وهذه هي السترة ! »

ثم انتزع المزقة من بين يدي تيناردييه ، وانحنى فوق السترة ، ووضع تلك الخرقة في المكان الممزق منها . وتلاءمت اطرافهما تلاؤما كاملا . ان المزقة قد اكملت السترة .

وتحجر تيناردييه وقد ادرك انه مني بهزيمة شنعاء .

ونهض ماريوس ، مرتعدا ، يائسا ، متألقا. وبحث في جيبه ، ومشى، هائجا، نحو تيناردييه، مقدما اليه،بل دافعا نحو وجهه تقريبا، قبضته الملأى بالاوراق المالية ذات الخمسمئة فرنك والالف فرنك وقال : «انت نذل! انت كذاب، مفتر، مجرم. لقد جئت تتهم هذا الرجل، فبرأته. اردت ان تحطمه فلم توفق الا الى تمجيده. وانما انت ، انت اللص ! وانما انت ، انت السفاح ! لقد رأيتك،يا تيناردييه، يا جوندريت، في ذلك الوكر الذي في «جادة المستشفى». انا اعرف عنك ما يكفي لارسالك الى سجن الاشغال الشاقة، بل الى ابعد من

ذلك ، اذا شئت . خذ ، هذه الف فرنك ، ايها المتحذلق الشقي ! »
وقذف بورقة الف فرنك الى تيناردييه .
ــ « آه جوندريت تيناردييه ، ايها النذل الخسيس ! ليكن ذلك درسا لك، ايها المتعيش بالاسرار، المتاجر بالخفايا ، الباحث في الظلام! وغدا! خذهذه الخمسمئة فرنك ، واترك هذا المكان . اذهب ! اغرب عن وجهي ! كن سعيدا بمفردك، هذا كل ما ارغب فيه. آه ! ايها المجرم ! لا يزال هناك ثلاثة الاف فرنك. خذها. سوف تسافر غدا الى اميركة. سوف اتدبر امر سفرك، ايها اللص ، ولسوف ادفع لك ، عندئذ ، عشرين الف فرنك . اذهب وعرض نفسك الشنق في مكان اخر » .
وخرج تيناردييه ، غير فاهم شيئا ، ذاهلا ومنتشيا بهذا الانسحاق العذب تحت اكياس الذهب وبهذه الصاعقة المنفجرة فوق رأسه اوراقا نقدية . وبعد يومين سافر الى اميركة حيث اصبح نخاسا ...
وما ان خرج تيناردييه ، حتى هرع ماريوس الى الحديقة حيث كانت كوزيت لا تزال تتمشى. وصاح: «كوزيت! تعالي، تعالي بسرعة . فلنذهب . باسك، ايتنا بعربة كراء ! كوزيت ، تعالي . اوه ، يا الهي ! انه هو الذي انقذ حياتي ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! ضعي شالك عليك » .
وفي لحظة ، كانت احدى عربات الكراء بالباب .
وقال ماريوس : « الى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ ، ايها السائق » .
وانطلقت العربة . وقالت كوزيت:«اوه! يا للسعادة!شارع الرجل المسلح! انا لم اجرؤ على ان احدثك عنه كرة اخرى. اننا سوف نرى مسيو جان » .
ــ «ابوك!كوزيت،ابوك اكثر منه في ايما وقت مضى. كوزيت، لقد حزرت لقد اخبرتني انك لم تتسلمي قط الرسالة التي وجهتها اليك مع غافروش. لا بد انها قد وقعت في يديه ، كوزيت، لقد مضى الى المتراس لكي ينقذني، لقد حملني على ظهره في تلك البالوعة الرهيبة . اوه ! انا كافر بالنعمة على نحو رهيب . كوزيت ، لقد كان هو العناية الالهية بالنسبة الي ، بعد ان كان العناية الالهية بالنسبة اليك . سوف نرجع به الى بيتنا ، سوف نصطحبه ، سواء ارضي ام لا ، ولن يتركنا بعد اليوم ابدا ؟ »

٤

وادار جان فالجان راسه لدن سماعه قرعا على باب غرفته .
وقال في وهن : « ادخل » .
وفتح الباب. وبرزت كوزيت وماريوس. واندفعت كوزيت الى الغرفة.

وظل ماريوس على العتبة ، متكئا على قائمة الباب .

ـ « كوزيـت ! »

قال جان فالجان ذلك، ونهض عن كرسيه، باسط الذراعين، مرتعدا ، ذاهلا ، شديد الشحوب ، كالح الوجه ، مفعم العينين بابتهاج عظيم .

وارتمت كوزيت على صدر جان فالجان . وقالت : « ابي ! »

وتمتم جان فالجان : « كوزيت ! هذا انت ! انت تغفرين لي اذن ! »

وخفض ماريوس جفنيه لكي يمنع دموعه من التحدر ، وتقدم خطوة ، وغمغم بين شفتيه المتقلصتين : « ابي ! »

فقال جان فالجان : « وانت تغفر لي ايضا ! »

وجلست كوزيت على ركبتي العجوز. وطبعت على جبينه قبلة. وقالت: «كيف اجزت لنفسك ان تفارقنا على هذه الصورة؟ إن رحلاتك في الايام السابقة ما كانت تستغرق اكثر من ثلاثة ايام او اربعة ايام . لقد ارسلت نيقوليت ، فكان الجواب دائما : انه غير موجود . آه ، يا للاب الحبيب ! لقد كان مريضا، ونحن لا نعرف ذلك ! ماريوس ، المس يده ، ما اشد برودتها ! »

وكرر جان فالجان: «اذن فانت هنا؟ ايها السيد بونميرسي، انك تغفر لي!»

وعند هذه الكلمات، التي كان جان فالجان قد اعادها للمرة الثانية، تفجر كل ما فاض في قلب ماريوس فقال: «كوزيت، هل تسمعين؟ ذلك شأنه دائما ! انه يلتمس عفوي ، وهل تعلمين اي خدمة اسداها لي ، يا كوزيت ؟ لقد انقذ حياتي! لقد اعطاني اياك، يا كوزيت، ما الذي فعله بنفسه؟ لقد ضحى بنفسه. هو ذا الرجل! وهو يقول لي، انا الكافر بالجميل، انا الكثير النسيان، انا العديم الرحمة ، انا المجرم ـ يقول لي : شكرا ! كوزيت ، لو انفقت حياتي كلها على قدمي هذا الرجل لكان ذلك اقل مما ينبغي. لقد اجتاز ذلك المتراس ، تلك البالوعة ، ذلك الاتون ، ذلك المستنقع ، بل اجتاز كل شيء من اجلي ، مـن اجلك يا كوزيت ! لقد حملني عبر ضروب الموت كلها ، التي ازاحها عنـي وارتضاها لنفسه . انه يتحلى بالشجاعات كلها ، بالفضائل كلها ، بالبطولات كلها ، بالقداسات كلها . كوزيت ، ان هذا الرجل ملاك ! »

ـ « صه ! صه ! لماذا تقول هذا كله ؟ »

فهتف ماريوس في غضب مشوب بالاجلال: «ولكن انت ! لماذا لم تبح بذلك؟ انها غلطتك ايضا. انت تنقذ حيوات الناس وتخفي ذلك عنهم! آه! يا الهي! حين افكر اني لم اعرف هذا كله الا مصادفة! سوف نصحبك معنا. انت جزء منا . انت ابوها وابي . انك لن تقضي يوما اخر في هذا المنزل الراعب » .

فقال جان فالجان : « غدا لن اكون هنا ، ولكني لن اكون في بيتكم ».

واسكت كوزيت بيدي العجوز كلتيهما بيديها. وقالت : «يا الهي! لقد امست يداك ابرد مما كانتا . هل انت مريض ؟ هل تحس بألم ؟ »
فاجان جان فالجان:«لا. انا في حال جيدة جدا. ولسوف اموت في الحال».
وارتعدت كوزيت وماريوس . وصاح ماريوس : « تموت !..»
فقال جان فالجان : « اجل ، ولكن هذا ليس شيئا ذا بال » .
وتنفس، وابتسم، وتابع: «كوزيت انت تتحدثين الي، تابعي، تحدثي من جديد ! لقد ماتت عصفورتك الصغيرة اذن ؟ تكلمي ، دعيني اسمع صوتك !»
وحدق ماريوس ، وقد تحجر ، الى الرجل العجوز .
واطلقت كوزيت صيحة ثاقبة : « ابي ! ابي ! سوف تحيا . لا بد ان تحيا . سأجعلك تحيا ، اسامع انت ! »
ورفع جان فالجان راسه، نحوها ، في تقديس وقال: «آه، اجل، حظري علي الموت. من يدري ؟ لعلي اطيع. لقد كنت على عتبة الموت حين جئت . ولقد حال ذلك بيني وبين الموت . لقد بدا لي اني ولدت من جديد » .
فهتف ماريوس : « انت مفعم بالقوة والحياة . اتحسب أن النـــاس يموتون على هذه الصورة ؟ لقد الم بك حزن ، ولكنك لن تعرف الحزن بعد اليوم . انك سوف تحيا ، وتحيا طويلا » .
وظل جان فالجان يبتسم .
ـ « اذا ارجعتني معك ، ايها السيد بونميرسي، فهل يجعلني ذلك غير ما انا ؟ لا. لقد فكر الله كما فكرت انت وفكرت انا، وهو لم يغير رايه. من الخير ان امضي لسبيلي. الموت تسوية جيدة. الله يعرف حاجاتنا اكثر مما نعرفها نحن . ما اطيب زوجك ، يا كوزيت ! انك معه اسعد منك معي » .
وسمع صوت لدى الباب . كان الطبيب قد اقبل .
وقال جان فالجان: «مرحبا ايها الطبيب، ووداعا. ها هما ولداي المسكينان»
واقترب ماريوس من الطبيب . ووجـــه اليه هـــذه الكلمة المفردة : « سيدي ؟.. » ولكن كان في طريقة تلفظه بها سؤال كامل .
واجاب الطبيب عن السؤال بنظرة معبرة .
وجس نبض جان فالجان . وغمغم ، ناظرا الى كوزيـــت وماريوس : « آه ، انكما انتما اللذان كان في امس الحاجة اليهما » .
ثم انحنى فوق اذن ماريوس ، واضاف في صوت خفيض جدا : « لقد فـــات الأوان » .
والقى جان فالجان على الطبيب وماريوس ، من غير ان يكف عن التطلع الى كوزيت تقريبا ، نظرة تنضح بالصفاء. وسمعا هذه الكلمات، التي ما تكاد

تبين، تخرج من بين شفتيه: «الموت ليس شيئا. الشيء الرهيب هو ان لا تعيش» .
وفجأة نهض . ان رجعات القوة هذه تكون احيانا امارة الاحتضار .
ومضى في خطى ثابتة الى الجدار ، مزيحا من طريقه ماريوس والطبيب اللذين حاولا مساعدته ، ونزع عن الجدار الصليب النحاسي الصغير ــ وعليه جسد المسيح ــ المعلق هناك ، وعاد ، وجلس ، وقال في صوت مرتفع ، واضعا المصلوب على الطاولة : « هو ذا الشهيد العظيم » .
ثم غار صدره ، وترنح راسه ، وكأنما استبد به دوار القبر ، وشرع ينشب ظفره ــ ويداه على ركبتيه ــ في قماش بنطلونه .
واسندت كوزيت كتفيه ، وانتحبت ، وحاولت ان تخاطبه ، ولكنها لم تستطع . كان في ميسور المرء ان يتبين ، بين الكلمات المزوجة بذلك الرضاب الفاجع الذي يصاحب الدموع ، جملا مثل هذه : « ابي! لا تتركنا. امكن ان نكون قد وجدناك ثانية لكي نفقدك نهائيا ؟ »
واستجمع جان فالجان قواه ، بعد شبه الاغماء هذا ، وهز جبينه وكأنه كان يبغي ان يطرح الظلمات ، واستعاد صفاءه ، او كاد ، استعادة كاملة . وامسك بطرف ردنها ، وقبله .
وصاح ماريوس: «انه يعود الى الحياة! ايها الطبيب، انه يعود الى الحياة!»
ــ « ان كلا منكما لكريم . سوف اقول لكما ما الذي آلمني . ان الذي آلمني ايها السيد بونميرسي، انك كنت راغبا عن مس ذلك المال. ان ذلك المال، هو ملك لزوجتك حقا . سوف اشرح الامر لكما يا ولدي ، ومن اجل ذلك انا سعيد بان اراكما . ان الكهرمان الاسود يجيء من انكلترة ، وان الكهرمان الابيض يجيء من نروج . وكل ذلك تجدانه في الورقة التي تريانها هناك ، والتي سوف تقرآنها . انا اعطيكما هذه التفاصيل حتى تطمئن نفساكما » .
كانت البوابة قد ارتقت السلم . وراحت تنظر من خلال الباب نصف المفتوح . وامرها الطبيب بالابتعاد ، ولكنه لم يستطع ان يمنع تلك المراة الطيبة الغيور من ان تخاطب الرجل المحتضر بصوت عال ، قبل مغادرتها المكان : « هل تريد كاهنا ؟ »
فاجاب جان فالجان : « عندي كاهن » .
وبدا يومىء باصبعه الى نقطة فوق راسه حيث كان في امكانك ان تقول انه راى شخصا ما .
لعل الاسقف كان يشهد احتضاره حقا .
وفي لطف ، وضعت كوزيت وسادة تحت ظهره .
واستأنف جان فالجان حديثه: «ايها السيد بونميرسي ، لا تخف ، انا

اقسم لك . ان الفرنكات الستمئة الف هي ملك كوزيت حقا . واني اكون قد خسرت حياتي اذا لم تستمتع بها ! لقد نجحنا نجاحا كبيرا في صناعة الخرز هذه . لقد نافسنا ما يدعى حلي برلين . والواقع ، ان الزجاج الالماني الاسود لا يمكن ان يقارن ببضاعتنا . »

ومن لحظة الى اخرى ، كان جان فالجان يزداد وهناً على وهن . كان يتلاشى ، كان يقترب من الافق المظلم . كان تنفسه قد امسى متقطعا ، ان حشرجة ضئيلة اعترضته . ووجد صعوبة في تحريك معصمه ، وكانت قدماه ، قد فقدتا القدرة على القيام بايما حركة . ولحظة تضاعف عجز اوصاله وخور جسده ارتفع جلال الروح كله وتجلى على جبينه . كان ضياء العالم المجهول قد اضحى منظورا في عينيه .

وشحب وجهه ، وابتسم في آن معا. لم يعد ثمة حياة ، كان ثمة شيء اخر. وتلاشى نفسه، وتعاظمت نظرته. كانت جثة تستشعر ان لها جناحين.

واومأ الى كوزيت بان تقترب ، ثم الى ماريوس . كان واضحا انها الدقيقة الاخيرة من الساعة الاخيرة ، وشرع يخاطبهما في صوت واهن الى درجة جعلته يبدو وكأنه ينبعث من مكان بعيد ، حتى لقد يخيل الى المرء ان جدارا كان قد انتصب منذ اللحظة بينه وبينهما .

ــ « اقتربا اكثر ، اقتربا اكثر ، كلاكما . انا احبكما حبا جما . اوه ! جميل ان يموت المرء هكذا! انت ضياء ، انت تحبينني يا كوزيت. لقد عرفت جيدا انه كان لا يزال عندك بعض الحب لصاحبك العجوز . انتما سوف تبكيان علي قليلا ، اليس كذلك ؟ ولكن ليس اكثر مما ينبغي. انا لا اريد ان يلم بكما ايما اسى عميق . يجب ان تستمتعا بالحياة اكثر . لقد كنت اكتب ، منذ لحظات، الى كوزيت. سوف تجدان رسالتي. اني اوصي لها بالشمعدانين اللذين على الموقد. انهما من فضة، ولكنهما عندي من ذهب ، بل من الماس. انهما يحولان الشموع التي توضع فيهما الى شموع مقدسة. انا لا ادري ما اذا كان ذلك الذي منحني اياهما راضيا عني في الاعالي. لقد عملت على قدر طاقتي. يا ولدي، انتما لن تنسيا اني رجل فقير، ولسوف تدفنانني في اقرب زاوية من الارض تحت حجر يعين الموضع. تلك هي وصيتي. ولا تنقشا اي اسم على الحجر . واذا ما زارتني كوزيت قليلا في بعض الاحيان كان ذلك مبعث سرور لي. وانت ايضا ، ايها السيد بونميرسي. يجب ان اعترف باني لم احبك دائما . انا اسألك العفو . والان ، هي وانت لا تعدوان ان تكونا شخصا واحدا في نظري. انا عظيم الاعتراف بجميلك . انا اشعر انك تسعد كوزيت. لو كنت تعرف، ايها السيد بونميرسي، لقد كانت وجنتاها الورديتان

الجميلتان هما بهجتي. كنت احزن اذا رايتها شاحبة بعض الشيء. ان في الخزانة ورقة مالية ذات خمسمئة فرنك. انا لم امسها. انها للفقراء. كوزيت، هل ترين ثوبك الصغير، هناك على السرير ؟ هل تعرفينه ؟ ومع ذلك، فقد كان هذا من عشرة اعوام ليس غير. ما اسرع ما تمر الايام! كنا سعيدين جدا. لقد قضي الامر. يا ولدي، لا تبكيا، انا لست ذاهبا الى مكان بعيد جدا. سوف اراكما من هناك. وليس عليكما الا انتنظرا حين يهبط الليل، وعندئذ تجدانني ابتسم. كوزيت، هل تتذكرين مونفيرماي ؟ كنت في الغابة، كنت خائفة جدا. هل تذكرين يوم اخذت مقبض الدلو المليء ماء ؟ كانت تلك اول مرة لمست فيها يدك الصغيرة البائسة. كانت باردة جدا ! آه، كانت لـك يدان حمراوان في تلك الايام، ايتها الانسة، اما اليوم فيداك شديدتا البياض. لقد كان تيناردييه وزوجته شريرين. يجب ان نغفر لهما. كوزيت، لقد آن الاوان لاخباركم باسم امك. كانت اسمها فانتين. تذكري هذا الاسم: فانتين. اركعي على ركبتيك كلما لفظته شفتاك. لقد تالمت كثيرا. لقد تجرعت كأس التعاسة مترعة كما تجرعت كأس السعادة مترعة. هكذا يقسم الله الاشياء بين الناس. انه في الاعالي، انه يرانا جميعا، وهو يعرف ما يعمله وسط كواكبه العظمى. واذن، فسوف ارحل، يا ولدي. تحابا دائما أعظم الحب. فليس في العالم شيء تقريبا، غير المحبة، ولسوف تفكران احيانا في الرجل العجوز البائس الـذي مات هنا. قربا راسيكما العزيزين المحبوبين لكي اضع يدي فوقهمـــا. »

وخر ماريــوس وكوزيت على الارض راكعين، مصعوقين، تخنقهمـا العبرات، وامسك كـل منهما باحدى يدي جان فالجـان. كانت هاتـان اليدان الجليلتان قد فقدتا الحركة بالكلية.

كان قد انكفأ الى وراء، وكان نور الشمعدانين يضيء وجهه، وكـان وجهه الابيض ذاك ينظر الى السماء. وترك كوزيت وماريوس يغمران يديه بالقبـلات، لقد مـات.

كان الليل عاطلا من النجوم، وكان دامسا. وليس من ريب في ان ملاكا عظيما ما، كان واقفا في الظلمة، باسط الجناحين، ينتظر تلك النفس.

٥

في جبانة «بير لاشيز»، في جوار مقبرة الفقراء والمجهولين، بعيدا عن الحي الانيق من مدينة القبور تلك، بعيدا عن جميع تلك الاضرحة الغريبة التي تعرض في حضرة الابدية ازياء الموت الرهيبة في زاوية مهجورة، في محاذاة جدار

عتيق ، تحت نبتة طيبة الرائحة ضخمة يتسلق عليها اللبلاب ، بين الحمض والطحالب ــ في تلك الجبانة كان حجر. وهذا الحجر لم يعد بريئا ــ اكثر من غيره ــ من جذام الدهر، والعفن ، والاشننة ، وذرق الطيور . وهو غير قريب من ايما مجاز او ممر ، والناس لا يحبون ان يذهبوا الى تلك البقعة، لان العشب مرتفع ، ولان اقدام المرء تبلل هناك في الحال . وحين تلقي الشمس بعض اشعتها ، تنطلق الحراذين . ان ثمة ، حول البقعة كلها ، حفيف شوفان بري . وفي الربيع ، تغرد الطيور في الشجرة .

وهذا الحجر عار عن اي زخرف . فلم يفكر ، عند اعداده ، الا في حاجات القبر الضرورية ، ولم يعن بغير جعل هذا الحجر كافيا ، من حيث الطول والعرض ، لتغطية رجل .

ولم يكن ثمة اسم ما .

بيد ان يدا خطت على ذلك الحجر بقلم الرصاص ــ منذ عدة سنوات ــ هذه الابيات التي انتهت تدريجيا الى ان تصبح غير مقروءة ، تحت المطر والغبار ، والتي امحت اليوم في اغلب الظن .

انه يرقد . وعلى الرغم من ان القدر كان بالنسبة
اليه غريبا جدا ،
فقد عاش . لقد مات عندما فقد ملاكه .
ان الامر يحدث ببساطة ، من تلقاء نفسه
كما يهبط الليل حين يولي النهار .

تمت

فهرست

القسم الرابع : قصيدة شارع بلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز

القسم الخامس : جان فالجان

اذا اردت قراءة النص غير المختصر لرواية « البؤساء » فاطلب الترجمة الكاملة لهذه الرواية العالمية الخالدة ، وهي تقع في خمسة مجلدات مجموع صفحاتها الفان وخمسمئة صفحة كبيرة . وهي مجلدة تجليداً فاخراً ، وقد نقلها الى العربيـة الاستاذ منير البعلبكي ايضاً .

بادر الى الاحتفاظ بنسختك من هذه التحفة الادبيـة الخالدة ، لان عدد النسخ محدود .

دار العلم للملايين